فضائل القرآن

مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

فضائل القرآن

مجموعة خطابات

لسيدنا مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام

تعريب: عبد المجيد عامر

ISLAM INTERNATIONAL PUBLICATIONS LTD

اسم الكتاب: فضائل القرآن

الطبعة الأولى: ١٤٤٦هـ الموافق لـ ٢٠٢٤م

An Arabic rendering of
Fazaa'ilul-Quran (Urdu)
(Excellences of the Holy Quran)
Lectures by:
Hazrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad
(may Allah be pleased with him)

Translated from Urdu by: Abdul Majeed Amir

First Published in UK in 2024

Published by:
Islam International Publications Ltd.
Unit 3, Bourne Mill Business Park,
Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS
United Kingdom

Printed in Turkey by Elma Basim

For further information please contact:
Phone: +44 1252 891330
Fax: +44 1252821796
www.islamahmadiyya.net

ISBN:978- 1-84880-391-6

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم نَحْمَدُهُ وَنُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ الكَرِيمِ

مقدمة الناشر

نضع بين يدي القارئ العربي الكريم ترجمة كتاب "فضائل القرآن"، وهو درَّة يتيمة في بيان مزايا القرآن قلما تجود بمثلها الأفهام، وقد بيّنها سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، نجل المسيح الموعود عليه السلام وخليفته الثاني. ومما يجدر بالذكر أن هذا التأليف الجليل في بيان محاسن الكتاب الكريم، هو في أصله مجموعة خطابات ألقاها حضرته رضي الله عنه في الجلسات السنوية للجماعة الإسلامية الأحمدية في قاديان دار الأمان، وبلغ عددها ستة خطابات أُلقِيَت تِبَاعًا في ست جلسات سنوية في قاديان بالهند، منها خمسة خطابات على التوالي خلال الفترة من ١٩٢٨-١٩٣٢م، ثم الخطاب السادس في عام ١٩٣٦م.

أُلقِيَ أول تلك الخطابات في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر من عام ١٩٢٨م، وأصَّل فيه سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه لفضل القرآن الكريم على سائر الكتب الموحاة من الله عز وجل والتي سبقته نزولا، وضمَّن خطابه ردودًا مُفحِمة على اعتراضات المستشرقين المغرضين الذين لم يدخروا وسعا للنيل من صدق الإسلام وصدق النبي العدنان صلى الله عليه وسلم، أو على الأقل الطعن في مبدأ كون القرآن الكريم نصًّا قطعي الثبوت، وأنه محفوظ حفظا تاما لا تشوبه شائبة نقص أو اختلاف أو إهمال. كما وتحدث حضرته رضي الله عنه في هذا الخطاب عن عدم اكتراث المسلمين بما يثيره المستشرقون المسيحيون من شبهات ضد القرآن الكريم، فبلور في خطابه هذا مجموعة من النقاط التي ينبغي أن يضعها كل مسلم في حسبانه حال تدبُّر القرآن. وسيتضح للقارئ اللبيب أن هذا الفصل يجيب على تساؤلات عفوية طالما عنَّت وتعنُّ لقارئ القرآن ومتدبره، نحو: أي ضرورة دعت لنزول القرآن؟! وكيف نزل؟! وإذا كان قد

نزل ودوِّن كله على عهد النبي ﷺ، فما قصة جمعه وحفظه؟! ثم ما علاقته بما سبقه من كتب موحاة من الله تعالى؟! وما معنى تصديقه إياها؟! وغير ذلك من التساؤلات التي لا تزال مثار جدل بين المسلمين وغير المسلمين إلى هذه الساعة.

والخطاب الثاني ألقاه حضرته رضي الله عنه في العام التالي، بتاريخ التاسع والعشرين من ديسمبر من عام ١٩٢٩م، وضمَّنه حضرته رضي الله عنه المسوغات والإثباتات العقليَّة والنقليَّة التي تثبت أفضلية القرآن الكريم على الكتب السابقة، كما ضمَّن حضرته رضي الله عنه هذا الخطاب دقائق تفسيرية عديدة، نحو معنى التعليم بالقلم، وقصة ذي النون، وغير ذلك.

أما الخطاب الثالث على التوالي، فألقاه المصلح الموعود رضي الله عنه في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣٠م، وتناول فيه حضرته رضي الله عنه قضية فضل القرآن وكمال تعاليمه من منظور اقتصادي واجتماعي. وأفرد حضرته رضي الله عنه في الجانب الاقتصادي صفحات عديدة للحديث عن الصدقات، عقد خلالها مقارنة بين التعاليم القرآنية عن الصدقة وتعاليم التوراة والإنجيل وحتى الفيدا أيضا. وضُمِّنت في هذه الصفحات دقائق تفسيرية كثيرة وردت في ثنايا الخطاب، فأضفت عليه رونَقًا، وجمالا فوق جمال!

وفي هذا الخطاب نفسه تطرَّق حضرته رضي الله عنه لقضية العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة، أي الزواج، فصحح سوء الفهم الناشئ عن قول الكتاب المقدس بخَلْقِ حواء من ضلع آدم، وتحدث عن إحدى غايات الدين، ألا وهي تكميل الإنسانية، الأمر الذي لا يتأتى إلا باجتماع عنصريها، وهما الرجل والمرأة، فالدين الذي يُبقي كلا منهما بمعزل عن الآخر هو في الواقع دين يقطع دابر الإنسانية.

أما الخطاب الرابع، والذي أُلقي في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣١م، فقد ناقش فيه حضرته رضي الله عنه الدليل على كون القرآن الكريم أعظم الكتب الإلهامية قاطبةً، وتطرق خلال هذا الخطاب إلى الحديث عن كتاب سيدنا المسيح الموعود

عليه السلام ذائع الصيت، أي "البراهين الأحمدية على حقيّة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية"، بوصفه مقدمة لا بد منها لفهم وتفسير القرآن الكريم. كما أتْبعَ المؤلف في هذا الخطاب حديثه عن تفوُّق القرآن على ما سواه من كُتب موحاة بحديث ماتع عن سيرة سيدنا خاتم النبيين ﷺ، بوصفها تجسيدا لعظمة ذلك الكتاب، تجلى في جمال سيرة الإنسان الذي تلقَّاه وحيا، مفنِّدًا بذلك اعتراضات تسعة يثيرها خصوم الإسلام بغية تشويه صورة وسيرة نبيّه ﷺ الطاهرة.

والخطاب الخامس على التوالي، ألقاه حضرته رضي الله عنه في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣٢م، وواصل فيه الحديث عن أفضلية القرآن الكريم على الكتب السابقة، وضمَّنَه نبوءات من خلوا من النبيين (عليهم السلام) عن بعثة سيدنا محمد ﷺ، ثم حُزمة من الإصلاحات العقائدية التي أحدثها القرآن الكريم منذ نزوله.

أما الخطاب السادس والأخير، فقد ألقاه سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه بعد انقطاع دام قرابة أربع سنوات، إذ ألقاه حضرته في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣٦م، مضمِّنًا إياه الحديث عن مجيء معاني الكلام الإلهامي عموما، والقرآن خصوصًا، في حُلل المجاز والاستعارات، الأمر الذي تلقَّته الأفهام غير الناضجة على حرفيته، فضلَّت سواء السبيل. ففي هذا الخطاب يرسم حضرته رضي الله عنه خريطة الخروج من متاهة سوء الاعتقاد الناشئ عن الفهم الحرفي للكلام الإلهامي السامي، وهذا بحد ذاته إصلاح عقائدي هام من الإصلاحات التي انفرد القرآن الكريم بإجرائها.

ومما يجدر بالتكرير للتذكير أن الكتابة في فضائل القرآن وخصائصه كانت مشروعًا بدأه المسيح الموعود عليه السلام في "البراهين الأحمدية"، إذ ذكر أنه سيشرع في بيان ثلاثمائة دليل على حقِّيَّة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية، وبتأمُّل المصلح الموعود رضي الله عنه في هذا الأمر توصَّل إلى إمكانية بيان تلك الأدلة الثلاثمائة فعلا، وأنَّه بإمكان كلِّ امرئٍ أن يشرح البراهين الأحمدية بقدر ما يؤتيه الله عز وجل من فهم واستفاضة من معارف

المسيح الموعود عليه السلام الروحانية، فمن ثم يمكن عدّ كتاب "فضائل القرآن" للمصلح الموعود رضي الله عنه تتمة لمسيرة "البراهين الأحمدية" التي بدأها سيدنا المسيح الموعود عليه السلام، حتى إنه كان في نية سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه أن يُجعل حديثه عن "فضائل القرآن" مقدمة لترجمة معاني القرآن الكريم.

لقد حظي بشرف نقل هذه الدرة الثمينة إلى العربية الأستاذ عبد المجيد عامر، فجزاه الله عن جميع الناطقين بالضاد خيرا. وشارك في مراجعة الترجمة وإخراجها الإخوة من المكتب العربي والإخوة العرب ولاسيما السادة الأفاضل المهندس خالد عزام، وغسان النقيب، والدكتور وسام البراقي، وجمال أغزول، وحلمي مرمر، وسامح مصطفى، وأمة الخبير لبنى الجابي. ندعو الله تعالى أن يجزيهم ويجزي كل من اشترك بسهم في إخراج هذا المجلد خير ما يجزي به عباده الصالحين.

نسأل الله المولى الكريم عز وجل أن يجد كل راغب في تدبر القرآن الكريم في هذا السِّفر العظيم ضالته التي تسعد بها روحه في الدارين، آمين.

الناشر

فضائل القرآن (١)

أفضلية القرآن الكريم
على الكتب الإلهامية السابقة
والرد على اعتراضات المستشرقين

(خطاب أُلقي في ١٩٢٨/١٢/٢٨م
بمناسبة الجلسة السنوية في قاديان)

قال ﷺ بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة:

إن تأطير قانون الله الجاري في الطبيعة ضمن حدود، أو السعي لتحديده يفوق قدرة البشر وينافي الأدب. عندما تراكمت السحب اليوم قُرب صلاة الجمعة وبدأ المطر يهطل بغزارة وددتُ مع شعوري بالضعف واعتلال الصحة أن تنتهي الجلسة بالدعاء مع الإخوة جميعا على الأقل. الحق أن قدرات الله واسعة جدا ولكن الإنسان يضطرب ويقلق بسرعة. فعندما لم يتوقف المطر عن الهطول كتبتُ عبارة وقلتُ للإخوة أن يجعلوا منها نُسخا كثيرة ويوصلوها إلى مساكن الضيوف فورا. كانت العبارة تتلخص في: ما دام مستحيلا لجميع الإخوة أن يجتمعوا في مكان واحد

بسبب المطر لذا سأدعو في الساعة الخامسة والربع، وعلى الإخوة أن يشاركوني في الدعاء وهم في أماكنهم. ولكن كان من فضل الله تعالى أن توقف المطر حين كانت العبارة قيد النسخ، فقلتُ للناسخين إن الله تعالى قد أحدث أمرا آخر فلا حاجة لنسخها الآن.

بعض الأمور المبدئية لتدبُّر معاني القرآن

إنني متأسف لعدم قدرتي على بيان الموضوع الذي اخترتُه ليكون موضوع خطابي في هذه الجلسة. والسبب وراء ذلك هو أنه حتى لو لخّصتُه في أقصر وقت ممكن لاستغرق خمس أو ست ساعات على الأقل، ولا يمكن إطالة الخطاب الآن بهذا القدر بسبب سوء حالة الطقس وبسبب ضعفي بشكل عام. كنتُ قد اخترتُ هذا الموضوع للجلسة لأنه يتعلق بالقرآن الكريم، وكان في بالي، إذا حالفتني رحمة الله تعالى، أن يُجعل مقدمة لترجمة معاني القرآن الكريم التي ننشرها في المستقبل، وكنتُ أنوي أن أبيّن جزءا من هذه المضامين في الخطاب بمناسبة الجلسة وأحرّر البقية بنفسي. ولأن بيان هذا الموضوع بالتفصيل مستحيل الآن لذا سأبيّن اليوم بإيجاز ما هي المضامين التي يجب التأمل فيها عند تدبّر القرآن الكريم وتقديمه أمام العالم، وما هو حجم مساعٍ يبذلها النصارى وغير المسلمين الآخرين ضد الإسلام والقرآن الكريم، وأن أبيّن مدى إهمال المسلمين هذا الموضوع وعدم مبالاتهم به! فأرى أنه يجب التأمل في الأمور التالية عند تدبُّر القرآن.

(١) ضرورة القرآن

عندما نزل القرآن الكريم هل كان العالم حينئذ بحاجة إلى كتاب موحى به أم لا؟ لأنه ما لم يثبت بأن شيئا نزل بحسب مقتضى الأمر لا يمكن نسبته إلى الله تعالى. يقول كثير من الناس إنه عندما نزل القرآن الكريم كانت حالة الناس سيئة جدا. ولكن سوء حالة الناس لا يوجب نزول كتاب من الله حتما. فترون أن المسيح الموعود عليه السلام جاء حين كانت حالة الناس العملية فاسدة جدا، ولكن هل جاء عليه السلام بكتاب؟

كلا! إذن، إن سوء حالة الناس وانتشار الفساد والفتنة لا يكفي دليلا على حاجة ذلك العصر إلى القرآن الكريم، ولا يكفي القول بأن عادات سيئة كانت قد تطرقت إلى العرب مثل وَأْدهم البنات وزواجهم من زوجة الأب. إن أكثر ما يثبت من ذلك هو أن العرب كانوا بحاجة إلى كتاب، ولا يثبت أن العالم كله كان بحاجة إليه. كما أن حالة بني إسرائيل كانت متدهورة جدا في زمن موسى وعيسى عليهما السلام ولكن هذا لا يعني أنهما جاءا إلى العالم كله. ما يجب علينا إثباته هو أن الكتب الدينية كلها كانت قد فسدت لدرجة لم تعُد كافية في حد ذاتها لإقناع العالم. لذا فلا بُد لإثبات ضرورة نزول القرآن الكريم من إثبات الفساد في الكتب السابقة.

(٢) كيف نزل وحي القرآن

لا بد من إلقاء الضوء على كيفية نزول وحي القرآن الكريم لأن كيفية نزول الوحي أيضا تبيّن صدقه إلى حدّ كبير. فمثلا عند البحث في هذا الموضوع سوف ينشأ سؤال: هل توحي ماهية الذي نزل عليه هذا الوحي بخلل ما في ذهنه -والعياذ بالله- عند نزول الوحي عليه؟ هناك عشرات الناس الذين يقولون بأنهم تلقّوا إلهاما كذا وكذا، وهم لا يكذبون بل يكون هناك خلل في دماغهم. ذات مرة جاء إلى المسيح الموعود عليه السلام شخص وقال بأنه يتلقى الإلهام. لزم المسيح الموعود عليه السلام الصمت بسماع كلامه. قال الرجل: عندما أسجد يقول الله لي: أُسجدْ على العرش، ويقول أيضا: أنتَ محمد، أنت عيسى وموسى. فقال عليه السلام: عندما يقول الله لك بأنك محمد فهل تُعطى أيضا جمالا مثل جمال محمد ﷺ وجلالا مثل جلاله؟ وهل تُكشَف عليك علوم القرآن الكريم أيضا؟ قال الرجل: لا. قال عليه السلام: إذن، لا يرفعك الله إلى العرش بل الشيطان يغويك. فلو كان الله قد رفعك إلى السماء وجعلك محمدا ﷺ لأعطاك قدرات أيضا مثل قدراته ﷺ في اتّباعه.

إذن، عند البحث في نزول وحي القرآن الكريم سوف ينشأ سؤال: هل الذي نزل عليه الكلام مجنون أو هل في عقله خلل؟

(٣) البحث في جمع القرآن

السؤال الثالث الذي يواجهنا عند تدبّر القرآن الكريم هو: كيف جُمع القرآن؟ السؤال الذي ينشأ بصورة طبيعية هو أن الكتاب الذي قدِّم أمام العالم، هل هو كما أراده منزِّله؟ فإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن تنكشف مشيئة منزِّله بصورة صحيحة عند التأمل فيه. أما إذا تطرّق إليه خلل أو عيب فهذا يعني أن هدف منزِّله قد حبط، لذا لا حاجة للتوجّه إليه. لقد بذل الأوروبيون قصارى جهودهم لإثبات أن القرآن الكريم لم يُجمع على وجه صحيح، فيقولون بأنه لا ترتيب في عباراته بل جُمعت الأمور المختلفة عشوائيا.

(٤) حفظ القرآن الكريم

الأمر الرابع الذي يجب إثباته هو أن القرآن ما زال محفوظا إلى يومنا هذا. فلو أثبتنا أنه قد جُمع كما شاء مقدِّمُه، ثم إذا قيل إلى جانب ذلك إنه قد تطرقت إليه بعض الأشياء الإضافية أو حُذفت منه أشياء، سيكون معنى ذلك أن الكتاب لم يعُد في حالته الأصلية فلا يمكنه أن يعطي الفائدة المتوخاة، ولا يمكن أن يكون هديا كاملا للعالم. لقد أخرج المؤرخون النصارى كل ما كان في جعبتهم في هذا المجال وسعوا جاهدين ليُثبتوا أن القرآن ليس محفوظا.

(٥) علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة

السؤال الخامس الذي يجب إمعان النظر فيه هو: ما علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة؟ هل يصدّقها أم لا؟ وإذا كان يصدّقها فكيف؟ هل يقبل صدقها بصورتها الحالية أو يقول بأنها نزلت صحيحة بداية ولكنها فسدت الآن؟ لقد حاول المستشرقون كثيرا للإثبات أن القرآن الكريم يقبل صحتها بصورتها الحالية، ويقصدون من ذلك أنه ما دام القرآن الكريم يقبلها صحيحة بصورتها الحالية لذا فإن اختلاف القرآن معها لن يكون في محله. لقد ألّف السير وليام ميور كتابا حول هذا الموضوع واستنتج فيه أن القرآن الكريم يقبل صحة الكتب السابقة.

(٦) هل تصدّق الكتبُ السابقةُ القرآنَ الكريم

السؤال السادس هو أن هذا الكتاب العظيم الذي يدّعي أنه جاء للعالم كله، هل تصدّقه الكتب السابقة أم لا؟ وهل ورد ذكر القرآن الكريم في الكتب السابقة أم لا؟ ليعلم الناس أنه جاء بحسبما أُخبر عنه في الكتب السابقة.

(٧) محاسن القرآن الكريم الإضافية مقارنة مع الكتب السابقة

السؤال السابع الذي سينشأ مع السؤال السابق فورا هو: ما الذي جاء به القرآن الكريم أكثر من الكتب السابقة؟ فإما يجب أن يقول بأن الكتب السابقة كلها كاذبة لذا أُنزِلتُ، ولكن إن قال بصحتها أيضا ففي هذه الحالة يجب الإثبات أن القرآن يقدم مزايا إضافية، وإلا لن تتحقق ضرورة نزوله. إذن، لا بد من الإثبات أيضا أن القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى كلها.

(٨) ترتيب القرآن

ثم ينشأ سؤال: هل رُوعي ترتيب معين في القرآن الكريم؟ أي هل يحتوي على ترتيب معين من حيث المعاني؟ يقول المستشرقون إنه لا ترتيب فيه بل هو كلام غير مترابط تماما. والغريب في الأمر أن العلماء المسلمين أيضا قبلوا عدم وجود الترتيب في القرآن، والعياذ بالله. ولكن ثبوت عدم الترتيب في كتاب هجوم شديد عليه. وإذا كان فيه ترتيب فينشأ اعتراض أن ترتيبه الحالي ليس بحسب ترتيب نزوله إذ قد أُخِّرت الآيات السابقة نزولا وقُدِّمت المتأخرة منها نزولا. فمثلا نزلت سورة العلق في البداية ولكنها وُضعت في أواخر القرآن، ونزلت سورة الفاتحة متأخرة بينما وُضعت في بدايته. كذلك قدِّمت بعض الآيات وأُخِّرت غيرها. نزلت بعض الآيات في مكة ولكنها وُضعت في السور المدنية، والعكس صحيح. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا كان ترتيب القرآن مطلوبا فلماذا لم يُجمع بحسب ترتيبه النزولي؟ وإذا كان الترتيب الحالي صحيحا فلماذا لم ينزل بحسبه؟

هذا سؤال مهم أثاره المستشرقون، وقد حلّلتُه مبدئيا بفضل الله تعالى بأسلوب سيفهمه كل عاقل.

(٩) بحث الناسخ والمنسوخ

ثم هناك قضية النسخ في القرآن، وهي مما أثاره المسلمون أنفسهم لأنهم يعتقدون أن بعض آيات القرآن الكريم منسوخة وقد نسختْها بعض الآيات الأخرى أو الأحاديثُ بمعنى أنها تُقرأ ولكن لا يُعمَل بها. يقول المستشرقون حول هذا الموضوع بأن قضية الناسخ والمنسوخ اختُرعت بسبب وجود تعارض صريح في القرآن، ولما لم يجد المسلمون تبريرا لإزالة التعارض عدُّوا بعض الآيات المتعارضة فيما بينها ناسخة والأخرى منسوخة.

(١٠) الهدف من نزول القرآن وتحققه

ثم هناك سؤال آخر: هل حقق القرآنُ الكريم هدفا ينزل الدين من أجله؟ لا يمكن لكتاب ديني أن يكون مفيدا إلا إذا حقق هدفا يجب عليه تحقيقه. الكتب التي يحسبها الناس موحى بها يُثبتون ضرورتها أيضا، ويقولون إنه كان هناك ضرورة كذا وكذا لنزول الكتاب من الله. والسؤال هو: هل يحقق القرآن الكريم أم لا الضرورة التي نزل من أجلها؟ وإذا كان يحققها فهو كتاب الله وإلا فلا.

(١١) تعليم يطابق الفطرة البشرية

يدّعي القرآن الكريم أنه يطابق فطرة كل شريحة وفئة من الناس. والسؤال الذي ينشأ هنا هو: هل يتحلى تعليم القرآن بمزية أن أُميًّا أيضا يستطيع الاستفادة منه حقيقة، وإذا قرأه عالم فهو أيضا يستطيع الاستفادة منه؟ إذا كان الأمر كذلك فيمكن أن يُعدّ هذا الكتاب من الله تعالى.

(١٢) مبادئ فهم القرآن

ثم هناك سؤال آخر يواجهنا وهو: ما هي المبادئ لفهم القرآن الكريم؟ لا شك أن هناك مفتاحا لفهم كل كتاب والاستفادة منه، فما هي المبادئ لفهم القرآن

الكريم؟ بمعنى أن على القرآن الكريم أن يبيّن مبادئ التفسير أيضا ليفهمه كل إنسان بقدر عقله وفهمه.

(١٣) بأيّ معنى يصدّق القرآن الكريم الكتبَ السابقة؟

ثم هناك سؤال آخر وهو: يقول بعض الناس بأن القرآن الكريم يصدّق الكتب السابقة لأنه نقَل منها، لذا فقد قيل إنه مصدِّقها لتفادي تهمة النقل منها. نقول: لا شك إن القرآن يصدّقها ولكنه يقول ما يتنافى معها أيضا. لذا يجب علينا أن نثبت ماذا نقل القرآن من الكتب السابقة وما أهمله. وهل أضاف شيئا عند النقل منها أم اختلف معها؟ فلماذا نقبل صحةَ ما يقوله القرآن الكريم والحالة هذه؟

(١٤) الهدف من بيان الأحداث الماضية

ثم هناك سؤال ينشأ عن الأحداث الماضية وهو: ما الهدف من بيانها؟ هل القرآن كتاب القصص والأساطير؟ قال الكفار في عهد رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام: ٢٦).

(١٥) حقيقة الأقسام

إن السؤال: لماذا أُقسم في القرآن الكريم؟ هذا السؤال أيضا يثير الشبهات، إذ يبدو من الأقسام أن محمدا ﷺ اختلق الكلام بنفسه ولكنه نسي أنه يعُدّه كلام الله فبدأ يُقسم. فلإزالة الشبهات من هذا القبيل لا بد من البيان أن الأقسام ترِد في كلام الله أيضا، كما لا بد من بيان الهدف منها.

(١٦) بحث المعجزات

ويقال أيضا بأن القرآن الكريم يشدد مرارا على أن إظهار المعجزة ليس بيد الرسول بل الله يُريها متى ما يشاء، والسبب وراء هذا القول هو عدم إحراج محمد ﷺ نفسه. ففي هذا الشأن يجب الإثبات أن القرآن الكريم كله مجموعة من المعجزات.

(١٧) لا تعارض بين قول الله وفعله

كذلك يقال عن القرآن الكريم بأنه يبيّن ما يخالف العلوم العلمانية والطبيعية. ولما لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين قول الله وفعله فلا بد من الإثبات أن كلامه لا يعارض أيّ فعل من أفعاله، وفيه حقائق لم يعلمها الذين خلَوا لذا كانت تُعَدّ منافية للعلوم الطبيعية، أما الآن فقد اعتُرف بصحتها.

(١٨) كمالات القرآن الكريم الروحانية

ينبغي الإثبات أيضا ما هي الكمالات في القرآن الكريم، وما هي المدارج الروحانية العليا التي جاء القرآن الكريم ليوصل الإنسان إليها؟

(١٩) الكلام المشرِّع الأخير

يجب الإثبات أيضا أن القرآن الكريم هو الكلام المشرّع الأخير. يقول الناس بأنكم ما دمتم تؤمنون بأن الكلام ظلّ ينزل من الله دائما فلماذا انقطع الكلام المشرّع الآن؟ لذا لا بد من الإثبات أنه لا حاجة الآن إلى أيّ كلام مشرّع.

(٢٠) السبب في اختيار اللغة العربية

كذلك لا بد من البحث: لماذا اختيرت اللغة العربية للقرآن الكريم؟ ولماذا لم تُختَر الفارسية أو السنسكريتية أو أي لغة أخرى؟

(٢١) الرد المبدئي على عيوب التعاليم السابقة وبيان المبدأ السليم

ما دام القرآن الكريم قد جاء للعالم كله وهو ينوب مناب التعاليم الدينية السابقة كلها فلا بد من الإثبات أيضا أنه قد عدّل عيوب التعاليم السابقة مبدئيا وأحلّ محلها مبادئ صحيحة.

(٢٢) الأدلة على صدق القرآن الكريم

كذلك يجب تقديم الأدلة على صدق القرآن الكريم ونزوله من الله تعالى.

(٢٣) تأثيرات القرآن الكريم

يجب مناقشة تأثيرات القرآن الكريم أيضا.

(٢٤) حل المتشابهات

كذلك لا بد من حل المتشابهات. يقول القرآن إن فيه آيات متشابهات، ولكنه لم يحددها، وما لم نعلمها بالتحديد فإننا مضطرون لنعُدّ القرآن كله متشابها. لقد أكرمني الله بهذا الشأن بعلم، بحيث لا يصعب على من كان يملك قليلا من العلم أن يطّلع على المتشابهات، وأن الآيات المتشابهات تشكّل دليلا قويا على صدق القرآن الكريم.

(٢٥) حل المقطّعات

لا بد من مناقشة الحروف المقطّعات أيضا وبيان هدفها والغرض منها.

(٢٦) ما المراد من القراءات السبع

ما المراد مما يقال بأن للقرآن سبع قراءات؟ هذا البحث أيضا ضروري.

(٢٧) مسألة خلق القرآن

ما نسبة كلام الله بعلمه؟ لقد أُجريت في هذا الموضوع بحوث طويلة وقد عُذّب بعض من العلماء الكبار بسبب مسألة "خلق القرآن"، وقد أنهك الخليفةُ العباسيُّ الإمامَ أحمد بن حنبل بالضرب والتعذيب حتى لفظ أنفاسه. إذن، إن البحث في قضية خَلْق القرآن ضروري للعثور على طبيعة علاقة كلام الله به ﷻ.

(٢٨) القرآن الكريم كتاب حيّ

لا بد من البحث أيضا أن القرآن الكريم كتاب حيّ. البيان عن تحقُّق نبوءات وردت في كتاب معين لا يكفي دليلا على كونه حيا. إن بعضا من نبوءات التوراة والإنجيل أيضا لا تزال تتحقق، ولكن هذين الكتابين لا يحققان الهدف الذي نزلا من أجله. ولكن الهدف الذي نزل القرآن الكريم من أجله لا يزال يتحقق اليوم أيضا.

(٢٩) ما هي العلوم التي ذكرها القرآن الكريم

لا بد أيضا من بيان العلوم التي ذكرها القرآن الكريم. أيْ السؤال هو: ما مدى علاقة الدين مع البحوث الأخرى؟ وهل الدين يشمل الأخلاق والسياسة والتمدن وما شابهها من الأمور أم لا؟

(٣٠) القرآن ذو المعارف

لا بد من البحث أيضا أن القرآن الكريم ذو المعارف، وهذه مزيته وليس عيبه أن تكون لآية واحدة عدة معانٍ.

(٣١) القرآن كتاب كامل

ينبغي البحث في أن القرآن الكريم كتاب كامل، ولا حاجة الآن إلى أيّ كتاب سماوي آخر، ولكن مع ذلك هناك حاجة إلى السنّة والحديث، وهذا لا يعيب كمال القرآن الكريم شيئا.

(٣٢) فصاحة القرآن الكريم

ما معنى ادعاء القرآن الفصاحة، وما معنى كونه عديم النظير، ولماذا لا يمكن لأحد أن يأتي بنظيره؟

(٣٣) مقارنة القرآن الكريم مع الكتب الأخرى الإلهامية

لا بد من مقارنة القرآن الكريم مع الكتب الإلهامية الأخرى.

(٣٤) قانون روحاني ومادي وحضاري وسياسي لا نظير له

يجب البحث أيضا إجمالا أن القرآن الكريم قانون روحاني ومادي وحضاري وسياسي لا نظير له.

(٣٥) الاستعارات في القرآن الكريم

لماذا وردت في القرآن الكريم استعارات؟ وما حاجتها؟ هذا السؤال أيضا يقتضي حلا.

(٣٦) ضرورة تراجم معاني القرآن

يجب البحث لماذا يجب نشرُ القرآن الكريم مع ترجمة معانيه؟

(٣٧) وسائل حفظ القرآن

يجب النقاش حول ادعاء حفظ القرآن الكريم، وما هي الوسائل التي اختيرت لهذا الغرض؟

(٣٨) لماذا سُمّي القرآن شعرا

قال الناس في ذلك العصر إن القرآن كلام شاعر، وقد فنّد القرآنُ[١] قولهم هذا، فما معنى ذلك؟ أي ما هو مفهوم الشعر بحسب القرآن؟ وعندما يقول الله تعالى بأن القرآن ليس بقول شاعر، فما معنى ذلك؟

(٣٩) لماذا نزل القرآن على مكث

لا بد من البحث أيضا لماذا أُنزل القرآن رويدا رويدا، ولماذا لم يُنزَّل جملة واحدة؟

(٤٠) لا يمكن لترجمةٍ لمعاني القرآن أن تحيط بجميع مضامينه

يجب الإثبات أيضا أن ترجمة معاني القرآن لا يمكن أن تحيط بكافة مضامينه.

(٤١) كلمات القرآن كلها موحى بها

ينبغي البحث أيضا هل كلمات القرآن الحالية هي الكلمات نفسها التي أنزلها الله تعالى أم أملاه محمد رسول الله ﷺ بالكلمات التي خطرت بباله؟ يبذل المستشرقون أقصى جهودهم لإثبات الحالة الثانية. والسبب في ذلك عائد إلى أنه ما دام هناك اختلاف في نُسخ الإنجيل المختلفة فيقولون بأن الكلمات ليست موحى بها بل المفهوم مبني على الوحي، فلا ضير إذا كان هناك اختلاف في الكلمات. يُروى أن ذَنَب قردٍ قُطع فجمع القردُ المقطوع الذنَبِ القرودَ كلها واقترح عليها أنه ينبغي أن يُقطع ذنَب كل واحد، ثم سرد عدة مضرات للذنَب. فاستعدّت كثير من القرود

---

[١] الحاقة: ٤٢

لتُقطع أذيالها. ولكن قام قرد عجوز وقال: الذي يحث على قطع الذنَب يجب أن يُرينا أولا هل له ذنَب أم لا. فإذا كان ذنَبه مقطوعا سلفا فهذا يعني أنه يريد أن يصبح كل واحد منا مثله. هذا هو حال المستشرقين. فما دام الاختلاف موجودا في أناجيلهم يريدون أن يثبتوا عن القرآن أن كلماته ليست موحى بها.

(٤٢) القرآن منـزَّه تماما عن كلام الشيطان

هذا السؤال أيضا مهم جدا، هل يمكن أن تشوب القرآن شائبة كلام الشيطان أم لا؟ لقد فسح المسلمون بأنفسهم مجالا لهذا الاعتراض لأنهم يقولون بأنه قد جرت على لسان النبي ﷺ -والعياذ بالله- بعض الجُمل الشيطانية وأخبره جبريل أنها ليست من الله. يقول المستشرقون بأنه ﷺ قال بعض الكلمات لإرضاء معارضيه ولكنه ندم عليها فيما بعد فقال بأنها قد نُسخت. فلا بد من إبطال هذا الاعتراض أيضا.

(٤٣) من خاطَبهم القرآن

هناك سؤال آخر أيضا: من هم المخاطبون بالقرآن؟ هل العرب وحدهم أو الناس في العالم كله؟ وهل خوطب العربُ وحدهم في البداية ثم خوطب غيرهم لاحقا أم خوطب الجميع منذ البداية؟

(٤٤) هل ينبغي ترجمة معاني القرآن حرفيا أم بلاغيا

يحب الناس عادة الترجمة الحرفية ولكن في هذه الحالة يمكن أن تُفهم العربية كلُغة ولا يُفهم المعنى. وذلك لأن الترجمة تُكتب تحت الكلمة العربية فيُعلم أن الكلمة تحت الكلمة العربية إنما هي ترجمة للكلمة العربية التي فوقها، ولكن لا يُفهم معنى الجملة الكاملة لأن هناك فرقا بين استخدام التعابير في لغتين. فمثلا هناك تعبير بالأردية يقول: "جلست عينُه" ومعناه ذهب بصره. ولكن لو ترجم أحد بالإنجليزية مثلا وقال: His eye had sat لكان واضحا أن الترجمة الحرفية على هذا النحو للتعبير المذكور لن يعطي المعنى المطلوب. الهدف من الترجمة هو إيضاح المعنى المراد لذا يجب أن تحقّق الترجمة هذا الهدفَ ولو اضطر المترجم إلى أن يغيّر التعبير في اللغة التي يترجم إليها.

فيجب مناقشة هذه الأسئلة في مقدمة القرآن الكريم وأنوي مناقشتها كلّها بإذن الله.

هجوم المستشرقين على القرآن الكريم

والآن أريد أن أوجّه أنظار الجماعة بأن خدمة القرآن الكريم خدمة مهمة جدا. إن أكثر ما تركّز عليه الأقوام الأوروبية هو أن يقللوا من أهمية القرآن الكريم. يقول "نولدكه" -كاتب ألماني معروف وعدو لدود للإسلام ويُعَدّ عالما كبيرا بالعربية في أوروبا- في الموسوعة البريطانية ما مفاده: لقد بذل الكتّاب الأوروبيون قصارى جهودهم للعثور على الأخطاء والعيوب في القرآن الكريم ولكنهم فشلوا في سعيهم هذا.[١] وبذلك اعترف أن الكتّاب الأوروبيون قد أخرجوا كل ما كان في جعبتهم ضد القرآن الكريم. ولكن أخطر محاولة ضده تلاحَظ في كتاب هو في يدي الآن وعنوانه: "صفحاتُ ثلاثِ نسخ قديمة للقرآن"، ألّفته امرأة حائزة على شهادة الدكتوراه، قالت فيه بأنها سافرت إلى مصر واشترت هنالك كتابا كانت عباراته منقولة عن كتب المسيحيين. ثم تقول بأنه عندما طُليت صفحات الكتاب ببعض المواد ظهرت من تحتها كلمات أخرى. تقول الدكتورة "منغانا" عن تلك الأوراق إنه قرآن قديم، ويتبين من معاينته أن هناك فرقا بينه وبين القرآن الموجود حاليا، وهذا يعني بكل صراحة أن القرآن قد حُرّف.

وتدلل على ذلك بأنه عندما كتب عثمان ﵁ القرآن أحرق نُسخه الأخرى كلها. ولما لم يكن أحد قادرا على نسخ ما ورد فيها، ألّف المسيحيون كتابا عن دينهم في الظاهر ولكنهم نسخوا فيه سرًّا قرآنا كان قد أُمر بحرقه. وقد ظهر الآن ذلك القرآن المكتوب سرًّا بوضع بعض المواد عليه.

هذه مكيدة خطيرة جدا إذ يُرُون ورقة قديمة لذلك الكتاب ويُرُون فيها عبارات قديمة وبواسطتها يخلقون شبهات مختلفة.

---

[1] The Encyclopaedia Britannica Vol 15 P 905 Published 1911

دجل المسيحيين

لقد أجريتُ بنفسي حول هذا الموضوع بحثا مفصّلا كنت أنوي بيانه اليوم ولكن لا أجد وقتا كافيا لبيانه كما أن الفرصة أيضا ليست مواتية إذ إن السحب متراكمة ولكني أسرد لكم طرفة حول هذا الموضوع، وهي أن الأوراق التي نُشرت في ذلك الكتاب باعتبارها أوراق القرآن القديم تُظهر خطأها بنفسها. فمثلا جاء في القرآن الكريم: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٩)، أما القرآن الذي كتبه المسيحيون فقد جاء فيه: "فآمنوا بالله ورسوله النبي الأُمّي الذي يؤمن بالله وكلمته واتَّبعه"... ويقولون بأن المراد من "الكلمة" هو عيسى عليه السلام، ويستنتجون أن رسول الله ﷺ كان تابعا لعيسى.

إذن، فقد نسجوا في الكتاب المذكور خططا زائفة كهذه. ولكن على الرغم من خططهم المذكورة فإن هذه الأمور تُظهر كذبهم. أولا: القرآن الذي يقدّمه المسيحيون ترتيبه مثل ترتيب القرآن الموجود حاليا تماما. إذن، فإن قولهم بأن ترتيب القرآن قد تغيّر في عهد عثمان رضي الله عنه قد بطُل بالقرآن نفسه الذي يقدّمونه.

هذا، وقد وردت في قرآنهم كلمات ليست عربية أصلا، فمثلا ورد فيه: "ايلم" بدلا من "العلم". وفي مكان آخر وقع خطأ يذكّرني بقصة معروفة عن سارق جاء فيها أن شخصا كان حديث العهد بالسرقة. وما لبث أن قام بالسرقة حتى وصلت الشرطة مكان السرقة للتحقيق في الموضوع فذهب السارق أيضا إلى ذلك المكان وبدأ يساعد الشرطة في التحقيق وقال: يبدو أن السارق جاء من هذا الجانب ثم تسوّر من هنا وذهب إلى هناك. فهم رجال الشرطة أن له دخلا حتما في السرقة فبدأوا يسألونه عن التفاصيل وساروا معه حيثما سار. وصل السارق بهم إلى باب في نهاية المطاف وقال: يبدو أن السارق خرج من هذا الباب وتعثّر هنالك، فسقطت الصرة داخل الغرفة وبقيتُ أنا خارجها. ففي أثناء الكلام خرجت من لسانه بغير قصد منه كلمة "أنا"، فقبضت عليه الشرطة فورا.

الحال نفسه ينطبق على هؤلاء القوم. لقد وردت في القرآن الكريم آية: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة: ٢٦). وضمير "ها" يعود هنا إلى الجنود، أما في قرآن المسيحيين فقد وردت كلمة "جُندا" بدلا من الجنود ولكن بقي ضمير "ها" على حاله ولم يغيروه. باختصار، هناك شهادات داخلية عديدة من هذا القبيل تفضح أخطاءهم ويبدو منها أن أحدا كتبه لخداع المسلمين وظل يرتكب فيه أخطاء مثل كتابة: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى﴾ باستبدال الحرف "ق" بـ "ك"، و: ﴿هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ بصورة "هُمُسُّفها". كذلك كتب كلمات كثيرة خاطئة مثل: "إنما ال ناسي" بدلا من ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ مع أن "ناسي" لا يعطي أيّ معنى قط. فيتبين من كل ذلك أن مسيحيا جاهلا لا يعرف العربية جلس لكتابة القرآن وراح يخطئ ويخطئ على هذا النحو.

والآن أتناول بعضا من اعتراضات المستشرقين على القرآن الكريم.

نزول القرآن الكريم منجّما

يقول المستشرقون بأنه يبدو مما يقال إن القرآن نزل منجمًا وأنه ليس كلام الله، إذ لم تكن لله حاجة إلى إنزاله منجّما لأنه يعلم الماضي والمستقبل كله. ولكن لما لا يكون الإنسان عالما بالظروف المستقبلية فلا يسعه أن يقول شيئا عن الأحداث المستقبلية. فكان رسول الله ﷺ يسرد في القرآن كل ما كان يواجهه من الظروف، لذا فهو كلامُه وليس كلام الله.

لقد تناول القرآن الكريم هذه القضية فيقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٣)، يتبين من ذلك بجلاء أن السؤال الذي خطر ببال النصارى الآن، قد أثاره الكفار في عهد رسول الله ﷺ وقالوا لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة. وقد ردّ الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كان من الحكمة أن ينزل كما نزل فعلا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي أن نزول القرآن منجّما ليس سببه ضعف في الله بل يُظهر عظمته ﷻ. ولكن السؤال الآن هو: كيف يثبت القلبُ نتيجة نزول القرآن منجّما؟ فأذكر بضعة أمور بهذا الشأن:

(١) لو نزل القرآن جملة واحدة وظل النبي ﷺ يستدل به باستمرار لما تقوّى القلب بقدر ما يتقوّى بنزول كلام الله عن أمر ما فورا. انظروا مثلا كم يكون النبي ﷺ يستمتع حين كان يقوم بعمل ثم ينزل الوحي عنه وكان الله يُظهر رضاه ومشيئته عن ذلك العمل! وأنّى لنا أن ننال تلك المتعة واللذة بالاجتهاد؟ كذلك كلما حدث حادث ونزل عنه على النبي ﷺ كلام الله الذي يتبين بواسطته أن هذا هو المراد من هذا الكلام. فلو طبّق النبي ﷺ تلك الآيات على حادث ما باجتهاده لما استمتع بقدر ما كان يستمتع ﷺ في حال نزول القرآن عنه.

(٢) القرآن الكريم مصداق: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بمعنى أن الكتاب الذي جاء للعالم كله كان حفظه أيضا ضروريا. فلو نزل القرآن الكريم كله جملة واحدة لما استطاع أن يحفظه إلا من نذر حياته كلها لهذا الغرض. ولكن بسبب نزوله رويدا رويدا استطاع كثير من الناس حفظه، وظلوا يحفظونه عن ظهر قلب إلى جانب أشغالهم الأخرى. وبذلك ثبت قلب النبي ﷺ على أن هذا الكتاب لن يضيع أبدا بل سيظل محفوظا. لهذا السبب وُجد في عهد النبي ﷺ أناس كثيرون حفظوا القرآن الكريم عن ظهر قلب، غير أن عدد الحفاظ حاليا قليل جدا مقارنة مع ذلك الوقت. والسبب في ذلك أن كثيرا من الناس كانوا يحفظون القرآن الكريم -بسبب نزوله منجّما- عن ظهر غيب بقدر ما كان ينزل.

(٣) الحكمة الثالثة في نزوله منجَّما هي أنه لو نزل جملة واحدة لاستحال أن يترسخ في قلوب الناس. عندما يُسلم هندوسي مثلا يرى المسلمين عاملين بأحكام الإسلام فلا يقلق ولا يرى العمل بها عبئا عليه. أما لو كتبنا لأحد كتابا وطلبنا منه أن يعمل به دون أن يكون أمامه نموذج لما تعلّم الناس العمل به ولو إلى مئة عام. فكان ضروريا لترسيخ تعليم القرآن أن يُنزَّل منجَّما، ليتعلم الناسُ العمل بأمر ثم ينزل أمرٌ ثانٍ ثم ثالث، وعلى هذا النحو يُطلب منهم العمل بالأوامر كلها.

(٤) لو نزل القرآن جملة واحدة لكان مع ذلك ضروريا أن يدوَّن بحسب ترتيبه الحالي. ولكن تدوينه بحسب الترتيب الحالي في ذلك الوقت كان خطيرا كخطورته لنا الآن لو دُوّن بحسب ترتيبه النزولي. لو جاءت الأحكام عن الصلوات والصيام في البداية قبل رسوخ النبوة لاستحال كليا فهْم الأوامر التي سبقت النبوة. إذن، كانت هناك حاجة إلى إثبات النبوّة أولا وأن يُثبت أنه ﷺ نبي صادق، ثم تأتي مرحلة الدعوة إلى العمل، وتعليم الأحكام من أجل العمل. ولكن هذا ليس ضروريا الآن إذ توجد الآن جماعة تؤمن بصدق رسول الله ﷺ. فالذي يدخل الإسلام الآن يدخله بعد الاقتناع بصدق محمد رسول الله ﷺ والاطلاع على مزايا الإسلام. فإن ترتيب القرآن الكريم الحالي هو الضروري. ولو أُنزل القرآن جملة واحدة لظهر العيب المذكور للعيان.

(٥) لو نزل القرآن جملة واحدة لما أمكنت الإشارة في آية إلى مضمون آية أخرى. فمثلا وردت في القرآن الكريم نبوءة أن الله تعالى سيُنقذ النبي ﷺ من مخالب الأعداء وسيوصله إلى غايته المتوخاة سالما غانما. فلو نزل القرآن جملة واحدة لما أمكن القول حين أوصله الله إلى المدينة: انظروا فقد أوصلته ﷺ إلى هنا منقذا إياه من براثن الأعداء، بل لأمكن قول ذلك فقط إذا كان جزء من القرآن قد نزل سلفا ووردت فيه نبوءة بإخراجه ﷺ من مكة بسلام، ثم ينزل الجزء الذي أُشير فيه إلى تحقّق تلك النبوءة.

(٦) هناك أمرٌ هام آخر في رأيي، وهو أنه كان مقدَّرا أن يُعترَض على القرآن الكريم أن قوما آخرين ساعدوا النبيَّ ﷺ على اختلاقه، فقد ورد ذكر هذا الاعتراض في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٥). فلو نزل القرآن جملة واحدة لأمكن للمعارضين القول بأن أحدا اختلق للنبي ﷺ هذا الكتاب. ولكن قدّر الله أن ينزل جزءٌ منه في مكة وجزءٌ في المدينة. وإذا قال أهل مكة إن شخصا آخر يختلقه له، فمن

كان يختلقه في المدينة؟ من المعلوم أن القرآن كان ينزل في المجلس أيضا، فمن كان يعلّمه هنالك؟ كذلك كان ينزل في السفر، فمن كان يصحبه في كل غزوة؟ لم يكن هناك أحد! باختصار، لقد نزل القرآن في الحِلّ والترحال، وليلا ونهارا، وفي مكة وفي المدينة، وفي المجلس والعزلة، وهذا يكفي ردّا على المعترضين أنه ما كان أحد من الناس يختلق القرآن للنبي ﷺ. أما لو نزل جملة واحدة بصورة كتاب لقيل بأن شخصا آخر دوّن كتابا وأعطاه النبيَّ ﷺ فيقرأه على الناس. ولكن لما كانت الآيات تنزل بحسب مقتضى المحل والمناسبة دائما فلم يكن لأحد أن يقول إن أحدا يفتريها بمقتضى كل مناسبة ومحل. إذن، إن نزول القرآن الكريم منجّما يُثبت مبدأ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

الاعتراضات على جمع القرآن

هناك اعتراض يوجَّه إلى جمع القرآن. والذين يقولون إن القرآن ليس محفوظا في حالته الأولية يقدمون تأييدا لادعائهم ما يلي:

(١) أنّى كان لمحمد (ﷺ) أن يحفظ القرآن عن ظهر غيب بصورة صحيحة نظرا إلى كثرة انشغاله وخوضه في الحروب والمساجلات؟

(٢) يقال بأن ذاكرة العرب كانت جيدة جدا ولكن هذا ليس صحيحا بل الصحيح هو أن ذاكرتهم لم تكن جيدة، وهذا واضح من الاختلاف في قصائد الشعراء السابقين. فهناك مَن يذكر أمرا بطريقة، والآخر يسرده بطريقة أخرى. فتبين من ذلك أن ذاكرة العرب لم تكن جيدة وإلا لما حدث الاختلاف.

(٣) لم يُكتب القرآن بكامله في عهد الرسول ﷺ. لو كان مكتوبا لما أُبدِي القلق عن ضياعه على إثر قتل الحفاظ.

(٤) لقد جاء في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر: ٩٢). يقول المعترضون إن هذا يوحي بأن جاعلي القرآن عضين كانوا موجودين في حياة الرسول ﷺ.

(٥) لما لم يكن رسول الله ﷺ متعلّما فكلّف الكُتَّاب لكتابة القرآن، وكانوا يكتبون ما يحلو لهم.

(٦) رُوي أن اختلافا كبيرا في قراءة القرآن الكريم حدث في عهد عثمان ﵁، وهذا يُثبت وجود الخلاف بين المسلمين بشأن القرآن الكريم.

(٧) لقد أحرق عثمان ﵁ نُسخ القرآن الكريم كلها التي كانت في عهد أبي بكر ﵁. وهذا يعني أنها كانت مختلفة عن القرآن الذي أملاه عثمان، وإلا لما أُحرقت.

(٨) الشاهد الوحيد على أصالة القرآن هو "زيد" الذي كان مكلّفًا بكتابته، فكيف يمكن الثقة به؟

(٩) إذا كانت نسخة القرآن الموجودة في عهد أبي بكر ﵁ صحيحة فماذا كانت الحاجة إلى إعادة كتابته في زمن عثمان ﵁؟ وهذا دليل على أن النُسخ المتداولة في عهد أبي بكر ﵁ عُدّت غير صحيحة.

(١٠) لقد اتُّهِم عثمان ﵁ أنه عندما تولى الخلافة كانت عدة نُسخ من القرآن موجودة ولكن عندما توفِّي ترك خلفه نسخة واحدة فقط. فتبين من ذلك أن النُسخ التي كان فيها اختلاف قد أُحرقت.

الرد على اعتراضات المعترضين

والآن أردّ على تلك الاعتراضات.

الاعتراض الأول هو: أنّى لرسول الله ﷺ أن يحفظ القرآن مع مشاغله الكثيرة والمساجلات؟ الجواب الوحيد على هذا السؤال هو أن تكذيب واقع الحال ليس ممكنا بأيّ حال. ما دام واقع الحال أنه ﷺ كان حافظ القرآن وظل يقرأه على الناس في الصلوات ليل نهار فكيف يمكن إنكاره؟ أذكر أن البروفيسور مارغوليث أثار ذات مرة هذا الاعتراض أمامي وقال: كيف استطاع - النبي ﷺ- أن يحفظ القرآن الكريم مع حجمه الكبير؟ قلتُ: لقد نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ، وكان مكلَّفا بإصلاح العالم كله، فكيف يُعقل ألا يحفظه، وقد حفظه ابني حين كان عمره أحد عشر عاما؟

وأضف إلى ذلك أن هناك مئات آلاف الناس الذين يحفظون القرآن كله عن ظهر غيب. فما دام هؤلاء الناس كلهم يستطيعون أن يحفظوه عن ظهر غيب فهل الذي نزل عليه القرآن هو الوحيد الذي لا يستطيع حفظه؟

يقول الاعتراض الثاني: إن ذاكرة العرب لم تكن جيدة لأنهم كانوا مختلفين فيما بينهم في القصائد القديمة. فأقول بهذا الشأن أولا إن الذين يثيرون هذا الاعتراض ينطبق عليهم مَثل النعامة، أي أنهم من ناحية يقولون بأن العرب كانوا يحفظون قصائد قديمة ولكن كانوا يختلفون فيها، ومن ناحية ثانية يقول مارغوليث أن القصائد لم تكن موجودة أصلا في الأزمنة الخالية بل قد اختُلقت فيما بعد ونُسبت إلى القدامى. أي اعترض المعترضون على الإسلام كيفما اتُّفق لهم وكما يحلو لهم. الحق أن ذاكرة العرب كانت جيدة، وقد رُوي بهذا الشأن أن ملكا أعلن ألا يأتي أمامه شاعر لا يحفظ مئة ألف بيت من الشعر. فجاء شاعر وقال: لقد جئتُ لمقابلة الملك، فقيل له بأنه يجب على كل من يريد مقابلته أن يكون حافظ مئة ألف بيت من الشعر. فقال: اسألوا الملك: هل يريد أن يسمع مئة ألف بيت من شعر الجاهلية أو من زمن الإسلام؟ وهل يريد أن يسمع أبيات النساء أو الرجال؟ فأنا جاهز لأُسمعه الأبيات من كل الأنواع المذكورة. سمع الملك ذلك وخرج فورا وقال: هل أنت الشاعر الفلاني؟ قال: نعم. قال الملك: لقد أعلنتُ ذلك لعلمي أنك لا تأتيني فخِلتُ لعلك ستأتي متحمسا بسماع هذا الإعلان. باختصار، لا يصح القول بأن ذاكرة العرب لم تكن جيدة. أما الاختلاف في القصائد فيجب التذكّر بهذا الشأن أن الأبيات التي كانوا يحفظونها ما كانوا يحفظونها حاسبين إياها من كتاب موحى به بل كانوا يستنبطون معانيها فقط، بينما كانوا يحفظون القرآن واثقين من أنه كلام الله فلم يقدِّموا حرفا منه ولم يؤخروه. هذا، والأبيات التي كانوا يحفظونها لم يحفظوها بالتتلمذ على أيدي الأساتذة بل إذا سمعوها من أحد حفظوها. وأضف إلى ذلك أن ليس كل شخص يقدر على أن يعلّم كلمات صحيحة تماما. ولكن يتبين من

تاريخ الإسلام أن قواعد معينة كانت محدّدة عن كتابة القرآن وحفظه، وكان هناك أربعة أشخاص مكلَّفين بحفظ القرآن. وكان يؤخذ الحذر والحيطة بعين الاعتبار بوجه خاص، لدرجة أن عليًّا ﵁ صحَّح ذات مرة لإمامٍ كان يقرأ القرآن في الصلاة ولكنه ﵁ مُنع من ذلك وقيل له بأنك لست مكلَّفا بهذا الأمر. باختصار، لقد رُوعي الحذر والحيطة بهذا الأمر لدرجة أنْ كلِّف به أربعة أشخاص مع أن آلاف الناس كانوا يحفظون القرآن، بينما لم يكن أحد مكلَّفا من قِبل الشعراء ليعلّمهم الأبيات. من كلَّفه امرؤ القيس ليعلّم الناسَ قصائده؟ أما فيما يتعلق بالقرآن فلا يزال الأمر ينتقل من أستاذ إلى أستاذ كابرا عن كابر.

ثالثا: الاعتراض الثالث الذي يثار هو أن القرآن لم يُكتب بكامله في عهد النبي ﷺ. وجوابه أن هذا ليس صحيحا. لقد كُتب القرآن كله في زمن النبي ﷺ حتما، كما جاء في رواية عثمان ﵁ أنه كلما كان ينزل شيء من القرآن كان النبي ﷺ يدعو الكُتّاب ويمليه عليهم ويأمرهم أن يضعوه في مكان كذا وكذا. فما دام ذلك ثابتا تاريخيا كان القول بأن القرآن لم يُكتب كاملا في زمن رسول الله ﷺ ليس إلا حمقا وغباوة. أما السؤال: لماذا كُتب في عهد أبي بكر ﵁؟ فجوابه أن القرآن لم يكن في دفّة واحدة في زمن النبي ﷺ كما هو الآن، فخطر ببال عمر ﵁ أن الناس قد يحسبون أن القرآن غير محفوظ فقال لأبي بكر ﵁: "إني أرى أن تأمر جمْع القرآن"؟ ولم يقل: أن تأمر بكتابته. فدعا أبو بكر زيدا رضي الله عنهما وقال له: "اجمَعْه" ولم يقل اُكتبه. باختصار، التعابير المذكورة توضّح بحد ذاتها أن السؤال المطروح حينذاك كان عن جمع القرآن لا عن كتابته.

رابعا: الاعتراض الرابع هو أنه قد ورد في القرآن عن بعض الناس: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾. فليكن معلوما بهذا الشأن أن هذا التعبير لا يعني أنهم كانوا يجزِّئون القرآن أجزاء بل معناه أن الله تعالى سينزّل على الكافرين عذابا مثلما أنزله على الذين يعملون ببعض أجزاء القرآن ولا يعملون ببعضها الآخر. يتبين من هذه الآية

بوضوح أن المذكورين في الآية هم الكفار والمنافقون. ولو استُنبط منه معنى أنهم يجزّئونه أجزاء لكان هذا المعنى أيضا مفيدا لنا لأن مفاده أن القرآن كان مجموعا سلفا لذلك كان الأعداء يسعون لجعله أجزاء. أي كان محفوظا عند المسلمين ولكن المنافقين كانوا يجدونه مجزّأً.

خامسا: أما ما يقال بأن رسول الله ﷺ كان غير متعلّم فكان الكتّاب يكتبون ما يحلو لهم، فجوابه أن الرسول ﷺ كان قد تنبّه لهذا الأمر سلفا وبيان ذلك أنه كلما نزل الوحي كان ﷺ يملي على الكاتب ويأمر أربعة أشخاص أن يحفظوه عن ظهر غيب، وبذلك كان بإمكان الحفاظ أن يصححوا خطأ الكاتب والعكس صحيح. لنفترض أن كاتبا كتب كلمة بصورة خاطئة، ولكن كيف كان ممكنا أن يتفق الحافظ مع ذلك الخطأ؟ فهكذا كان يُعثر على الخطأ فورا.

سادسا: وما يقال إن اختلافا كبيرا حدث في قراءة القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، فجوابه: لا يثبت من أي رواية صحيحة أن اختلافا قد حدث عن القرآن في عهد عثمان. بل قد ورد بكل وضوح أن الاختلاف كان في القراءة. وثابت من الأحاديث أن النبي ﷺ قرأ القرآن على سبع قراءات. لما كان لفظ بعض الكلمات صعبا على بعض الأقوام لذا كان رسول الله ﷺ يُخبَر وحيا أن قراءة تلك الكلمات بطريقة كذا وكذا أيضا ممكنة. فقد جاء في الروايات بهذا الشأن عن عليّ أن عثمان رضي الله عنهما دعاه وقال بأن الناس من قبائل مختلفة يقولون بأن قراءتهم هي الصحيحة وهذا الأمر مدعاة للنزاع لذا يجب البتُّ في الموضوع، فقال عليّ رضي الله عنه: لك أن تحكم في ذلك، فحكم عثمان رضي الله عنه وقال: ما دام الناس قد اتّحدوا بعد انضمامهم إلى الإسلام فيجب أن تكون هناك قراءة موحدة وهي قراءة قريش.

سابعا: إن لم يكن هناك اختلاف في القراءات فلماذا أُحرقت نُسخ القرآن التي كانت في عهد أبي بكر رضي الله عنه؟ وجوابه أن هذا باطل كليّا. بل ورد بهذا الشأن أنه كانت عند حفصة رضي الله عنها نسخة القرآن التي يعود تاريخها إلى زمن أبي بكر

ﷺ. فطُلبت منها وأُمر بإعادتها إليها بعد النسخ، فأعيدت. وأُحرقت نُسخ ذات قراءات مختلفة كيلا يبقى اختلاف القراءات قائما.

ثامنا: أما ما قيل بأن زيدا هو الشاهد الوحيد على أصالة القرآن أيضا فهذا أيضا باطل. الحق أن أبا بكر كلَّف عمرَ مع زيد ﷺ وأَجلسهما على باب المسجد وأمر ألا تُعرض عليهما عبارة لم يُملِها رسول الله ﷺ، ولم يشهد عليها شاهدان أن النبي ﷺ أملاها بحضورهما.

تاسعا: يثار اعتراض آخر أنه إن لم يكن هناك اختلاف فأي حاجة اقتضت التحقيقَ مرة أخرى؟ وجوابه أنه قد تم التحقيق في القراءات وليس في العبارات والسور.

عاشرا: لقد قيل بأنه إن لم يكن هناك اختلاف فلماذا أُحرقت كل النُسخ ما عدا نسخة واحدة؟ جوابه أيضا الجواب السابق نفسه أنه قد أُحرقت النسخ المحتوية على قراءات مختلفة. إذن، ما يقال إنه كانت هناك نُسخ مختلفة عندما تولّى عثمان ﷺ الخلافة ولكن بقيت بعد ذلك نسخة واحدة، فهذا يعني أنه قد شَطبَ القراءاتِ المختلفة فأثار هذا الاعتراضَ القبائلُ التي شُطبت قراءتهم.

فالنتيجة النهائية هي أن القرآن الموجود حاليا هو القرآن نفسه الذي كان في زمن رسول الله ﷺ ولا اختلاف فيه قط.

المحكمات والمتشابهات

والآن أتناول المتشابهات باختصار. يُعترَض أن في القرآن محكمات ومتشابهات أيضا، فكيف يمكن الثقة به؟

الحق أن المعترضين لم يتأملوا في متشابهات القرآن الكريم. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٨)، يقول الناس إننا لا نعلم أي آيةٍ مُحكمةٌ وأيها

متشابهةٌ. فقد ورد مقابل ذلك في سورة هود: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ٢)، أي أن جميع الآيات في هذا الكتاب مُحكمة. وهذا القول يُبطل في بادئ الرأي ما قيل قبل قليل بأن بعض آياته مُحكمة وبعضها متشابهة. وقد جاء في آية ثالثة: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ (الزمر: ٢٤). يبدو من هذا الكلام أن آيات القرآن كلها متشابهة مع أنه قد عُدّت من قبل كل الآيات مُحكمة.

تبين من ذلك بكل جلاء أن للمُحكم والمتشابه معنى آخر لم يُفهم. والغريب في الأمر أنه يُستنبَط من المتشابه معنى يثير الشكوك مع أن القرآن يفسر المتشابه قائلا: ﴿مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ (الزمر: ٢٤)، أي أن مضامينه سامية جدا، والذين يقرؤون هذا الكتاب ويفهمونه ويخشون ربهم تقشعر جلودهم... أي تتفجر من قلوبهم ينابيع حب الله تعالى. قولوا الآن بالله عليكم، هل يمكن أن يحدث ذلك مما فيه شكٌّ؟ يبدو من هنا جليا أن للمتشابه معنى آخر وهو ما يُشبه شيئا آخر. أي المتشابه تعليمٌ يشبه تعاليم أخرى. خذوا الصوم مثلا، فهذا الأمر متشابه بحد ذاته لأن هذا التعليم كان موجودا من قبل كما يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٤) إذن، إن أمر الصوم وحده متشابه. كذلك يقول الله تعالى عن القرابين: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ (الحج: ٣٥). إذن، إن الأمر بالقربان أيضا متشابه. الحق أن الله تعالى قد ردّ هنا على الذين قالوا بأن القرآن قدّم كل شيء بالسرقة من كتب أخرى. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. هذا كتابٌ بعضُ تعاليمه جديدة وبعضها يجب أن تشبه التعاليم السابقة. فمثلا أمر

الأنبياءُ السابقون بصدق المقال، فهل كان للقرآن أن يأمر بألا تصدُقوا المقال بل يجب أن تقولوا قول الزور؟ فيقول الله تعالى بأن بعضا من تعاليم القرآن تشبه التعاليم الموجودة في الكتب السابقة. ثم يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ (آل عمران: ٨)، أي أن السفهاء من الناس لا ينظرون إلى التعاليم الجديدة بل يقولون بالنظر إلى تعاليم تشبه التعاليم السابقة إن القرآن نقل منها، ويفعلون ذلك ليعيثوا الفتنة وليصرفوا هذا الكتاب عن حقيقته، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يعلم حقيقته إلا الله، وهو أعلم بقدر التعليم الذي كان إنزاله مرة أخرى ضروريا، ولم يفوِّض هذا الأمر إلى الناس، لأن الله وحده دون غيره قادر على أن يقرر مقدار ضرورة ذلك التعليم في المستقبل، وإن كان قد نزل من قبل، أو يمكن أن يدرك - بعد تعليم الله أولئك الذين لديهم علم حقيقي بكتب الله- بقدر ما كان إثبات التعليم ضروريا ولماذا غُيِّر أمر ما[١].

يمكن أن يكون لهذا الموضوع شروح صحيحة أخرى أيضا ولكن لا يمكن تحديد المحكمات والمتشابهات فيها. فآية واحدة يمكن أن تكون مُحكمَة ومتشابهة في الوقت نفسه، بمعنى أنه إذا فهم المرء آية صارت مُحكمة له وإن لم يفهمها كانت الآية نفسها متشابهة بالنسبة له. كذلك يمكن أن يحدث اختلاف أيضا بين الناس إذ يمكن أن يعُدّ شخص آيةً معينة مُحكمة من منطلق معنى معين ولا يرى شخص آخر ذلك المعنى صحيحا فيحسب الآية نفسها متشابهة. ولكن الآيات المحكمات تكون واضحة من منطلق أن تعاليم القرآن الكريم التي هي إضافة على الكتب السابقة هي مُحكمة كلها، وأما ما عداها فهي متشابهة.

[١] إشارة إلى قوله تعالى:﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٨)

لماذا سُمّي القرآن كله مُحكما ومتشابها في الوقت نفسه؟

أما السؤال: لماذا سمِّي القرآن كله مُحكما في آية وسمِّي متشابها في آية أخرى؟ فليكن معلوما بهذا الشأن، كما قلت من قبل، إن التعليم المحكم بحسب مصطلح القرآن هو ذلك الذي جدّده القرآن، وما يماثل فيه القرآنُ كتبًا سابقة هو متشابه. ومن ناحية فإن القرآن الكريم كله مُحكَم لأنه عندما نريد أن نحكم في تعليم مبدئيا فلا نبحث في جزء معين منه بل ننظر إلى مجموعته. وإذا أمعنّا النظر في أنواع الأحكام المختلفة إجمالا وجدنا تعليم الإسلام فريدا من نوعه، إذ لم يهمل الإصلاح في أيّ جزء من التعليم، فهو لا يشبه الكتب السابقة قط لذا فهو مُحكَم كله. كذلك لما كان ضروريا أن تنزل مبادئ الشريعة في الكتب السابقة بحسب درجات الناس في تلك الأزمنة لكي يبلغوا الكمال في دائرتهم لذا فإن جميع الأحكام الواردة في القرآن الكريم متضمنة في الكتب السابقة أيضا بشكل من الأشكال، فمن هذه الناحية يصبح القرآنُ الكريمُ كله متشابها. فمثلا إن الصلاة موجودة في الأديان السابقة، كذلك الصيامُ والحج والزكاة، فينخدع بعض الناس نظرا إلى هذا التشابه ويقولون: ما فائدة نزول القرآن إذن؟ إن مؤلف كتاب: "مصادر الإسلام" وغيره من المسيحيين يندرجون تحت قائمة الذين حاولوا أن يثبتوا تشابه القرآن مع كتب أخرى وبذلك كذّبوا القرآن مع أن القرآن الكريم قد ردّ سلفا على هذا الاعتراض بكل وضوح وجلاء. الحق أن القرآن قد بيّن حقيقة عظيمة أنه لا بد للسِفر السماوي أن يتضمن في طياته بعض المحكمات وبعض المتشابهات. أما المتشابهات فلأن السِفر الذي يكون بعيدا كل البُعد عن التعاليم السابقة لا يمكن أن يكون من الله لأن ذلك يعني أنه لم يكن أيّ إنسان من أصفياء الله من قبل قط ولم يهدِ اللهُ أحدا قط، وهذا باطل بالبداهة. وأما المحكمات فلأنه إن لم يقدّم أمام العالم ميزة جديدة فلا معنى لمجيئه أصلا إذ كان التعليم السابق موجودا. ومن يستطيع أن ينكر مزايا ذلك الأصل أو يرفض صدقه؟

لقد بذل المفسرون جهودا مضنية في تفسير الـمُحكم والمتشابه ولكنهم ارتكبوا أخطاء كثيرة لعدم معرفتهم الحقيقة.

ما دام البرد قد ازداد الآن وتراكمت السحب لذا أنهي خطابي هنا وأدعو الله تعالى أن يوفقكم لفهم القرآن الكريم والعمل به. آمين.

(بعد الخطاب دعا حضرته ﵁ مع الحضور جميعا ثم سجد شكرا على أن الله تعالى وفقه لإلقاء الخطاب في الجلسة والدعاء مع الجميع على الرغم من اعتلال صحته، فالحمد لله على ذلك)

❁❁❁❁❁

فضائل القرآن (٢)

الأدلة العقليّة والنقليّة
على أفضلية القرآن الكريم
على الكتب السابقة

(خطاب أُلقي في ١٩٢٩/١٢/٢٩م
بمناسبة الجلسة السنوية في قاديان)

بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة قرأ ﵁ الآيات التالية من سورة النور:

﴿اَللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ اَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النور: ٣٦-٣٩)

مغزى الإسلام وروحه

الموضوع الذي أريد أن أتحدث عنه اليوم هام جدا بل الحق أنه مغزى الإسلام وروحه، ويجب على الإخوة أن يسمعوه بإصغاء وانتباه كاملَين، ويسعوا جاهدين للاستفادة منه. هذا الموضوع يتعلق بفضائل القرآن أي ما هي المحاسن في القرآن التي بسببها يمكن تفضيله بها على كتب الأديان الأخرى. مما لا شك فيه أن مدار ديننا هو على القرآن الكريم، فلو ثبت في القرآن عيب، لا سمح الله، أو لو لم تثبت فيه مزايا غير عادية فلا يبقى من الإسلام شيء. فهذه قضية حساسة جدا من شأن الهجوم عليها أن يلحق أكبر ضرر بالإسلام.

أنا لا أرى الرسول ﷺ خارجا عن القرآن بل آراه جزءًا من القرآن نفسه كما يقول الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥). إذن، هناك قرآن نزل بصورة الكلمات، وقرآن آخر نزل على قلب رسول الله ﷺ الطاهر. لذا فإن الهجوم على رسول الله ﷺ سيكون هجومًا على القرآن في الحقيقة.

أفضلية القرآن الكريم على الأديان والكتب الإلهامية كلها

نحن ندّعي أن القرآن الكريم جاء للعالم كله وللأزمنة كلها. فإذا كان القرآن الكريم للعالم كله وللأزمنة كلها فإن مسؤوليتنا تجاهه تتعاظم أكثر ممّا لو كان للعرب فقط أو جاء لإصلاح مفاسد زمنٍ واحد فقط. لم تكن عند العرب شريعة ولا كتاب ديني وكانوا يعملون بالأوهام أو التقاليد والعادات القومية. يكفينا القول بأنهم كانوا يعبدون الأوثان وبالتالي كانوا متورطين في أصناف السيئات، فمنعهم القرآن منها، لذا كان هناك حاجة ماسة إليه. فلو كان القرآن للعرب فقط لما كانت هناك مشكلة في إثبات أفضليته وتفوُّقه. ولكننا نقول بأنه جاء للعالم كله، ويخاطب اليهود والنصارى والهندوس والمجوس وغيرهم جميعا وهو أفضل من جميع الكتب الأخرى

التي تُعَدّ إلهامية أو الكتب التي عُثر عليها بواسطة الآثار القديمة. لذا يجب علينا الإثبات أن في القرآن الكريم مزايا تجعله أفضل وأعلى من الكتب السابقة كلها. في القرآن مزايا ليست في التوراة، ولا في الأسفار القديمة، وفيه محاسن لا أثر لها في الأناجيل ولا في الفيدات ولا في كتب الزرادشتية وغيرها.

القرآن الكريم كنز روحاني

كذلك علينا أن نُثبت، بُغية إثبات أفضلية القرآن الكريم، أنه كنز روحاني لا نستطيع العيش بدونه في الدنيا. فإثبات الزيادة على الكتب السابقة لا يكفي، بل يجب الإثبات أيضا أن ما قدّمه القرآن الكريم قد هيأ بواسطته مرافق جديدة لم تكن مهيأة من قبل. إذا كان شيئان متساويان في صفاتهما يمكن أن تُعَدّ مزية أحدهما الظاهرية أيضا وجهًا للأفضلية على غيره. فمثلا إذا كانت حبتان من المانجو حلوتان بالمستوى نفسه ولكن كانت إحداهما أكبر حجما من الأخرى فللكبرى أفضلية على الصغرى من حيث كِبر الحجم. نحن ندّعي أن القرآن الكريم جاء للعالم كله وللأزمنة كلها ولن يأتي بعده كتاب مشرّع، لذا علينا أن نثبت أفضلية القرآن على الأقوام والأديان والعلوم كلها. والكتاب الذي يدّعي أنه الكتاب الإلهامي الأخير، كما يقول القرآن الكريم، تقع عليه مسؤولية أن يقدم مزايا أعلى من الكتب السابقة كلها. الكتاب الذي يدّعي نسخ الكتب السابقة ليس عليه إلا أن يُثبت أن فيه مزايا أكثر من الكتب السابقة. أما الكتاب الذي يقول بأنه لن يأتي بعده كتاب مشرّع وهو الكتاب الكامل إلى الأبد فلا يكفيه أن يُثبت في نفسه مزايا أكثر من الكتب السابقة بل لا بد له من الإثبات أيضا أنه ما من أمر يتعلق بالروحانية في المستقبل إلا ويوجد فيه. فالكتاب الذي لا يكتفي بالقول بأنه نسخ الكتب السابقة بل يقول أيضا بأنه أغلق باب مجيء الكتب الإلهامية في المستقبل، فيتحتم عليه أن يقدم أدلة قطعية على أنه لا يمكن أن ينزل في المستقبل كتاب من هذا القبيل.

فهذا معيار مهم جدا لإثبات أفضلية القرآن الكريم. غير أنه يمكن النقاش بالتفصيل -إضافة إلى النقاش المبدئي- أن مزية كذا وكذا موجودة في القرآن الكريم ولا توجد في كتاب سواه. ولكن لا بد من النقاش المبدئي أيضا.

فإذا أثبتنا كثرة المزايا في القرآن الكريم وقلنا مثلا إن كذا وكذا من المزايا توجد في الفيدات والكتاب المقدس والزند أفستا، ولكن بضعا أو عشرة أو عشرين مزية كذا وكذا توجد في القرآن فقط، فهذا أيضا يُثبت أفضلية القرآن الكريم ولكنه لا يُثبت كونه الأكمل ولن يثبت أنه لن يأتي في المستقبل كتاب تشريعي. ففي هذه الحالة تثبت أفضلية القرآن الكريم مقابل الكتب الموجودة حاليا فقط.

الكتاب الكامل من أوجه الكمال كلها

باختصار، الكتاب الذي يدّعي أنه الكتاب الأخير والأفضل من غيره لا يكفيه أن يثبت فقط أنه يشمل ما لا يوجد في كتب أخرى بل يتحتّم عليه أن يُثبت أيضا أن ما يوجد فيه لا يمكن أن يوجد في كتب أخرى أبدا. وما لم يُثبت ذلك لا تتحقق أفضليته بذكر الأمور الحسنة فقط. صحيح أنه ما دامت الأفضلية لا تقتصر على المزايا العليا فقط بل تثبت بكثرتها أيضا لذا يمكن تقديم كثرة المزايا لتحقيق هدف أن كتابا كذا أفضل من حيث كثرة المزايا فيه وإن كانت بعضها موجودة في كتاب آخر أيضا. غير أن الكتاب الأفضل بصورته الكاملة هو الذي تثبت أفضليته من كافة وجوه الكمال. وهذا ما أدّعيه عن القرآن الكريم.

منجم الجواهر

قد يقول قائل: ألم يعلم الناس الأوائل هذه الفضائل للقرآن الكريم؟ فليكن معلوما بهذا الشأن أنهم كانوا يعلمونها، ولكن العلوم الروحانية تزداد وتتقدم كل يوم بفضل الله تعالى. وما دمنا نعلم أن لدينا القرآن الكريم الذي هو منجم الجواهر الذي تخرج منه الجواهر الجديدة باستمرار فلماذا نكتفي بالجواهر التي حازها الأوائل؟ ولماذا لا

نُخرج من منجم القرآن الأحجار الثمينة والجواهر الجديدة؟ فدخلتُ كنز القرآن الكريم لأنني كنتُ قد أخرجت منه الجواهر والأحجار الثمينة عدة مرات من قبل أيضا، وجئت مالئًا أكياسي. عندما دخلتُ هذا المنجم للاطلاع على محاسن القرآن الكريم خطر ببالي أمر غريب وهو أنه يجب علي-بدلا من أن أبحث فيه عشوائيا وآخذ كل ما تقع عليه يدي، مع أنه يمكن أن تكون فيه أشياء أفضل مما آخذه- أن أفكّر مبدئيا ماذا يجب أن آخذه. عندها خطر ببالي أنه ليس من المستحسن لإثبات أفضلية كتاب أو كماله أن نتدبر مضامينه ونعثر على مزية من مزاياه بل يجب أن نفكّر لماذا تحصل لشيء ما أفضلية على غيره.

ثم يجب أن نرى أيضا كم من الأسباب والمعايير- التي بسببها يفضَّل شيء على غيره- توجد في القرآن الكريم؟

ستة وعشرون وجها لأفضلية القرآن

حينما تدبرت من هذا المنطلق مثُل أمام عينيَّ بحر القرآن وعلمتُ أن كل وجه من وجوه الأفضلية الذي يوجد في العالم والذي بسببه يُفضَّل شيء على آخر موجود في القرآن الكريم بصورة أتم، وتوجد فيه أسباب الأفضلية كلها. عندها ألقيت نظرة عابرة وخطر ببالي ٢٦ وجها من وجوه أفضلية القرآن ومن الممكن جدا أن تكون الأوجه أكثر منها بكثير، وأن تمثل للعيان أوجه أخرى كثيرة إذا تأملتُ أكثر أو تدبّر أحد غيري. ولكن بقدر ما خطر ببالي من المزايا في الوقت الحالي فقد وجدتُ القرآن الكريم من منطلقها أفضل من الكتب كلها.

١- أفضلية المصدر

الوجه الأول لأفضلية شيء هو أفضلية مصدره، كما لو كان أبُ أحد خدم في وظيفة حكومية فيؤخذ ذلك بعين الاعتبار ويُرجّح ابنه على شخص آخر يساويه من حيث الثقافة والمؤهلات. فهذه أفضلية من حيث المصدر. كذلك الذي يولد

في بيتٍ ثريٍّ يأتي بالثراء معه وهذه ميزة يتحلى بها من حيث المصدر. فقد وجدتُ القرآن الكريم أفضل من الكتب السابقة من هذا المنطلق أيضا.

٢- الأفضلية من حيث المؤهلات الذاتية

وجه الأفضلية الثاني الذي ذهب إليه وَهَلي هو أن شيئا يحوز الأفضلية على أشياء أخرى من حيث المؤهلات والقدرات الذاتية أيضا، مثل فاعليّة الأدوية. فمن هذا المنطلق أيضا وجدتُ القرآن الكريم أفضل من الكتب كلها.

٣- الأفضلية من حيث النتائج

وجه الأفضلية الثالث هو من حيث النتائج، فمن هذا المنطلق أيضا نفضّل شيئا على شيء آخر. بعض الأشياء تكون جيدة بحد ذاتها ولكنها لا تسفر عن نتيجة حسنة باختلاطها مع أشياء أخرى. كما يقال عن الجراثيم أنها تملك نتيجة الحقنة. أي إذا اختلطت المادة في الحقنة مع الجراثيم في جسم الإنسان أسفرت عن نتيجة معاكسة. إذن، ينال الشيءُ الأفضليةَ أحيانا من حيث النتائج، وما سبق غيرَه في هذا المجال يُعتَرف بأفضليته. كذلك تبدو بعض التعاليم جيدة ومفيدة جدا ولكن لا تؤدي إلى نتائج حسنة، ولكنني وجدتُ من هذا المنطلق أيضا أن القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى.

٤- الأفضلية من حيث عظمة الفائدة

وجه الأفضلية الرابع هو من منطلق عظمة الفائدة. لا شك أن الفوائد تكون موجودة في شيء ولكن بعضها أكثر فائدة من غيرها. فالقرآن الكريم أفضل من حيث عظمة الفوائد أيضا.

٥- الأفضلية من حيث كثرة الفوائد

نفضّل شيئا على آخر من حيث كثرة الفوائد أيضا. فمثلا يفيد دواء أكثر في مرض معين، ولا يفيد دواء آخر بالقدر نفسه في ذلك المرض ولكنه يفيد في خمسين

مرضا آخر. فالدواء الأخير يكون أفضل من سابقه من حيث فوائده. فوجدت القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى من هذا المنطلق أيضا.

٦- الأفضلية من حيث سعة المنفعة

يفضّل شيء على آخر من حيث سعة المنفعة أيضا. فمثلا لا ننظر إلى دواء من منظور كم من الأمراض يفيد فيها هذا الدواء بل نرى كم من طبائع يؤثر فيها وكم من الناس يمكن أن يستفيدوا منه. فوجدتُ القرآن الكريم هو الأفضل من هذا المنطلق أيضا.

٧- الأفضلية من حيث مدة النفع

نفضّل شيئا أحيانا على غيره من منطلق مدة نفعه. فمثلا إذا كان أمام المرء نوعان من القماش فنهتمّ بمدة الاستفادة من هذا القماش مقارنة مع القماش الآخر. فإذا كان هناك قماش يمكن استخدامه إلى عام وقماش يمكن الاستفادة منه إلى ستة أشهر فسيفضَّل الأول على الثاني. فقد وجدت القرآن الكريم هو الأفضل من هذه الناحية أيضا.

٨- الأفضلية من منطلق مكانة المستفيدين

ثم هناك وجه الأفضلية من حيث عظمة الذين يفيدهم ذلك الشيء. فالأشياء التي يُعلم أنها تفيد عظماء الناس تفضَّل على غيرها. وقد رأيتُ أن القرآن الكريم أفضل في هذا المجال أيضا.

٩- الأفضلية من حيث أنواع المستفيدين

ينظر الناس أيضا إلى أنواع الأشياء التي يفيدها شيء معين، لأن للأنواع أيضا درجة إلى جانب الأفراد. فهناك شيء يفيد عشرة ملايين من الناس، وشيء آخر أيضا يفيد عشرة ملايين من الناس ولكن قد يكون الفرق بينهما بحيث أن أحدهما ينفع نوعا معينا من الناس، أي ينفع المسيحيين أو الهندوس وحدهم، أما الآخر فهو أيضا يفيد عشرة ملايين ولكنه يفيد الهنود واليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم جميعا

فيُعدّ هو الأفضل. إذن، يمكن أن يفضَّل شيء من منطلق كثرة أنواع الأفراد أيضا، فمن هذا المنطلق أيضا وجدت القرآن الكريم مفضّلا على الكتب الأخرى كلها.

١٠- الأفضلية من حيث النزاهة عن الزيف

يمكن أن يُفضَّل شيء من منطلق: هل تشوبه شائبة من الزيف أم لا؟ فما لا زيف فيه يفضَّل على أشياء أخرى. ففي هذا المجال أيضا وجدتُ القرآن الكريم أفضل من كتب الله كلها.

١١- الأفضلية من حيث الفوائد اليقينية

هناك أشياء تكون نزيهة عن الزيف ولكن لا يكون المرء متأكدا من منافعها. بل تكون هناك إمكانية خطأ المرء في استخدامها فيتضرر بسبب ذلك. وما لم يكن هناك شكٌّ بحدوث الخطأ في استخدامه أو في فوائده يُختار ذلك الشيء ويُعترَف بأفضليته. فالقرآن الكريم حائز على الأفضلية من هذه الناحية أيضا.

١٢- الأفضلية من حيث الجمال الظاهري

يفضَّل شيء على أشياء أخرى من منطلق الجمال الظاهري أيضا. وقد وُجد القرآن أفضل من الكتب الأخرى من حيث جماله الظاهري أيضا.

١٣- عدم الإضرار بالأمور الضرورية

يُفضّل شيء على غيره نظرا إلى أن استخدامه لن يضر بالأشياء الأخرى. فمثلا إذا كان أحد مصابا بمرضين ويتوفر لأحد مرضيه دواء يفيده كثيرا ولكنه في الوقت نفسه يؤدي إلى تفاقم المرض الآخر، فيُستخدَم دواء يفيده قليلا ولكن لا يؤدي إلى تفاقم مرض آخر. فأفضلية القرآن الكريم ثابتة من هذا المنطلق أيضا.

١٤- الأفضلية من حيث كون الفوائد سهلة المنال

يفضَّل أيضا شيء على آخر من منطلق أن فوائده تكون سهلة المنال. والقرآن الكريم هو الأفضل من هذا المنطلق أيضا.

١٥- الأفضلية من حيث كونه فريدا في سد الحاجات

يفضَّل شيء على آخر من منطلق أنه يسد حاجة لا يسدها شيء آخر قط. والقرآن الكريم حائز على هذه الأفضلية على الكتب الأخرى لأنه يسد حاجات لا يسدها أيّ كتاب آخر.

١٦- الأفضلية من حيث سد الحاجات الضرورية

يُقدَّم شيء على أشياء أخرى من منطلق أنه يسدّ حاجة لا يمكننا أن نغض الطرف عنها. تكون هناك حاجات يتعرض المرء للخسارة نتيجة إهمالها ومع ذلك يكون إهمالها ممكنا. ولكن هناك حاجات أخرى يؤدي إهمالها إلى هلاكنا. فالقرآن يسد تلك الحاجات أيضا، لذلك هو أفضل من الكتب الأخرى.

١٧- الأفضلية من حيث السهولة في الحفاظ عليه

ينال الشيء أفضلية على غيره نظرا إلى مدى ما يُبذل من مساعٍ للحفاظ عليه. بمعنى أنه يكون هناك شيء يمكننا الاحتفاظ به عندنا بكل سهولة ويُسر، فنقدّمه على ما يكون الحفاظ عليه صعبا. فرأيت القرآن الكريم هو الأفضل من هذه الناحية أيضا.

١٨- الأفضلية من حيث المنفعة

للعثور على أفضلية شيء يُنظر أيضا إلى مدى المسؤوليات التي يلقيها علينا استخدامه، وإلى مدى المنفعة مقابلها. فرأيت أن القرآن الكريم هو الأفضل من هذا المنطلق أيضا لأن النفع فيه أكثر من بذل المساعي.

١٩- الأفضلية من حيث كونه بريئا من الخسارة

يفضّل أيضا شيء على غيره من منطلق أن استخدامه لا يسفر عن ضرر أو خسارة، فيُستخدم في حال عدم الخسارة. فمثلا إذا كان هناك دواءان، أحدهما أقل نفعا ولا ضرر فيه فنتناوله، أما ما كان أكثر نفعا ولكن يُخشى ضرره أيضا فلا نتناوله. وإن أفضلية القرآن الكريم ثابتة من هذا المنطلق أيضا.

٢٠- الأفضلية من حيث الدعوة العامة

يُفضَّل أيضا شيء من منطلق أنه يكون مِلك لنا. فلما أمعنتُ النظر في القرآن الكريم من هذا المنطلق تبين لي أن القرآن وحده مِلكنا، أما الكتب الأخرى فقد وجدتُ فيها المغايرة. لقد رأيت القرآن الكريم بنظر هندوسي وبنظر مسيحي، ومجوسي وبنظر بوذي أيضا. ثم ذهبتُ إليه بصفتي فردا من عائلة السادات تارة ومن المغول تارة أخرى، وبصفتي فردا من عائلة شيخ مرة ومن عائلة راجبوت مرة أخرى. ثم زرتُه بصفتي عالما حينا وكجاهل حينا آخر، فقال لي كل مرة: تعالَ فأنت لي وأنا لك. ولكن كلما ذهبتُ إلى كتب أخرى وبأية حالة طردتني دائما ولم تسمح لي بالاقتراب منها.

٢١- الأفضلية من حيث علاج الأمراض

نفضِّل أحيانا شيئا على غيره لكونه يعالج الأسقام التي نحن مصابون بها. فقد وجدتُ هذه الأفضلية أيضا في القرآن الكريم.

٢٢- الأفضلية من حيث المنافع الإضافية

نقدّم شيئا على غيره من منطلق أنه ينفعنا منافع إضافية، فوجدت القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى من هذا المنطلق أيضا.

٢٣- الأفضلية من حيث سعة وِجهة النظر

من علامات أفضلية دينٍ أنْ يخلق أمل الترقيات العليا ويوسّع وِجهة نظر الإنسان ويرفع همم أتباعه ولا يدَع اليأس والقنوط يتطرقان إليهم بل يبقي أمانيهم قائمة. وقد رأيتُ أن القرآن الكريم يفتح علينا باب الترقيات العليا والصلة بالله تعالى على مصراعيه. وبذلك لا يُبقي أمانينا حية فقط بل يوسّعها ويرفع همّتنا. ولا شك أن تقدم الإنسان يكمن في حُلمه عن المستقبل. فمن هذه الناحية أيضا وجدتُ القرآن الكريم وحده الأفضل.

٢٤- الأفضلية من حيث الإغناء عن الكتب الأخرى

يفضَّل أيضا شيء على أشياء أخرى من منطلق مدى إغنائه إيانا عن الأشياء الأخرى. والناس يقدّرون أشياء من هذا القبيل أكثر لأنهم في هذه الحالة لا يحتاجون إلى التفكير في أشياء أخرى. فرأيت أن القرآن الكريم هو الأفضل من هذا المنطلق أيضا.

٢٥- الأفضلية من حيث الإرشاد إلى العلوم الصحيحة

هناك سبب آخر أيضا لنيل الشيء أفضلية على غيره وهو إرشاده الناس إلى علوم صحيحة وإنقاذهم من الخوض في اللغو. فلما يكون كتاب الله بمنزلة معلّم فيكون من واجبه أن يوجِّه الناس إلى طريق صائب، ويمنعهم من اللغو ويرشدهم إلى العلوم الصحيحة. وقد وجدتُ القرآن الكريم هو الأفضل من هذه الناحية أيضا.

٢٦- الأفضلية من حيث سد الحاجات الذاتية

ينال شيء أفضلية على شيء آخر أيضا نظرا إلى مدى قضائه حاجة اقتُني من أجلها؟ فإذا كان الشيء لا يقضي غايته المتوخاة فيَفضَّل عليه حتما شيء آخر يقضي تلك الحاجة. فوجدت أن القرآن الكريم حائز على الأفضلية على الكتب الأخرى من هذا المنطلق أيضا.

لقد خطرت ببالي هذه الأوجه الستة والعشرون عند التأمل، وكما قلت من قبل فقد يعثر المرء على عدة أوجه أخرى عند إمعان النظر أكثر. باختصار، عندما فحصت القرآن على محك هذه الأشياء وجدتُه أفضل من الكتب الأخرى في كل شيء.

ادعاء القرآن وأفضليته

قبل الخوض في النقاش حول الأمور المذكورة آنفا، إن السؤال الأول الذي يمثل للعيان هو: هل أعلن القرآن الكريم أيضا أمام العالم أنه أفضل من جميع الكتب الإلهية أم لا؟ فإذا كان القرآن قد ادّعى بذلك فيمكن البحث في وجوه أفضليته وتفوّقه وإلا لانطبق على تقديم أوجه الأفضلية المَثل الأردي القائل: المدّعي صامت والشهود

يقوّلونه. فحين نتدبر القرآن من هذا المنطلق يتبين لنا أنه قد ادّعى أفضليته بكلمات صريحة وواضحة تماما، فيقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٤)، أي قد أنزل الله تعالى هذا الكتاب بكل قوة وشدة وتأكيد، وهو "أحسن الحديث" أي أفضل من جميع الكتب الإلهامية. ولكن كيف قيل إنه أفضل من الكتب الإلهامية كلها؟ أولا: ما دام القرآن كتاب الله فلا يمكن القول بأنه أفضل من كتب الناس الآخرين. يمكننا القول عند الاعتراض أن كتابا كذا ليس إلهاميا بل صار دريئة تحريف الناس، ولكن اعتبارها كتب الناس مبدئيا ثم تقديم القرآن الكريم مقابلها حُمق. فهذا مَثله كمثل بطل يقول: انظروا أنا أقوى من ذلك الطفل. أما إذا قال الطفل للبطل: سأصرعك فتعال وبارزْني. عندئذ يمكن للبطل أن يقول له: إليك عنّي وإلا ستموت بلطمة واحدة مني.

كلمة "الحديث" الواردة في هذه الآية تشير إلى كتب موحى بها سابقا، وقد استُخدمت هذه الكلمة في المعنى نفسه في آيات أخرى أيضا. فيقول الله تعالى في آية: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (القلم: ٤٥). وفي آية أخرى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (الشعراء: ٦)، فما دام كلام الأنبياء يأتي بشيء جديد حتما، أي يأتي بحسب مقتضى الضرورة سواء جاء بشريعة جديدة أو بفهْم جديد أو بأسباب تجدد الإيمان، لذا يُسمّى حديثا. والمعلوم أن القرآن الكريم أحسن الحديث، أي هو أحسن في جنس الحديث، أو قولوا إن شئتم بتعبير آخر إنه الأفضل من بين كلام الله كله. إذن، يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ أي أن هذا الكتاب الذي أُنزل الآن يفوق جميع الكتب التي أُنزلت قبله. باختصار، نجد في القرآن نفسه ادعاء أفضليته.

ثم نجد ادعاء أفضلية القرآن في الآية: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٧) أي نأتي بخير

مما ننسخ، وأما ما يكون منسيا ولكنه يكون قابلا للعمل فنأتي بمثله. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي لماذا تستغرب من ذلك أيها المخاطَب، فالله قادر على أن يفعل ما يريد، فهو على كل شيء قدير.

نبوءة في التوراة عن نزول شرع جديد

فلما كان القرآن ينسخ الشرائع السابقة كان ضروريا أن يأتي بتعليم أفضل من التعاليم السابقة، ويأتي أيضا بشيء مما اندرس. فلما تأملتُ من هذا المنطلق وجدتُ أن الكتب السابقة تصدّق هذا الأمر. فقد ورد في الكتاب المقدس: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ". (التَّثْنِيَة ١٨ : ١٨). لقد أُنبئ هنا أنه سيأتي زمان سيُبعث فيه نبي مثل موسى. ولما كان موسى قد جاء بشريعة فكان ضروريا أن يكون المراد من مجيء نبي مثله أن ذلك النبي أيضا سيأتي بشريعة. ولأن ذلك النبي سيأتي بعد موسى عليه السلام فتبين أن الكتاب الذي سيأتي به ذلك النبي سيشمل بعض الأمور الإضافية التي ليست موجودة في الكتاب المقدس وإلا فلا حاجة إلى مجيء شريعة جديدة، ولا معنى لنسخ شريعة موسى. ولكن حين نُسخت شريعة موسى صار ضروريا أن تكون الشريعة القادمة أفضل منها. إذن، إن أفضلية القرآن الكريم ثابتة من مقتبس الكتاب المقدس المذكور أيضا لأن الشريعة الجديدة الناسخة يجب أن تكون -بحسب مقتضى العقل- أفضل حقيقةً أو نسبيا من الشريعة المنسوخة.

ادعاء النبي ﷺ أنه مصداق نبوءة موسى عليه السلام

قد يقول قائل: متى قال القرآن إنه هو الكتاب الذي وُعد به موسى عليه السلام؟ فإن جوابه موجود في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾ (المزمل: ١٦).

لقد قيل في هذه الآية إن النبي هو مصداق النبوءة الواردة في سِفر التثنية ١٨: ١٨. إضافة إلى ذلك يتبين من ذلك من منطلق آخر أيضا وهو أن عبارة سِفر

التثنية ١٨: ١٨ لا تنطبق على المسيح الناصري ﷺ بأي حال بل يقول بنفسه أنه ليس مصداقا لها فيقول: "إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. * وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ". (إِنْجِيلُ يُوحَنَّا ١٦ : ١٢-١٣)

إذن، يتبين من الإنجيل أيضا أن النبوءة الواردة في كتاب موسى عن مجيء شخص لا تنطبق على المسيح ﷺ بل تنطبق على غيره. وأضف إلى ذلك أن المسيح الناصري كان قد جاء إلى بني إسرائيل فقط، أما الذي أنبأ به موسى ﷺ فقد جاء إلى العالم كله. هذا ما يعلنه القرآن الكريم فيقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٤)، أي السلسلة التي كانت ناقصة منذ آدم ﷺ قد أُكمِلت اليوم بواسطة القرآن الكريم، وقد أتممتُ عليكم نعمتي. بمعنى أنني مرَّرتُ الإنسان بمراحل مختلفة حتى أوصلته إلى درجة صار فيها مظهرا لله، وقد رضيتُ لكم الإسلام دينا.

يتبين من هذه الآية أن القرآن لا يعطي أملَ شريعةٍ جديدة وكتاب جديد بعده، بل يكتفي بالقول إن عليكم أن تنالوا علما جديدا وفهما جديدا يمكن نوالهما بواسطة القرآن الكريم.

بعد هذا الإعلان الذي قام به القرآن الكريم، أريد أن أُبيّن الآن أن أوجه الأفضلية كلها التي ذكرتُها آنفا توجد في القرآن الكريم، وأن القرآن الكريم أفضل وأعلى من جميع الكتب الإلهامية من حيث كل مبدأ من مبادئ الأفضلية.

الدليل على أفضلية القرآن من حيث المصدر

الأمر الأول الذي بيّنتُه كأفضلية هو أفضلية شيء من حيث المصدر، بمعنى أن كون منبع شيء ومصدره أعلى سببٌ لأفضليته، كما يقدَّم كلام الملك على كلام

الناس الآخرين. فمثلا إذا كان هناك شخصان يتكلمان، أحدهما ملك فلا شك أن المستمعين سيصغون إلى كلامه أكثر من غيره، وسيظنون -بغير أن يحكموا فيمن كان كلامه أفضل- أن كلام الملك سيكون أهم من كلام غيره. كذلك يرجَّح كلام أديب كبير على كلام الآخرين. فمثلا إذا كان عدة شعراء جالسين في مكان ثم جاءهم شاعر أردي معروف اسمه: "غالب"، سيقال إن أبياته ستكون أفضل، وذلك دون الاستماع إلى أبياته. فمثلا يُدلي الطبيب برأيه عن مريض، وقد يخطئ في ذلك أحيانا، بل تنفع الوصفات الشعبية التي تصفها النساء أكثر أحيانا. ولكن لا يقول عاقل برفض رأي الطبيب والعمل برأي امرأة، بل سوف يُهتمُّ برأي الطبيب حتما. أما مَن لم ينفعه أيّ دواء فسيتناول ما وصفته امرأة لأنه سيجربه من باب أن الغريق يتعلق بقشة.

باختصار، إن للنفوذ بحد ذاته أهمية. السبب الحقيقي وراء ذلك هو أنه يغلب على الناس الظنّ نظرا إلى النفوذ أن كلام صاحبه يكون صحيحا، فيتوجّهون إليه أولا. على أية حال، ما ثبتت أفضليته من حيث المنبع والمقام يُتوجَّه إليه أكثر من غيره ويُفضَّل على غيره. ولكن إذا لم تكن هناك إمكانية صدور أيّ خطأ من المصدر، فهذا نور على نور.

عندما ننظر إلى القرآن من هذا المنظور يتبين لنا أنه يدّعي مجيئه من الله الذي هو جامع المزايا كلها. وعندما نقرأ هذا الادعاء يشهد قلبنا أنه إذا كان قد جاء من الله فلا بد أن يكون أفضل من كلام الناس قاطبة، وسنُهمل مقابله كلام الناس كله.

لقد ذكرتُ ادعاء أن القرآن جاء من الله تعالى وقد جاء ذلك الادعاء في الآية: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾، فإذا كان هذا الادّعاء صحيحا، فتحصل للقرآن أفضلية من حيث المصدر على كلام الناس قاطبة.

ثلاثة أدلة على كون القرآن من الله

من الواضح أن الادعاء وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون عليه دليل يثبت أن القرآن الكريم نزل من الله تعالى فعلا. فيقدم القرآن الكريم دليلا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود: ١٨). هذه الآية تتضمن ثلاثة أدلة على كون القرآن من الله. الدليل الأول هو: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي الذي يكون على بيّنة من ربه هل يمكن أن يكون كاذبا أو هل يمكن أن يهلك؟ ففي حرف "مَن" هنا ذُكر رسول الله ﷺ والصحابة ﵃ كما جاء بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي هل سيهلكون ويبادون كما تزعمون أو يواجهون خسارة؟ إنهم يؤمنون بكتاب صفته "بيّنة"، أي فيه أدلة إلهامية تدل على صحة ادعاء المدلول عليه.

الفرق بين الآية والبيّنة

الفرق بين الآية والبيّنة هو أن الآية هي ما نستنتج منه بأنفسنا، أما البيّنة فما يقدّم دليله بنفسه، كما نرى شجرة ونقول أن غارسا غرسها فهذه آية. ولكن يأتي نبي ويقول بأنه جاء من الله، فهذه بيّنة. باختصار، إن كلمة "الآية" كلمة عامة والبيّنة كلمة خاصة، والمراد من البيّنة دليل يشهد لنفسه بنفسه.

الدليل على كون القرآن "البينة"

السؤال الآن هو: كيف صار القرآن "بيّنة"؟ هذا أيضا ادعاء، ولا أحتاج إلى الذهاب بعيدا لإثبات ذلك بل إثباته موجود في أول وحي نزل على النبي ﷺ. الكتب الأخرى تحتاج إلى أدلة غيرها ولكن القرآن الكريم بنفسه يقدم دليلا على ادعائه. والدليل على كونه "بيّنة" مذكور في الآيات الثلاثة الأولى التي نزلت في البداية. لقد اخترتُ لبيان كمال القرآن هذا أول وحي نزل فيه. لقد نزل أول وحي

في غار حراء حيث رأى النبي ﷺ جبريلَ الذي قال له: ﴿اقْرَأْ﴾ فقال ﷺ في الجواب: "ما أنا بقارئ"، أي أرجو ألا أُحمَّل هذا الحِمل لأنه لم يكن أمامه حينذاك كتاب كان عليه أن يقرأه بل كان عليه أن يعيد ما كان يقول له جبريل. وكان النبي ﷺ قادرا على ذلك ولكنه أبدى التواضع. ولكن لما كان الله تعالى قد اصطفاه لهذا العمل لذا طُلب منه مرارا أن يقرأ حتى قرأه أخيرا عندما طُلب منه ذلك في المرة الثالثة. فكان ما قرأه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٢-٦).

ما أوجز هذه العبارة وما أقصرها! ولكن ذُكرت فيها الحقائق والمعارف كلها التي لم ترد في كتب أخرى قط. عندما تقرؤون كتبا أخرى ترون الفيدا يبدأ بما تعريبه: "النار سيدتنا". ثم انظروا إلى الكتاب المقدس فقد ورد فيه ذكر خلق الأرض والسماء كما يلي: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. * وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ". (سِفْرُ التَّكْوِينِ ١ : ١-٢)

ويبدأ الإنجيل كما يلي: فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. (إِنْجِيلُ يُوحَنَّا ١ : ١-٢)

ولكن القرآن الكريم يبدأ كلامه بدليل ويقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي يا محمد كنْ معلّمَ هؤلاء الناس، واقرأ باسم الله الذي خلق العالم ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾.. أي اقرأ يا محمد وفي أثناء قراءتك ستترسخ عزة الله في العالم.

نبوءة القرآن الكريم العظيمة

هذه أول نبوءة قُدّمت دليلا على كون القرآن الكريم "بيّنة". فقال ﷻ إن الدليل على كون القرآن بيّنة هو أن هذا الكتاب سيقيم عظمة الله وشوكته في العالم.

لقد اعترض معارضو المسيح الناصري عليه السلام وقالوا بأن الشيطان يعلّمه، فقال في الجواب ما مفاده: هل الشيطان يعلّم ضد نفسه؟ فقال: فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُخْرِجُ الشَّيْطَانَ فَقَدِ انْقَسَمَ عَلَى ذَاتِهِ. فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَمْلَكَتُهُ؟ (إِنْجِيلُ مَتَّى ١٢ : ٢٦)

كذلك يمكن القول بأن الكتاب الذي جاء لاستعادة عظمة الله الغابرة لا يمكن نسبته إلى الشيطان. والحق أن الكتاب الذي ليس من الله أنّى له أن يقول بأن عزة الله وعظمته ستقوم بواسطته؟ يؤلّف كثير من الناس كتبا ويقولون بأن كتبهم سوف تغيّر خريطة العالم كله، ثم تروهم يتوسلون إلى الناس ليقرظوا كتبهم. لقد أخبرني أحد الإخوة أن شخصا يدّعي النبوة ويشكو: لماذا لا تكتب جريدة "الفضل" ضده شيئا. كتب إلي شخص آخر يدّعي النبوة وقال: أرسل إليك كتابي فأرجو أن تعلّق عليه وإن كان تعليقك ضد ما ورد فيه. إذن، تكون هناك عشرات الكتب التي لا تسفر عن أية نتيجة. فهل يُعَدّ أمرا عاديا أن يقال في منطقة لا يوجد فيها إلا الشرك: اقرأ وستقام عزةُ ربك بواسطة هذا الكلام، وسيظهر ربُّك أكرمَ بواسطة هذا الكلام.

في ذلك الوقت لم يكن الشرك منتشرا في بلاد العرب فقط بل في جميع أنحاء العالم بل قد آلت الحالة إلى أن أتباع الدين الأخير أي المسيحيين قالوا بأنفسهم بأن الإسلام قد انتشر بهذه السرعة والسعة لأن الشرك قد تطرق إلى المسيحية. اقرؤوا كتب الهندوس فستعلمون أن الشرك كان منتشرا فيهم بكثرة. يعترف الزرادشتيون أيضا أن الشرك في ذلك الزمن كان ملحوظا في كل حدب وصوب. باختصار، كان أتباع كل دين يقولون بكل افتخار أن السبب وراء انتشار الإسلام هو الشرك الذي كان منتشرا في ذلك الوقت في كل دين. نقول بأن هذا صحيح، وقد أنبأ القرآن في ذلك أن الشرك سينمحي ويقوم في الدنيا ملكوت الله الواحد الأحد.

عندما أنبأ القرآن الكريم بذلك، وقد ذكر القرآن حالة أهل مكة حينذاك قائلا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: ٦). يقولون إنه جعل الآلهة إلها واحدا ولكنهم لا يدركون أنهم ليسوا آلهة أصلا، فكانوا يزعمون أنه قد جُعلت الآلهة كلها إلها واحدا. فنزلت هذه الآية عنهم في سورة ص، ولكن بدأت حالتهم تتغير فجأة وحدث فيهم تغيُّر لدرجة أنهم استسلموا للتوحيد الإسلامي وقالوا: ﴿مَا

نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٤)، أي كأنهم يعتذرون ويقولون: متى نقول بأن الأوثان آلهة بل نقول بأنها وسيلة للتقرب إلى الله.

ما أعظم هذا التغير الذي حدث فيهم! وكيف ثبت كون الله "أكرم". يقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ أي اقرأ هذا الكتاب، وبمجرد قراءته سيشرع التوحيد بالانتشار وسيؤمن الناس بالله وسيقوم جلاله في العالم. وهذا ما حدث بالضبط. ولكن هذه كانت حالة زمن نزل فيه القرآن. أما الآن فترون كيف تتلاشى أفكار الشرك من العالم. كان هناك ٣٣٠ مليون وثنا يُعبد في الهند، ولكن خرج من الهندوس أنفسهم فئة الآريين الذين يقولون بأنهم وحدهم يؤمنون بالتوحيد الحقيقي. وإذا نظرتم إلى النصارى تجدونهم يقولون بأنهم متمسّكون بالتوحيد الحقيقي. لقد قرأت كتب النصارى التي يقولون فيها بأن الإسلام قد أخطأ إذ اعترض علينا بأننا متورطون في الشرك، مع أنه يوجد إلى الآن من يعبدون مريم والمسيح عليهما السلام.

ما أعظم التغيّر الذي حدث إذ ظل التوحيد يترسخ حيثما قُرئ القرآن الكريم، وبدأ العالم يقرّ بأن الله وحده هو "أكرم". ما أعظم هذه النبوءة التي جاءت بحق القرآن الكريم، وقد جاءت في وحيٍ نزل في اليوم الأول وفي البداية تماما.

إظهار كل نوع من العلوم بواسطة القلم

في الوحي نفسه وردت نبوءة أخرى عن القرآن الكريم، وهي: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي لن يثبت فقط بهذا الكتاب أن ربك أعلى من الجميع، والكائناتُ الأخرى كلها تابعة له، بل سيثبت أيضا أن: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ هو ربك، وأن الكتابة سوف تنتشر على نطاق واسع. كان في مكة سبعة أشخاص فقط مثقفين وقارئين عند بعثة النبي ﷺ، حيث كان كبار الناس يرون التعلّم عارا عليهم. كان الشعراء يجعلون الناس يحفظون أبياتهم عن ظهر غيب فقط. وإذا قيل لهم أن يملوها فكانوا يرون في ذلك إساءة إليهم، وكانوا يعتزون على أن قصائدهم تُحفَظ عن ظهر

غيب. عندما نزل القرآن الكريم حدث فيهم تغيُّر عظيم حتى لم يوجد في الصحابة أحد غير مثقف بل كانوا مثقفين مئة بالمئة. فقال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، أي أن التغير العظيم الثاني الذي سيحدث بواسطة هذا الكتاب هو أن انتباه الناس سيُصرَف إلى العلوم، فراجت الكتابة بعد بعثة النبي ﷺ فورا، وبدأ الصحابة بالكتابة والقراءة. لقد أمر النبيُّ ﷺ بتدريس الأطفال كلهم في المدينة حتى تعلّم كل طفل من أطفال العرب، بل قد حُفظت الكتب اليونانية بواسطة الإسلام. باختصار، كثر استخدام القلم لدرجة لا نظير لها في الأزمنة الخالية.

قد يقول قائل هنا: ما علاقة ذلك بأفضلية القرآن؟ فليكن معلوما أنه من الضروري لإثبات كمال القرآن وأفضليته أن يكون مخاطبوه علماء لا الجهال. يقول الله تعالى إنه سيحلّ زمن العلم بعد نزول القرآن، وسيصبح الناس خبراء في العلوم المختلفة، ومع ذلك سيبقى هذا الكتاب موجودا في العالم ويُقرأ ولن يغلبه أحد. فبعد هذه النبوءة راجت تلك العلوم في بلاد العرب وغيرها لدرجة لا نظير لها في أي زمن خلا.

ترويج العلوم المتجددة

النبوءة الثانية هي: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي اقرأ هذا الكتاب باسم الله الذي علّم ما لم يعلّمه من قبل قط. ومن المعروف أنه حيثما تكثر الكتابة تكثر معها العلوم ويبيّن الناسُ أمورا جديدة. ولكن يمكن أن تكون هناك كتابات عبثية أيضا. يقول الله تعالى: سأعلّم الناس الآن أمورا -دينية أو دنيوية- لم يعرفها العالم من قبل.

فقد جاء القرآن الكريم بعلوم ليست في التوراة ولا في الإنجيل ولا في أيّ كتاب آخر. ثم بدأت العلوم الأخرى أيضا تنكشف بواسطة القرآن الكريم. إن قواعد الشعر وعلم المعاني والبيان وقوانين الصرف والنحو وغيرها لم تكن موجودة في العرب، فروّجها المسلمون. كان شغل العرب الجهال الشاغلُ هو النهب والسرقة. ولكنهم

اطّلعوا بعد نزول القرآن الكريم على علوم لم يعرفوها منذ آلاف السنين وصاروا حملة علوم العالم كله. فقد قاموا بتراجم كتب العلوم الإغريقية ثم تُرجمت منها في أوروبا. عندما وصل المسلمون إلى إسبانيا ترجموا تلك الكتب ثم استفاد أهل أوروبا من هذه التراجم.

باختصار، بدأت بعد: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ سلسلة التغيير حتى انتشر في العالم ما لم يكن يعلم من قبل، وقد اخترع الناس علوما لم تكن موجودة من قبل، وأوجدوا مبادئ جديدة لكل العلوم مثل علم الأخلاق، علم النفس، العلوم، علم القضاء. كذلك اخترع المسلمون علم الرواية، وعلم الكلام، ودوّنوا قوانين الحكومة. كان القانون الروماني سائدا من قبل ولكن المفكرين الأوروبيين اعترفوا بأنفسهم أن القانون الإسلامي أفضل منه. اكتشف المسلمون علم الصحة، وعلم التصوف وعلم الرياضيات. باختصار، من ناحية بيّن القرآن الكريم أمورا لم يعرفها العالم من قبل، ومن ناحية ثانية ظهرت علوم دنيوية لا يمكن للعلوم القديمة أن تواجهها لحظة واحدة. هذه الأنباء الثلاثة تكفي دليلا على كون القرآن الكريم كتاب الله.

شهادة أخرى على أفضلية القرآن الكريم

إضافة إلى النبوءات المذكورة آنفا يقدم القرآن الكريم شهادة رابعة على أفضليته فيقول: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، أي أن معارف هذا الكتاب وحقائقه تنكشف فقط على الذين هم مقربون عند الله والذين طهّرهم الله بنفسه. لقد نزل القرآن في لغة كان الناس يعلمونها، إن كلماته هي نفسها التي يستخدمها الناس عادة. إن علماء اللغة العربية موجودون في العالم، ولكن معارف القرآن لا تنكشف عليهم، وإنما تنكشف على الذين يؤمنون بكونه كلام الله، ويُنشئون في أنفسهم الطهارة والنزاهة. هل لإنسان أن يضع عن تأليفه شرطا أنه لن يفهم معانيه إلا من كان مقربا إلى الله؟ لا يسع أحدا أن يضع شرطا مثله عن تأليفه. فالكتاب الذي كان في لغة معروفة

ولكن انكشاف معانيه لا يكون مرتبطا بالقوى الدماغية والعلوم الظاهرية بل هو منوط بالعلاقة بالله، فلا بد من الاعتراف بأنه من الله حتما وإلا كيف لا يكون انكشاف علومه منوطا بالعلوم والتدبر الظاهري؟ الغريب في الأمر أن مطالب جميع الكتب الإلهامية سوى القرآن الكريم تنكشف على الذين يعرفون لغة ذلك الكتاب. ولكن هناك شرط عن القرآن الكريم أن علومه تنكشف على من كان على صلة صادقة بالله تعالى وإن لم يكن عالما كبيرا ظاهريا. فمثلا إن علوم التوراة والإنجيل والزند أفستا[١] في أيدي العلماء بالعلوم الظاهرية ولكن علوم القرآن الكريم ظلت تنكشف دائما على أيدي العلماء الروحانيين والأولياء فقط مثل السيد عبد القادر الجيلاني ومحيي الدين ابن عربي ومولانا الرومي، والإمام الغزالي والسيد أحمد السرهندي، وشهاب الدين السُهروردي، والشاه ولي الله وغيرهم. فهؤلاء هم الذين قدروا على فهم علوم القرآن وتفهيمها الآخرين. لا شك أن بعض العلماء بالعلوم الظاهرية أيضا ألّفوا تفاسير للقرآن ولكنهم أخطأوا أخطاء كبيرة أدت إلى إضلال الناس. ولكن الصوفية الذين كانوا على صلة بالله تعالى أصلحوا تلك الأخطاء على خير ما يرام.

حل مُشكل القرآن بواسطة العلماء الروحانيين

فمثلا ورد في القرآن عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٨)... أي كان موقنا أننا لن نعرضه للعسر. يقول بعض المفسرين عن تعبير: ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن يونس زعم أن الله لا يستطيع أن يبطش به. ولكن يقول محيي الدين بن عربي رحمه الله أن معنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو: "لن نضيّق عليه"[٢]. أي كان يونس عليه السلام موقنا أن الله تعالى لن يوقعه في عسرة بل سيكون معه في كل مشكلة ومصيبة.

---

[١] الزندأفستا كتاب مقدس للزرادشيين. (المترجم).

[٢] تفسير القرآن الكريم؛ لمحيي الدين بن عربي.

باختصار، قد تعثّر علماء الظاهر كثيرا في موضوع عصمة الأنبياء، ولكن الصوفية عُصموا من ذلك بل قاموا ببحوث شيّقة جدا لإثبات عصمة الأنبياء.

كشف ابن عربي رحمه الله عن خلق العالم

يقول محيي الدين ابن عربي عن خلق العالم أنه قد علم في الكشف أن العالم اكتمل في عدة مئات من آلاف السنين، وبعد اكتماله بسبعة عشرة ألف عام وُلد الإنسان. يقول الناس اليوم بأن هذا ثبت بواسطة علم طبقات الأرض، بينما قال محيي الدين بن عربي عن الإنسان في الفصل السابع من المجلد الأول في تأليفه الفتوحات المكية: هو آخر جنس موجود من العالم الكبير، وآخر صِنف من المولَّدات[١]. المراد من المولدات الثلاثة هو الجمادات والنباتات والحيوانات. ويقول إن زمن المولدات الثلاثة هو واحد وسبعون ألف سنة.

كذلك قال بعض الصوفيّة مستدلين بالقرآن الكريم إن الأرض كروية. فمثلا يقال عن "كولومبوس" إن فكرة السفر إلى أميركا خطرت بباله لسبب وحيد هو أنه كان قد سمع من مسلمي إسبانيا أن الأرض كروية. إذن، كتب الصوفية أن الأرض كروية ولكن أصحاب العلوم الظاهرية لم يفهموا ذلك. كذلك كتب الصوفية والأولياء عن بقاء النبوة أنه يمكن أن يأتي الأنبياء خادمين لرسول الله ﷺ كما أن محيي الدين ابن عربي يعُدّ المسيح المقبل فردا من الأمة ونبيا أيضا. ولكن علماء الظاهر أنكروا ذلك.

تحدي المسيح الموعود عليه السلام

انظروا في العصر الراهن مثلا أن أصحاب العلوم الظاهرية لم يفهموا من القرآن شيئا، فأرادوا أن يحتموا تحت مظلة المعذرة وقالوا بأنه قد وردت في القرآن عدة أمور آمن بها الآخرون، وهذا لا يعني أن القرآن الكريم أيضا يصدّقها. ولكن المسيح

[١] الفتوحات المكية؛ لمحيي الدين بن عربي، المجلد ١، ص: ١٢١، طبعة مصر.

الموعود الصَّلَيْهِ دحض هذا الأمر وأثبت صدق القرآن الكريم، وأعلن إلى جانب ذلك وقال: دلُّوني على شيء يتعلق بالروحانية وليس مذكورا في القرآن الكريم، أو قدّموا اعتراضات تقع على ما قاله القرآن الكريم. واستنبط من القرآن الكريم معارف يُعجَب بها قراؤها بشدة متناهية، ويُبدون أسفهم على غفلة الناس وغباوتهم الذين جعلوا القرآن الكريم عرضة للاعتراضات لعدم فهمهم إياه. ولقد منّ الله تعالى على جماعة المسيح الموعود الصَّلَيْهِ أيضا أن أفراد جماعته قادرون على بيان معارف القرآن التي هي خافية على الآخرين في العالم.

القرآن الكريم يقدم الدليل على ما يدّعيه

إن أهم نقطة من العلوم والمعارف القرآنية التي كُشفت بواسطة المسيح الموعود الصَّلَيْهِ هي أن ما يدّعيه القرآن الكريم يقدم عليه دليلا بنفسه ولا يمد يده أمام الناس للعون. وإلا ما فائدة كتابٍ يدّعي ولا يقدم دليلا؟ يقول المسيح الموعود الصَّلَيْهِ بأن الكتاب الذي لا يحتاج إلى عون الآخرين هو وحده يمكن أن يكون من الله، وليس الذي يدّعي ويترك الأمر الأصعب أي تقديم الدليل على الآخرين، لأن كل إنسان يستطيع أن يدّعي ولكن إثبات دعواه بدليل صعبٌ.

تعليم القرآن عديم النظير عن الأخلاق

الأمر الثاني الذي بيّنه المسيح الموعود الصَّلَيْهِ هو أن تعليم الأخلاق الذي قدّمه القرآن الكريم لا يمكن لأيّ دين في العالم أن يأتي بنظيره. فقد قدم الصَّلَيْهِ في ضوء علوم القرآن مبادئ الأخلاق التي لا يستطيع الخبراء البارعون في علم النفس المعاصرون أيضا أن ينبسوا ضدها ببنت شفة. بل قد عُلم أن كثيرا من الأمور التي كان المعارضون يعارضونها من قبل بدأوا الآن يؤيدونها بعد بيان المسيح الموعود الصَّلَيْهِ. لقد استنبط المسيح الموعود الصَّلَيْهِ تعليم الأخلاق من القرآن الكريم نفسه وألقى ضوءا على أسئلة مثل: كيف تتولد الأخلاق الفاضلة، وما هي

العراقيل في سبيل الحصول عليها؟ وما هي وسائل التحلي بالأخلاق الفاضلة؟ فقد قدم الطَيْلا كل هذه الأشياء مستنبطا من القرآن الكريم وبذلك أثبت للعالم أفضلية الإسلام.

إثبات حقيقة النبوة

ثالثا: لقد أثبت الطَيْلا حقيقة النبوة من القرآن الكريم. الكتب السابقة كلها ساكتة حول هذا الموضوع. فقد بعثتُ رسائل إلى كثير من القساوسة الكبار طالبا منهم أن يعرّفوا النبوة بحسب الكتاب المقدس. فقال كبار القسس بأنهم لا يعرفون، حتى قال أحدهم: أكتبُ تعريف النبوة ولكن لا أدري أصحيح هو أم خطأ. أما المسيح الموعود الطَيْلا فقد أثبت حقيقة النبوة من القرآن الكريم وقال بأنه إذا نزل الوحي على أحد بشروط كذا وكذا يمكن أن نسميه نبيا وإلا فلا. والقسس الذين كتبوا شيئا عن النبوة فقد اكتفوا بالقول بأن النبي هو الذي يدلي بالنبوءات، وقالوا إلى جانب ذلك إنه قد ورد في الكتاب المقدس ذكر الذين أدلوا بالنبوءات ولكنهم ما كانوا أنبياء، فلم يتمكّنوا من بيان الفرق بينهم وبين الأنبياء الصادقين. ولكن المسيح الموعود الطَيْلا ألقى الضوء في كتبه على هذا الفرق أيضا.

الترتيب العظيم في القرآن الكريم

الأمر الرابع الذي بيّنه المسيح الموعود الطَيْلا هو أن في القرآن الكريم ترتيبا عظيما، ثم أثبت ذلك بينما كان الذين يسمون أنفسهم مسلمين ينكرون ذلك ويقولون بأنه لا علاقة لآيات القرآن الكريم مع بعضها.

النبوءات عن المستقبل في القصص القرآني

الأمر الخامس الذي ذكره المسيح الموعود الطَيْلا هو: ليست في القرآن قصة. وهذا أمر عظيم قلب التفاسير القديمة رأسا على عقب. لقد أوردت التفاسير القديمة قصصا على كل صغيرة وكبيرة وسردت أمورا مضحكة لا يمكن أن يقبلها العقل

البشري بأية حال. أما المسيح الموعود عليه السلام فقال بأن الوقائع المذكورة في القرآن الكريم كلها نبوءات وليست قصصا بل هي وقائع كان مقدرا لها أن تتحقق في المستقبل وقد تحققت.

المعنى الصحيح لنبوءة تتحدث عن قرب القيامة

سادسا: بيّن عليه السلام المفهوم الصحيح للنبواءت التي تتحدث عن قرب القيامة وفنّد ما كان شائعا من الأقوال اللاغية.

دحض الأديان الباطلة كلها

الأمر السابع الذي قدّمه المسيح الموعود عليه السلام أمر عظيم جدا ويستطيع كل إنسان أن يفهمه، وهو أن في القرآن الكريم دحض الأديان السابقة واللاحقة كلها. ما أسهل هذا الأمر الذي يبين أفضلية القرآن الكريم. كان بإمكان أتباع "برهمو سماج" أن يقولوا: أين تفنيد مذهبنا في القرآن؟ وكان بإمكان البروتستانت أن يقولوا: أيّ دليل يقدّمه القرآن الكريم ضدنا؟ بل كان بإمكان أتباع كل دين ومذهب أن يطالبوا بذلك. ولكن لم يقبل أحدهم تحدي المسيح الموعود عليه السلام. وهذا التحدي قائم على حاله الآن أيضا. وإذا طالب شخص منطقي بذلك عن دينه سوف نثبت تفنيد دينه من القرآن الكريم فورا.

الكتاب الكامل بحد ذاته

الأمر الثامن الذي بيّنه المسيح الموعود عليه السلام هو أن القرآن الكريم ليس محتاجا إلى أيّ كتاب آخر بل هو كامل بحد ذاته ويشمل جميع العلوم الضرورية. ولا يكتفي بدحض الأديان الباطلة فقط بل يقدّم أيضا كل ما هو ضروري. كان بإمكان الناس أن يختبروا هذا الادعاء أيضا لأنه قد تم الاطلاع على بعض الأخلاق والمواهب الجديدة فكان بإمكانهم أن يسألوا: أين ورد ذكرها في القرآن، ولكن لم ينهض أحد للمبارزة.

كتاب يهب مراتب عليا للتقدم الروحاني

الأمر التاسع الذي قدمه عليه السلام هو أن القرآن الكريم يتضمن مبادئ عليا لترقيات الإنسان الروحانية وقد فُتحت له أبواب قرب الله تعالى وأُخبر بكافة الخطط التي بواسطتها يمكنه نوال تلك الترقيات كلها.

حقيقة البعث بعد الموت

عاشرا: أثبت عليه السلام حقيقة البعث بعد الموت، وما هي كيفية الجحيم ومن سيدخلونها وما هي أنواع المعاناة فيها؟ وبيّن أيضا: من الذين يكونون في الجنة؟ وما هي ملذاتها؟ وهل الجنة دائمة أم لا؟ باختصار، بيّن كل شيء يتعلق بهذا الموضوع ولكني لا أستطيع أن أقدم هنا أمثلة على تلك الانكشافات بل يمكن الرجوع إلى كتب المسيح الموعود عليه السلام ولا سيما إلى كتابه عليه السلام: "فلسفة تعاليم الإسلام" وتأليفي: "الأحمدية" إذ قد ذُكر فيهما هذا الموضوع.

تعريف المطهَّر

يجب التذكّر أن الكلمة المستخدمة في: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، هي "المطهَّر" وليست "الطاهر". والسبب في ذلك أن الطاهر هو الذي يحوز الطهارة نتيجة الزهد والورع، أما المطهَّر هو الذي يُجذب إلى الله تعالى بسبب صلة داخلية. ويمكن الاطلاع على المطهَّر بواسطة قول الله تعالى أو فعله، وليس نتيجة عمل أحد أو بقول الناس. فانظروا مثلا أن الذين فسروا القرآن تفسيرا صحيحا كانوا حصرا أولئك الذين أُكرموا بوحي الله وقربه وحالفتهم نصرته سبحانه وتعالى.

السؤال والرد عليه

هنا يمكن أن ينشأ سؤال وهو أنه قد ثبت بالأدلة أن القرآن الكريم أفضل من كتب الناس الأخرى من حيث المصدر، ولكن كيف يثبت أنه أفضل من الكتب الأخرى الإلهامية أيضا؟ وجوابه أنه أفضل من الكتب الإلهامية أيضا لأنه وإن كانت

تلك الكتب من الله ولكن بعض الصفات لم تظهر في عصرها. فمثلا إذا كانت الخيانة منتشرة على نطاق واسع في زمن من الأزمنة ظهرت على نبي ذلك العصر صفة إزالة هذه السيئة. وإذا كثرت الخشونة والقسوة في الناس ظهرت على نبي ذلك العصر صفة الرحمة والحب واللين واللطف. ولكن ليس هناك كتاب من الكتب السابقة أظهر صفةِ "رب العالمين". فكان كتاب مثلا مُظهر صفتين أو أربع صفات أو خمس صفات، ولكن لم يسبق كتاب كان مظهر صفة رب العالمين. كذلك لم يكن هناك كتاب مظهر الكمال مثل القرآن الكريم، أو مظهر صفة الله "القيوم" لأنه كان مقدرا لكل كتاب قبل القرآن الكريم أن يُنسَخ. ولكن لما كان القرآن الكريم سيبقى إلى الأبد لذا ظهر فيه كلٌّ من هذه الصفات الثلاث. والصفات التي ظهرت في الكتب السابقة أيضا لم تظهر كلها في الكتب كلها، بل ظهرت في بعضها صفة واحدة وذُكرت بعضها في بعض الكتب الأخرى، ولكنها جُمعت كلها في القرآن الكريم. إذن، القرآن الكريم أفضل من حيث المصدر أيضا.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا الموضوع قائلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ٢).

أي الحمد والشكر لله مُظهر كمالات السماء والأرض، وهو يرسل لإظهار الكمالات ملائكته الذين لهم عدة أجنحة أي يأتون معهم بالملاذ من عدة أنواع. من معاني الجناح: الملاذ والحماية أيضا. والملائكة التي تنزل تكون ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ويزيد الله في خلقه بقدر ما يشاء، أي يزيد في أجنحتها بحسب مقتضى الأمر.

لقد قيل هنا إن الحمد كله لله خالق الأرض والسماء. وفي ذلك إشارة إلى أن في نزول القرآن أسباب ظهور كمالات السماء والأرض، وبحسب ذلك ينزل

الملائكة. إذن، إن نزول القرآن الكريم يشمل جميع الصفات التي يرتبط بها هذا العالم، وبواسطته ظهرت صفة: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. الحق أنه ما لم يجتمع العالم كله على مركز واحد لا يمكن حمد الله من كل النواحي. لا يمكن القول: "الحمد لله" ما لم تظهر صفة "رب العالمين" من حيث العالم كله. لذلك قال تعالى أن التعليم الذي جاء الآن قد جاء بحسب: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾. وكان قد أتى من قبل لإظهار كمالين أو ثلاث أو أربع كمالات، أما نزول القرآن الكريم فقد وُضعت فيه أسباب ظهور كمالات الأرض والسماء.

صفات الله ومظاهرها

هنا يجب التذكّر أيضا أن ذكر صفة في كتاب أمرٌ وكونه مظهرا لتلك الصفة أمر آخر. لقد ورد ذكر صفة رب العالمين في كتب أخرى أيضا ولكنها لا تدّعي كونها مظهرا لتلك الصفة. أما عن القرآن الكريم فيقول الله تعالى بكل وضوح: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٣)، أي قد نزل هذا الكتاب بناء على صفة "رب العالمين". وما دام هذا الكتاب يخاطب العالمين كلها لذا ذُكرت فيه الصفات كلها. فالقرآن الكريم مظهر صفات الله كلها.

الأفضلية من حيث الجمال الظاهري

هناك وجه آخر للأفضلية (وقد سبق أن بيّنتُه تحت رقم ١٢) هو تفوّقه على الأشياء الأخرى من حيث الجمال الظاهري لأن الإنسان بطبيعته يختار ما كان يفوق من حيث الجمال الظاهري من بين الأشياء المماثلة. بل الشيء الأفضل من حيث الجمال الظاهري هو الذي يجذب الإنسانَ إلى نفسه قبل كل شيء. عندما تدبرت القرآن من هذا المنطلق وجدتُه جميلا جمالا ظاهريا أيضا. بل وجدته جميلا لدرجة أن سعى أهل أوروبا إلى محو جماله بكل ما كان في وسعهم ولكنهم خابوا وخسروا. لقد اختار أهل أوروبا أربعة طرق لمحو هذا الجمال:

أربعة اعتراضات للمسيحيين

الأول: قالوا بأن أسلوب القرآن الكريم سخيف جدا، والعياذ بالله.

الثاني: قالوا بأن فيه كلمات غير عربية كثيرة.

الثالث: قالوا بأن فيه تكرارًا غير مبرر إذ يكرر الكلام بلا جدوى.

الرابع: قالوا بأنه لا ترتيب في مضامينه، إذ يبدأ بإيراد الأحكام ثم يتطرق في المكان نفسه إلى المواعظ، ثم تُذكر الحروب، ثم يُنهَر المنافقون في الوقت نفسه.

ولكن هذه الاعتراضات ليست صحيحة كما سأبيّن لاحقا بل إن حسن القرآن الكريم الظاهري أيضا يجعله أفضل من كتب العالم كلها، وهذه الأفضلية ثابتة من عشر مزايا.

فصاحة لغة القرآن الكريم

إن مزية القرآن هذه كبيرة لدرجة أن اعترف بها ألد أعدائه أيضا. أما العرب فقد استسلموا أمامها وعجز أمامها كبار الأدباء. وأسرد لكم حادثا حول هذا الموضوع.

كان لبيد[١] من فحول الشعراء العرب السبعة المعروفين جدا. كان يعارض الإسلام في البداية ثم آمن بعد ذلك، بعد إسلامه كان يقرأ القرآن بكثرة وترك نظم الأشعار. ذات مرة كتب عمر رضي الله عنه في عهد خلافته رسالة إلى المغيرة بن شعبة (والي الكوفة) أن يرسل إليه أجمل أشعار وليجمعها شعراء معروفون في منطقته. اختار المغيرة بن شعبة شاعرين هما الأغلب[٢] ولبيد وقال لهما بأن الخليفة أمر أن تكتبا له بعض الأبيات. فنظم الأغلب قصيدة وقال لبيد بأني تركتُ نظم الأبيات منذ أن آمنتُ. وعندما أُلِّح عليه بذلك كتب بضع آيات من سورة البقرة وقال: لا أعلم شيئا سواها.

[١] الشاعر لبيد بن ربيعة العامري، وهو من شعراء المعلقات، وقد أسلم وكان من الصحابة. (المترجم)

[٢] الأغلب بن عمرو العجلي، من الشعراء المخضرميين؛ وكان معروفا بنظمه الأرجاز الطويلة. (المترجم)

وقال: لا أعلم شيئا سواها. لقد عاقب المغيرةُ لبيدا وشفع للأغلبَ عند عمر ﵁، ولكن عمر ﵁ استمتع بقول لبيد كثيرا وقال ما مفاده: ما قاله لبيد يدل على إيمانه بأنه مع كونه شاعرا كبيرا وقديرا يستحيي أن يتفوه بكلمة سوى القرآن الكريم.

يعترض النصارى على ذلك ويقولون: ألم يسمع لبيد القرآن من قبل حين كان يعارض الإسلام؟ والحق أنه قال ذلك مدفوعا بالطمع. ولكن دليلهم هذا يعرض المسيحيةَ نفسها للاعتراض لأن الناس يقرؤون الإنجيل مرارا ويسمعون مواعظ المسيحيين كثيرا ولا يؤمنون بالمسيحية، ثم يؤمنون بها في وقت من الأوقات، فهل يؤمنون بها بدافع الطمع؟ بل من الطبيعي جدا أن ينكر المرء أمرا ثم عندما ينكشف عليه صدقه يؤمن به. هذا يحدث في كل دين. إن كثيرا من الناس ينضمون إلى الهندوسية، فهل يقال لهم بأنكم سمعتم عن الهندوسية إلى مدة طويلة ولم تنضموا إليها، فهل انضممتُم إليها الآن نتيجة الطمع؟ هذا دليل واهٍ بكل معنى الكلمة ولا يمكن أن يقدّمه أحد إلا إذا كان هو طامعا بنفسه.

تؤلَّف في العالم كتبٌ جيدة بشكل عام وتنال القبول أيضا، ولكن يجب الانتباه هل من كتاب أعلن مؤلفه سلفا أنه سيكون أعلى وأفضل من الكتب كلها وسينال قبولا واسعا؟ يقول أهل أوروبا إنه ليس لأحد أن يكتب كلاما مثل شكسبير. من غرائب قدرة الله أنه منذ أن بدأ الأوروبيون يوجهون الاعتراضات إلى القرآن الكريم تشكَّلت مؤسسات تعترض على عبارات شكسبير. ولكن لو قبلنا جدلا أنه كان كاتبا بارعا فيجب أن نرى هل قال عند الكتابة أن كلامه سيكون أفضل وأعلى من غيره؟ كلا، لم يقل هذا مطلقا، بينما قال القرآن الكريم من البداية أن العالم سيعجز عن منافسته. لقد قرأتُ كتابا ألّفه "بينيت" يقول فيه بأنه عندما ألّفه حسب في نفسه أنه سينال قبولا واسعا، ولكن بدأ ناشروه يتلكأون ولم يقدره عامة الناس أيضا. إذن، لا يعرف أحد هل سينال تأليفه قبولا أم لا. ولكن القرآن الكريم قال سلفا أن هذا الكتاب أفضل الكتب وسيبقى الأفضل إلى الأبد.

كان مدار كمال بلاد العرب على البراعة في اللغة. وقد نزل القرآن فيها وفي لغة أهلها، وأحدث تغيُّرا بحيث غيّر مجرى كلام العرب كليا فاختاروا أسلوب القرآن. وتغيّر أسلوب كتابتهم أيضا بحيث تلاشى الأسلوب القديم وسار الجميع على أسلوب القرآن الكريم.

يقول البعض عن هذا الوضع أن هذا ما كان متوقعا أن يفعله المؤمنون بالقرآن. ولكني أقول: لماذا لم يفعل ذلك المؤمنون بالكتاب المقدس والإنجيل والفيدات، إذ كان هؤلاء أيضا يحسبون تلك الكتب من الله تعالى؟

كلمات أجنبية في القرآن

الاعتراض بورود كلمات من لغات أجنبية في القرآن أيضا ليس صحيحا. لا تسلم لغة –سواء أكانت جديدة أم قديمة– من كلمات من لغات أخرى. كان الاعتراض في محله إن لم تكن تلك الكلمات مستخدمة في العربية وقال العرب بأنهم لا يفهمونها. فلما كان العرب يفهمون تلك الكلمات وكانت متداولة بينهم وصارت جزءا من العربية فلا اعتراض عليها وإن كانت من لغة أجنبية. بل أقول بأنه وإن كان القرآن وحده أدخل تلك الكلمات في العربية فإن هذه الظاهرة تدل على قوة القرآن الكبيرة أن تلك الكلمات راجت بين العرب لأن الذي لا يتسم كلامه بالقوة والقدرة لا يُتَبنَّى كلامُه. لذلك يقال بأنه لو أخطأ ضليع في اللغة في كلامه لقبله الناس كاختراع ولن يحسبوه خطأ، لأنه يتقن اللغة إتقانا كاملا. إذن، لو وردت في القرآن الكريم كلمات جديدة وصارت جزءا من العربية فهذه معجزة أخرى للقرآن الكريم. ولكن ليس صحيحا أن في القرآن كلمات أجنبية. الحق أن منشأ هذا الخطأ هو أن بعض الكلمات في العربية والعبرية متماثلة، بل بعض التعابير أيضا اختلطت مع بعضها. وبالنتيجة فُهم خطأ أن في القرآن كلمات أجنبية. فمثلا هناك كلمة "فرقان" ومشتقاتها كلها موجودة في العربية، فمن الخطأ القول إن القرآن أخذها من لغة أخرى. كذلك يعترضون على كلمة "رحمن" مع أنها كلمة عربية.

حقيقة كلمة "رحمن"

الحق أن الباحثين الأوروبيين ارتكبوا هذا الخطأ نتيجة سوء فهم آية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان: ٦١)، فيقول المعترضون بأن هذه الآية شهادة على أن كلمات أجنبية وردت في القرآن فعلا لأن العرب قالوا: لا ندري ما الرحمن. لو لم تكن هذه الكلمة غير عربية لما قالوا ذلك. ولكن الحق أن المعارضين لم يفهموا معنى هذه الآية. الكفار لم يعترضوا على كلمة "رحمن" بل على مصطلح قدّمه القرآن الكريم من خلال كلمة رحمن. لقد قدّم القرآن الكريم هذا المصطلح الجديد الذي لم يكن متداولا في العرب، كما أن "الصلاة" كلمة عربية ولكن القرآن الكريم قدّم صلاة اصطلاحية فكان بإمكان الكفار أن يقولوا بأنهم لا يعرفون ما هي الصلاة.

إذن، اعترض هؤلاء الناس على مصطلح إسلامي في الحقيقة، وقالوا بأنهم لا يعرفون معناه الذي يبينه القرآن. والمعلوم أن المصطلح الجديد يكون ضروريا للعلم الجديد، ومثال ذلك كما ورد في القرآن الكريم من ناحية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم: ٥)، وورد في سورة هود أن معارضي شعيب قالوا له: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩٢). ولكن هذا لا يعني أن شعيب عليه السلام كان يتكلم بلغة ما كانوا يفهمونها بل المراد أنهم لم يفهموا ما كان يبيّنه شعيب عليه السلام من أمور دينية وما يقدمه من المسائل.

استخدام كلمة "رحمن" عند العرب

الكلمات التي استخدمها القرآن الكريم كانت متداولة بينهم من قبل بما فيها كلمة "رحمن" أيضا. لقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ (الزخرف: ٢١)، باختصار كانوا يستخدمون كلمة "رحمن" ولكن القرآن وصف الرحمن بأنه مَن يُنعم بغير جُهد. وهذا ما لم يقبله هؤلاء الناس لأن قبوله كان يُبطل

شركَهم. إذن، إن التعبير: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ لا يعني أن العرب لم يعرفوا كلمة "الرحمن"، بل المراد من ذلك أنهم ما كانوا يقبلون المصطلح الذي قدّمه القرآن الكريم. إذن، إن فصاحة القرآن الكريم دليل بيّن على حُسنه. وإن فصاحة القرآن الكريم هذه متقدمة لدرجة أن تأثيرها لا يزال موجودا إلى اليوم على علم الأدب، وقد وضعت تقدُّمَ اللغة العربية على طريق معين حتى كان المؤلفون المسيحيون أيضا يمدحون القرآن الكريم وأُدخلت أجزاء القرآن الكريم كنماذج أدبية في مناهج مدارسهم. إن جعل الناس في بلد جاهل مشغوفين في كتاب وعشاقا له وتحويل الجهال إلى العلماء ليس أمرا عاديا.

ترتيب القرآن الكريم هو الأعلى

إن مزية القرآن الكريم الثانية الظاهرية هي ترتيبه الأعلى. إن الترتيب الأعلى لا يتعلق بحد ذاته بالروحانية، لأن الترتيب وحده يوجد في كلام الإنسان أيضا. ولكن لا يمكن الإنكار أن الترتيب مزية ظاهرية تجعل الكلام جميلا. والقرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى كلها من منطلق هذه المزية أيضا. يبدو في الظاهر أنه كلام يعوزه الترتيب ولكن إذا أمعن المرء النظر فيه لوجد أنه يتحلى بترتيب من الدرجة العليا. بل حيثما يتراءى عدم الترتيب في بادئ الرأي يوجد في المكان نفسه الترتيب من الدرجة العليا. وهذه هي المزية الكبرى للقرآن الكريم. لا يمكن لأحد في العالم أن يؤلف كتابا يبدو عديم الترتيب في الظاهر ولكن يظهر للعيان فيه الترتيب الأعلى عند التأمل والتدبر. فمن منطلق هذا الحسن أيضا ليس القرآن مماثلا لكتبٍ أخرى بل هو أفضلها لأن اتّباع الترتيب المعروف أمر عادي وكل عاقل يستطيع أن يفعل ذلك. أما القرآن الكريم ففي ترتيبه بعض المزايا التي لا توجد في كتب أخرى، وتلك المزايا هي:

بعض المزايا في ترتيب القرآن

(١): إن ترتيبه مخفي عن الأعين في الظاهر ولكن بالتأمل والتدبّر يظهر للعيان ترتيب دقيق جدا ولا نظير له في أيّ كتاب بشري، بمعنى ألا يكون فيه ترتيب في

الظاهر ولكن بالتدبر والتأمل يلاحَظ الترتيب المبني على التسلسل والدقة الكبيرة والفلسفة.

لا أستطيع في الوقت الحالي أن أضرب أمثلة على الترتيب القرآني لأن كل مكان بيّنتُ ترتيبه يمكن أن يقال بأني اخترتُه بوجه خاص. قلتُ لبعض الإخوة أن يستخرجوا لي أيّ مقطع لا يعرف عامة الناس الترتيب فيه بل تبدو لهم الجمل غير مترابطة في الظاهر ولكن من المؤسف أن مطالعتهم لم تكن واسعة فلم يقدروا على تقديم أيّ مثال على ذلك. أما أنا فلم أستطع أن أستخرج مقطعا مثله بسبب إصابتي بالصداع وإلا لبيّنتُ مدى دقة الترتيب في القرآن.

(٢) القرآن الكريم يبيّن معانيه بحسب علم النفس دون أن يشير إلى ترتيبه. والسؤال أو الحاجة التي تُقدَّم بمناسبة يردّ عليها في الآيات التالية، بمعنى أن كل آية تالية تمثّل جوابا على أسئلة تنشأ من الآيات السابقة. ولا يوجد هذا الترتيب الدقيق في أي كتاب آخر. يقول لوثر عن الكتاب المقدس:

The Gospels do not keep order in their account of miracles and deeds of Jesus. This is of small moment. When there is a dispute about Holy Writ and no comparison is possible let the matter drop.

Emil Ludwidg in his book "Son of Man" says: Almost all the contradictions arise out of the disorderly nature of the reports.

These Gospels, the four main sources of the knowledge, contradict one another in many respects and are upon some points contradicted by the scanty non-Christians Authorities.

Moreover, there is confusion in serial arrangement, a confusion, which has been deplored through-out centuries. [1]

أي لم يتم الاهتمام بترتيب الأحداث في الأناجيل، فكلما يحدث شجار بشأن بياناته ولم يتمكن المرء من حلها وجب تركه.

[1] *The Son of Man*, Emil Ludwig. Garden City Publishing, 1928. p. xi-xii

لقد ألّف إميل لودفيغ (Emil Ludwidg) كتابا وقال فيه إن الإنجيل الحالي نجده بلا ترتيب تماما. وقال معلّقا على ذلك في كتابه: "ابن آدم" إن التعارض الذي نجده في الأناجيل إنما سببه هو عدم الترتيب في الأحداث. فالأناجيل التي هي المصادر الأربعة الكبرى لعلمنا، تتعارض بيانات بعضها مع بعض في عدة أمور، وقد عدّها المؤلفون غير المسيحيين أيضا متعارضة فيما بينها. وإضافة إلى ذلك هناك مشاكل كثيرة في ترتيبها أيضا لدرجة أنّ المسيحيين أيضا لا يزالون يتأسفون عليها منذ قرون.

كذلك إذا قرأنا الفيدات لا نجد فيها أيّ ترتيب قط ولا تُعلم طبيعة العلاقة بين حادث وآخر.

كثرة المعارف والحقائق في آيات وجيزة

(٣) الميزة الثالثة التي تُبرز حسن القرآن الكريم الظاهري هي كون مضامينه مفصّله مع الإيجاز. فآية واحدة تبيّن معارف ومعاني كثيرة. ويعمل فيها علم الكلام وعلم التاريخ وعلم الأوامر والنواهي عمله في آن معا، وفيها النبوءات عن المستقبل. فبسبب هذه الميزة فإن القرآن الكريم موجَز جدا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن المعارف العظيمة التي ذُكرت فيه لا توجد في الكتاب المقدس ولا في كتب إلهامية أخرى. لقد ذكرتُ مثالا واحدا آنفا أن آية وجيزة تشمل ثلاث نبوءات عظيمة، ولكن خذوا أي آية قرآنية سوف يتضح لكم هذا الأمر. ولمزيد من الشرح والتفصيل آخذ الآية الأولى نزولا.

تفسير رائع لـ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

يقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. في هذه الآيات القليلة أُشير أولا إلى التاريخ، بحيث قال ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي إذا بدأت بالقراءة سمِّ بالله أولا. وفي ذلك إشارة إلى ما ورد في سِفر التثنية: أُقِيمُ

لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. * وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. (التَّثْنِيَة ١٨ : ١٨-١٩)

ففي: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أُشير إلى النبوءة المذكورة وأُعلن كونه ﷺ مثيل موسى، وذُكر استمرار النبوة. وفي كلمة: ﴿اقْرَأْ﴾ وُجِّه إلى وجوب تبليغ الدعوة. هناك كلام لقراءة المرء بنفسه ولا يكون للقراءة على الآخرين، ولكن الله تعالى يقول عن هذا الكلام بأنه موجَّه إلى العالم كله، فاذهبْ واقرأه على الناس كلهم. ففي ذلك أشير إلى تبليغ دعوة الإسلام.

والأمر الثالث المذكور في: ﴿رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هو أنك ستواجه مشاكل جمّة في سبيل تبليغ هذا الكلام ولكن عليك أن تقرأه باسم ربك الذي خلق الإنسان. وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الكلام ليس لبني إسرائيل أو أهل الهند، بل هو لـ "الإنسان". ولكن ما دام أولئك الذين خاطبوا قوما واحدا واجهوا مصائب ومصاعب كبيرة فكم من المصائب ستواجهها أنت الذي تخاطب العالم كله، ولكن عليك ألا تخاف شيئا لأن هذا الكلام نزل من ربك. فمع أن هذا الكلام موجَّه إلى العالم كله وسيعارضك العالم كله ولكن ربك سيكون معك. وإضافة إلى ذلك تذكّر أيضا أنك ستنال التقدم رويدا رويدا لأن الرب هو من يهب التقدم رويدا رويدا وتدريجا.

والأمر الرابع المذكور هو: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وفي ذلك وجّه أنظار الإنسان إلى أن ولادته ضعيفة جدا فأنّى له أن يكتشف وسائل تقدّمه بنفسه؟ وثانيا: لفت أنظار النبي ﷺ إلى أن الإنسان خُلق من علق، أي أُودع عنصر العلاقة بالله تلقائيا، وهذا الأمر سيساعدك فعليك ألا تقلق ولا تقنط أبدا.

باختصار، في آية وجيزة ذُكر التاريخُ وعلم الكلام وواجبُ التبليغ وخلق الإنسان وقواه الخفية. ولم ينته الأمر هنا بل ذُكرت علوم كثيرة أخرى.

السجع في القرآن الكريم

(٤) السجع ملحوظ في عبارات القرآن الكريم. وإذا اختلّ المضمون نتيجة السجع لا يكون السجع محمودا، ولكن عبارات القرآن الكريم تتسم بصفة أنها لا تحافظ على عظمة المضمون فقط مع كونها مبنية على السجع بل تنكشف معارف جديدة أيضا. ومثالا على ذلك أقدّم سورة الجمعة حيث يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة ٢-٤).

انظروا كيف حُوفظ على الاعتدال في هذه الآيات. معلوم أن هذا الكلام نثرٌ ولكنه يبدو كأنه منظوم، ومع ذلك ليس فيه حرف زائد. الشاعر يضطر إلى تقديم الكلمات أو تأخيرها نظرا إلى الوزن، ولكن هذا لم يحدث في القرآن.

الآيات المذكورة تتحدث عن ذلك الزمن ويبدو كأنها شعرٌ، وقد تم الاهتمام بالاعتدال فيها للحفاظ على الوزن، وجيء بعبارة ذات السجع ولكن لم يحدث الخلل في الترتيب، وليس فيها حرف زائد بل كل شيء جاء في محله المناسب.

تفسير الآيات الأولى من سورة الجمعة

يقول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي كلّ شيء يُثبت أن الله بريء من كل عيب. ثم يقول: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، هنا جاءت كلمة "الحكيم" في الأخير بمقتضى السجع، ولو ورد "الملك" في الأخير لما استقام الوزن، لأن المضمون التالي جار على هذا النحو. صفة الله الأولى التي ذُكرت هنا هي "الملك"، ومهمة الملك أن يُصدر أوامر لرفاهية الرعية وبحبوحتهم. لذلك قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ فما دام الله مَلك العالم كله،

لذلك بعث لتبليغ الأحكام إلى رعيته في الأميين رسولا وعيّن نائبا له. ولكن لم يعيّن هذا النائب من الخارج بل منكم حصرا.

الصفة الثانية المذكورة هي: "القدوس"، فقال عنها: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، فهو يريد أن يكون كل ما يتعلق به زكيا وطاهرا لذا أرسل رسوله بآياته ليتلوها على الناس، ويخلق فيهم طهارة ذهنية وروحانية. أي يطهّر ذهن الناس أولا بتعليمهم آيات الله ثم يزكّيهم أي يطهّر أعمالهم.

الصفة الثالثة المذكورة هي: "العزيز"، فقال عنها: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾. من الواضح أنه لا يمكن لأحد أن يعلّم ما لم يكن له تلاميذ. لأن من معاني "العزيز" الغالب لذا فقد قال الله مقابل ذلك بأننا سوف نعطيه جماعة سيعلّمهم ويهبه الغلبة على العالم لأنه أرسله بمقتضى صفته "العزيز".

ثم ذكر ﷻ "الحكيم" كصفة رابعة، وقال عنها: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي سيعلّمهم الحكمة. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ صحيح أن هؤلاء الناس كانوا في ضلال من قبل ولكن هذا الرسول سيجعلهم يؤمنون بهذا الكتاب.

ثم قال: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هذا الرسول سيعلّم بعض الناس الآخرين أيضا الذين لم يلحقوا بهم إلى الآن. قد يقول أحد: يقال إن في عبارة القرآن الكريم سجع ولكن ما هذا الترتيب؟ إذ قد أعيدت الكلمات نفسها التي وردت من قبل، وقد جيء بها من أجل السجع فقط. ولكن لو تأملنا فيها لتبين أنه كان من المفروض أن ترد هذه الكلمات نفسها. والسبب في ذلك أنه عندما قيل: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أن هذا الرسول سيعلّم قوما آخرين أيضا لما يلحقوا بهم، وبذلك قد أخبر أنه سيكون بين الموجودين الآن وبين "الآخرين" فاصل زمني وسيأتي الآخرون بعد فترة من الزمن. كان المراد من ذلك أن القرآن الكريم سوف يُرفع من بين المسلمين بعد فترة من الزمن ثم يعلَّم

للآخرين. ولو لم يكن الفاصل الزمني مقدَّرا لما كانت هناك حاجة لبيان ذلك، إذ من المعلوم أن الأولين يعلّمون الآخرين بطبيعة الحال. بل السبب وراء هذا الذكر هو أنه كان مقدرا أن يأتي زمان يتلاشى فيه علم القرآن وسيعلَّم العالمُ فيه القرآنَ مجددا بواسطة محمد رسول الله ﷺ.

من الواضح تماما أن الفاصل الزمني بين الأولين والآخرين سينتج عن نقص ما، وإن إقامة الأمر لا يمكن بدون إزالة ذلك النقص. فقد بيّن الله تعالى بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أن هذا الفاصل سيحلّ بسبب غلبة أعداء الإسلام الظاهرية وتقدّمهم العلمي وفي مجال الفلسفة والعلوم، وسيترك المسلمون القرآن الكريم متأثرين بهم، ولكن الله تعالى سيهب المسلمين غلبة مرة أخرى لأنه عزيز. ولما كان مقدّرا أن ينال الآخرون أيضا الحُكمَ وكان رعبهم سيستولي على المسلمين وستُكتشف العلوم التي بواسطتها ستُشنّ الهجمات على الإسلام، لذا يقول الله تعالى بأنه يُظهر عندئذ صفته العزيز والحكيم ويهب المسلمين غلبة على غيرهم وسيدحض العلوم المناهضة للقرآن الكريم لأن الغلبة الحقيقية إنما هي لله تعالى وهو المصدر للعلوم كلها، فسيقيم تعليم رسول الله ﷺ في العالم مرة أخرى على الرغم من وجود تلك الفتن.

باختصار، إن تكرار الكلمات ليس من أجل السجع فقط بل سببه هو الترتيب الذي كان مطلوبا هنا.

التوازن الدقيق في الآيات القرآنية

(٥) الميزة الظاهرية الخامسة في القرآن الكريم هي التوازن الدقيق في كلماته بحيث أنها تشبه النظم مع كونها نثرا في بادئ الرأي. وهذا الأمر يجعل عباراته جميلة لدرجة لم يقدر أيّ كتاب على تقليده إلى يومنا هذا، وإن كان هناك تقليد فهو ناقص. ولما كان القرآن الكريم سيُحفظ عن ظهر غيب لذا كان ضروريا أن يكون إما بصورة الشعر أو مماثلا له. لقد أنزله الله تعالى بحيث يمكن حفظه سريعا ولا يمكن حفظ

أيّ كتاب آخر بالسرعة نفسها. وسبب ذلك يعود إلى توازن كلماته لدرجة أنْ يُخلب لُبّ الإنسان عند قراءتها.

كثرة ذكر الله في القرآن الكريم

(٦) الميزة السادسة للقرآن الكريم هي كثرة ذكر الله فيه لدرجة أنه عندما يفتح الإنسان القرآن الكريم، يبدو له كأنه مليء كله بذكر الله. لذا فإن كثيرا من المعارضين في مكة الذين كانوا ألد الأعداء عندما كانوا يجلسون في مجلس رسول الله ﷺ كانوا يقولون: يجري فيها ذكر الله فقط باستمرار. باختصار، لقد ذكر القرآن الكريم عظمة الله تعالى بالتكرار لدرجة لا يسع الإنسان عندها إلا أن يشعر به حتما، وكل من يحب الله تعالى يسعد كثيرا بالنظر إلى هذه الكثرة. يقول أحد المؤلفين الفرنسيين ما مفاده: قولوا عن محمد ما يحلو لكم ولكن كلامه زاخر بذكر الله، وكلما يذكر شيئا يأتي فيه بذكر الله حتما، ويبدو كأنه عاشق لله. هذه هي شهادة المعارضين عن القرآن الكريم أنه زاخر بذكر الله. والمعلوم أن ذكر الله روح الدين، ولكن الكتب الأخرى خالية منه وتضيع الوقت في القيل والقال، بل يمكن القول بأنها تحتوي على قصص الناس وحكاياتهم أكثر من ذكر الله.

كتاب بريء من قسوة الكلام

(٧) الميزة السابعة للقرآن الكريم هي أنه بريء من قسوة الكلام، وهذا أيضا نوع من جمال الكلام. ليس لأحد أن يقول إن فيه شتائم. وهو ليس بريئا من كلام قاس فحسب بل ينصح بأسلوب لطيف وخلاب: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٩)... أي فيسبوا الله دون الانتباه إلى أن الله مشترك بين الجميع.

ثم يقول: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (الأنعام: ١٠٩)، أي لا تظنوا أنه ما دامت آلهتهم باطلة فلا ضير في شتمها. بل الحق أن هؤلاء الناس أصبحوا الآن

مدمنين على الخمر وبدؤوا يرون الأعمال الطالحة صالحةً، فلو شتمتم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لحدثت الفتنة ولسبُّوا الله.

ما أجمل هذه النقطة لترسيخ دعائم الأمن، ألاّ يُساء إلى كبار قوم والذين هم محلّ احترام عنده، وهذا سيوقف كثيرا من النزاعات والخصومات المتبادلة، ويؤدي إلى توطيد علاقات جيدة.

كتاب بريء من فحش الكلام وسوء الخلق

(٨) الميزة الظاهرية الثامنة في القرآن الكريم هي أنه منزَّه عن فحش الكلام ومن تعليم سوء الخُلق أيا كان نوعه، أي ليس فيه ما تعكِّر دراسته صفو الإنسان أو يخجله بسببه أو ما يبدو سوء الأخلاق. القرآن الكريم كتاب الشريعة لذا يبحث في أمور حساسة جدا ولكنه يبيّنها بأسلوب يعرفها المطّلع على تلك الأمور، ويمر بها مرّ الكرام من لم يبلغ عمرا يؤهّله فهْم تلك الأمور. فمثلا ذُكرت العلاقات بين الرجل والمرأة، وذُكرت الأحكام عن الطهارة، ولكنها ذُكرت بأسلوب جميل للغاية وبدون استخدام كلمات فاحشة. أما الكتب الأخرى فيخجل الإنسان عند قراءتها كما ورد في سِفر التكوين ٢٩ : ٣١-٣٨ حادث بذيء عن لوط عليه السلام. وما دامت النساء جالسات هنا لذا لا أريد أن أقرأ هذا المقتبس ولكم أن تقرؤوه من الكتاب المقدس بنفسكم. أما الإنجيل فليس فيه فحش الكلام ولكن فيه ما يؤثر سلبا على أخلاق الصغار. فقد جاء في إنجيل: "وَفِيمَا هُوَ يُكَلِّمُ الْجُمُوعَ إِذَا أُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ قَدْ وَقَفُوا خَارِجًا طَالِبِينَ أَنْ يُكَلِّمُوهُ * فَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ: هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ وَاقِفُونَ خَارِجًا طَالِبِينَ أَنْ يُكَلِّمُوكَ * فَأَجَابَ وَقَالَ لِلْقَائِلِ لَهُ: مَنْ هِيَ أُمِّي وَمَنْ هُمْ إِخْوَتِي؟ * ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ نَحْوَ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ: هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي * لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي". (إِنْجِيلُ مَتَّى ١٢ : ٤٦-٥٠)

كانت مريم عليها السلام مؤمنة بالمسيح عليه السلام ولم تكن من المعارضين ولكنه مع ذلك لم يأبه بها بحسب بيان الإنجيل. ولكن القرآن يأمر باحترام الوالدين وإن كانا من المعارضين.

لقد ورد ذكر ولادة الإله "إندر" في ريغ فيدا مجلد١، فصل ١٤، دعاء: ١٨ كما يلي:

Not this way go I forth: hard is the passage. Forth from the side obliquely will I issue. Much that is yet undone must I accomplish.[1]

أي قال إندر عند ولادته أنه سيخرج من أضلاع الأمّ. كذلك ذُكر عملُ الحب في أتهرو فيدا مجلد١، الفصل ٣، دعاء ٢٥ وقيل: يا امرأة، اخرُجي من بيت والديك سرًّا واهربي. وفي أتهرو فيدا مجلد١، الفصل ٥، دعاء ٢٥ ص: ٢٣٠ جاء دعاءٌ بذيء جدا بمناسبة ولادة الصبي، ثم رُسمت علاقات الرجل والمرأة بطريقة سيئة جدا بحيث لا يمكن للوالدين أن يعطياها لأولادهما للقراءة. أما القرآن الكريم فقد نزل بلسان طاهر من البداية إلى النهاية فلا يسع ألدّ الأعداء أيضا أن يعترض عليه.

الكلام الدال من الظاهر إلى الباطن

(٩) الميزة التاسعة للقرآن الكريم هي أنه يقود من الظاهر إلى الباطن. فمرة يوجه إلى الله تعالى بذكر المياه الجارية وبذكر السحاب الماطر مرة أخرى. وتارة صُوّر الله تعالى بواسطة البرق والرعد وتارة أخرى أشير إليه ﷻ بذكر الأموات المدفونين. في حين أُشير إلى قدرة الله بذكر الصبيان حديثي الولادة وفي حين آخر ذُكرت الضرورة إلى التوجه إلى الله بذكر النجاسة والقذارة. وفي بعض الأماكن تم التوجيه إلى الله بالترغيب والتحريض في الطهارة. باختصار، بقراءة القرآن الكريم يصعد من الفطرة صوت تلقائيا أن ما يقوله القرآن إنما يرسم صورة قلب الإنسان، بينما لم يتم التوجيه إلى قانون الطبيعة في الكتب الأخرى على هذا النحو.

(١٠) ميزة القرآن العاشرة هي أنه يطابق عواطف الإنسان السامية، فيذكر مزايا خَلق الإنسان وقواه وقدراته، ويرغّب في استخدامها لنيل التقدم. وإلى جانب ذلك

[1] The Hymns of the Rigveda Vol 1, Book 4 Hymn 18, P 416, Benares, 1920.

يرشد أيضا إلى أن تجتنبوا كذا وكذا وإلا ستُحرمون من التقدم. هذه كلها أمور يتأثر بها كل ذي فطرة سليمة.

باختصار، القرآن الكريم كتاب أفضل من حيث الجمال الظاهري أيضا، بحيث لا يسع الإنسان إلا أن يتأثر بقراءة ما جاء فيه. أما الذين يرغبون في القصص فتشق عليهم عباراته دون شك.

الاعتراض بوجود التكرار في القرآن

لقد رددتُ على الاعتراضات التي توجَّه إلى مزايا القرآن الكريم الظاهرية، وبقي الآن اعتراض واحد وهو أن القرآن يكرر جملة واحدة مرارا. الرد الأول على هذا السؤال هو أن هذا الاعتراض يوجهه إلى القرآن الكريم النصارى والهندوس ولكن كتبهم الإلهامية بنفسها عرضة لهذا الاعتراض. فقد كُرِّرت أمور كثيرة في الكتاب المقدس، ويلاحظ التكرار في الأناجيل الأربعة، فما يقوله إنجيل متّى قد أعادته أناجيل مرقس ولوقا ويوحنا. كذلك هناك تكرار في كتب الهندوس. فمثلا يلاحظ التكرار في "اتهرو فيدا" مجلد ١، كتاب ٢، دعاء ٢٧، وكذلك في "ريغ فيدا" مجلد١، كتاب١، دعاء ٩٦. إذا كان التكرار مدعاة للاعتراض فلماذا لا يُعترض على ما سبق ذكره.

إن منشأ هذا الاعتراض على القرآن الكريم هو قلة الفهم والعقل. لإيضاح هذا الأمر سوف آخذ آية واحدة وأشرحها. يقال بأن الآية: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كُرِّرت في سورة الرحمن كثيرا، وأنها وردت في مواضع لا تنسجم معها بل العكس صحيح، فمثلا قد جاء ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلى جانب: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٧-٢٨)، وقد اعترض القسيس "أكبر مسيح" على ذلك وقال بأن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ يعني أن كل شخص في العالم هالك، وأن: ﴿يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ يعني أن الله وحده باقٍ. ثم ورد بعد ذلك: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فما هي المناسبة لذكر النِعَم هنا؟ فهل الموت والفناء نعمة؟

فلسفة الموت

ليكن معلوما بهذا الشأن أن الفناء إنعام للإنسان. لقد عدّت الأديان الأخرى الفناء عقوبة ولكن القرآن الكريم يعدّه إنعاما فيقول في آية أخرى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: ٢-٣). والسبب في ذلك هو ليمتحن أعمال الإنسان الصالحة ويُخرج نتائجها الحسنة...

لقد بيّن الله تعالى في هذه الآيات السبب وراء الموت والحياة قائلا: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، إذن، الموت ضروري لأنه من المستحيل أن تظهر نتائج أعمال الإنسان بدونه لأنه إذا نال الإنسان في هذا العالم جزاء أعماله الصالحة التي كسبها في حياته وكذلك لو عوقب في هذا العالم على سيئاته، فأنى لأحد أن ينكر الأنبياء بل لا بد أن يؤمن بهم الجميع نظرا إلى الجزاء الفوري. ولكن الإنسان ينال الإنعام بعد الجهد والمشقة. إذا كان موسى وعيسى عليهما السلام موجودين في هذا العالم ووجدا في هذه الدنيا درجات أعطاهما الله تعالى بعد وفاتهما لما أنكرهما أحد. أو إذا كان فرعون وأبو جهل يحترقان في النار في هذا العالم لما أنكر الأنبياء أحد. وبذلك لـمَا كان للمؤمنين أن يجتهدوا أو يعملوا شيئا. بينما من المعلوم أن الإنعام يناله المرء بعد الجهد والمشقة. إذن، كان ضروريا أن يكون هناك للجزاء عالم آخر مختفٍ عن الأنظار وبسببه يضطر الناس إلى الإيمان. فقال ﷻ: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. الهدف من الحياة هو أن يعمل الإنسان في أثنائها، والهدف من الموت أن ينال بعده جزاء ما عمل به في الحياة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي هو القادر على الإنعام والعفو عن التقصيرات.

ما دام قد قدِّم ذكر الموت في هذه الآية لذا قد ذكر "العزيز" أولا. ولما كانت الأخطاء تصدر من الإنسان في الحياة لذا ذكر صفة "الغفور" للبيان أن أخطاء ستصدر من الإنسان وسيغفرها الله تعالى. فهذا ليس تكرارا بل وردت تلك الكلمات بناء على حكمة عظيمة.

السبب الثالث للأفضلية

(٣) الوجه الثالث لأفضلية كتاب موحى به هو أن يحقق الحاجات التي يُختَار من أجلها. فمثلا يشرب المرء شرابا لإخماد الظمأ، فمهمته إخماد الظمأ. ولكن لما كان الكتاب بمنزلة معلّم دينٍ لذا سيكون للحاجات الدينية جزءان.

الأول: يجب أن يشرح الدينُ حاجات يدّعي تحقيقها لأنه يهتم بالحاجة أيضا بنفسه.

الثاني: يهيّئ أسبابا لسد تلك الحاجات.

الحاجات الخمس للدين

ليكن معلوما أن هناك خمس حاجات من الدين ثابتة من القرآن الكريم.

الأولى: إثبات وجود الله، والعلمُ بصفاته.

الثانية: بيان قوى الإنسان الروحانية وإثباتها.

الثالثة: بيان أمور ضرورية لإكمال القوى الروحانية وإمدادها.

الرابعة: بيان مآل حياة البشر والدليل عليه.

الخامسة: عدم الاكتفاء بإلقاء الضوء على الأمور المذكورة علميا فقط بل الإيصال إلى الله تعالى فعلا، وإكمال القوى الروحانية والتزويد بفوائد الحياة الآخرة.

هذه الحاجات التي بيّنها الإسلام وتتفق معه الأديان الأخرى أيضا على أن القرآن فريد في تحقيق هذا الهدف ولا يباريه أيّ كتاب ديني في هذا المجال. اقرؤوا الكتاب المقدس من البداية إلى النهاية، واقرؤوا الإنجيل والفيدات؛ لا يتضح من تلك الكتب إلا أنه قد افتُرِض أن العالم كله يؤمن بالله ولا مجال للشك في وجوده، ولكنها لا تقدم أيّ دليل على وجوده. كذلك تلقي ضوءا قليلا جدا على صفاته لدرجة لا يطمئن به الإنسان قطعا. فكانت هناك ضرورة إلى أن يُعطى العلم بوجود الله وتقدَّم الأدلة عليه. إن أكثر ما قدّمته الكتب الأخرى من الأدلة بهذا الشأن هي من خلال

المعجزات. لا شك أن وجود الله يثبت بواسطتها ولكن لا تثبت كل صفة من صفاته. إذا كان كتاب يصف الله غفورا فلا بد أن يقدّم دليلا أيضا على كونه غفورا. وإذا وصفه رحيما، فعليه أن يقدم دليلا أيضا على كونه رحيما. باختصار، إن الأديان الأخرى أهملت هذا الأصل الذي هو أساس الدين في الحقيقة. ثم انظروا مقابله القرآنَ الكريم فهو لا يقدّم وجود الله فقط بل يقدّم عليه الأدلة أيضا، ولا يكتفي بالأدلة فقط بل يُثبت جميع صفاته. وبذلك يقدم مبدأ جديدا وهو أنه لا بد من إثبات كافة الصفات التي لها علاقة بالعبد وإلا يمكن أن يثبت وجود الله ولكن لن تثبت صفاته.

الدليل على صفات الله المتعلقة بالعباد

أضرب حاليا مثالا واحد على ذلك حيث يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣-١٠٤). أي لا يمكن لعيونكم وعقولكم أن تحيط بالله تعالى غير أن الله تعالى يهيّئ أسبابا يأتي العبادَ بواسطتها، أي نتيجة ظهور صفاته لأنه لطيف وخبير. إذن، لقد قدِّمت هاتان الصفتان لإثبات وجود الله، وقيل لإثبات: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ إنه هو اللطيف الخبير. فالذين يقولون بأنه إذا كان الله موجودا فلماذا لا يُرى بالعيون، إنهم مخطئون لأن ما كان لطيفا لا يُرى بالعيون. بل إن تعريف اللطيف هو ما لا يُرى، وما يُرى بالعيون لا يمكن أن يسمّى لطيفا، فكيف يمكن رؤية الله بالعيون؟ ما يجب الاهتمام به هو: هل الله موجود أم لا؟ فهذا يثبت من خلال صفته "الخبير"، فهو يربّي العباد ويسد كافة حاجاتهم الروحانية والمادية. ما هو الدليل على كون أحد خبيرا؟ إنما الدليل هو أن يدبر سدّ جميع الحاجات التي يواجهها. فمثلا ينزل أحد ضيفا عند شخص فإذا كان المبيت والفراش وما إلى ذلك مهيأ له في منزله فلا يمكن القول بأن

الفراش وُجد تلقائيا بل سيقال بأن المضيف متنبّه جيدا وقد دبّر الفراش سلفا. كذلك يوضع أمام الضيف طعام، ولو لم نر المضيف عندئذ فهل يمكن القول بأن الطعام حضر تلقائيا؟ فإذا سُدّت كافة حاجات الضيف فهذا يعني بكل وضوح أن هناك من يسد تلك الحاجات سواء رأيناه أم لم نره. فالحاجات الروحانية والمادية التي يسدها الله تعالى دليل على وجوده. ولكنه لا يتراءى أمام الأعين على الرغم من سدّه تلك الحاجات فهذا دليل على أنه لطيف.

بعض صفات الله أزواج

لقد ذُكرت هنا نقطة غريبة جدا أن بعض صفات الله أزواج، وكما يولَد الولد نتيجة اجتماع الرجل والمرأة كذلك تظهر النتيجة بالتقاء هاتين الصفتين. فمثلا الانتباه جيدا وعدم إهمال أدنى تغيُّر لا يمكن بغير وجود لطيف، أي مَن كان على اتصال كامل مع كل ذرة من الموجودات، وكونه لطيفا شرط لهذا الاتصال. إذن، إن صفة "الخبير" بمنزلة الزوج لصفة "اللطيف"، وتتجلى أيضا بواسطتها. أو يمكن القول بأن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الروح والجسم بمعنى إن لم توجد إحداهما لا تتحقق الأخرى. فلو لم تثبت صفة "الخبير" بواسطة: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ لما ثبتت صفة: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ أيضا بل ثبت عدمها. ومقابل ذلك إن لم تثبت صفة: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ أي لو لم يثبت كونه ﷻ لطيفا، لما ثبتت صفة "الخبير" أيضا لأن الذي لا يقدر على الاتصال الكامل، لا يمكن أن يكون خبيرا. باختصار، اللطيف هو مَن كان موجودا في أدق الذرات أيضا. ومن كان لطيفا إلى هذا الحدّ فلا يمكن رؤيته أبدا ولا بد أن يكون خفيًّا عن الأنظار.

وإن كونه لطيفا دليل على كونه خبيرا أيضا لأنه إذا ثبت أن هناك وجودا يتعلق بكل ذرة لكونه لطيفا، فلا بد من القبول أيضا أنه خبير. باختصار، إن صفة الله "اللطيف" شاهدة على كونه خبيرا، وصفته "الخبير" تشهد على كونه لطيفا.

الدليل المادي على صفة الله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

هناك صفة أخرى وهي أن الله ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقد قدّم عليها دليلان، الروحاني والمادي. الدليل المادي هو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: ٦٥)، أي الأرض والسماء والإنسان وقواه (أي مواهب الإنسان للتقدم التي بها يحكم في الأرض والسماء، والتي تدل على "ربّ العالمين" الذي هو مصدر كافة أنواع التقدم) وكذلك الأغذية وغيرها التي تساعد على بقاء تلك القوى على حالها، كلها تدل على وجود الله وكونه رب العالمين.

عندما سافرتُ إلى كشمير هذا العام جاء لمقابلتي شخص حائز على شهادة ماجستير وقال: لا أؤمن بالله، وإذا كان هناك إله فقد دفعنا إلى دوامة المصائب دون مبرر بخلقنا في هذه الدنيا. متى طلبنا منه أن يخلقنا ويرسلنا إلى الدنيا؟ قلتُ: إذا كانت الحياة الدنيوية مصيبة وتريد الخلاص منها فهذا ليس صعبا، إذ يمكنك أن تتناول السم وتموت. قال: هذا أيضا مستحيل لأني لا أريد أن أموت. قلت: هذا يعني أنك تستحسن الحياة الدنيوية ولكن تطعن فيها باللسان فقط.

باختصار، فقد جعل الله الأرض قرارا للناس. يقول الهندوس بأن الدنيا مكان الآلام ولكن عندما يمرضون يدفعون للأطباء مبالغ أكثر من غيرهم. يقول الله تعالى ما مفاده إنه يمكنكم أن تقولوا كما يحلو لكم بلسانكم أن الدنيا مكان المصائب ولكنكم لا تريدون أن ترحلوا منها لأن الله جعل لكم الأرض قرارا.

ثم يقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي السماء أيضا وسيلة حمايتكم. ما لا يمكن تهيئته من الأرض ننزله لكم من السماء لأن السماء بناء. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي خلقكم بالقوى العليا والمواهب الكاملة. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ إذا كانت تلك الأشياء غير صالحة لما كانت مواهبكم أيضا من الدرجة العليا. ولكن الله تعالى

خلق رزقا طيبا لإنقاذ تلك المواهب من الفساد. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. لو لم يكن الله رب العالمين ولو خلق الشمس أحد آخر وخلق الأرض غيره لما كانت بين الشمس والأرض أدنى علاقة. ولكن انظروا الآن أن الشمس تحافظ على الأرض، والأرض تحافظ على الشمس. وكل هذا يؤكد أن الله الذي خلق كل هذه الأشياء هو إله واحد وهو رب العالمين.

لقد بيّن في ﴿صَوَّرَكُمْ﴾ أن الإنسان خُلق بحيث يحكم المخلوقات الأخرى كلها، وهذا دليل مادي على كون الله ربّ العالمين.

الدليل الروحاني على كون الله رب العالمين

لقد قدّم الله تعالى الدليل الروحاني في سورة الشعراء فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٨)، أي أن القرآن الكريم منزّل من الله رب العالمين، والدليل الروحاني على ذلك هو أنه نزل مخاطبا العالم كله بينما كان كل كلام فيما سبق خاصا بقوم واحد وبزمن واحد، وكان كل كلام سابق يثبت صفة ربوبية الله فقط، بينما يُثبت هذا الكلام صفة ربوبيته العالَمين.

باختصار، لم يأت القرآن الكريم لقوم معين لأنه أُنزل تحت صفة الله "ربّ العالمين"، وهو يخاطب العالم كله، وقد نزل به الروح الأمين. بمعنى أن أنواع الخلل قد تطرق إلى كلام الأنبياء السابقين لأن الناس لم يحافظوا عليه. فقد أنزل الله عليك الكلام السابق بصورة محفوظة بواسطة الروح الأمين، ولما كان فهم الكلام ضروريا لتبليغه حتى لا يحدث نقص في التبليغ لذا أُنزل هذا الكلام على قلبك.

باختصار، كان الكتاب المقدس والفيدات وما شابهها من الكتب قد فسدت ولكن التعليم الأصلي كان موجودا عند الله، فأنزل ﷻ هذا الكلام على قلبك

بواسطة الروح الأمين لتتمكن من مقاومة الناس بشجاعة. هذا الكلام جاء في اللغة العربية التي تفصح المضامين كلها. والدليل على كونه من رب العالمين هو أنه مذكور في الكتب السابقة أيضا، بأسلوب أنه يتضمن أصولها، وكذلك كل ما جاء في الكتب السابقة قد جُمع في هذا الكلام. إذن، فقد تم الاهتمام فيه بعقلية جميع الأقوام غير المسلمة، وهذا دليل على أنه من ربّ العالمين. لو لم يكن من ربّ العالمين لما اهتم بأقوام العالم كلها.

معنى وجود القرآن الكريم في الكتب السابقة

ولكن هذا لا يعني أن تعليم القرآن الكريم كله ليس إلا ما كان في الكتب السابقة، بل المراد من ذلك أن القرآن يشمل تعليما صحيحا من الكتب السابقة وزيادة. كذلك المراد من وجود هذا الكلام في الكتب السابقة هو أن فيها نبوءة عن كتاب. كذلك في القرآن بيان مفصل عن صفات الله تعالى كلها، ولم تُذكر على هذا النحو في الكتب الأخرى. لقد ذُكرت في الإنجيل بضع صفات فقط، وقد ذُكرت في التوراة أكثر نسبيا ولكن لم ترد فيها أيضا بقدر ما ذكره القرآن الكريم. ولا تقدم الكتب السابقة هذه الصفات دليلا بل تذكرها ضمن الأدعية فقط، مع أنه من الضروري ألا تُذكر صفات الله بالاستيعاب فقط بل يجب أن تُذكر مهامها منفصلة والأدلة عليها أيضا. ولكن هذه المهمة قد أدّاها القرآن الكريم وحده.

يجب أن يكون شرح صفات الله بكلماته ﷻ

وليكن معلوما أيضا أنه لا يكفي ذكر أسماء الصفات فقط ما لم تُبيَّن معانيها الصحيحة، لأنه يمكن أن تُجمع الأسماء فقط لإظهار شدة الحب أيضا وإن لم يكن مَن يذكرها مطلعا على حقيقتها. كما يذكر الإنسان أسماء كثيرة على سبيل التحبب دون أن يعلم حقيقتها. إذن، لا يكفي ذكر صفة فقط بل ينبغي أن تُذكر صفة ثم يأتي شرحها وتوضيحها أيضا بكلمات الله. كما تسنّ الحكومة مثلا قانونا وتشرح

بعضا من كلماته فورا لئلا يحدث فيه اختلاف. كذلك من واجب كلام الله أن يذكر صفات الله تعالى ويشرحها بنفسه. خذوا مثلا كلمة "رحمن" التي كانت معروفة بين العرب وكانوا يستخدمونها، وقد ورد في القرآن الكريم أيضا: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ (الزخرف: ٢١) أي ما عبدنا آلهة أخرى سواه. كان مسيلمة الكذاب أيضا يسمّى "رحمن اليمامة". ولكن عندما بيّن القرآن الكريم معنى الرحمن استغربوا بشدة. ولما كان هذا المعنى يمس بدينهم فقالوا فورا: لا نعرف ما الرحمن. فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ (الفرقان: ٦١)، ماذا كان السبب وراء ازديادهم نفورا؟ كان السبب أنهم كانوا يستنبطون من الرحمن معنى آخر. فقد بيّن الله تعالى معناه وقال بأننا نستخدم "الرحمن" بهذا المعنى، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢-٦٣) فقد شرح الله كلمة "رحمن" بأن المراد من الرحمن هو صفة الله التي تعمل قبل أن يقوم الإنسان بعمل. فقال: انظروا أننا خلقنا الشمس والقمر قبل ولادة الإنسان. ثم بيّن ضرورتها أيضا وهي أن الإنسان بحاجة إلى الأسباب للعمل، وإن لم تتيسر له الأسباب أنّى له أن يعمل. فمثلا إن لم يتيسر الخشب للنجار فماذا عساه أن يعمل. فكان ضروريا أن يُعطى الإنسان نعمة قبل أن يبدأ بالأعمال، وتُهيأ له الأسباب إنعاما له ويُعطى الأسباب ليتمكن من العمل. فمن الخطأ القول بأن كل شيء في العالم جاء إلى حيّز الوجود نتيجة عمل الإنسان لأن العمل مستحيل ما لم يكن هناك إنعام قبله. ثم ذكر السبب أن الإنسان بحاجة إلى الرحمان ليكون شكورا. وهناك شرط العمل ليكون الإنسان شكورا، والعمل لا يمكن بغير الرحمانية. لولا صفة الله هذه، ولو لم يجزِ الله الإنسان دون عمل ومقابل لما استطاع أن يشكر خالقه، بل بقي كيانا بلا عمل.

وفي كلمة "شكور" وجّه الأنظار إلى أن نشوء عواطف الشكر في القلب ضروري للتوجه إلى الله، وهذه العواطف لا يمكن أن تنشأ بدون صفة الرحمانية.

كذلك فيها إشارة إلى أنه من المستحيل أن ينشأ الدافع الأعلى على العمل المنزّه عن الأنانية بغير الرحمانية. لو أُعطي الإنسان كل شيء نتيجة العمل فقط لكانت الأعمال كلها نتيجة الطمع. ولكن ما دام الإحسان موجودا، وقد أنزل الله نِعمه على كل إنسان قبل أن يكون قادرا على العمل، لذا يجعل الإنسان الأرقى أعمالَه تابعة للشكر على ما مضى بدلا من جعلها تابعة لطلب الجزاء، فيشكر اللهَ تعالى ويكسب الأعمال ولكن ليس طمعا في نيل شيء بل ليشكر الله تعالى أولا على مننه السابقة. وبذلك جعل قلب المؤمن نزيها عن الطمع والجشع، وخلق فيه عاطفة شكر الله تعالى.

باختصار، القرآن الكريم وحده أكملَ الصفات وقدّم الأدلة. أما الكتب الأخرى فتستخدم أسماء الله في الدعاء على سبيل التميمة فقط ولا تلقي ضوءا قط على الفرق بين الصفات المتشابهة وعلى أدلتها.

بيان قوى الإنسان الروحانية

الأمر الثاني الذي لا بد للكتاب الإلهامي من بيانه هو ذكر قوى الإنسان الروحانية. وقد ذكرها القرآن، بل الحق أن القرآن الكريم وحده بيّنها ولا يوجد هذا الذكر في الكتب الأخرى، إما لأنها نزلت في وقت لم يكن الارتقاء الروحاني فيه حاصلا، أو ضاع في زمن فسادها كل ما كان فيها من التعليم. ولكن انظروا إلى القرآن الكريم الذي ذُكرت فيه تلك الأمور على أحسن وجه.

تفسير رائع لـ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا * وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٨٦-٩٠).

لقد ورد ذكر القرآن الكريم قبل هذه الآيات، ثم يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أي يسألونك: لماذا لا نعترف بأن الروح تملك في حد ذاتها قدرة على أن يخرج منها كلام من الدرجة العليا. لم يُنقل هنا سؤال محدَّد لذا تجوز كافة جوانب السؤال بحسب مقتضى الحال. فمثلا يمكن أن ينشأ سؤال: كيف خُلقت الروح؟ ويمكن أن يكون السؤال الثاني: ما هي القوى المودَعة في الروح؟ وقد يكون السؤال الثالث: ماذا ستكون عاقبة الروح؟ فيقول الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أي أن الروح تفوق الأمور المادية، لذا لا يمكن أن تخضع لسيطرتكم بل إن خلقها وقيامها وعاقبتها بيد الله تعالى لأنه هو خالقها. وفي ذلك دحض للذين يقولون بأن الروح يمكن أن تنال الكمال بنفسها. فيقول الله تعالى بأنه لا يمكن للروح أن تُظهر أي كمال ما لم يرافقها كلام الله. ثم هناك من يقول: لماذا لا تفنى الروح؟ فقال ﷻ ردّا عليهم: ما دام المحيي موجودا فلماذا تفنى؟ كما أن النار لا تنطفئ ما برح مُشعلها يلقي فيها الحطب. إذن، لا يصح السؤال: كيف تبقى الروح إلى الأبد؟ ولا يصح القول بأنها إذا بقيت حية فهذا يعني أنها ليست حادثة، وذلك لأنها من أمر الله ولم تأت إلى حيز الوجود من تلقائها. باختصار، إن الروح جاءت إلى حيّز الوجود بالأمر أي بـ "كُن"، وإن تطوّرها منوط بالأمر أي بكلام الله، وقيامها إلى الأبد أيضا منوط بالأمر أي بقدر الله وقضائه.

ثم يقول الله ﷻ: يقولون عن روح الإنسان إنها قادرة على نيل الكمال بحد ذاتها وقادرة على أن تبيّن التعليم بنفسها، ولكن هذا خطأ، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا﴾ أي أن معلومات البشر عن الروح ناقصة وغير مكتملة تماما كنقصها عن

أشياء غير مادية أخرى مثل ذات البارئ تعالى والملائكة، لذا فلا بد من وحي الله تعالى الذي بأمره يوجد كل شيء. كذلك إن تطوير قوى الروح الخفية أيضا منوط بالأمر. ولا يمكنكم أن تنجحوا في ذلك بأنفسكم.

يقال في الزمن الراهن بقوة إن الإنسان إما يستطيع أن يخلق تعليما روحانيا بنيل الكمال في الروحانية بنفسه، أو يمكنه أن ينشئ علاقة بالأرواح الأخرى ويوجِدَ تعليما كهذا بالاستعانة بها. نرى كثيرا من الناس الكبار قائلين بوهْمٍ أن الأرواح ترشد الإنسان إلى طريق أعلى من الروحانية. يزعم هؤلاء الناس أن أرواح الأموات تسدّ النقص الذي يبقى في روح الإنسان. يقول الله تعالى مخاطبا هؤلاء الناس بأنكم تظنون أنكم قادرون على خلق التعليم الروحاني من الدرجة العليا بتطوير القوى الروحانية بأنفسكم، كذلك تظنون أن محمد ﷺ خلق هذا الكتاب من عنده ولم ينزل عليه وحي من الله بل تطورت قوته الروحانية إلى درجة حتى صدرت منه هذه الأمور تلقائيا. ولكن هذا ليس صحيحا لأن القوى البشرية لم تبلغ مبلغا حتى تخلق هذا النوع من الكلام. ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾، أي لو حجبنا هذا القرآن -النازل سلفا- عن أعينكم لما قدرتم على خلق كتاب مثله نتيجة تطوير قواكم الروحانية، دعك عن إيجاد العقل الإنساني طريقا روحانيا بنفسه. أي لو حجبنا هذا التعليم الموجود عن العالم لما قدر الناس على خلق تعليم مثله.

قد يقول قائل إن هذا ادعاء محض قام به القرآن الكريم، أنه إذا اختفى تعليمه لن يقدر الإنسان على الإتيان بمثله، ولكن ما الدليل على ذلك؟ الحق أن الله تعالى قد قدّم هذا الدليل أيضا، فقد جاء في الأحاديث أنه سيأتي زمان حين سيرتفع القرآن من العالم، سيكون رسمه موجودا ولكن لن يكون هناك من يعمل به. وحين جاء هذا الزمن نُسبت إلى الإسلام والقرآن أمور لاغية وعبثية كثيرة وحُجب تعليمه الروحاني والأخلاقي الذي لا نظير له.

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي لا مجال لعودة هذا التعليم إلى العالم من جديد إلا إذا أعادته رحمة الله الخاصة. فقد مدّ الله يد رحمته إلى الناس مرة أخرى في الزمن الأخير بحسب نبوءات النبي ﷺ ونزل القرآن الكريم إلى العالم من جديد بواسطة المسيح الموعود عليه السلام. انظروا الآن أن القرآن هُوَ هُوَ، ولكن كم من معارفه وحقائقه ظهرت للعيان بواسطة المسيح الموعود عليه السلام، وكيف يتغلب القرآن على العالم كله. الحق أن في هذه الآية أُنبئ عن زمن المسيح الموعود عليه السلام وقيل بأن القرآن سوف يُرفع من العالم في ذلك الزمن، ولكنه يقام على الأرض من جديد بواسطة مبعوث من الله تعالى.

التحدي لأتباع مذهب التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح Spiritualism وHypnotism

ثم يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، أي سيعجزون عن الإتيان بتعليم يرشد إلى سبل الارتقاء الروحاني. ليس المراد من الجِنّ هنا الجنّ الذين يقال بأنهم يتلبسون الناس، لأن القول بضمّ الجنّ مثلهم إليكم قول لغو. ومَثله كمثل قول إنكم لا تستطيعون أن تنظموا شعرا كمثل الشاعر فلان ولو استعنتم بشجرة كذا، أو استعنتم بشاة كذا. إذن، إن القول بالإستعانة بالجنِ سخيف كسخافة هذا القول المذكور آنفا. إذن، ليس المراد من الجنّ هنا كيان آخر بل المراد هي الكائنات الخفية التي يسميها أصحاب مذهب Spiritualism أرواحا ويسميها أصحاب Hypnotism قوى روحانية. لقد سمُّوا جنًّا لكونهم مستورين عن العيون.

لا بد من التذكر أنه لم يدّع أيّ عاقل أنه يستطيع أن يأتي بتعليم روحاني من الدرجة العليا بالاستعانة بالجنّ، لذا إن التحدي بما لم يتمّ ادعاؤه وما لم يكن اجتماعه ممكنا يخالف العقل أصلا. إذن، المراد من الجنّ هنا هي الأفعال الروحانية التي تظهر

للعيان من العقل الشخصي (subjective mind)، أو المراد هو الاجتماع الذي يحدث بحسب قول البعض بين الأرواح غير المرئية والبشر، ويتلقون منها بعض العلوم الروحانية.

يقول الله تعالى: استعينوا بهم وليعينوكم ومع ذلك لا يمكنكم أن تأتوا بمثل هذا القرآن. فالمراد من الجنّ هنا هي الأرواح التي يدّعي هؤلاء الناس مستعينين بها أنهم يستطيعون أن يطّلعوا على علوم روحانية. فيقول الله تعالى: استعينوا بها ثم أْتوا بمثل هذا القرآن وستعلمون هل بالإمكان أن تسير الأمور بغير كلام الله أم لا؟

فانظروا ما أعظم معجزة القرآن الكريم، فإن الزمن الذي يثبت من أحاديث النبي ﷺ أن القرآن سيرتفع فيه، والذي ذُكر بعودة القرآن فيه نتيجة ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ يوجد فيه أناس يدّعون اكتشاف الحقائق الروحانية بالاستعانة بالأرواح، فيقول الله تعالى بأننا نقبل هذا التحدي. فإذا كانت الأرواح تملك قدرة على اكتشاف العلوم نتيجة تقدّمها الشخصي فلتقدِّم تعليما مثل القرآن.

السؤال الذي ينشأ هنا هو: ما هي الأمور التي يجب وجودها في "المثَل". يقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٩٠)، لقد أودعنا القرآن ميزتين، فليأت بمثلهما أصحاب العلاقة بالأرواح ومن يدّعون التقدم في أمور روحانية بأنفسهم. الميزة الأولى هي أن كل ما تحتاج إليه الروح مذكور في القرآن الكريم. والثانية: قد ذُكر فيه كل جزئية هامة من كل أمر ضروري، أي قد رُوعيت فيه الطبائع المتفاوتة كلها جيدا، وذُكر فيه كل أمر بأسلوب يفيد الجميع. هنا قُدّم التحدي لأصحاب مذهب Spiritualism والفلاسفة أن يأتوا بكتاب يتضمن تعليما وردت فيه جميع الأمور الضرورية لتكميل الروحانية، روعيت فيه الطبائع كلها. ولكنهم لا يقدرون على أن يأتوا بمَثَل لهذه الأمور. هناك أناس كثيرون يبذلون قصارى جهودهم في هذا المجال منذ مدة مديدة ولكن لم يقدروا على فعل شيء إلى الآن ولن يقدروا في المستقبل.

أولا، لا يقدرون على أن يأتوا بتعليم جامع مثل القرآن، ولو افترضنا جدلا أنهم سيأتون به فسيكون إما مطابقا للقرآن أو مخالفا له. فإذا كان مطابقا للقرآن فلا حاجة إليه أصلا لأن القرآن الكريم موجود سلفا، أما إذا كان مخالفا للقرآن فسيكون الردّ عليه موجودا في القرآن. إذن، لا يمكن أن يكون هناك كتاب يبارز القرآن. هل في العالم من كتاب يسعه أن يدّعي على هذا النحو عن الأمور الروحانية؟

لا يمكن ظهور القوى الروحانية للفطرة البشرية دون كلام الله

هنا يمكن أن ينشأ سؤال آخر وهو أنه إذا أُعطيت الروح علما قليلا فأنّى لها أن تفهم تعليم القرآن الكريم؟ هذه القضية تنحل بآية أخرى ويتبين من ذلك أن الله تعالى قد أناط القوى الروحانية مع الفطرة البشرية أيضا وأقرّ أن كلام الله موجود في الروح أيضا ولكن بصورة خفية، ولظهوره يكون محتاجا إلى كلام الله الخارجي. فليس المراد من العلم القليل أنه لا علاقة للفطرة البشرية بالقوى الروحانية. العلاقة موجودة ولكن لا يمكن ظهور تلك القوى بغير كلام الله. فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ (الواقعة: ٧٨-٧٩)، أي أن التعاليم الواردة في القرآن الكريم مودَعة في الفطرة البشرية التي هي مظهر الروح لأنه لا يسع الإنسان الاستفادة إلا مما كان موجودا فيه أيضا، إذ لا ينفعه جنس آخر. ومثال ذلك أنه لولا الأذن لاستحال السماع، ولولا العين لاستحالت الرؤية. أو مثل ذلك كمثل ماء عندما ينزل من السماء تتفجر الينابيع أيضا، وإن لم ينزل الماء من السماء تجف الينابيع أيضا. كذلك عندما يُنزل ماء وحي الله يتدفق الماء الروحاني من روح البشر أيضا لأن كلام الله والفطرة البشرية مثل الزوج لبعضهما. إذن هناك كتاب الله المتكون من الكلمات، وكتاب آخر مترسخ في الفطرة. والكتاب الذي يكون مطابقا للفطرة هو الذي يمكن أن يكون كتابا موحى به. إذن، يكون كلام الله في فطرة الإنسان أيضا ولكن هناك حاجة إلى الإلهام لتنشيطه. لقد وضع الله تعالى جزءًا من كلامه في ذهن الإنسان وأعطى الجزء الثاني بإرسال نبيّه. وعندما يتصل هذان الجزءان مع بعضهما يُفهَم أنهما من الله تعالى.

حادث وقع في أثناء السفر إلى بريطانيا

أسرد لكم بهذه المناسبة طرفة. عندما عدت من بريطانيا أخذني المهندس الأعلى للسفينة التي كانت تقلنا ليُريني آلية السفينة. وبعد أن أرانيها قال: أرجوك أن تصرف صاحبيك لأني أريد أن أتحدث معك في موضوع خاص. قلتُ: حسنا. فصرفتُ مصاحبيَّ، فقال بعد انصرافهما: لعلك تستلم الرسائل من بلاد مختلفة فلو أرسلتَ إلي الطوابع التي عليها لكنت لك من الشاكرين. قلت: حسنا، إذا رأيتُ طابعا غير عادي سأرسله لك. ثم قال المهندس: سأخدمك أنا أيضا مقابل ذلك وعليك أن تثق بي وتأخذ الخدمة مني. أنا أعلم الهدف الذي من أجله ذهبت إلى بريطانيا، وذلك الهدف هو أنك عيّنتَ هنالك دعاة ضد الحكومة وذهبتَ لتعطيهم تعليمات سرًّا. والآن كلما أردت أن ترسل لهم كتابة سرية سآخذها. وما عليك إلا أن تعطي دعاتك جزءا من بطاقة وأرسل جزءها الثاني بواسطتي. وعندما يتوافق كِلا الجزأين مع بعض سوف يدرك دعاتك أن التعليمات التي أرسلتَها لهم هي حقيقية وأصلية وبذلك سوف يعرفون تعليماتك. كان ظنه هذا خاطئا على أية حال، ودحضتُ فكرته وبيّنتُ أننا مخلصون لحكومتنا، ولكن كما قال لي أن أعطي دعاتي جزءا من البطاقة وأعطيه الجزء الثاني منها، وعندما يتوافق كِلا الجزأين معا سيعلم الداعية أن التعليمات التي أرسلتُها هي أصلية. الحال نفسه ينطبق على الإنسان فيما يتعلق بالروحانية، إذ يكون جزء من كلام الله في ذهن الإنسان ويكون الجزء الثاني عند النبي. وعندما يتوافق كِلا الجزأين يُعلم أنه من الله وإلا يتبين أن مقدّم هذا الكلام مخادع.

اتحاد الكتاب المبين والكتاب المكنون

باختصار، لا بد للارتقاء الروحاني من أن ينزل تعليم يشبه المواهب الروحانية. فعلى ذلك يكون كلام الله موجودا في ذهن الإنسان نوعا ما ولكنه يكون مخفيا، وتنشيطه يتعلق بكتاب واضح. فمن هذا المنطلق سمّي القرآن "كتاب مبين" حيث

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٦)، فاستفيدوا من هذا الكتاب الواضح أيها الناس.

فالمواهب الروحانية إنما هي بمنزلة ماء الأرض الذي يرتفع نتيجة نزول الماء السماوي. وكما تجف الآبار عند شح الأمطار، كذلك يبدأ ينبوع الفطرة بالجفاف عند انقطاع الإلهام. فمع أن الكلام يكون مخفيا في الفطرة ولكنه يصبح كدرا وفاسدا في حال شح الماء السماوي ولا يكفي الاعتماد عليه. غير أنه عندما ينزل الماء السماوي يشهد كلاهما لبعضهما بعضا. الماء السماوي ينقّي ماء الفطرة، أما ماء الفطرة فيشهد على نقاوة الماء السماوي، وكأنهما جزآن لشيء واحد بحيث يكتمل الوجود باجتماعهما. وقد أودع الله جزءا في ذهن الإنسان لتكون الفطرة الصحيحة شاهدة للماء السماوي عند نزوله. إذن، إن اتحاد الكتاب المبين والكتاب المكنون يشهد على صدقهما وينقذ من خداع المخادعين. وهناك ترابط بين الكتابين المذكورين بحيث إذا اقترب أحدهما يبدأ الثاني بالاقتراب تلقائيا. عند نزول الإلهام تتنشط الفطرة تلقائيا كما يقول الله تعالى في سورة الأنعام ضاربا مثل الكلام الإلهي: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٠٠)، أي أن مَثل الكلام الإلهي كمثل ماء، فكما تنبت الخضرة نتيجة نزول الماء كذلك تتنشط جميع أنواع المواهب وتُظهر قدراتها نتيجة نزول الكلام الإلهي. كذلك ينجذب الكلام الإلهي نتيجة نشاط الفطرة. كما يقول الله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٦)، لقد قيل في هذه الآية إن الله تعالى نور

السماوات والأرض: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ... يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يمكن أن يُضيء هذا الزيت من تلقائه بغير النار، وذلك بسبب نقاوته من الدرجة العليا. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، لأنه عندما تنشأ النقاوة في ذلك الزيت أي الفطرة الصحيحة، ينزل نور الله الذي يشبه النار بسبب إنارة ذلك النور الفطري، ويجتمع النور السماوي مع النور الأرضي.

انظروا كيف بيّن الله تعالى في هذه الآية بكل وضوح أنه عندما يصبح نور الفطرة نورانيا بصورة كاملة ويصبح نقيا كأنه قادر على الاشتعال بنفسه، عندئذ يجذب النورَ السماوي، أي يصبح مهبط الإلهام. فلا يصح القول بأن الدماغ الكامل والنقي سوف يطّلع على التعليم من تلقائه. فإذا كان كاملا سينزل الإلهام عليه تلقائيا، وإن كان ناقصا استحال عليه صنعُ التعليم من عنده.

باختصار، هذه الآية تتضمن بحثا مستفيضا حول قضية القوى الروحانية وارتقائها، ويشهد عليه كلٌّ من العقل والمشاهدة، ولا يمكن العثور على هذا البحث في أيّ كتاب آخر في العالم.

ثم يبين الله تعالى: أين يوجد ذلك النور؟ فيقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (النور: ٣٧)، أي يوجد هذا النور في بيوت قرر الله أنها ستُرفع وسيُعطى أصحابها حكومةً. فالمراد من النور هو محمد رسول الله ﷺ الذي تقرر بحقه أنه سيُجعل مَلِك العالم.

فلا شك أن النور موجود في فطرة الإنسان وهو يشبه نور الله ولكن القانون هو أنه عندما تستنير فطرة- أي تنال كمالا لدرجة تتولد فيها قدرة على تلقي الإلهام- ينزل عليها إلهام من السماء، وهذا يعني أن فطرة الإنسان الصحيحة لا تبقى بغير تلقي الإلهام، أي عندما تكتمل الفطرة ينزل عليها الإلهام حتما، وإلا فإنها ليست كاملة. ولا تستقيم الأمور بغير الإلهام من الله.

التعليم الكامل لإكمال القوى الروحانية

الأمر الثالث الذي يتحتم على الدين بيانه هو بيان الأمور الضرورية لإكمال القوى الروحانية وتنشيطها. هذا الموضوع واسع لدرجة أنه يمكن أن يشمل أحكام الشريعة كلها ويمكن البحث فيه حول أصول الدين وجزئياته كلها لأن الهدف منها هو ارتقاء القوى الروحانية. ولكن ما دام هذا الموضوع لا يطابق محاضرتي هذه لذا سوف أعلّق عليه تعليقا واحدا بإيجاز وهو أنه ما دام الإسلام يعترف: (١) بأن الروح تتولد نتيجة التغيرات في جسد الإنسان لذا لا بد وأن تتأثر من التغيُّرات الجسدية كما يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥٢)، أي بأكل الطيبات يوفَّق الإنسان لكسب الأعمال الصالحة، لذا قدّر الله أنه يتحتم على الدين أن يضع حدودا -إلى حد ما- على أغذية الإنسان وعلى أذنيه وعينيه وحواسه لئلا تصل إلى الدماغ والقلب تأثيرات سيئة بواسطة المعدة والحواس، وكيلا تموت روحه. وقد وضع ﷻ لهذا الغرض مبدأين اثنين.

الأول: لقد بيّن بنفسه الأمور الضرورية والمبدئية، وأعطى تعليمات مفصلة عن كل قضية ولكن مع ذلك، (٢) أقرّ بأنه ستكون هناك حاجة إلى قوانين متبدلة نظرا إلى حاجات الناس المتغيرة في بعض الأمور أو لأناس في بعض البلاد، لأنه يمكن أن تطرأ مثل هذه الحاجات بسبب ظروف العصر المتغيرة التي يكون الإنسان بحاجة إلى سنّ القوانين عنها. فقد وضع لهذا الغرض قانونا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة: ١٠٢)؛ أي لا تسألوا كيف نعمل هذا العمل وذاك العمل لأن الله تعالى قد ترك ذكر بعض الأمور عمدا ولحكمة، ولو أُبديت تلك الأشياء كلها لفُرضت عليكم بصورة دائمة، لذا فقد أهمل الله تعالى ذكر بعض الأشياء لعلمه أنه ستكون هناك حاجة إلى التغيير فيها في المستقبل. فالمبدأ الثاني الذي ذكره القرآن الكريم هو أنه تكون

هناك حاجة إلى التغيير مؤقتا في بعض التعاليم بعد التعليم الكامل أيضا، وقد تركها القرآن للإنسان أن يبُتّ فيها بعقله. غير أنه بيّن طريق الحكم فيها قائلا: ﴿أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٩). أي أن من شيمة المؤمنين أنهم يحكمون في الأمور القومية بالتشاور. إذن، لا يقول الإسلام أن يتبع كل شخص رأيه الشخصي بل يجب أن يتبع ما يتقرر بعد التشاور. ولكن لما كانت هناك إمكانية وقوع الإنسان في الخطأ على الرغم من كل ذلك لذا هيأ الله تعالى أسبابا من الغيب لحمايته أيضا، وهي أنه ﷻ خلق الملائكة الذين مهمتهم أن يسيِّروا الإنسان إلى طريق الحسنة دائما. فيقول الله تعالى مبيّنا هذا الأمر: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ (الرعد: ١٢).

باختصار، أنزل الله شريعة لهداية البشر وأعطاهم تعليمات مفصلة. ولكن لما كانت هناك مع ذلك إمكانية لصدور الخطأ من الإنسان لذا سخّر ﷻ الملائكة لحمايته. الكتب الأخرى ساكتة عن أعمال الملائكة من هذا النوع بل الحق أن الكتب الأخرى لم تتحدث أصلا بالتفصيل عن الملائكة بل تحدثت بصورة جعلت شريحة من أتباعها تتخذهم بناتٍ لله. الناس يسخرون من هذا الأمر ولكن الخبراء يعرفون أن وجود الملائكة منة من منن الله العظيمة، ولكن هذه ليست بمناسبة الحديث المفصل حول هذا الموضوع.

٣- إظهار النتائج الروحانية

المبدأ الثالث الذي ذكره ﷻ هو أنه لو ظل الإنسان يعمل على المنوال نفسه ولم ير نتائج عمله لثبطت همته لذا لا بد أن يكون هناك سبيل لإظهار النتائج أيضا. فالهدف من امتحان الطلاب في المدارس هو أن يزدادوا همة وعزيمة برؤية النتائج ويتطوروا في دراستهم. فعلى هذا النحو بيّن الله تعالى طريقة لإظهار النتائج الروحانية فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦١).

عدم التزام الأديان الأخرى بالمبادئ

هذه الأمور الثلاثة تلاحَظ لدى الأديان الأخرى غير الإسلام أيضا ولكن بغير التزامٍ بالمبادئ، مثلا: (١) الأديان التي تعطي الأحكام ولا تبين حكمتها. (٢) تعطي أحكاما تقضي على حرّية الإنسان. (٣) تبيّن الكتب الأخرى بعض الأحكام ولكن بصورة عشوائية، بمعنى أنها لا تبين السبب وراء أحكام تُدلي بها ولا تبين السبب وراء تركها بعضها الأخرى، هل أهملتها قصدا أو بغير قصد. خذوا الفيدات مثلا فلم تبين شيئا عن الأمور العظام لدرجة أنها لم يرد فيها حُكم حتى عن القصاص أو العفو أو المحرمات. والإنجيل أسوأ منها حالا إذ يعُدّ الشريعة لعنة من ناحية، ومن ناحية ثانية يعطي الأحكام أيضا، مع أنه إن كان صحيحا أن الشريعة لعنة كان من المحتوم ألا يكون في الإنجيل أيّ حكم قط، ولكن الأحكام موجودة كما جاء في إنجيل متّى: "وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي". (إِنْجِيلُ مَتَّى ٥ : ٣٢). إذن، إذا كانت الشريعة لعنة فلا أدري لماذا أُعطي الناسُ نصيبا من هذه اللعنة؟ وإذا قلتم إنها ليست لعنة بل هي رحمة فلماذا إذن أُهملت الأمور المهمة الأخرى؟ إذ كان لا بد من ذكرها. باختصار، قالت تلك الأديان كلاما جزافا بحيث أهملت بعض الأشياء أحيانا ولم تذكر السبب وراء السكوت عن تلك الأحكام، وبيّنت أحيانا أخرى أشياء ولكن لم تذكر الحكمة وراءها. ولكن القرآن الكريم كلما يقول شيئا يكون مبنيا على المبدأ ويبين الحكمة وراء كل ما يقول، ويبين أيضا سببا وراء ما أهمله من الأحكام، ولكن هذا الأمر لا يوجد في كتب أخرى. لم يرد في الفيدات المنعُ من الزواج بشقيقتين ولكن أتباع الفيدا لا يجيزون ذلك.

دليل قاطع على كمال تعليم الإسلام

أذكر هنا مبدأ عاما وبسيطا عن كتب وثائق الهداية الروحانية هذه. كل ما ورد في كتاب سوى القرآن الكريم من المسائل، لا بد أن تكون هناك مسائل أخرى لو

عُمل بها لعُدّ ذلك سيئة خُلقية ولكن لن تجدوا المنع عنها في تلك الكتب. ومقابل ذلك ليس في القرآن الكريم أمرٌ يُعَدّ العمل به سيئة خُلقية ولم يمنع عنه الإسلام، أو لم يبيّن بشأنه دستور العمل بوجه خاص. وهذا المبدأ الوجيز دليل على كمال تعليمه.

٤-تعليم الإسلام الجامع عن علم المعاد

الأمر الرابع الذي يتحتم على الدين أن يبين التعليم عنه يتعلق بالمعاد، بمعنى أنه يجب عليه أن يخبر عما ستكون حالة الإنسان بعد الممات. الإسلام يتحدث عن هذا الموضوع أيضا بالتفصيل ولكن لا أستطيع بيانه بالتفصيل في هذا المقام غير أنني أقدم آيتين تأييدا لذلك فيقول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٦)، جاءت هذه الآية بعد ذكر خلق السماوات والأرض وبيان الإحياء والإماتة وبعد بيان مالكية الله تعالى، وقد أخبر الله تعالى فيها كم من قوى أودعها في الإنسان، وكيف سخّر له الأرض والسماوات، وخلق له القمر والشمس ووضع فيهما التأثيرات ثم أودع الإنسان مواهب وقدرات. هل فُعل كل ذلك ليأكل الإنسان ويشرب في الدنيا ويموت ويفنى؟ كلا، لن يحدث ذلك أبدا بل لا بد أن تكون للإنسان حياة أخرى يُسأل فيها عن أعماله، وتكمل تلك الحياة الهدف من خلقه.

ثم يقول الله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (القيامة: ٢-٤)، أي أُشهد الحياة بعد الممات. قد يقول قائل هنا بأن الآيات قُدِّمت دليلا على ما كان ينبغي تقديم الدليل عليه. ولكن قراءة بعض الآيات التالية توضح الموضوع جيدا ويتبين أن المراد من القيامة هنا هو زمن المسيح الموعود عليه السلام لأن بعثة نبي تكون بمنزلة القيامة. فيقول الله في السورة نفسها: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ (القيامة: ٧-١١)، ﴿بَرِقَ الْبَصَرُ﴾: أي ستنكشف علوم جديدة حتى تترك الإنسان في حيرة من

أمره. ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي عندما ينكسف الشمس والقمر، سيقول الإنسان ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾. المراد من القيامة هنا هو زمن المسيح الموعود ، وقد قدّم دليلا على القيامة وقيل بأنه سيأتي زمان يبلغ فيه دمار المسلمين وفسادهم منتهاه، وعندئذ سيحييهم الله مرة أخرى. هذه النبوءة تتحدث عن زمن المسيح الموعود وتقول بأن المسلمين سيحرزون التقدم بعد مواجهتهم الدمار. وإن تحقق ذلك سيوضح أن القرآن الكريم قد صدر من مصدر لا يصدر منه شيء غير صائب. عندما يتحقق ذلك سيعرف الناس أن ما يقوله القرآن عما بعد الموت أيضا سوف يتحقق أيضا لا محالة.

الأمر الثاني المذكور هو أن النفس اللوامة المودَعة في الإنسان أيضا دليل على القيامة. عندما يرتكب الإنسان ذنبا تلومه نفسه، إذ من الملحوظ أنه كلما يكذب المرء حتى الطفل الصغير يضيق صدره وينقبض لأن النفس اللوامة الموجودة فيه تُخجله وتلومه. يقول الله تعالى بأن هذه هي النفس اللوامة التي بسببها يميز الإنسان بين الأخلاق الفاضلة والأخلاق السيئة وبين الذنب والحسنة. وهذا دليل على أن القيامة واقعة لا محالة وإلا لماذا ينشأ في الإنسان شعور بالندم. كذلك يبين القرآن الكريم تفاصيل العذاب والإنعام ويبين الحِكم المودَعة فيها. يشرح ويبين العقوبة والهدف منها كما يبين الإنعام والهدف منه وأسلوب العقوبة وطريق الإنعام. بإختصار يلقي ضوءا كافيا على كل جانب بما لا نظير له في الكتب الأخرى قط، وإذا وُجد فهو ناقص. إذن، الإسلام أفضل من الأديان الأخرى من حيث بيان ضرورة الدين أيضا.

دين يوصل إلى الله تعالى ويُكمل القوى الروحانية

(٥) والآن أبين الأمر الخامس وهو أن الحاجات التي يقدّمها دينٌ يتحتم عليه أن يسُدّها أيضا. إنني أرى أنه ما من كتاب سوى القرآن الكريم يحقق هذا الهدف.

القرآن الكريم وحده يدّعي أنه ما لم يوصل دينٌ إلى الله وما لم يُكمل قوى الإنسان الروحانية وما لم يضمن له الخير في الآخرة فلا ينفع المرء تعليمه وحده. الإسلام ينادي في هذا العالم: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾ (الإسراء: ٧٣)، فيقول: اعلموا أن الهدف من الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها هو أن يصل الإنسان إلى الله تعالى لأن هدف الدين هو أن يرى الإنسانُ ربَّه. وإن لم يرَ الإنسانُ اللهَ تعالى في هذا العالم لن يراه في العالم الأُخروي أيضا. فهناك حاجة لرؤية الله في هذه الدنيا أيضا. إذا كان الإنسان يؤدي العبادات ولكنه لا يرى اللهَ تعالى فهذا يعني بكل صراحة أن الهدف الحقيقي من العبادة لم يتحقق. ومن كان أعمى في هذه الدنيا عن رؤية الله فسيكون أعمى في العالم الثاني أيضا. المراد من ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾ هو أن عماه في العالم الأخروي سيكون أسوأ من عماه في هذا العالم لأنه لا مجال للتوبة في العالم الأخروي.

النداء من العالم الأخروي

ثم يُنادي من العالم الأخروي بالقول: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد: ١٣-١٤)؛ ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾.. لقد قيل هنا أن التقدم في العالم الأخروي سيحصل سريعا جدا. النور سيسعى حين يسعى السائرون معه أيضا... وفي ذلك إشارة إلى سرعة التقدم ومواكبة المؤمنين مع هذه السرعة. ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي سيبشرهم ملائكة الله... ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ سيقول المنافقون والمنافقات: أين أنتم هاربون؟ انتظرونا

لنقتبس من نوركم، سيقال لهم: لن تجدوا النور هنا بل ارجعوا إن كنتم قادرين وابحثوا عن النور من حيث أتيتم. لقد قيل في هذه الآيات إن النور الذي يُستفاد منه في الآخرة يناله المرء من هذه الدنيا ولن يناله بعد الوصول إلى ذلك العالم. ومن هنا يتبين أيضا أن على الإنسان أن يكسب الحسنات في هذا العالم ليكون ناجحا في العالم الثاني، ولكن انظروا ما أوسع رحمة الله! كان بالإمكان أن يقال بأنه إن لم ينل المرء نورا في هذه الدنيا فلن يناله أبدا وسيكون محروما إلى الأبد. وإذا كان ممكنا نوال النور الذي أشير إليه إشارة خفية في ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فكيف يمكن نواله؟ فقال القرآن الكريم بهذا الشأن: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ من الواضح أن أهل الجنة لن يخرجوا منها، لذا الهدف من وضع الباب هو أن يدخل الجنة من كانوا في الخارج. فقد قيل هنا إنه مما لا شك فيه أن النور يُنال في هذه الدنيا ولكن سوف يُعفى عن المحرومين منه أيضا بعد تمريرهم من بعض الحالات وسيدخلون الجنة مرورا بهذا الباب. ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾. لقد أشير هنا أيضا إلى أن الجحيم تتولد من حواس الجنة وقواها، بمعنى أن الحواس الحقيقية صالحة حتما ولكن استخدامها السيئ يؤدي إلى نشوء الجحيم. إذن، لا يشارك القرآن الكريم أيّ كتاب آخر في هذا الادعاء أيضا.

الدليل على الإيفاء بالعهد

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما تم بيانُه آنفا إنما هو ادعاء فهل سيوفى بالوعد أيضا؟ فيقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩-٧٠)، لقد قال الله في هذه الآية أن الذين جاهدوا فينا إذا مشوا إليّ بقدر استطاعتهم ثم إذا تعبت أقدامهم وعجزوا عن المشي سأمشي إليهم بنفسي لأن سنَّتي هي أن العبد يمشي إلي بقدر استطاعته ثم أمشي إليه أنا.

لقد قيل هنا في: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا...﴾ إن القرآن ليس افتراء على الله، ولو كان الأمر كذلك لعُذِّب المفتري. ثم بيّن في: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أن المرء يكذب حين لا ينال هدفه بصدق المقال. ولكنا تركنا باب نزول الكلام مفتوحا وقلنا: كونوا محسنين تصِلوا إلى الله، فلماذا لا يسعى المرء سعيا صادقا للحصول على كلام صادق، وما حاجته إلى الكذب.

الفئة الناجحة في الحصول على رضا الله تعالى

عن هذه الآية ينشأ سؤال وهو: قيل فيها فقط بأننا سنفعل كذا وكذا ولكن السؤال هو: هل فعل الله تعالى كذلك في وقت من الأوقات أم لا؟ فمع أن الجواب على ذلك موجود في هذه الآية نفسها أيضا وهو أنه لن يصل إلى الله إلا من كان حائزا على تكميل روحاني مناسب وهو الذي سينال الجنة أيضا. ولكن الله تعالى ذكر هذه الأشياء كلها منفصلة أيضا وقال بأن أصحاب العلاقة الكاملة بالله تعالى قد نالوا مرادهم في آخر المطاف نتيجة العمل بالقرآن الكريم ونالوا الجنة. فيقول: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٤-٢٥)، أي الذين أوفوا بعهدهم فقد وصلوا إلى الله. من معاني "النحْب" النذر وما أوجبه المرء على نفسه. فكان المراد من ذلك هو الإيفاء بعهد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولكن الله تعالى يقول بأن هناك مؤمنين لا يزالون ينتظرون الوصول إلى الله تعالى ولم يقصّروا في جهودهم في هذا المجال. فسيجزي الله تعالى هؤلاء الصادقين أيضا لا محالة على صدقهم.

يتبين من هذا القول أن القرآن الكريم يعترف بأن في أمة محمد ﷺ أناس وصلوا إلى الله تعالى نتيجة العمل بالقرآن الكريم.

علاقة المؤمنين بالملائكة

لما كان الملائكة يحثون على الأخلاق الفاضلة لذا قال ﷻ لمزيد من التأكيد بأن علامات إصلاحهم الروحاني تأخذ بالظهور ويلقاهم الذين يضمنون لهم الاكتمال الروحاني، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣١-٣٣)...

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: أي أثبتوا ذلك بأعمالهم... لقد قيل في هذه الآيات أنه سيتم إصلاح قلوبكم وأعمالكم أيضا كما قال رسول الله ﷺ عن بعض أصحابه: "اعملوا ما شئتم"، أي لا يمكن أن ترتكبوا ذنبا الآن. كذلك المراد هنا أيضا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾، أي لقد تطهرت نفوسكم بحيث كل ما تريدونه الآن سيكون طيبا وستنشأ في قلوبكم أمانٍ وأفكار طيبة دائما ولن تنشأ أفكار سيئة أبدا وستطلبون الطيبات فقط ولن تطلبوا الخبيثات.

السؤال هنا هو: هل انتهى كل ذلك في الأزمنة الغابرة أم ستبقى هذه السلسلة جارية في المستقبل أيضا؟ إن جوابه أيضا موجود في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٣-٤)، فهذه الآية تعلن بصراحة أن ما حدث في زمن هذا الرسول سيحدث في ذلك الزمن أيضا وستظل هذه السلسلة جارية لن تنقطع.

أفضلية القرآن الكريم من حيث كثرة الفائدة

(٤) هناك سبب آخر للأفضلية وهو من حيث كثرة الفائدة، بمعنى أنه مما لا شك فيه أن الأشياء الأخرى أيضا تكون ذات فائدة ولكن الأكثر فائدة يفضَّل على

غيره. عندما نلقي نظرة على القرآن الكريم من هذا المنظور نجده حائزا على الأفضلية من هذا المنطلق أيضا. يقول الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أيها المسلمون عليكم أن تستمروا في الدعاء دائما أن اهدنا يا ربنا الصراطَ المستقيم الذي بسلوكه نال السابقون إنعاماتك. أي ندعوك أن تنزّل علينا أيضا الإنعامات كلها التي أنزلتَها على السابقين. فيقول الله تعالى في بيان الإنعامات النازلة على السابقين:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الحديد: ٢٠)، لقد قيل في هذه الآية إن باب الشهادة والصديقية كان مفتوحا في الأمم السابقة كلها. ولكن حين ذَكر رسولَ الله ﷺ قال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٧٠). أي كان الناس ينالون مرتبة الصديق والشهيد فقط نتيجة طاعتهم الأنبياء السابقين. أما بطاعة هذا النبي ﷺ فيمكن نوال مرتبة النبوة أيضا. لم يقل سيدنا داود وعيسى عليهما السلام إنهما نالا النبوة نتيجة طاعة موسى عليه السلام، ولكن المسيح الموعود عليه السلام أكد وأعلن مرارا أنه نال مرتبة النبوة نتيجة كونه خادما لرسول الله ﷺ فقط.

معنى معية الأنبياء والصديقين

يقول بعض الناس إن التعبير الوارد هنا هو: ﴿مَعَ الَّذِينَ﴾، وهذا لا يعني أن أحدا يمكن أن ينال النبوة نتيجة طاعة الله ورسوله. بل المراد هو الفوز بمعية الأنبياء يوم القيامة. وجوابه الأول هو أنه إذا أنكرنا الحصول على مرتبة النبوة فلا بد أن ننكر الحصول على مرتبة الصديقين والشهداء والصالحين أيضا. ونضطر للاعتراف بأنه لا يمكن أن يكون الآن في أمة محمد ﷺ صديق ولا شهيد ولا صالح أيضا، والعياذ بالله. ولكن لو أمكن نوال مقام الصالحية والشهادة والصديقية لأمكن نوال

مرتبة النبوة أيضا. ولكن هنا ينشأ سؤال لا محالة أنه ما دام صحيحا أنه لم ترد في القرآن الكريم أية كلمة دون حكمة فما الحاجة إلى إيراد كلمة "مع" هنا، كما لم ترد كلمة "مع الذين" في مكان آخر بل اكتفى بالقول بأنهم سيكونون صديقين وشهداء، فكان من الممكن أن يُستخدم هنا أيضا الأسلوب نفسه. فجوابه أن الله وجّه الأنظار بإيراد كلمة "مع" إلى أن مطيعي هذا الرسول لن يكونوا صديقين فقط بل سيجمعون في أنفسهم مزايا الصديقين من كل أمة. ولن يكونوا شهداء فقط بل ستجتمع فيهم صفات جميع الشهداء السابقين، ولن يكونوا صالحين فقط بل سيجمعون في أنفسهم مزايا كل من سبقهم من الصالحين، كذلك من سيأتي نبيا سيجمع في نفسه صفات الأنبياء السابقين كلهم وكمالاتهم. إذن، إن كلمة "مع" زادت نتيجة طاعة رسول الله ﷺ ولم تقللها، وبيّنت أن المرتبة التي تُنال نتيجة طاعة محمد رسول الله ﷺ أرفع وأعلى بكثير من مراتب الناس السابقين.

الكلام البريء من كل شائبة

(٥) هناك سبب آخر للأفضلية وهو ألا يكون الشيء المقدَّم مشوبا بشائبة قط. وأفضلية القرآن الكريم تثبت من هذا المنطلق أيضا. في القرآن الكريم آية يقول الناس عنها: ما الحاجة إليها؟ فأوضح اليوم مدى أهميتها وضرورتها من حيث مفاهيمها. يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي هذا هو الكتاب الوحيد الذي لا ريب فيه، أما الكتب الأخرى كلها فقد شابتها شوائب. لا يمكن لأحد أن يقول عن التوراة بأن كل كلمة منها كلام الله، بل قد ورد فيها: "فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. * وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ". (التَّثْنِيَة ٣٤ : ٥-٦)

كذلك لا يسع أحدا أن يقول ذلك عن الإنجيل، ولكن يمكننا القول عن كل كلمة في القرآن الكريم إنها كلام الله ولا دخل فيه لأي إنسان. فالأهمية العظمى

والواضحة لهذه الآية هي أنها تخبر العالم أن الكتب الأخرى قد تطرق إليها أنواع الفساد ولكن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا شائبة فيه من الزيف.

قد يقول قائل بأن هذا ادعاء بحت قدّمه القرآن الكريم عند نزوله، وما الدليل على أنه لن تشوبه شائبة لاحقا أيضا؟ فيقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠)، أي نتحمل المسؤولية عن المستقبل أيضا بأنه لن يتطرق إليه تغيُّر وتبدّل في المستقبل أيضا. وهذا ما حدث بالفعل إذ ما زالت كل كلمة وكل حرف منه محفوظا كما نزل على رسول الله ﷺ.

الفكرة السامية عن ربوبية العالمين

(٦) السبب السادس للأفضلية هو أن يملك المرء ذلك الشيء لأنه من المعروف أن ما يملكه المرء يكون أحب إليه ويحسبه أفضل مما عند الآخرين. فحين ننظر إلى القرآن الكريم من هذا المنطلق نجده شيئا نملكه. فمثلا لقد زوّد القرآنُ الناسَ بفكرة: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبذلك أبطل فكرة الآلهة القومية. اقرؤوا الكتاب المقدس تجدوا فيه: إله بني إسرائيل، وإله قومك، أو إله قوم كذا، اقرؤوا الفيدات تروا كأن إله البراهمن غير إله الآخرين. ولكن القرآن الكريم يبدأ بالقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبذلك أُخبر العالم كله أن هذا الكتاب نازل من رب العالمين ويدعو الجميع إلى نفسه. باختصار، فقد جمع الإسلام الناسَ المشتتين كأمّ رؤوم وقال: تعالوا إلى إله واحد. كان السبب الوحيد لانتشار الشرك فيمن خلَوا أنهم كانوا يؤمنون بآلهة منفصلة. قال الهندوس أن إلهنا يتصف بصفات كذا وقال اليهود إن إلهنا يملك صفات كذا، وقال المجوس إن إلهنا يتحلى بصفات كيت وكيت. وقال بعضٌ: أعبدوا آلهة جميع الأقوام للاستفادة منها جميعا. فهكذا ظهر الشرك للعيان. ولكن الإسلام قال بأن إله المؤمنين والكفار واحد، وأن الإسلام لم يأت لقوم معين بل جاء للعالم كله. فيقول الله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ (النور:

٣٦) أي أنه لكل قوم وكل زمان، وأن أبواب الارتقاء مفتوحة فيه للجميع. كذلك محا الإسلام تمييزا عنصريا وقال بأن معيار العظمة هو: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)، إذا كان المرء تقيا فهو مكرَّم عند الله مهما كان انحداره من قوم أدنى. إذن، فقد شطب الإسلام العنصريةَ ووضع الحد على الفُرقة الحادثة بسبب الأديان المختلفة.

يجب على الإخوة أن يتخذوا القرآن الكريم دستور عمل لهم

لقد تناولت آنفا ستة أوجه فقط للأفضلية من ٢٦ وجه، وقد اكتفيتُ بضرب مثال واحد من تلك الأوجه الستة، وأكتفي بها حاليا وسأناقش، إن وفّقني الله لذلك، البقية لاحقا، وأنصح الإخوة أن يتخذوا العمل بهذا الكتاب العديم النظير نصب أعينهم. إن مفاهيم القرآن الكريم التي حاولتُ بيانها الآن لا يمكن لكتاب آخر أن يقدّم مقابلها مفاهيم مثلها. يجب على الإخوة أن يهتموا بكتاب الله هذا بوجه خاص ويسعوا جاهدين للعمل به. لو كان الإنسان يملك أفضل الأشياء ولكنه لا يستخدمها فأنى له أن يستفيد منها. فمثلا إذا كان البئر موجودا ولم نشرب منه كيف يخمد عطشنا. إذن إن أفضل الكتب موجود عندكم ولكنه سيكون مفيدا إذا استفدتم منه فقط.

فأحدِثوا في أنفسكم تغيُّرا واسعوا جاهدين لإصلاحكم، واقتدوا بالقرآن في كل شيء حتى يتبين جماله على العالم، فيتوجهوا إلى قراءة هذا الكتاب الطاهر والعمل به لأنه لا نور ولا هداية في أيّ كتاب سواه.

فضائل القرآن (٣)

الكتاب الفريد في كل مزية وفي كل صفة
تعليم الإسلام الجامعُ عن الصدقات
والعلاقات بين الرجل والمرأة

(خطاب أُلقي في ١٩٣٠/١٢/٢٨م
بمناسبة الجلسة السنوية في قاديان)

بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة قرأ ﷺ الآيات التالية من سورة "عبس":

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس ٢-١٧).

كنتُ مصابا بالسعال من قبلُ ولكن الله تعالى وفقني للعمل في اليومَين الأخيرين للجلسة. والآن أيضا لا أستطيع أن أرفع صوتي ولكن آمل بفضل الله ﷻ أنه عندما تنشأ بعض السخونة في الحلق سوف يرتفع الصوت وسيصل إلى الإخوة جميعا، فلا تقلقوا بل ابقوا جالسين بهدوء.

الرد على بعض الأسئلة من أحد الإخوة:

قبل أن أبدأ بالحديث حول موضوع اليوم، أريد أن أرد على بعض الأسئلة من أحد الإخوة وهي تتعلق بخطابي البارحة، أو يمكن القول إن منشأها ذلك الخطاب. الإجابة على هذه الأسئلة بحد ذاتها تحتاج إلى خطاب طويل منفصل ولكن لا يسعني أن أهمل الموضوع الذي جئتُ ناويا بيانه بهذه المناسبة وأشرع في الرد على تلك الأسئلة وغيرها بالتفصيل. وإذا فعلتُ لكان مَثلي كمثل شخص كان مشهورا بين الناس حيث يروى أنه كان يطيل الجلوس على شاطئ النهر، ومن طلب منه أن يوصلهم إلى جانب آخر من النهر أوصلهم. فذات مرة كان يحمل شخصا لهذا الغرض ولم يصل إلا إلى منتصف النهر إذ بشخص آخر يناديه ويقول: عندي مهمة طارئة فأرجو أن توصلني بسرعة، فأوقف الشخصَ الأول في منتصف النهر وعاد أدراجه ليحمل الشخص الثاني، وعندما حمله ناداه شخص ثالث وقال: أنا في عجلة من أمري فأرجو أن توصلني سريعا. فأقام الشخص الثاني أيضا في الماء وعاد ليحمل الشخص الثالث. لم يكن أحد منهم يعرف السباحة فجاءت موجة ماءٍ فجأة فصرخ الشخص الأول: يا أيها المشهور أرجوك أن تنقذني. فأوقف الرجلُ الشخص الثالث الذي كان يحمله وأسرع لإنقاذ الأول، ولكنه لم يصل إليه وغرق الجميع.

إذن، لو تركت موضوعا محددا لخطابي جانبا وتطرقت إلى الرد على أسئلة أخرى لألحقتُ بنفسي الضرر بهدفي. يمكن أن يكسب المرء شعبية بهذه الطريقة ولكن لن يستفيد منه أحد. باختصار، لا أستطيع أن أرد على هذه الأسئلة الآن بالتفصيل ولكنني سأتحدث عنها قليلا بإيجاز.

هل يمكن لمسلم أن يكون محكوما أم لا؟

فمما سأله السائل: يجب ألا يكون المسلم محكوما، فإذا كان الأحمديون مسلمين حقيقين فتبين أنه ليس في العالم مسلم حُرّ. لماذا نرى الأمر على هذا النحو؟

الجواب على الجزء الأول من السؤال هو أنه لا يكون محكوم في الحقيقة سوى المسلم. المسلم يعني بتعبير آخر المطيعُ والمستسلم. فالمسلم محكوم ولكن للقانون، المسلم محكوم ولكن للصدق، المسلم محكوم ولكن للحق. فكلما نرى مسلما محكوما يجب أن نبحث هل محكوميته تطابق الإسلام أم تخالفه؟ فإذا كانت تعارض الإسلام سنقول: هذا لا يجوز، أما إذا كانت تتوافق مع الإسلام فسنقول إنه هو المؤمن الحقيقي. فإذا ثبت أن العيش في ظل حكومة غير مسلمة ينافي مبادئ الإسلام فلا بد من الاعتراف بأن عيش الأحمديين في حكومة الإنجليز يخالف الشريعة. أما إذا ثبت أن العيش في ظل حكومة غير مسلمة لا ينافي الإسلام فيجب الاعتراف أن عيش الأحمدية في حكومة الإنجليز لا ينافي الشريعة بل يطابق الإسلام تماما.

يتبين من القرآن الكريم أن الإسلام ليس دينا جاء به النبي ﷺ فقط، بل كل دين جاء به الأنبياء كلهم كان إسلاما؛ فقد ورد في القرآن الكريم بحق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣٢).

إذن، كل دين جاء به الأنبياء السابقون كان إسلاما بعينه. وكان من بين هؤلاء الأنبياء موسى عليه السلام الذي عاش تحت حكومة فرعون، مع أن اسم فرعون أصبح في هذه الأيام شتيمةً. وكان من بين هؤلاء الأنبياء عيسى عليه السلام الذي عاش تحت حكم الرومان الذين كانت حكومتهم مشركة. إذن، لم يتضرر الأنبياء بعيشهم تحت ظل حكومات غير مسلمة، أما نحن فنعيش في ظل حكومة أهل الكتاب الذين هم أقرب إلينا من قرب هؤلاء الأنبياء إلى تلك الحكومات. فلو لم يتضرر إسلامهم مع عيشهم تحت تلك الحكومات لن يتضرر إسلامنا أيضا. لم يكن الرومان ملتزمين بأية شريعة، ولم تكن لدى فرعون شريعة. والفرق الوحيد بين محكوميتهم ومحكوميتنا هو

أننا محكومون أقل منهم. فإن لم يتضرر إسلامهم بتلك المحكومية لن يتضرر إسلامنا أيضا. لم يأمر الإسلام قط بأنه لا يجوز لمسلم أن يعيش تحت ظل حكومة غير مسلمة، علما أن رسول الله ﷺ أيضا عاش إلى ١٣ عاما تحت قوانين مشركي مكة.

أما القول: إذا كان الأحمديون هم المسلمون الحقيقيون فليس في العالم كلها مسلم حرٌّ واحد، فلا أقول بذلك. بل أعتقد أن المؤمن لا يكون عبدا لأحد. من يستطيع أن يعُدّ عبدا من يدّعي أنه لو أكرهته حكومات العالم كلها على قبول ما يعارض الإسلام لما قبله؟ أنّى له أن يُسمَّى عبدا. ومن قال إنه سيقبل ما يعارض الإسلام إذا طلبت منه ذلك أعظم دولة في العالم فهو ليس بأحمدي. ليس هناك أيّ أحمدي عبدا بل كلهم أحرار.

لماذا نال المسيحيون الحكومةَ؟

السؤال الثاني هو أن الحكومة نُزعت من المسلمين بسبب عدم عملهم بتعاليم القرآن الكريم، ولكن المسيحيين أيضا يعملون بخلاف كتاب المسيح الناصري عليه السلام، فلماذا ما زالوا حائزين على الحكومة؟

الجواب على هذا السؤال هو أنه إذا تهاون المرء وتكاسل مع كونه حارسا على الكنز عوقب. والمسيحيون ليسوا حراسا على الكنز الروحاني بل أُقيلوا من الحراسة بعد بعثة رسول الله ﷺ، ووكِّلت تلك الحراسة إلى المسلمين نتيجة إيمانهم برسول الله ﷺ. وإذا تهاون المسلمون الآن عوقبوا ولن يعاقَب المسيحيون.

أية قوة حازها المسلمون ببعثة المسيح الموعود عليه السلام؟

السؤال الثالث هو: إذا نُزعت السلطة من المسلمين نتيجة أعمالهم السيئة فأي شوكة منحهم المسيح الموعود عليه السلام بعد بعثته؟ لقد مضت على بعثته قرابة أربعين عاما ولكن ببعثته لم يمنح المسلمين أية حكومة؟

والرد على ذلك هو أنهم لم يُعطَوا حكومة، لأنه لم تُعطَ في عهد يعقوب ويوسف وعيسى عليهم السلام وعديد من الأنبياء الآخرين أيضا. لم ينل أتباع عيسى عليه السلام

الحكومة إلى ثلاث مائة عام بعد بعثته. والسبب في ذلك يعود إلى أن هناك أنبياء مشرّعون وأنبياء غير مشرعين. ولما تكون مهمة النبي المشرّع أنه يجعل أتباعه يعملون بأحكام الشريعة التي يُعطاها لذا يهبه الله تعالى الحكومة في حياته، بينما لا يكون النبي غير المشرّع مكلّفا بأنْ يجعل أتباعه يعملون بأوامر لم يُعمَل بها من قبل لذا يقدر الله تعالى في عهده فتح القلوب. هذا هو الفتح الذي أعطى اللهُ المسيحَ الموعود عليه السلام.

أمثال علي وخالد رضي الله عنهما

السؤال الرابع هو: لماذا لم تتمكن الأحمدية من خلْق شخص واحد مثل علي أو خالد رضي الله عنهما حتى في أربعين أو خمسين عامًا؟

الرد عليه هو أن الجماعة الإسلامية الأحمدية مثيلة جماعة عيسى عليه السلام، وأُقيمت لإنجاز ما أنجزت أمة عيسى عليه السلام، لذا لا يجوز البحث فيها عن أمثال خالد وعلي رضي الله عنهما لأنهما كانا مؤمنَين بنبي مشرّع. لقد جاء المسيح الموعود عليه السلام لترسيخ دعائم مغزى الشريعة، وهذه المهمة كانت تقتضي التضحية بالنفس، وقد نجحت الجماعة في هذه المهمة بفضل الله تعالى. فما يمكن أن نُسأل هو: كم من أمثال "بطرس" خلقت الأحمدية في الأربعين عاما الماضية؟ ويمكننا أن نقول ردا على ذلك باليقين إنه قد كان في جماعة المسيح الموعود عليه السلام أفضل من بطرس بكثير دعك عن بطرس. أما بطرس فحين بُطش به قال بكل صراحة: إني لا أعرف المسيح، ولكن عندما بُطش بأحد أتباع المسيح الموعود عليه السلام لفظ أنفاسه تحت وابل من الحجارة ولم يرتد عن إيمانه. إذن، يمكننا أن نقدّم من جماعة المسيح الموعود عليه السلام أناسا قدموا التضحيات مثل المسيح الناصري عليه السلام. كما قبِل المسيح عليه السلام أن يعلَّق على الصليب ولم يترك الحق، كذلك ضحّى خمسة أشخاص من جماعتنا في كابول بأرواحهم من أجل الصدق والحق. فيمكننا القول إن المسيح الموعود عليه السلام لم يخلق في جماعته أمثال حواريي المسيح الناصري عليه السلام بل خلق مَن قدموا التضحيات مثل تضحية المسيح الناصري نفسه.

لم تبلغ دعوة الأحمدية إلى العالم كله إلى الآن

السؤال الخامس هو: لقد مضى عهد الخليفة الأول أيضا بعد المسيح الموعود ، ونحن الآن في عهد الخليفة الثاني ومع ذلك لم يصلْ اسم المسيح الموعود العالم كله بينما وصله اسمُ "غاندي".

الجواب هو: العظمة الحقيقية ليست في ذيوع الاسم. يقال إن شخصا تبوّل في بئر زمزم فبطش به الناس وأشبعوه ضربا ولكْمًا. فقال الرجل: افعلوا ما شئتم فها قد تحققت بُغيتي. سأله الناسُ: ما هي بُغيتك؟ قال: كنتُ أبتغي الشهرة، والناس قد حضروا هنا من العالم كله وعندما علموا بفعلتي هذه شتموني كثيرا وهم سيشيعون هذا الأمر حيثما ذهبوا، وبذلك سوف يذيع اسمي في العالم كله. إذن، الاسم يذيع على هذا النحو أيضا، ولكن المراد من ذيوع الاسم على وجه الحقيقة هو انتشاره على الرغم من معارضة العالم. ماذا قال السيد "غاندي"؟ فقد قال ما يقوله كل هندي! كل هندي يتمنى بطبيعته أن يتحرر بلده، وهذا ما قاله غاندي. ولكن المسيح الموعود أراد أن يُقنع العالم بما تركه الجميع ولا يريدون أن يتفوهوا حتى باسمه. إن مَثل السيد غاندي كمثل سابح يسبح في النهر مع التيار، أما مَثل المسيح الموعود فهو كمثل سابح يسبح عكس التيار. لذا فإن سباحة المسيح الموعود إلى ميل واحد فقط تفوق سباحة خمسين ميلا ممن يسبح مع التيار. كان العالم في ذلك الزمن ينكر نزول الإلهام، وكان المسيح الموعود يريد أن يُقنعهم بنزوله. كان العالم قد تخلّى عن الدين أصلا، وجاء المسيح الموعود ليُلزمهم به، فأين وجه المقارنة بين المسيح الموعود والسيد غاندي؟ تأملوا فيما يجري هذه الأيام مثلا؛ تكون مداولاتي على النقيض من رغبات عامة الناس، فلا تُنشر في جرائد الآخرين. ولو انتهجتُ أنا أيضا منهجا ينتهجه عامة الناس لثارت ضجة في الجرائد كلها على أن الخليفة قال كذا وكذا وهو رجل فطين ويحب الوطن كثيرا. ولكن ما دامت مداولاتي لا تتماشى مع رغباتهم فلا تنشرها الجرائد مهما كانت قوية ومدعومة

بالحجج والبراهين. لعل السائل لم يسمع قصة امرأة أوروبية يروى أنها قالت باكية عند وفاة زوجها إنه كان قد أعطى فلانا مبلغا كذا وكذا دَينا فمَن يسترد الآن دَينه منه؟ فنهض شخص من أقاربها وقال: أنا أسترده. وهكذا ظلت تُعدّد الديون عند مدينِيه وظل ذلك الرجل يقول: أنا أسترده، أنا أسترده. ثم قالت الأرملة: كان على المتوفَّى مبلغا كذا وكذا دَينًا لفلان، فمن يسده عنه؟ قال الرجل عندئذ: هل يتحتّم علي وحدي أن أتصدى لكل شيء؟ أليس هناك أحد سوايَ ليرد على هذا؟ فعلى غرار ذلك كان السيد غاندي يحث على استرداد المبالغ فكان الهنود كلهم يقولون: نحن نستردها. أما ما قاله المسيح الموعود عليه السلام يقتضي من المرء أن يدفع المبالغ من عنده إن صح التعبير، لذا يقول عامة الناس على هذا النداء: أليس هناك أحد سوايَ من يقوم بذلك؟ هل يتحتّم علي وحدي أن أتصدى لكل شيء؟ لقد قيل إن إنجازات السيد غاندي تجذب أنظار العالم والحكومةُ ترتعب حتى من اسمه. ولكن الحقيقة أن الحكومة لا ترتعب من غاندي بل ترتعب من الهند، وتدرك صعوبة سيطرة بضع مئات آلاف من الناس على ٣٣٠ مليون فرد من السكان. فالإنجليز يخافون هذا الأمر ولا يخافون غاندي.

الوصايا

بعد الرد على الأسئلة أريد أن أوصي بشأن الأولاد الصغار. إن طلاب الجامعة الأحمدية والمدرسة العليا أصدروا العدد السنوي لمجلتَيهم -وما دام مرض إصدار الأعداد السنوية منتشرا في البلاد فلم يسلم منه هؤلاء الطلاب أيضا- وقد طلبوا مني أن أوصي الإخوة بشرائها. عندما كانوا على وشك إصدارها قلت لهم: إذا كانت المدرسة أو الجامعة الأحمدية قادرة على تداولها فأصدروها بكل سرور ولكن لا تطلبوا مني أن أوصي أفراد الجماعة بشرائها. أما الآن فقد أصبحت هذه القضية مماثلة لقصة شخص من طائفة "البتهان"؛ يروى أن ابنه استعد للهجوم على أستاذه بالسيف، فقال أبوه للأستاذ: هذا أول هجوم يقوم به ابني العزيز فدعه يجرّب. فمع

أن شراء المجلات عبء على جيوبنا نحن ولكن لما كان هذا أول هجوم لأولادنا هؤلاء لذا أوصي بشراء مجلاتهم كلها، وذلك لأنهم أولا يستحقون أن نقدّر هجومهم لأنه الأول، وثانيا: قد منّوا علينا نوعا ما قائلين إنهم كانوا مشغولين في ترتيبات الجلسة لذا لم يتمكنوا من بيع المجلة، وبذلك وجدوا عذرا. فأرجو من الإخوة أن يشجعوهم بشراء مجلاتهم كلها.

والآن أتحدث بإيجاز حول بعض الأمور التي تحدثت عنها بالأمس.

ضرورة التعاون مع التجار الأحمديين في كل الأحوال

لقد قلت بالأمس إنه لا بد للمؤمن من اجتناب كل نوع من النار، من حيث الدين والدنيا. ولكن لما كان الوقت ضيقا فاكتفيتُ ببيان مبادئ اجتنابها فقط وتركتُ التفاصيل. والآن أريد أن أوجه أنظار أفراد الجماعة بوجه خاص إلى أمر واحد من بين تلك الأمور. إن كثيرا من الأمور التي لا يمكن أن ينجزها فرد واحد يمكن إنجازها بالتعاون. الأعمال العظيمة التي علينا إنجازها في العالم لا يمكن أن تتم ما لم نراقب الجماعة بشأنها في كل مجال على وجه صحيح. لقد حدد النبي ﷺ للذين أُسروا في غزوة بدر فدية أن يعلّموا أولاد المسلمين. من المعلوم أنهم ما كان لهم أن يعلّموا تعليما دينيا بل قادرون على تعليم علوم متداولة فقط. وقد دبّر النبي ﷺ لتحصيلها ورأى التعليم الدنيوي أيضا ضروريا إلى جانب التعليم الديني. فمن واجبنا أن نهتم بتقدم الجماعة الدنيوي أيضا إلى جانب التقدم الديني، غير أنه لا بد من تقديم الدين على الدنيا، وحيثما عرقلت الدنيا سبيلَ الدين وجب تركها.

السبيل الأمثل للتقدم الدنيوي هو التعاون المتبادل. لقد تعاون الأوروبيون فيما بينهم وحازوا التقدم، ولكن المسلمين ظلوا يتخاصمون فيما بينهم. حين شنت أوروبا مجتمعة هجوما على المسلمين كان المسلمون متخاصمين فيما بينهم حينداك أيضا. عندئذ حاكت الحكومة الباطنية مع المسيحيين مؤامرة أنها ستقتل السلطان صلاح الدين وليهاجم المسيحيون المسلمين من الخارج. وما أسفرت

عنه هذه المؤامرة هو واضح جليّ. باختصار، ما يمكن إنجازه بالتعاون المتبادل لا يمكن إنجازه بأي طريقة أخرى. فيمكن لجماعتنا أن تتقدم بالطريقة نفسها. والسبيل الأمثل لنيل هذا الهدف هو التعاون مع التجار. لا شك أن الفلاحين أيضا قد يكونون أثرياء ولكن الأثرياء الكبار أيضا لا يستطيعون أن يسيطروا على الأجانب ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ومقابل ذلك يمكن السيطرة على ثروة البلاد الأخرى بواسطة التجارة لأن التجارة يمكن أن تنتشر إلى أبعاد شاسعة. لذا فإن مساعدة التجار ضرورية جدا. ولهذا الغرض أقترح حاليا أن نختار شيئا معينا ونقرر بشأنه أننا سوف نشتريه من التجار الأحمديين فقط دون غيرهم. وبهذه الطريقة يمكن أن تتقدم تجارة ذلك الشيء في غضون عام واحد، كما يمكن مقاومة التجار الآخرين. لنأخذ على سبيل المثال الأدوات الرياضية التي تُصنع في مدينة سيالكوت. هذه الأدوات لا تُستعمل في الهند فقط بل تُوَرَّدُ إلى بلاد خارجية أيضا مثل إنجلترا والنمسا وألمانيا وغيرها. وبواسطة هذه الصناعة يمكن أن تُجلَب الأموال من بلاد أخرى. توجد في مدينة سيالكوت أربع أو خمس شركات للأحمديين، فيمكن في العام الحالي أن يشتري جميع الأحمديين ذوي النفوذ -سواء أكانوا مدرسين أو من مدراء المدارس أو كانت لهم صلة بنوادي الألعاب أو كانوا يتاجرون في أدوات رياضية أو كانت لهم علاقات مع أناس في المجالات المذكورة- الأدوات الرياضية كلها من شركات الأحمديين في مدينة سيالكوت. وأقول لأصحاب تلك الشركات أن يشكّلوا لجنة لبيع الأدوات وليكن أعضاؤها التجار في هذا المجال فقط لينال الجميع نصيبهم من الأرباح. بهذه المناسبة أريد أن أقدم هذا المشروع فقط. عندما يشكل التجار لجنة مثلها عندئذ سأعلن في الجريدة أنه يجب أن نسعى لبيع سلع هذه الشركة. وبذلك سوف نعرف مستوى الربح في غضون عام أو عامَين. وإذا أحرز هؤلاء التجار تقدُّما فسيكون تقدّمًا لجماعتنا على أية حال.

اقتراح تشكيلِ شركةٍ بحسب مبدأ التعاون المتبادل

كذلك يجب تشكيل شركة تعاونية يشترك فيها التجار والمزارعون وغيرهم. كنتُ قد وضعت لها بعض الأصول التي أُعجب بها الشودهري ظفر الله خانْ من الناحية القانونية وستُنشر قريبا. سوف يحدَّد مبلغ معين يدفعه كل عضو من أعضائها كل شهر. والمبلغ الذي يُجمع بهذه الطريقة سيُشرى به عقار كرهن مقبوض. ما دام الأحمديون لا يعرفون التجارة على مستوى أعلى لذا لن تُستثمَر النقود فيها بل سيُشترى عقار بصورة رهن مقبوض كما يُفعل بالنقود في صندوق الادخار للعاملين في "صدر أنجمن". إذا مات عضو من أعضاء الشركة سوف يُدفع نصف الربح الحاصل منه أو ثلثه لورثته. وكذلك يكون المبلغ المجموع أيضا من حق ورثته. أريد أن أعلن عن هذا المشروع بإيجاز فقط وستُنشر تفاصيله في الجريدة بعد الاستشارة، فعلى الإخوة أن يكونوا مستعدين له. والآن أتوجه إلى الموضوع الذي اخترته للخطاب هذا العام.

أهمية موضوع فضائل القرآن

لقد تحدثت في العام المنصرم عن فضائل القرآن. يمكن للإخوة أن يقدّروا أهمية هذا الموضوع من أن أساس الإسلام هو أن القرآن الكريم أفضل من جميع الكتب الدينية والإلهامية في العالم، وإلا لا معنى لبعثة رسول الله ﷺ أصلا؛ إذ كانت الأديان موجودة في العالم قبل بعثته ﷺ أيضا. وإن لم يأت النبي ﷺ بشيء جديد فلم تكن لمجيئه حاجة أصلا. أما إذا ثبتت أفضلية القرآن الكريم فلا تبقى للأديان الأخرى أية أهمية بل ينطبق عليها المثل القائل: "إذا حضر الماء بَطَل التيمم". فلو ثبت أن القرآن الكريم بمنزلة الماء لتبين أن الكتب السابقة صارت متروكة، والكتاب الوحيد الجدير بالعمل به الآن هو القرآن.

لقد قلت من قبل إننا إذا أخذنا شيئا واحدا وأثبتنا أفضليته يمكن أن تثار شبهة أنّ الشيء المذكور قد لا يكون أفضل مقارنة بشيء لم يُذكَر. ولكننا إذا أثبتنا

الأفضلية من حيث المبدأ فلا بد من الاعتراف بأن القرآن الكريم أفضل جملة وتفصيلا من كتب الله قاطبة.

لقد بيّنت في محاضرتي في العام الماضي ٢٦ وجها لأفضلية القرآن الكريم، وأثبتت أفضليته من ٦ أوجه فقط من بين الـ ٢٦ وبقيت العشرين الباقية كدَين علي، بل تحدثت بإيجاز شديد لضيق الوقت عن الوجهين الأخيرينِ من الأوجه الستة أيضا. لذا رأيت من المناسب أن أتحدث اليوم عن هذين الاثنين أيضا بشيء من التفصيل.

السعي للإيفاء بعهد قطعه المسيح الموعود عليه السلام

الحق أن هذا الموضوع إيفاء بعهد قطعه المسيح الموعود عليه السلام بتقديم ٣٠٠ دليل في البراهين الأحمدية على أفضلية القرآن الكريم[١] مع أنه عليه السلام كتب في نهاية الجزء الرابع من البراهين الأحمدية:

"عندما أُلِّف هذا الكتاب بداية كان وضعه مختلفا، ثم أطلعني، أنا أحقر العباد، التجلّي المباغتُ لقدرة الله عز وجل -مثل موسى تماما- على عالَمٍ ما كنت مطّلعا عليه من قبل. أي كنتُ أتجول أنا العبد المتواضع أيضا مثل ابن عمران في ليلة مظلمة لأفكاري، إذ سمعت دفعة واحدة صوتا من الغيب: "إني أنا ربك"، وكُشفت الأسرار التي لم تكن في متناول العقل والتصور. فالآن إن وليّ هذا الكتاب وكفيله ظاهرا وباطنا هو الله ربّ العالمين، ولا أدري إلى أيّ مدى وقدرٍ يريد سبحانه وتعالى إيصاله. والحق أن أنوار صدق الإسلام التي كشفها عليّ سبحانه وتعالى إلى الجزء الرابع من الكتاب، تكفي لإتمام الحجة."[٢]

ثم كتب عليه السلام أيضا بعد ذلك: "كنت أنوي أن أكتب ٣٠٠ دليل في "البراهين الأحمدية" لإثبات حقّية الإسلام، ولكن حين تأملت في الموضوع توصّلت إلى نتيجة

[١] الخزائن الروحانية، المجلد ١، البراهين الأحمدية، ص ١٢٩.

[٢] الخزائن الروحانية، المجلد ١، البراهين الأحمدية، ص ٦٧٣، الإعلان بعنوان: نحن وكتابنا.

أن هذين النوعين من الأدلة يقومان مقام آلاف الأدلة في الحقيقة. فصرف الله قلبي عن تلك الإرادة وشرَحَه لتحرير الأدلة المذكورة آنفا."[1]

فالأدلة التي وعد بها المسيح الموعود عليه السلام في البراهين الأحمدية كتبها في تأليفاته الأخرى. ولكن لا تدركها كل عين، لذا رأيت بيانها بالترتيب ضروريا.

خمسون وجها للأفضلية

ولكن عندما جلست لأخطط لتسديد هذا الدِّين وجدتُ أن الدَّين قد ازداد أكثر، وحين بدأت بكتابة رؤوس الأقلام تبيّن لي خمسون وجها للأفضلية بدلا من ستة وعشرين. وبذلك بدا لي أنه بقي بذمتي أربع وأربعون وجها بدلا من عشرين. فخطر ببالي أنني تمكّنت بصعوبة بالغة من بيان ستة أوجه في العام الماضي ببذل وقت طويل فكيف يمكن بيان أربع وأربعين وجها هذا العام؟ وإلى جانب ذلك ذهب وهلي إلى أن بعض الناس يملكون طبائع متوهمة لذا يمكنهم القول عني بأني قد أثبتُّ أفضلية القرآن الكريم ببيان أوجه الأفضلية كمبدأ فقط ولم أتطرق إلى تفاصيلها، فلا بد أن يكون وراء الأكمة ما وراءها، ولعل المحاضر لا يقدر على إثبات أفضلية القرآن الكريم بصورة كاملة، فانتقل ذهني إلى أن أتناول الآن التفصيل الذي لم يتم بيانه. وبذلك قد تفاقمت مهمتي أكثر ولن أستطيع إتمامها هذا العام حتما. أما العام المقبل فلا أدري ماذا سيلقي الله في قلبي للبيان، لذا سأبين الموضوع قدر الإمكان.

القرآن الكريم هو الأفضل في كل ما قاله

لقد قلت من قبل إن أفضلية القرآن الكريم لا تكمن فقط فيما بيّنه إضافة على ما قالته الكتب السابقة الإلهامية بل هو أفضل مما هو موجود أيضا في الكتب السابقة. وقد توصلت في أثناء التأمل إلى نتيجة أنه إذا ذكرت الكتب السابقة أسلوب تغيير

[1] الخزائن الروحانية، المجلد ٢١، ص ٦، مقدمة البراهين الأحمدية الجزء ٥.

اللباس مثلا فقد بيّنه القرآن الكريم بأسلوب أفضل وأحسن منها. وإذا ورد فيها أمرٌ عن تناولِ الطعام فقد بيّنه القرآن الكريم بأسلوب أفضل منه. باختصار، لا تساوي الكتب السابقةُ القرآنَ الكريم حتى في أبسط الأمور التي ذكرها القرآنُ. وإذا أخذنا أبرز الأمور يثبت أن القرآن الكريم أفضل فيها أيضا من الكتب الأخرى. بل لو أخذنا ما يخطر ببال الإنسان دون أدنى تفكير وتأمل، أستطيع أن أثبت كيف أظهر القرآن الكريم تعليما أفضل حتى في أبسط الأمور على الرغم من وجود ذلك التعليم في الكتب السابقة. فلدرء شبهات القائلين بأن أفضلية القرآن قد لا تثبت من حيث التفاصيل، سأقدم مثالين اثنين وأبين كيف قدّمهما القرآن الكريم بأسلوب جديد وعلمي.

شمولية تعليم القرآن الكريم في الصدقات

أُقدّم تعليم الصدقات كأول مثال. هذه ليست قضية روحانية بل هو أمر طبيعي، فإن عاطفة المواساة المتبادلة موجودة حتى في الحيوانات فيواسي حيوان حيوانا آخر، ويواسي طائر طائرا آخر. فمثلا إذا ضربتم غرابا يجتمع حوله عشرون غرابا صارخا، وتُظهر حزنا على موته. وإذا وُجد شخص يحمل غرابا ميتا هاجمته وانتشلته منه. باختصار، إن عاطفة المواساة والإحسان إلى الآخرين مودَعة في الحيوانات والطيور أيضا. إنها لا تملك نقودا وإنما تملك منقارا ولسانا فتبدي بهما تلك العواطف. الناس يملكون الأموال والأشياء الأخرى التي يساعدون بها الآخرين. باختصار، إن قضية الصدقات بسيطة ومنتشرة على نطاق واسع فيجب ألا يكون التعليم عنها ناقصا في أيّ دين بل ينبغي أن يكون كاملا لأنها أمر ظل الناس يعملون به منذ آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، ولا يسع أحدا القول إنه إذا ثبتت أفضلية تعليم الإسلام فيه فلا تثبت أفضليته في تفاصيل أمور أخرى.

تعليم الإنجيل عن الصدقة

عندما نقرأ تعليم الأديان المختلفة عن الصدقة نجد أمورا غريبة، فمثلا جاء في الإنجيل: فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى

مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ! وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضًا: إِنَّ مُرُورَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ! (إِنْجِيلُ مَتَّى ١٩ : ٢٣-٢٤)، وهذا يعني بحسب الإنجيل أنه ما لم يبذل المرء في سبيل الله جُلّ ماله لن يكون مقبولا عنده ﷻ. وورد فيه أيضا: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً فَاذْهَبْ وَبعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ. (إِنْجِيلُ مَتَّى ١٩ : ٢١)

ويقول المسيح عليه السلام عن الصدقات: أَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ، لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتُكَ فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً. (إِنْجِيلُ مَتَّى ٦ : ٣-٤)

يتبين من هذه العبارات أن الإنجيل يقول عن الصدقات: أولا: أن تعطي كل ما كان عندك. ثانيا: إذا تصدّقت فلتتصدق بخفاء حتى لا تعلم بها يدكم الأخرى أي الأقارب أو العاملون تحتكم أو المسؤولون فوقكم.

كل من هذين التعليمين يبدو جميلا في الظاهر، ولكن إذا أعطى كل إنسان كلَّ ما عنده فمن يأخذه منه؟ ومَثله كمثل تقليد أوجده المشايخ اسمه "الإسقاط" حيث يجلس بعض الناس في حلقة ويمسك أحدهم القرآنَ الكريم ثم يسلِّمه إلى غيره قائلا: أهديك ثوابه، وهذا الشخص يسلّمه إلى من يليه قائلا الكلام نفسه ويظل القرآن الكريم يدور على هذا النحو حتى يصل إلى الشخص الأول. باختصار، لو تعمّقنا في تفصيل تعليم الإنجيل وافترضنا جدلا أن العالم كله بدأ العمل به لكانت النتيجة أن مال زيدٍ يعود إليه في نهاية المطاف. إذن، هذا التعليم ليس جديرا بالعمل أصلا. التعليم الجدير بالعمل هو الذي يمكن العمل به في كل حال.

كذلك الأمر القائل: "أَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ" يبدو جميلا في الظاهر ولكن ضره أكثر من نفعه على صعيد الواقع. فمثلا إذا كان الأب والابن ذاهبان إلى مكان ووجدا في الطريق فقيرا يتضور جوعا ويريد

الأب أن يتصدق عليه ويساعده ولكنه لا يستطيع أن يفعل لأن ابنه معه. ولأن تعليم الإنجيل هو: فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ. فماذا يفعل الأب؟ لا بد أن يصرف ابنه ليعطي الفقير شيئا في غيابه، أما الابن فسيزعم أن أباه يريد إبعاده ليكتم بُخله، فلن يبتعد عنه وبالنتيجة يحرم الفقير من المساعدة. كذلك ستكون النتيجة الثانية لهذا التعليم أن الحسنة ستتلاشى من المجتمع. معلوم أن الناس يقلّدون بعضهم ويتعلّم الابن خاصة من الأب كثيرا. ففي هذه الحالة سيكون هناك كثير من الأبناء الذين سيقولون إن أبانا قاسي القلب وليست فيه شائبة من الرحمة، وكثير منهم سيتعودون على البخل تقليدا لآبائهم، وسيقول كثير منهم إن أبانا أحسنَ صنعا فلن نعطي نحن أيضا أحدا شيئا ولو مات جوعا أمامنا. باختصار، إذا شرحنا هذا التعليم أكثر لثبت أنه خطير وضار جدا بالعالم.

تعليم التوراة عن الصدقات

إذا نظرنا إلى تعليم التوراة وجدنا أنها لا تقول إن عليكم أن تتصدقوا بكل ما عندكم بل تعلِّم عن الصدقات أنه يجب رفع معاناة المنكوب، أي أن غاية الصدقات عند التوراة هي رفع معاناة المنكوبين. ثم تقول إن للصدقة نوعين أولهما الصدقة الواجبة والثانية هي التطوعية. لا شك أن هذا التعليم أفضل من تعليم الإنجيل وأن كلا النوعين من الصدقة ضروري. لا شك أن التصدُّق من منطلق الرحمة ضروري ولكن إذا أُعطيتِ الصدقة من منطلق الرحمة حصرا فقد تسفر عن نتيجة سيئة، أي تنشئ الكبر والزهو. فإذا ظن المرء أنه غني وفلان فقير وأنه يساعد فقيرا فهذا يؤدي إلى نشوء الكبر لأن المتصدق يظن أن فلانا محتاج إليه مع أن كل إنسان في العالم محتاج إلى غيره. يُظَنّ من منظور دنيوي أن الملوك أكبر الناس، ولكن الملوك أيضا يصبحون ملوكا بسبب الذين تحتهم، وهم يحتاجون إليهم. إن زعم المرء أنه فوق الجميع وأنه ليس بحاجة إلى أحد بل الآخرون محتاجون إليه فهذا يقضي على حياته الروحانية ويُبعده عن الله ﷻ. لذا يجب أن تنشأ في ذهنه بدلا من ذلك فكرة أنه

إذا ساعد أحدا فهو لم يساعد شخصا آخر بل ساعد نفسه في الحقيقة. وهذه الفكرة لا تنشأ إلا إذا فكّر المعطي أن ما أعطاه كان حقًّا للمُعطَى، أو كان لفائدة المعطي نفسه. انظروا مثلا أن الأمّ عندما ترضع ابنها فلا تفعل ذلك بعاطفة الرحمة به بل تفعل نتيجة عاطفتها الفطرية، غير أنها إذا أرضعت ولدا غير ابنها ففي هذه الحالة ترضعه بدافع عاطفة الرحمة. لا بد أن تكون هناك أمهات كثيرات لو قيل لهنّ إنكنّ أرضعتنّ أبناءكنّ إلى ستة أشهر وبذلك قد رَحِمتُنَّهم بما فيه الكفاية فيمكن أن تتوقفن عن إرضاعهم الآن، لخاصمن القائل بدلا من فطام أبنائهن، لأنهن يرضعنهم نتيجة عاطفة فطرية وليس رحمةً بهم.

تعليم الفيدات عن الصدقة

والآن أتوجه إلى الفيدات. قد يظن الذين لم يقرؤوا الفيدات أنها تقع في مجلدات ضخمة، فلعلّها تحتوي على أحكام عظيمة وكثيرة. ولكن الحقيقة أنها لا تشتمل إلا على أحكام قليلة جدا، وإن كانت الصدقات مذكورة فيها على أية حال، حيث تقول الفيدات إنه إذا سأل شخص من فئة "برهمن" العرقية بقرةً فليُعطاها، ومن لم يعطه كان مذنبا ومن منع أحدا من إعطائه كان مذنبا كذلك. وهذا يعني: (١) أنها تحرض على السؤال، (٢) تجعل إعطاء الصدقة مقتصرا على قوم واحد، (٣) تكره الناس على إعطاء "برهمن" البقرةَ سواء أكان المرء قادرا على ذلك أم لا، وحتى لو مات أولاده جوعا. ولما كانت فئة "برهمن" قوية بين الهندوس لذا عدّت الفيداتُ التصدُّقَ على "برهمن" هي الصدقة الحقيقية. وإلى جانب ذلك، مهما كان أحد فقيرا –وإن كان حليب زوجته قد جفّ وكان أولاده يعيشون فقط على لبن بقرة يملكها– فهو مع ذلك مأمور بأن يسلّم بقرته إلى "برهمن" فورا إذا طلبها، وإلا سيكون مذنبا ذنبا كبيرا وسيتحطم كل ما يملكه.[1]

[1] The Hymns of the Athara-Veda,Vol II P 120 Book XII, Hymn IV Bebares, Published 1917.

اقرأوا هذه التعاليم كلها، تجدونها لا تقدم تعليما كاملا حتى في أمر بسيط وعادي مثل الصدقات. والذين لا يتبعون أيّ دين تدفعهم رغباتهم الشخصية فقط إلى أن ينفقوا على أحد إذا شاؤوا وإلا فلا، بمعنى أن الإنسان لم يضع قانونا عن الصدقات بناء على تجربته بل سَنّته بعض الأديان ولكن تركته ناقصا. لا نقول إن موسى أو المسيح الناصري عليهما السلام أو رجال الدين في الهند أعطوا تعليما ناقصا وغير مكتمل كما هو الآن، بل نقول إن تعليم تلك الأديان الموجود حاليا هو الناقص. وإذا كان زعماء تلك الأديان أعطوا هذا التعليم فهو ناقص، أما إذا وضعه أتباع تلك الأديان فهذا يعني أن كتبهم الدينية والإلهامية ناقصة.

قول معلّمي الأخلاق: يجب كسب الحسنة من أجل الحسنة

الذين وضعوا التعليم بأنفسهم عن الصدقات ويُسمَّون معلّمي الأخلاق قالوا إن الأصل في الموضوع أن تُكسَب الحسنة من أجل الحسنة، ولم يجدوا شيئا آخر عن الصدقات. سوف نضع قولهم هذا في الحسبان ثم سنرى هل أعطى الإسلام تعليما أفضل منه أم لا؟ نقبل حاليا أن هذا التعليم جيد. ولكن السؤال هو: هل يصلُح هذا التعليم لكل مكان وزمان؟ وهل يمكن لكل شخص أن يعمل به؟ فإذا قلتم: تصدَّقوا عندما يمكنكم القيام بفعل التصدُّق، فلن يتصدق الذين لا يستطيعون أن يتصدقوا على هذا النحو. وبالنتيجة سيموت الفقراء جوعا لعدم حيازتهم على أموال الصدقات، لأن الذين لا يستطيعون أن يتصدقوا من أجل الصدقات لن يتصدقوا أبدا، وسيقولون: ما دمنا لا نستطيع أن نتصدق من أجل الصدقة فلماذا نضيع أموالنا؟ وحين لن يتصدقوا لهذا السبب سوف يتضرر الفقراء.

الإسلام يلقي الضوء على جوانب الصدقة المختلفة

والآن أبيّن كيف جعل الإسلامُ الصدقاتِ موضوعا علميا.

مقدار الصدقة

الأمر الأول هو مقدار الصدقة، وبأي قدر يجب دفعه؟ يقول الإنجيل حول هذا الموضوع أن ادفعوا كل ما كان عندكم. ويقول الفيدا: كلّ ما طلبه "برهمن" فأعطوه دون أدنى تردد ونقاش. ولكن الإسلام حدد مقدار الصدقة فقال: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٣٠-٣١)، أي أيها الناس! نأمركم ألا تبخلوا وألا تبسطوا أيديكم إلى درجة أنْ يأخذ أموالكم كل من يشاء. أي لا تعملوا كما يقول الإنجيل أن اعطُوا كل ما تملكون، ولا تعملوا بحسب تعليم الفلاسفة الأوروبيين القائل بأن الصدقات تؤدي بالناس إلى الكسل فلا تدفعوها. إذن، يقول القُسُس أنِ اعطوا كل ما تملكون، ويقول الفلاسفة بعدم دفع الصدقات نهائيا. على أية حال، كِلا هذين التعليمين موجود. ينظر القرآن الكريم إلى كليهما ثم يقول: ﴿لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، أي لا تمتنعوا عن الصدقة قائلين بأن الصدقة تُفسد عادات الناس وتجعلهم كسالى فيتحاشون الجهد والمشقة، ولا تتصدقوا بكل ما عندكم. ولو فعل أحد ذلك لأسفر فعله عن نتيجتين: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾. إن مزية القرآن الكريم هي أن ما يقوله يأتي عليه بدليل أيضا. فقال ما مفاده: لو لم تتصدق وقلتَ إن الفلاسفة يمنعون عنها، لأسفر ذلك عن نتيجتين: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ أي سيلومك ضميرك وسيلومك الصغار والكبار جميعا ويقولون إنك سلكتَ سلوكا سيئا إذ لم تطعم الجائع ولم تساعد المحتاج والفقير.

ثم بيّن الله تعالى أمرا ثانيا وهو: لا تنفقوا كل شيء، مع أن الإنجيل أمر بإنفاق كل شيء. لماذا خالف القرآنُ الإنجيلَ في هذا القول؟ فقد قدّم على ذلك دليلا: ﴿فتقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾.

حسر الشيءَ: كشفه. حسر الغصنَ: قشره. حسر البعيرَ: ساقه حتى أعياه. كما أن الشجرة تجف نتيجة إزالة قشرها السميك، كذلك لو سيق الحيوان إلى حد الإعياء وفقدان القدرة على المشي لما قدر على المشي أكثر. فقال تعالى: مهما أعطيتم المحتاجين سيبقى المحتاجون في العالم على أية حال. إذا أنفقتم اليوم كل ما تملكونه وأصبحتم مثل بعير أعياه السفر والتعب أو أصبحتم مثل شجرة منزوعة القشر فماذا ستفعلون غدا. كما أن الإنسان يحتاج إلى الأكل والشرب كل يوم، كذلك هو حال الأعمال الروحانية. فمن أراد أن يأخذ نصيبا من البرِّ والتقوى كل يوم يتحتم عليه أن يحتفظ عنده أيضا بماله لينمو عنده ثم ينفق على المحتاجين ثم ينمو ماله ثم يُنفق. في أوروبا تجار يستثمرون عشرة ملايين روبية مثلا في التجارة ويربحون عدة ملايين ومن ثَمّ يتصدقون بمبالغ هائلة. ولو بذلوا كل ما عندهم دفعة واحدة وما أبقوا عندهم رأس المال أنّى كان لهم أن يكسبوا أرباحا وأنّى كان لهم أن يدفعوا مبالغ هائلة مرة بعد أخرى في مشاريع خيرية؟ فيقول ﷻ: لا تنفقوا كل شيء لينفد كل ما عندكم فتتلاشى إمكانية نموّ المال من جديد. فلو فعلتم ذلك لكان مَثلكم كمَثَل سائر عند الإنجليز يقول إن شخصا قتل دجاجته للحصول منها على بيضة من الذهب. يُروى أنه كان لدى شخص دجاجة تبيض كل يوم بيضة ذهبية فراودت صاحبها فكرة أنه لو أطعمها أكثر لعلها تبيض بيضتين كل يوم، ففعل ذلك فماتت الدجاجة نتيجة الأكل الكثير.

فلو عمل الإنسان بالتعليم القائل بإنفاق كل شيء دفعة واحدة لحُرم من الإنفاق في المستقبل ولما قدر على استخدام مؤهلاته.

ومن معاني "الحسر": العريُ أيضا. وعلى ذلك يكون معنى "محسورا": سيصبح عاريا. ومن كان عاريا عجز عن المشي والجري هنا وهناك، واضطر إلى الانزواء في بيته. فيقول الله تعالى: لو أنفقتم كل ما عندكم لاضطررتم إلى الانزواء في بيوتكم عاطلين ولن تقدروا على فعل شيء.

هنا ينشأ سؤال آخر وهو: ماذا علينا فعْله إذا رأينا المحتاجين في العالم؟ وكيف يمكننا أن ننفق نصيبا من المال ونحتفظ بالباقي؟ يقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾. أي عندما يحوز أحد ثروة فإنما يحوزها بحسب قانون وضعناه، ولا نعطي الثروة إلا لمن كان يملك موهبة لكسبها. وإذا عُطّل هؤلاء الموهوبون لحدث دمار في العالم.

الذين يزدهرون ويتقدمون تكون فيهم قدرة معينة على النمو، وإذا أُخذ منهم جلّ مالهم ووزّع بين الفقراء والمحتاجين لكانت النتيجة أن القادرين على كسب المال لن يقدروا على كسبه وسيُدمَّر البلد كله. فيقول الله تعالى بأن الذين نعطيهم الثروة إنما نعطيهم بحسب قانون أن لديهم مواهب للتقدم ولكي يتقدموا ويزدهروا. ولما كان إنفاق هؤلاء الناس كل ما يملكونه يسبب هلاك القوم فلا نسمح بذلك. إنهم بارعون في أمور الصناعة والتجارة وما شابه، ولو أُخذ منهم جلّ مالهم ووزّع على الفقراء لما استطاعوا التقدم. أما الفقراء والمحتاجون فسيأكلون كل ما سيقع في أيديهم، ولكن التاجر يستثمر ماله ويربح ويكسب أكثر. ثم ينفق من الربح على نفسه وعلى الفقراء. أما القول بأنه مع ذلك يكون هناك أناس تهيج فيهم عواطف الرحمة بالنظر إليهم فيقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي نحن نعلم بظروف عبادنا لذا قد دبّرنا أمورهم على هذا النحو، ولا تستطيعون أن ترحموا العباد أكثر منا فنحن نعلم بأوضاعهم أكثر منكم فوضعنا القوانين نظرا إلى ظروفهم.

ومن معاني التعبير: ﴿لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾: إن عدم الإنفاق أيضا يهلك القومَ، بمعنى أن قوة العمل تتلاشى في القوم لأنه قد يكون من المحتاجين من هم قادرون على العمل، فيجب أن يزوَّدوا بالأموال. فلو لم يتم النهوض بالفقراء لَضعُف الأغنياء أيضا، أي أن عدم النهوض بالفقراء يتسبب في انحطاط الأغنياء.

ولو قُضي على الأغنياء لبقي الفقراء بلا سند. إذن، إن وجود الأغنياء ضروري، وواجب عليهم أن يساعدوا الفقراء. انظروا كيف بيّن الإسلام مقدار الإنفاق وأتى عليه بالدليل.

النصيحة لاجتناب التبذير والبخل

يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٨)، فقد بيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية أن عبادنا يكونون في حالة وسطى. الذين نعطيهم المال والثروة يتحتم عليهم ألا ينفقوا جُل مالهم على أنفسهم، وألا يعطوه كلَّه الآخرين بل يجب أن يسلكوا مسلكا وسطا؛ أي لينفقوا جزءا من أموالهم على الآخرين وجزءا منها على أنفسهم.

لقد سمح الإسلامُ أن ينفق المرء جزءا من ماله على نفسه، بل إن عدم إنفاق المرء على نفسه يُعَدّ ذنبا عند الله أحيانا. اعترض بعض الناس على المسيح الموعود عليه السلام وقالوا إنه يستخدم زيت اللوز والمسك والعنبر وما شابهها. فكان عليه السلام يقول ردّا على ذلك إن السيد عبد القادر الجيلاني رحمه الله كان يلبس لباسا ثمنه ألف دينار، أي إن ثمن لباس واحد له كان يبلغ ١٦٠٠٠ روبية. وعندما سأله شخص عن ذلك قال: لا آكل ما لم يأمرني الله قائلا: يا عبد القادر أستحلفك بنفسي أن تأكل. ولا ألبس لباسا ما لم يقل الله لي: يا عبد القادر أستحلفك بذاتي أن تلبس لباسا كذا.[١]

كان المسيح الموعود عليه السلام يقوم بأعمال تقتضي جُهدا دماغيا، والمعلوم أن الذي يقوم بأعمال من هذا القبيل يكون أحوج الناس إلى المقويات. فلو لم ينفق الإنسان مثلُه على نفسه لكان مذنبا. ذات مرة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم للجهاد في شهر رمضان، وصام بعض الناس وأفطر بعضهم. عندما وصل الركبُ إلى الغاية المنشودة استلقى

[١] تذكرة الأولياء.

الصائمون، وانصرف المفطرون إلى نصب الخيم والأعمال الأخرى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالأَجْرِ.[١]

باختصار، يقول الإسلام بأنه إذا كان الأكل مفيدا ويساعد على خدمة الدين، فمن لم يأكل طعاما جيدا في هذه الحالة كان مذنبا. عندما كان النبي ﷺ ينام ليلا كان الناس من حارات مختلفة يحرسون بيته بالتناوب. والسماح بذلك كان عائدا إلى النبي ﷺ، وكان واجبا على الصحابة أن يدبّروا حراسته ليلا لأن الهجوم على النبي ﷺ كان سيؤدي إلى الإضرار بالإسلام، لذا لا يجوز لأحد أن يقول بأنه ﷺ كان يضع لنفسه الحراسة ليُظهر كونه مَلِكا، والعياذ بالله. فحراسة النبي ﷺ كانت ضرورية، ولو لم يضع ﷺ الحراسة لنفسه لكان مسؤولا عند الله.

التعليم عن توزيع الصدقات

يقول الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧-٢٨).

لقد ذُكرت في هاتين الآيتين الأمور التالية:

١- يجب على الإنسان ألا يُبذِّر ثروته كلها بل يجب أن يحتفظ بها لأهله وعياله أيضا، أي يجب ألا يتصدق بكل ماله بل ليتصدق بجزء منه.

٢- يجب ألا يتصدق بما لا ينفع الآخرين. إن معنى "التبذير" هو النثرُ. فمثلا إذا جاء أحدا عشرة جياع وهو لا يملك إلا رغيفا واحدا، فلو قطعه إلى عشر قطعٍ وأعطى كل واحد منهم قطعة واحدة فلن تنفع أحدا منهم شيئا. ولكن لو أعطى أحدهم ذلك الرغيف واعتذر من الآخرين لكان أفضل. كذلك إذا مرض كثير من الناس ولم يتوفر إلا قدر قليل جدا من "الكينين" ثم أُعطي الجميع جُزئيّة بسيطة منه

[١] صحيح مسلم، كتاب الصيام.

فلن تنفع أحدا، أما إذا أُعطي أحدهم بكامله فسيفيده. إذن، يأمر الله تعالى أولا ألا يوزع المرء جُلّ ماله. وثانيا: فليوزع بأسلوب ينتفع به المنفَق عليه. ومن لم يفعل ذلك فقال سبحانه وتعالى عنه: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي أن الإنفاق بهذه الطريقة لن ينفع أحدا وسيؤدي إلى عدم الشكر.

الحكمة في القول: ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾

لم يقل الله تعالى هنا إن المبذرين شياطين، بل قال: ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾. والسبب في ذلك أن المنفِق فعل ذلك بحسن النية إذ أعطى الكثيرين بدلا من إعطاء شخص واحد فقط. ولكن الحقيقة أن فعله هذا لم يكن مستحسنا، لذا إن فعله هذا ليس من عدم الشكر في الحقيقة بل يماثل عدم الشكر على أية حال. لقد عدّ الله تعالى توزيع المرء شيئا قليلا على أناس كثيرين -بحيث لا ينتفع به أحد منهم- عدمَ الشكر، وقال إن السبب وراء ذلك هو أننا أعطيناه النعمة لهدف معين ولكنه وزّعها بأسلوب لم يُجدِ نفعا، وبذلك أبطل ذلك الهدف. الهدف هو أن المال يأتي إلى الموهوبين، وجعْلُ الموهوبين قادرين على العمل ضروري للقوم. فمثلا إذا وزّع صنّاعٌ ماهر متقن عملَه أدواتِه على الآخرين لتوقّف عمله، ولن ينتفع الآخرون أيضا شيئا. أما لو ظل مشتغلا في عمله محافظا على أدواته وأنفق على الآخرين مما كسبه لكان ذلك مفيدا جدا.

الأسلوب الأنسب للتصدّق

لقد بيّن الإسلام الطريق للتصدق وهو: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ (البقرة: ٢٧٥)، لقد أُمر في هذه الآية، أولا: أن تتصدقّوا سرًّا، وثانيا: أن تتصدقوا علنا. هنا يمكن مقارنة تعليم الإنجيل من منطلق أسلوب توزيع الأموال، فقد قيل فيه: "فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ، لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتُكَ فِي الْخَفَاءِ". (إِنْجِيلُ مَتَّى ٦ : ٣-٤)

ولكن القرآن الكريم يقول، يجب أن تنفقوا سرًّا تارة وعلنا تارة أخرى ليعلمها الجميع. ثم ذكر السبب أيضا وراء الإنفاق سرا وعلانية فقال: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، ففي الأسلوب الثاني للصدقة بيّن الحكمة الكامنة في الأسلوب الأول أيضا. فلما قال إن الإنفاق سِرًّا خير لكم، قال إلى جانب ذلك إن في الإنفاق علانية خير للآخرين، لأن الناس عندما يرون غيرهم يتصدقون يقولون في أنفسهم إن هذا فعل حسنٌ ويقلدونهم. انظروا مثلا إلى المعجبين بأوروبا أنهم يلبسون من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ما يلبسه أهل أوروبا. في الزمن الذي كان المسلمون يحكمون الهند كان الهندوس يلبسون العباءات مثل المسلمين، بل المناطق التي يكثر فيها المسلمون يلبس الهندوس فيها إلى يومنا هذا مثل المسلمين تماما كما هو الحال في إقليم "سرحد" و"السِند".

ذات مرة كان تاجر من السند في السفر معنا وكان لابسا لباس المسلمين تماما حتى ظننته مسلما. عندما بدأنا أكل الطعام دعاه جدنا من الأمّ -الذي كان يرافقنا في السفر- ولكنه لم يأكل معنا. وعندما أوشك على النزول قال معتذرا: أنا شخصيا لا أرى مانعا في الأكل مع المسلمين ولكن غيري يستاؤون من ذلك. عندها علمنا أنه لم يكن مسلما بل كان هندوسيا. إذن، الإنسان يقلّد الآخرين في بعض أعمالهم.

لقد قال رسول الله ﷺ: كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته. أي لدى كل راع بعض الشياه التي تتبعه. فلو أنفق أحد علنا لتبعه في التصدُّق أولادُه وإخوته أو أقاربه ومريدوه وخدامه وأصدقاؤه ومعارفه.

الفائدة الثانية هي أن هذا السلوك سينفع الأجيال المستقبلية، وسيعتاد الأولاد على الصدقات. فعندما يرون كبارهم يتصدقون سيدركون أن هذا عمل حسنٌ ويشرعون في التصدق بأنفسهم ويتلقون تربية حسنة تلقائيا.

الفائدة الثالثة هي أن الناس لا يعرفون أحيانا أن فلانا محتاج إلى المساعدة. قد أعرف أنا عن محتاج في حارتي أو بلدتي أو مدينتي ولكن لا يعرف احتياجَه الآخرون. فإذا أعطيتُ أحدا شيئا وقلتُ له أن يسلّمه إلى فلان فسيخطر بباله تلقائيا فكرة المساعدة دون الإعلان بهذا الأمر، فهذه فوائد التصدّق علنا.

كذلك لو تصدّق المرء سرّا لكان خيرا للمتصدق نفسه لأن ذلك لن يخلق فيه رياء يمكن أن ينشأ في حالة الإنفاق جهرا. والذي ينفق سرًّا حتى لا يتولد في نفسه الرياء، لن يتولد عنده الرياء حتى عند إنفاقه جهرا لأنه ظل ينفق سرًّا خشية الرياء. الرياء يمكن أن يتولد في الذي ينفق علنًا فقط.

ثم بيّن الله تعالى بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ أن الإنفاق سرًّا مفيد لكم وللفقراء الذين تنفقون عليهم أيضا، لأن ذلك يحافظ على كرامتهم ولا يتعرضون للخجل. باختصار، إن الصدقة سرّا تنفع المتصدِّق لأنه يجتنب الرياء، وينفع متلقيها لأنه لا يتعرض للخجل.

أنواع الصدقة

الأمر الثالث عن الصدقة هو أن الإسلام جعل لها أنواعا. أحد أنواعها إلزامي كما يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، أي التزموا بالصلاة جماعة وبشروطها وأدُّوا الزكاة. ثم بيّن نوعين لهذه الصدقة الإلزامية. الأول: الإلزامي المؤقت مثل الجهاد، أي إذا اقتضت الحاجةُ الجهادَ تحتّم على القوم أن يضحوا بأموالهم. الثاني: الإلزامي الواجب والدائم مثل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ (التوبة: ١٠٣)، المراد هنا هو الزكاة. وهناك صدقة مؤقتة وغير محددة، أي لم تحدد الشريعة مقدارها ولكنها أمرت بأن دفعها واجب في وقت كذا. لقد حُدّد النصاب في الصدقة الواجبة وهو جزء واحد من أربعين أو عدد كذا وكذا من الأنعام. ولكن الأمر عند الجهاد هو أن تدفعوا بقدر استطاعتكم. قال سيدنا عمر ﵁ ذات مرة عن مناسبة الجهاد: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا فَقُلْتُ

الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا قَالَ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ قُلْتُ مِثْلَهُ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا.[١]

قد يقول قائل هنا: ماذا ترك أبو بكر ﵁ لأهله حين جاء بكل ما عنده؟ فليكن معلوما هنا أن المراد من كل ما عنده هو ما كان في بيته. كان ﵁ تاجرا ولم يأت بمال كان متداولا في التجارة ولم يبعْ منزله أيضا.

لقد ورد ذكر إنفاق المال عند الجهاد في سورة البقرة حيث يقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٦)، أي أنفقوا أموالكم في الحروب وإن لم تفعلوا فسينتصر العدو وتُدمَّرون.

ثم هناك صدقة بالخيار، وقد ورد ذكرها في آية أخرى في السورة نفسها: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (البقرة: ٢١٦)، كلما سنحت فرصة وأردتم الإنفاق في سبيل الله فلكم أن تنفقوا على والديكم وأقاربكم واليتامى والمساكين والمسافرين. لقد خيّر اللهُ ﷻ المتصدق في هذه الصدقة. وفي آية أخرى أشار ﷯ إلى صدقة بالخيار وصدقة إلزامية فقال: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: ٢٥-٢٦)، لقد بيّن الله تعالى في كلمة ﴿مَعْلُوْمٌ﴾ أن مقدار هذه الصدقة محدد أي أن الإعطاء بقدر كذا وكذا ضروري، أو يكون وقت الإنفاق محددا؛ أي أن إنفاق شيء في هذا الوقت واجب عليكم. فقال: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. أي من واجبكم أن تنفقوا بقدر كذا وكذا. وقال عن الإنفاق غير المحدد: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ٢٠)، هنا لم يورد الله تعالى كلمة ﴿مَعْلُوْمٌ﴾. يقول بعض الناس إن القرآن اهتم بالسجع فقط، بينما لو كان الأمر مقتصرا على السجع فقط

[١] سنن الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله.

لوردت هنا أيضا كلمة ﴿مَعْلُوْمٌ﴾ مع ﴿مَحْرُوم﴾ كما في سورة المعارج، ولكنها حُذفت في سورة الذاريات لأن فيها ذِكر صدقة من نوع آخر. وهذا يدل على أن القرآن الكريم لا يهتم بالسجع بل بالمضمون.

الصدقة - بتعبير آخر- تسديدُ قرض

الأصل الرابع الذي ذكره القرآن الكريم بشأن الصدقة هو بيانه حقيقة الصدقة فقال إنها بمنزلة تسديد القرض نوعا ما. يقول البعض إن الناس يتكاسلون عن العمل نتيجة تلقيهم الصدقات وينشأ فيهم الكسل والتهاون، ولكن الإسلام يقول: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ٢٠)، أي إن كنتم تنفقون على محتاج فأنتم لا تمنّون عليه بل تؤدون حقه فقط. وقد فُسّر هذا الحق في آية أخرى كما يلي: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية: ١٤).

أي أيها الناس قد سخرنا كل ما في السماوات والأرض لخدمتكم بغير مقابل وبدون أيّ جهد منكم. فلو كان كل ما في السماوات والأرض يخدم زيدا أو بكرًا فقط لأمكن القول بأنه يملكها، أما إذا كانت تلك الأشياء تخدم كل فقير وثري على حد سواء فثبت أنها لم تُخلق لزيدٍ أو بكرٍ فقط بل خُلقت للجميع. لو خُلقت الشمس للملكِ فقط لكان واجبا أن تتراءى له وحده وتنفعه وحده ولكنها كما تهيّئ الضوء والدفء للملك كذلك تهيئهما للفقير. والمبدأ نفسه ينطبق على أشياء أخرى. فتبين من ذلك أن كل ما في السماوات والأرض هو مِلك الناس جميعا، وتُكسَب الثروة كلها بواسطتها. فالإنسان يكسب الأموال والثروة كلها بسبب ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾. إذن، الثروة كلها تُكسَب مما هو مِلكية عامة، أي مما خلقه الله للعالم كله. ولكن مما لا شك فيه أن الذي يكسبها بالجهد وتكبّد المشقة فله نصيب الأسد منها، ولكن يكون في المِلك حق لمن كان له نصيب فيه وإن كان للمجتهد نصيب أكبر. ولكن لما يكون المِلك الذي يجتهد فيه المجتهد مشتَرَكا بين الجميع لذا ففيه الحق لكل مشترك فيه. وهذا الحق يُدفع من خلال الصدقة والزكاة.

انظروا الآن كيف كُسر كِبر الأغنياء والأثرياء ببيان هذه النقطة؟ فما دام في أموال الأثرياء حق للفقراء فإذا بذل غني على الفقراء فهو يؤدي حقهم ولا يمنّ عليهم. ومن ناحية ثانية فقد أنقذ الله الفقراء والمحتاجين من الندامة قائلا إن لهم حقا في أموال الأثرياء، وبأنه تعالى أعطى الأثرياء ثروة كبيرة وأوجب عليهم أن يبذلوا منها على عباده المحتاجين أيضا وألا يأكلوا كل ما يكسبون بأنفسهم فقط.

الدوافع وراء الصدقات

الجانب الخامس الذي بيّنه الإسلام عن الصدقات هو الدوافع وراء دفعها. الدوافع السيئة تجعل العمل الأفضل أيضا سيئا، فمثلا إذا جاءنا ضيف وخدمناه واضعين في الحسبان أنا سننال نتيجة خدمته منفعة كذا وكذا، فمهما خدمناه ستكون منفعتنا الشخصية كامنة فيها. أما لو خدمنا ضيفا لأن الله تعالى أمرنا بذلك لكانت حسنة كبيرة. إذن، الدوافع السيئة تجعل الشيء سيئا، والدوافع الحسنة تجعله حسنة. لقد قيل لليهود إن الهدف من الصدقة هو الرحم. وهذا جيد من ناحية، ولكن فيه عيب أيضا. لقد ناقش الإسلامُ الدوافع أيضا إذ قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (البقرة: ٢٦٦). في هذه الآية ذُكر غرضان من الصدقة، أولهما: ﴿اِبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ والثاني هو: ﴿تَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي أحيانا يكون الهدف هو تقوية القوم. إذن، للصدقة هدفان عند الإسلام، أولهما نيل رضا الله تعالى، والثاني مساعدة الفقراء، فإنما هي مساعدة المنفقين في الحقيقة. القوم الذي يكون أفراده ساقطين يضعُف أيضا، لأن الساقطين يشكلون عبئا على القوم فلن يتقدم. لذا إن الأقوام الأوروبية التي ليس لها أدنى علاقة بالله تعالى تتصدّق واضعة في الحسبان أن تقدُّم الفقراء في القوم يؤدي إلى تقدم القوم وازدهاره. فقد قال الإسلام إن الهدف من الصدقات هو: ﴿تثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بواسطتها يتقوى القوم.

كذلك يقول الله تعالى في ذكر الناس الصالحين: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، أي الصالح هو من يعطي المال لنيل رضا الله ﷻ. ما أوجز هذه الكلماتُ! ولكن ذُكرت فيها معان واسعة جدا.

١–إن معنى ﴿عَلَى حُبِّه﴾ هو أنهم أولا يعطون لنيل رضا الله تعالى، إذ قد ذُكر الله تعالى قبل هذه الكلمات، والمراد منها أنهم يعطون المال لنيل رضا الله تعالى وحبه. إنهم يحبون الله تعالى وبالنتيجة يحبون خلقه. ويقصدون من ذلك أنهم ما داموا يحبون الله والله يحب عبادَه، لذا لا بد أن يحبّوهم أيضا.

٢– يعود الضمير في ﴿حُبِّهِ﴾ إلى مَن يُعطَى المال أيضا، فمن هذا المنطلق يكون معنى الآية أن مَن يعطونه المالَ لا يعطونه إياه حاسبينه ذليلا مهانا بل يعدونه أخا لهم. إنهم يعطُون المال غيرَهم ولكن لا يفعلون ذلك بعدِّه حقيرا ومهانا بل واضعين في الحسبان أن هذا المال حق له وأنه أخ لهم وحبيبهم.

٣– يعود الضمير في ﴿حُبِّهِ﴾ إلى إعطاء المال أيضا، وعليه فيكون معنى الآية أنهم يعطون المال لأنهم يحبون إعطاءه ويكنّون رغبة عارمة في إعطاء المال في سبيل الله. فهم لا يحسبون إعطاء المال غرامة بل لأنهم ينالون به لذة وسرورا روحانيا. وقد بيّن الله تعالى عن الكلمة نفسها أي ﴿حُبِّهِ﴾ في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل: ٩١)، أي أن حبهم يظل في ازدياد مستمر حتى يبلغ درجة يحسبون أنفسهم فيها أنهم بمنزلة الآباء، والفقراء والمحتاجون أولادهم. كما أن الأمّ ترضع ولدها حُبًّا وليس طمعا في شيء، كذلك إنهم يعطون المحتاجين أموالهم بهذه العاطفة. ما هو حليب الأمّ يا تُرى؟ إنه بمنزلة دمها، ومع ذلك فالسيدات اللواتي لا يقدرن على الإنجاب يحترقن كمدا، بمعنى أنه ليس لديهن ولد يسقينه دمَهنّ. فيقول الله تعالى بأن الذين يعطون المال يبلغون مقاما بحيث لا يظنون أنهم بإنفاقهم المال على أحد يمنّون عليه بل يحسبون أن الذين يأخذون منهم المال هم الذين يمنّون في الحقيقة على المنفقين. كما أن الولد عندما ينزعج من الأمّ

قليلا ترضيه الأمّ وتداعبه قائلة مثلا: "فدتك نفسي" أو ما شابهه، مع أنها تعطي الولد شيئا ليأكله ولا تطلب منه شيئا. فيقول الله تعالى بأن عليكم أن تحتلوا مكانة حيث يبدو أن الذين أخذوا منكم مالا هم الذين مَنّوا عليكم ولم تمنّوا عليهم شيئا.

الهدف من الصدقة

سادسا: لقد بيّن الإسلام الأهداف من الصدقة، وذُكر أحدها في الآية التي تلوتها آنفا أي: ﴿آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، أي من أعطى المال أحدا فليعطه حبّا له وليس عداوةً، ولا ليُفسد به عادات أحد بل ليُنفق في أمور حسنة وليستفيد منه المعطَى وألا يضره.

مواطن الامتناع عن دفع الصدقة

سابعا: بيّن الإسلام مواطن الامتناع عن الصدقة أيضا، أي يجب ألا تتصدقوا في موطن كذا، وأنكم معذورون من أدائها في مواطن كذا، فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩). لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية ثلاثة مواطن لا بأس فيها من عدم التصدُّق. الأول: عندما لا تجدون مالا؛ ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ترجون رحمة ربكم لمواجهتكم ضيق اليد بأنفسكم. الثاني: تجدون في قلبكم رغبة في التصدّق وتملكون المال أيضا لهذا الغرض، ولكن قلبكم يفتي أنه لو تصدَّقتُم لنزل غضب الله ولو لم تفعلوا لنزلت رحمة الله. ﴿إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي لا يمتنع المرء عن التصدُّق بخلا بل حاسبا أن عدم التصدّق سيكون مدعاة لنزول فضل الله تعالى، فعدم التصدّق هو الأفضل في هذه الحالة. فمثلا إذا كان أحد يُهلك الأموال في الملذات فإن عدم إعطائه يكون مدعاة لرضا الله تعالى. أو إذا جاء شخص مثلا وقال: أريد مالا لأؤلّف كتابا ضد الإسلام فلتتبرع في هذا المشروع، فسيكون إعراض المعرض عنه ابتغاء رحمة الله حتما. أضرب مثلا آخر أيضا على أن المرء راغبُ في الإعطاء ولكنه يمتنع عنه ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾. فمثلا إذا كان هناك طفل نربّيه فيطلب

شيئا ونقدر على تحقيق طلبه الذي ليس سيئا أيضا ولكن نرى أن تحقيقه ضار بمقتضى تربيته فلا نحققه.

الوجه الثالث هو أن يسألنا أحد مالاً لإلحاق الضرر بأحد، ومثال ذلك أن يطلب منا المال ليشتري به مسدسا لقتل أحدهم، فلن نعطيه.

أسلوب رفض التصدّق

ثامنا: لقد بيّن الإسلام أسلوب الامتناع عن الصدقة وإنكارها، فقال: ﴿أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (الضحى: ١١)، أي إذا أردتم رفض التصدّق على أحد فلا تنهروا السائل. يحق لكم أن ترفضوا ولكن يجب ألا تقسوا على السائل.

ثم قال ﷻ: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (الإسراء: ٩٨)، أي قولوا للسائل ما لا يُشعره بالذلّة والإهانة. يقول الناس إن على المرء أن يرفض سؤال السائل بالرفق، وهذا ما ذُكر في: ﴿أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾. وأما ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ فمعناه: يجب أن تردُّوا سؤاله بأسلوب لا يُشعره بالذلة والندامة.

ماذا يجب أن يُعطى في الصدقات

تاسعا: لقد بيّن الإسلام ماذا يجب أن يعطى كصدقة؟ هذا السؤال أيضا مهم جدا. يقول بعض الناس: ما الفائدة من إعطاء الفقير لباسا فاخرا، بل لو أُعطي بدلا منه عشرة ألبسة وإن كانت خشنة لكان أفضل. كذلك لو أُعطي عشرة فقراء شيئا من الدقيق بدلا من إطعام واحد منهم طعاما فاخرا لكان أفضل. ولكن هذا خطأ منهم. فالإسلام ينظر إلى أعماق الفطرة ويدرك أن الفقراء يرون أن الأثرياء يأكلون كل يوم أطعمة فاخرة ويلبسون لباسا فاخرا فتنتابهم رغبة في أن يلبسوا لباسا فاخرا مثل الأغنياء ويأكلوا أطعمة فاخرة مثل الأغنياء. لذا يجب أن يجدوا أحيانا فرصة مثلما يجدها الأغنياء. الإسلام لا يجعل الناس فلاسفة جافّين بل يأمر بدراسة ما في قلوب الآخرين. هناك قصة معروفة في بلدنا كنا في صغرنا نستمع إليها بكل شوق ورغبة، جاء فيها أن حطّابا كان يأتي بالحطب لمطبخ الملك. فجاء بالحطب

ذات يوم وإذ بطعام فاخر يُعَدُّ، فتأثر لدرجة أنه لم يتمالك نفسه وقال للطباخ: هل لك أن تعطيني شيئا من هذا الطعام؟ قال الطباخ: هذا طعام ثمين جدا، فأنّى لي أن أعطيك منه؟ سأله الحطّاب: ما ثمنه؟ فقيل له بأن ثمنه يساوي حطبا تجمعه في ستة أشهر. فبدأ الحطاب يجمع الأخشاب أكثر من ذي قبل، إذ كان يأتي بحِمل واحد يوميا ولكن من هذا اليوم بدأ يأتي بحِملَين، ويعطي حِملا سلفة كثمن الطعام، ويقضي حاجاته اليومية بما يدِرّ عليه الحِمل الثاني. وبعد ستة أشهر أُعطي الحطابُ ذلك الطعام، وحين أخذه إلى بيته طرق فقير بابه وسأل الطعامَ. فقالت له زوجته: أعطِ الفقير هذا الطعام لأننا نستطيع أن ننال هذا الطعام بجمع الأخشاب إلى ستة أشهر أخرى، ولكن هذا الفقير لا يستطيع أن يناله حتى بهذه الطريقة. فأعطى الحطّابُ الفقيرَ ذلك الطعامَ.

كذلك يُروى أن السقاء الذي أنقذ السلطان المغولي "همايون" من الغرق في البحر عُرِض عليه أن يسأل ما يشاء، فسأل تولِّي الحكم لاثنتي عشرة ساعة. فهذه كانت أمنية السقاء القلبية. إذن، إن الله تعالى يطّلع على ما في القلوب، ولكن الفيلسوف لا يدرك مثل هذه الأشياء. لقد أمرنا الإسلام مراعيا مشاعر تكنّها القلوب: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: ٤) أي أنفقوا مما أعطاكم الله، ويجب ألا يقتصر الإنفاق على بذل النقود فقط بل يجب أن تتصدّقوا بلباس جيد وبطعام جيد، بل وزِّعوا باستمرار من كل ما أُعطيتموه.

ثم قال الله تعالى بوضوح أكثر في آية أخرى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأنعام: ١٤٢)، أي أيها المسلمون الذين تملكون البساتين، عندما تثمر بساتينكم وتأكلون منها مع أقاربكم، هل يخطر ببالكم مرة أن تسألوا الفقراء الذين يمرون بجانب البستان ماذا يجري في قلوبهم؟ فأمر الله ﷻ: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي كلوا هذه الثمار اليانعة كما تشاؤون ولكن يجب أن تطعموا منها الفقراء أيضا لينالوا هم أيضا نصيبا

من نِعم الدنيا. لم يقل الله هنا إن عليكم أن تبيعوا هذه الثمار وتعطوا الفقراء بعض النقود ليأكلوا منها طعاما بسيطا، بل قال ﷻ إلى جانب ذلك يجب ألا تُبذّروا، بمعنى أن تطعموهم ثمارا كل يوم دون أن تهتموا بلباسهم وطعامهم، بمعنى أنه يجب أن يكون لكل شيء حدود.

ثم قال ﷻ إنه يجب أن تنفقوا من المال الحلال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٦٨). هناك أناس يقومون بالنهب والسرقة كلما جاشت في قلوبهم عاطفة مساعدة الفقراء. إن الذين ليسوا مطلعين على علم الأخلاق يقولون إن السارق الفلاني رجل طيب لأنه يساعد الفقراء كثيرا. يقول الله تعالى إن هذا ليس طريقا سليما لمساعدة الفقراء بل الطريق السليم هو: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، أي لا يجوز أن تقوموا بالنهب والسرقة من أجل مساعدة الفقراء وتنهبوا أموال الآخرين لتعطوها الفقراء. بل يجب عليكم أن تعطوا بقدر ما أجازه القرآن من مالكم الحلال والطيب ثم فوِّضوا الباقي إلى الله تعالى، ولا يجوز العمل غير المسموح به من أجل الآخرين، وإن إعطاء الفقراء بنهب مال الآخرين لا يجوز بأي حال. وإن قلتم بأن لديكم مالا قليلا ولكن الفقراء كُثُر، فهذه ليست مسؤوليتكم، بل ليس عليكم إلا أن تنفقوا بقدر استطاعتكم واتركوا الباقي على الله تعالى.

هناك طرفة تاريخية جاء فيها أن شخصا كان موظفا في الجيش في أيام الحروب الصليبية فجاء ذات يوم إلى الملك وقال: لا تقبل غيرتي أن أتقاضى من بيت المال راتبا، فلن آخذه من اليوم. فسُئل: علامَ ستعيش إذن؟ قال: لديّ جارية تعرف السحر والشعوذة وسأعيش على ما تكسبه. إذن، بسبب عدم معرفته بتعليم الإسلام أجاز لنفسه المال الحرام، وحسب الحلال حراما.

يجب أن يتصدّق كلٌّ من الفقراء والأغنياء

عاشرا: لقد بيّن الإسلام من يجب عليه التصدُّق؛ هل الأغنياء فقط مطالَبون بأدائها دون الفقراء؟ يقول الإسلام بأن على الفقراء أيضا أن يؤدوها، لأنه ليس

الهدف من الصدقة مساعدة المحتاجين فقط بل هذه مدرسة لتربية أخلاقية، ولو حُرم الفقراء من التصدّق لحُرموا من التعلّم في هذه المدرسة. يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ (آل عمران: ١٣٥)، أي المؤمنون هم الذين ينفقون في حالة السعة المالية وضيق ذات اليد أيضا. تبين من ذلك أن الإسلام فرض التصدّق على الفقراء والأثرياء على حد سواء لينالوا من فوائده. علما أن للصدقة عدة فوائد ولكني سأذكر اثنتين أو ثلاثة منها.

أولا: يشعر المتصدق أن في العالم أناسا أكثر منه فقرا واحتياجا. الذي لم يجد وجبة واحدة ليوم كامل ثم وجد طعاما وقال في نفسه: هل أتصدّق به؟ يقول الله تعالى له: هناك في العالم أناس لم يجدوا وجبات لأيام عدة، لذا يمكنك أن تتصدّق به على من هو دونك.

ثانيا: لا يريد الإسلام أن يُحرم أحد من أي ثواب، لذا لم يفرض الصدقة على الأثرياء فقط بل فرضها على الفقراء أيضا لئلا يحرَموا هم أيضا من الثواب. والذي يساعد الآخرين مع كونه محتاجا يستحق ثوابا أكثر.

ثالثا: لا يريد الإسلام أن يصدأ قلب الفقير لأن الذي يأخذ فقط ولا يعطي يصدأ قلبه، لذا فقد أمر الإسلام أن يتصدق الفقير أيضا ليدرك أنه لا يتلقى المساعدة فقط بل يساعد الآخرين أيضا. إذن، قد هيأ الله تعالى له فرصة خاصة، وهي صدقة الفطر بعد رمضان، التي لم يُستَثن منها أحد، فقال النبي ﷺ ما معناه أنه يمكن للفقير أن يتصدّق مما أرسل الغني إلى بيته، ولكن يجب أن يتصدق على أي حال.

من يستحقون الصدقة

الأمر الحادي عشر الذي بيّنه الإسلام هو: لمن تُدفَع الصدقةُ؟ لقد قلت من قبل بأن الفيدا يقول أن تُدفع الصدقة للبرهمن. تأمر بعض الأديان بأدائها نظرا إلى القرابة القومية أو العائلية، ولكن الإسلام يمنع من ذلك. ثم هناك بعض الأديان التي تأمر

بالتصدّق على الأغيار دون الأحباب والأقارب. وقد تطرقت إلى المسلمين أيضا فكرة أن التصدق على الأقرباء لا يجوز، بينما لا يوجد في الإسلام أمرٌ من هذا القبيل. بل يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (البقرة: ٢١٦)، أي إذا كان آباؤهم محتاجين ولم يزُل ضيقهم بإنفاقكم عليهم وما تمدونهم إياه أيضا فلكم أن تتصدقوا عليهم، واعطُوا الأقارب واليتامى والمساكين والمسافرين. ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠)... تُنفق أموال الصدقات على الذين لم يؤمنوا بعد، أي لطعامهم وسكنهم وتعليمهم وتربيتهم، وتُنفق لفكّ رقاب الأسرى وللذين يرزحون تحت أعباء الديون وللمجاهدين في سبيل الله وللمسافرين...

ويقول ﷿ أيضا: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٩)، أي لا يمنعكم من التصدق على المذكورين في الآية.

يقول ﷻ أيضا: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ٢٠)، أي فيها حق للسائلين الذين يستطيعون الكلام، وكذلك للمحروم؛ أي الحيوانات التي لا تقدر على الكلام والسؤال.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور: ٢٣).

يتبين من هذه الآيات أن الإسلام، أولا: أمر بالتصدق على المستحقين ولم يجعله خاصًا بقوم دون قوم ولم يضع في ذلك أجرا إضافيا.

ثانيا: ولم يفرّق من هذا المنطلق بين الأصحاب والأغيار بل أجازه للأقارب والأغيار على حد سواء، وبذلك دحض أفكار: (أ) الذين لا يساعدون أقاربهم ولا يتصدقون أيضا عليهم بل يترددون في ذلك. (ب) الفقراء الذين لا يستطيعون أن يساعدوا أقاربهم ويتصدقوا عليهم في آن معا لم يُحرموا من البِرّ، بل عُدّت مساعدتهم أقاربهم صدقةً.

ثالثا: لم يُجعل التصدُّق مقتصرا على الفقراء فقط بل أجيز على ما شابههم أيضا. فمثلا (أ) لو كان هناك شخص غني جدا يرفل في الملايين ولكن ضاع ماله في الطريق لجاز التصدق عليه. لا يجوز إعطاؤه دَينا مبلغا كبيرا لأنه ما يُدرينا لعله نصَّابٌ أو مخادع وما شابه ذلك. أما التصدق عليه فممكن؛ لأنه إذا كان نصّابا ومخادعا سيتحمل مغبة سوء عمله بنفسه.

(ب) المساكين، كلمة "المساكين" لا تعني "الفقراء" لأنه لو كان معناها الفقراء لما وردت في الآية "للفقراء"، بل المراد من المسكين هو مَن لا يستطيع المباشرة بعمله لعدم توفّر المال عنده. مثال ذلك أن شخصا يعمل بحِرفة ولكن العمل في مجالها يقتضي عشرة آلاف روبية، وهذا الشخص لا يُعدّ فقيرا لأنه ميسور الحال إلى حد ما ولكنه لا يستطيع التقدم لعدم قدرته على استخدام براعته وموهبته. ولو أُعطي عشرة آلاف روبية لاستطاع أن يباشر بالعمل. فيمكن للحكومة أن تعطيه مالا من صندوق الصدقة سواء بصورة مساعدةٍ أو قرض.

(ج) بيان ذلك أن هناك شخصا غنيّا ولكنه مَدين. فمثلا إنه يقوم بتجارة قدرها خمسون ألف روبية وعليه دَينُ عشرة آلاف روبية، والدائنون يتقاضون ديونهم. فلو سدّد الدّين من ماله المتداول في التجارة لبارت تجارته البالغ قدرها خمسون ألفا. فيمكن مساعدة شخص مثله من مال الصدقات. أو إذا كان هناك فلاح وهو مدين ولو أراد تسديد الديون لبيعت أرضه ولما بقي لديه معاش، لجازت مساعدته أيضا من مال الصدقات.

(٣): لقد عُدّ العاملون على جمع الصدقات أيضا ممن يستحقون الصدقة، لأنه لما أمر الإسلام أن دفع صدقة كذا وكذا ضروري سينشأ السؤال: مَن سيجمعها؟ فكان ضروريا أن يكون هناك من يعمل في هذا المجال، وأن تُحدَّد لهم رواتب معينة. لا شك أن هذه الرواتب لن تُعَدّ صدقة، ولكن دفع الرواتب من مال الصدقة جائز. هذا سؤال لم يهتمّ به أيّ دين آخر، أي لم يقل إن في أموال الصدقات حقا للعاملين أيضا.

(٤): خامسا: بيّن الإسلام ألا يُحرم السائل. يقول بعض الناس: يجب ألا يُعطى السائل شيئا لأن ذلك يُفسد عاداتهم، ولكن الإسلام يقول بإعطائهم لأنه لا يتبين من النظر إلى وضعه الظاهري هل هو محتاج في الحقيقة أم لا، لذا يقول الإسلام أنه إذا سأل أحد وكان المسؤول قادرا على إعطائه شيئا فليعطه.

(٥): سادسا: يجب التصدق على الأقارب والأغيار إلا الخائضين في الحرب ضدنا في ذلك الوقت لئلا يضروا المعطين.

(٦): سابعا: يجب ألا تُحرم من الصدقة -إضافة إلى الناس- الحيوانات كونها عاجزة عن الكلام والتي لا تُحسب لها أية قيمة، لأن الله تعالى قد جعل نصيبها أيضا مع الناس. وهذا يعني أن إعلافَ الحيوان الهرم وعديم الفائدة أيضا صدقة ومدعاة للأجر والثواب. لا شك أن الإنفاق على حظيرة البقرات صدقة وكذلك على مرابض الإبل والجواميس.

مبادئ توزيع الصدقات

الأمر الثاني عشر الذي بيّنه الإسلام هو: ما هي المبادئ التي بحسبها يجب على الحكومة توزيع الأموال الحاصلة في صندوق الصدقات. وقد وضع الإسلام لهذا الغرض قوانين وقال: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣)، أي يجب الاهتمام بأمرين اثنين.

الأول: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي لإزالة ضعف القوم ومصيبة المنكوبين.

الثاني: ﴿تُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي للنهوض بالقوم، إذ من معاني "زكى" الرفع والتقدم أيضا.

طبيعة العلاقات بين معطي الصدقات ومتلقّيها

الأمر الثالث عشر هو: كيف يجب أن تكون العلاقات بين معطي الصدقات ومتلقيها؟ (١) لقد قسمت الشريعة مال الصدقة على قسمينِ، الأول هو الجزء الذي توزِّعه الحكومة، فلا يمكن لأحد أن يقول عنه بأنه خرج من يدي أو سُلِّم مالي إلى فلان، وذلك لأنه مال جُمع من الجميع، وتوزعه الحكومة بنفسها على المستحقين. وبذلك شطب الإسلام وساطة المتصدّق ولم يترك مجالا للمنّ.

(٢) قضى على فكرة المنّ بالقول: ﴿حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ وقال إن لمتلقّي الصدقة أيضا حقا في مال المتصدق.

(٣) ولكن لأنه لا يمكن لكل واحد أن يبلغ هذا المقام لذا قد أعطى الإسلام أحكاما ظاهرية أيضا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٥).

(٤) ثم اختار أسلوبا آخر لا يترك أيّ مجال للمنّ، فقال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (البقرة: ٢٧٧)، أي سيمحو الله تعالى الربا وينمّي مال المتصدقين. وقد قال هنا إن الله تعالى بنفسه سيجزي المتصدقين.

التركيز على الصدقات والمنع من السؤال

الأمر الرابع عشر المذكور هو: ما دام الإسلام قد ركّز على الصدقات فكان بالإمكان أن يخطر بالبال أن السؤال أمر مستحسن، لذا فقد شرح الموضوع وبيّن سلوكا يليق بالمؤمن فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة: ٢٧٤)، أي أن غير المطّلع على تعليم الإسلام

ولا يحبذ السؤال، يحسب الفقراء أغنياء بسبب عدم سؤالهم. ولكن المطّلع عليه يدرك الأمر بمجرد النظر إلى وجوههم ويساعدهم.

وقد بيّن في ذلك أن على المؤمن الكامل أن يجتنب السؤال، ولكنه لم يمنعه أيضا؛ أي أن السؤال ليس حراما حرمة مطلقة، لأن الإنسان يضطر إلى ذلك أحيانا. لقد جاء ذات مرة إلى النبي ﷺ شخص وسأله فأعطاه ﷺ، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم قال ﷺ له: ألا أخبرك بشيء؟ وهو أن السؤال ليس بمستحسن. فقرر السائل ألا يسأل أحدا بعد ذلك أبدا. ويقول أحد الصحابة إنه رأى أن سوط الشخص المذكور سقط على الأرض أثناء حرب فلم يسأل أحدا أن يناوله إياه. حاول أحد الصحابة أن يناوله إياه ولكنه رفض وقال ما معناه: لقد عاهدتُ رسول الله ﷺ ألا أسأل أحدا شيئا أبدا. ثم ترجّل عن فرسه وأخذ السوط بنفسه.

إذن، فمن ناحية ركّز الإسلام على الصدقات كثيرا لدرجة يمكن أن يخطر بالبال لماذا لا نأخذها، ومن ناحية أخرى منع من السؤال وطلب من المتصدقين أن يبحثوا بأنفسهم عن مستحقيها.

تلك أربع عشرة قضية بيّنها الإسلام عن الصدقات، ولو تصفحتم الكتب الإلهامية كلها للأديان الأخرى وقرأتم مؤلفات كافة الفلاسفة أيضا لن تجدوا فيها بحثا مستفيضا حول هذا الموضوع.

أستطيع أن أقول بكل تحدّ إنكم لن تجدوا في مؤلفات البشر ولا في الكتب الإلهامية حتى أمرا بسيطا أيضا مبيَّنا بالأسلوب الذي بيّنه القرآن الكريم.

البحث في العلاقات بين الرجل والمرأة

والآن أتناول على سبيل المثال أمرا آخر وهو العلاقة بين الرجل والمرأة. هذه غريزة فطرية وموجودة حتى في الحيوانات ولا حاجة إلى بحث طويل للعثور عليها. خذوا الأسد مثلا فإنه يفترس الحيوانات الأخرى كلها ولكنه يشعر بضرورة المكث مع لبوة. يُعَدّ الحمار حيوانا غبيا ولكنه أيضا يشعر بضرورة العلاقة مع الأتان.

باختصار، إنها علاقة ينتقل إليها ذهن كل ذي نفس منفوسة ويمارسها، فيجب أن يكون التعليم عنها كاملا لأنها ضرورة ملحة بدأت منذ زمن آدم عليه السلام ولا تزال كذلك إلى اليوم، ولكن جميع الكتب الدينية عاجزة عن إعطاء تعليم كامل عنها سوى القرآن الكريم، مع أن بيان كتابٍ شيئا جديدا عن هذه العلاقة يبدو شبه مستحيل.

إن موضوع العلاقات بين الرجل والمرأة واسع جدا، ولن أتناول الآن تعدد الزوجات وحقوق النساء والمسؤوليات المتبادلة بين الرجال والنساء وقضايا المهر والطلاق وما شابهها، لأنها مسائل طويلة ودقيقة، بل سأكتفي بذكر أكثرها إيجازا والذي بسببه يبدأ الرجل والمرأة بالعيش معا، وسأذكر أيضا كيف بيّن الإسلام هذه العلاقة بأكمل صورة، وكيف جعلها موضوعا لطيفا وجميلا.

عندما ننظر إلى الكتب المقدسة للأديان الأخرى يتبين أنها ساكتة عن هذه المسألة الابتدائية أيضا. خذوا الإنجيل مثلا فقد جاء فيه عن العلاقة بين الرجل والمرأة:

"قَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: إِنْ كَانَ هكَذَا أَمْرُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ، فَلاَ يُوافِقُ أَنْ يَتَزَوَّجَ! * فَقَالَ لَهُمْ:لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُونَ هذَا الْكَلاَمَ بَلِ الَّذِينَ أُعْطِيَ لَهُم * لأَنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلِدُوا هكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ." (إِنْجِيلُ مَتَّى ١٩: ١٠-١٢)

هذا يعني أن المسيح عليه السلام أخبر تلاميذه أن العلاقة بين الرجل والمرأة إنما هي فعل أدنى الناس درجة، وإذا أراد أحد أن يحتل درجة عليا وأراد الدخول في ملكوت السماء، عليه أن يصبح خصيا. والمراد من هذا القول هو أن الحسنة الحقيقية تكمن في عدم الزواج، أما الذي لا يقدر عليها فليتزوج. كذلك ورد في رِسَالَةُ بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولَى إِلَى أَهْلِ كُورِنْثُوسَ ٧: ١-٢: فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لاَ يَمَسَّ امْرَأَةً * وَلكِنْ لِسَبَبِ الزِّنَا، لِيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ امْرَأَتُهُ، وَلْيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ رَجُلُهَا.

كما جاء في رِسَالَةُ بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولَى إِلَى أَهْلِ كُورِنْثُوسَ ٧: ٨-٩: وَلكِنْ أَقُولُ لِغَيْرِ الْمُتَزَوِّجِينَ وَلِلأَرَامِلِ... وَلكِنْ إِنْ لَمْ يَضْبُطُوا أَنْفُسَهُمْ، فَلْيَتَزَوَّجُوا. أي إن بقاء الرجل والمرأة بغير زواج مستحسن.

لم يرد ذلك في كتب اليهود بهذا الشكل ولكن لم يرد فيها أمرٌ واضح أيضا عن العلاقات بين الرجل والمرأة بينما لم يرد في التوراة إلا: فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. * وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. * فَقَالَ آدَمُ: هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ. * لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. (سِفْرُ التَّكْوِينِ ٢: ٢١-٢٤)

لقد تم الاكتفاء في هذه العبارة بالبيان أن المرأة خُلقت من ضِلع الرجل لذا فبالاجتماع بها يصبحان جسدا واحدا، وسيظل الرجل راغبا في المرأة بطبيعة الحال. ولم يُذكَر هل عيشهما معا سيكون خير لهما أم لا، بل ذُكرت العلاقة الطبيعية فقط.

لم تذكر الهندوسية شيئا عن ضرورة الزواج، كل ما يُعلَم هو أن آلهة الهندوس كانوا يتزوجون فكيف لا يتزوج الناس؟ يقول البعض إلى جانب ذلك إن الوسيلة الحقيقية للنجاة هي أن يعكف المرء على العبادة زاهدا في الدنيا وما فيها. يقول "منوجي" الذي يؤمن الهندوس بتعليمه: يجب أن يبقى المرء عازبا إلى ٢٥ عاما ثم متزوجا إلى ٢٥ عاما. ولكن الفيدات التي تشمل تعليم الهندوس الحقيقي ساكتة تماما عن هذا الموضوع. إن "منوجي" وغيره صامتون عن ضرورة الزواج وحقيقته ونظامه وما إلى ذلك. البوذية تفضّل عدم الزواج لأنها تمنع من الزواج خدامَ الدين الأطهارَ والحائزين على مرتبة عليا سواء أكانوا رجالا أو نساء. هذا هو تعليم مذهب "جَين" أيضا.

وإذا أمعنتم النظر في الإسلام ترون أنه جعل هذه العلاقة قضية هامة جدا وعدّها جزءا من الدين ووسيلة للتقدم الروحاني.

الإسلام يعُد الزواج ضروريا

السؤال الأول الذي ينشأ بهذا الشأن هو: هل يجب أن تكون بين الرجل والمرأة علاقة؟ وهل يجب أن يعيشا معا؟ يقول القرآن الكريم في هذا الموضوع إن الزواج ضروري، وليس ذلك فحسب بل يجب تزويج الأرامل أيضا. ويقول مقدِّما الدليل على ضرورة الزواج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ٢).

يتبين من هذه الآية أن الإنسانية جوهر، ولا يصح القول بأن الرجل يشكّل الإنسانية أو المرأة تشكلها، بل الإنسانية شيء منفصل، وهي نفس واحدة وجُزِّئت إلى جزأين، نصف الجزء يسمى رجلا والنصف الآخر يسمى امرأة. فما دام كلاهما جزأين من شيء واحد فلا يمكن أن يكتمل ذلك الشيء ما لم يجتمعا معا، بل سيكتمل الشيء إذا جُمع بين الجزأين.

لقد ذُكر هنا القانون الأساسي للعلاقة بين الرجل والمرأة وقيل بأنهما قطعتان منفصلتان من جوهر الإنسانية، وإذا أردتم إكمال الإنسانية فلا بد من الجمع بين كِلتا القطعتين، وإلا لن تكتمل الإنسانية، وإن لم تكتمل الإنسانية لن يبلغ الإنسان درجة الكمال.

لم تُخلَق حواء من ضِلع آدم

يقول الناس معترضين على هذه الآية إنه يتبين منها أن حواء خُلقت من ضلع آدم عليه السلام كما جاء في الكتاب المقدس. ولكن هذا ليس صحيحا. القرآن يقول أولا: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٥٠)... ألم يتذكر الله أن يخلقَ الإنسان زوجين، والعياذ بالله، حتى أخرج حواء من ضِلع آدم؟ يقول القرآن الكريم إن لكل شيء زوجا سواء أكانت الأفكار والأمور العقلية أو المشاعر أو الإرادة، ولا تكتمل إرادة ولا شعور ولا عاطفة ما لم تكن مقابلها إرادة أو مشاعر

أو عواطف تلاقيها. كذلك لا يكتمل جسم ما لم يلقه جسم آخر، ولا يكتمل حيوان ما لم يلقه حيوان آخر، ولا يكتمل إنسان ما لم يجتمع إنسانان. فحين قال الله تعالى بأنه خلق كل شيء زوجين فمن سيقبل أن آدم خُلق أولا ثم خُلقت حواء من ضِلعه نظرا إلى كونه حزينا. يقول القرآن الكريم إن لكل شيء زوجا، لذا حين خلق الله تعالى الذرة الأولى خلق لها زوجها أيضا. وقد ورد عن الإنسان: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي أيها الناسُ ما دمنا قد خلقناكم أزواجا، فكيف خُلق آدم وحيدا دون زوج؟ أين كان زوجه؟ علما أن الفقرة: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وردت بحق جميع الناس أيضا، ولكن الناس لا يستنبطون منها هذا المعنى. يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (النحل: ٧٣)، فهل تُخلق كل زوجة من ضِلع زوجها؟ إن لم يكن الأمر كذلك فلا يمكن أن يكون معنى الآية المذكورة أولا أن زوج الإنسان خُلق منه. كذلك يقول الله تعالى في سورة الشورى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ (الشورى: ١٢)، فإذا كانت حواء خُلقت من ضلع آدم كان من الواجب أن يُخلَق الحصانُ أولا ثم تُخلق أنثاه من ضلعه. كذلك كلما وُلد طفلٌ فلينزل ملاك ويخرج ضلعا منه ويخلق منه بنتا. ولكن هل رأى أحد حدوث ذلك؟ ثالثا يقول الله تعالى أيضا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٩٠).

إن الذين يقولون إن زوج الرجل خُلق من ضلعه إنما يقولون إن حواء فقط خُلقت من ضلع آدم عليه السلام، ولا يقول أحد إن آدم عليه السلام خُلق من ضلع حواء، بينما يتبين من هذه الآية أن المرأة لم تُخلق من ضلع الرجل بل الرجلُ خُلق من ضلع المرأة لأن الضمير في "زوجها" يعود إلى "نفس واحدة" وهي مؤنث. كذلك استُخدم ضمير "منها" أيضا للمؤنث. ثم قيل إن الله تعالى خلق زوجها من "نفس واحدة" واستخدم للزوج صيغة المذكر أي "ليسكن". فتبين من ذلك بكل وضوح أن الزوج الذَكَر خُلق

من الأنثى. فلا بد من الاعتراف من منطلق هذا المعنى أيضا أن المرأة لم تُخلق من ضلع الرجل بل الرجل خُلق من ضلع المرأة! وهذا ما لا يقول به أحد.

إن هذه الآيات تعني في الحقيقة أن الرجل جزء من المرأةِ والمرأةُ جزء من الرجل، والتقاء الجزأين يشكّل وجودا كاملا، وإذا بقي الجزءان منفصلين فلن يشكّلا إنسانا كاملا، وإنما يكتملان عندما يجتمعان مع بعض.

انظروا الآن، ما أكمل هذا التعليم الأخلاقي الذي جاء به الإسلام! الرجل الذي لا يتزوج لا يكون رجلا كاملا، كذلك المرأة التي لا تتزوج لا تكون امرأة كاملة من منطلق هذا التعليم. الرجل الذي لا يحسن معاملة امرأته ويضايقها فهو يقطع جزءًا من نفسه بنفسه بحسب هذا التعليم. كذلك المرأة التي لا تعيش مع الرجل على أحسن وجه تجعل نفسها ناقصة، وبذلك يبقى جزء الإنسانية ناقصا.

إذن، ما دامت الإنسانية ليس اسم رجل ولا اسم امرأة، بل الإنسانية اسم مجموعة الرجل والمرأة فلا بد من الاعتراف بأن اجتماع الرجل والمرأة ضروري لإكمال الإنسانية. والدين الذي يُبقي أحدهما بمعزل عن الآخر يقطع دابر الإنسانية. إذا كان الدين يهدف إلى إكمال الإنسان فلن يخالف هذا العمل بل سيخدمه لنيل هدفه. والكتاب الديني الذي يستنكر هذا الفعل الطبيعي ويمنعه أو يرجح اجتنابه يعرقل طريق تقدم الإنسان حتما وبذلك يبطل أفضليته.

قد ينشأ هنا سؤال أنه ما دام الرجل والمرأة جزءان من شيء واحد فلماذا خُلقا كيانَين منفصلين؟ ولماذا لم يتركهما كيانا واحدا لئلا يرغب الرجل في المرأة ولا المرأة في الرجل؟ الإسلام يردّ على هذا السؤال ويقول: ﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢٢)، أي كان في الإنسان نوع من الهياج فجُعلت منه قطعتان لوضع الحد لهذا الهياج وجعل اجتماعهما مدعاة للسكينة. والآن لِنتأمل ما هو ذلك الهياج الذي يتمثل في العلاقة

بين الرجل والمرأة؟ فليكن معلوما أن هذا هو الهياج نفسه الكامن في: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف: ١٧٣)، المودَع في فطرة الإنسان كما أُودع البحث عن الله في طبيعته، وهذا البحث يقود الإنسان إلى الله تعالى رويدا رويدا. ما كان مكتملا في حد ذاته لا توجد فيه الرغبة في البحث والتحري. أما إذا كانت فكرة البحث موجودة ففي كثير من الأحيان يبحث الناس عن شيء بسيط ولكنهم يجدون شيئا عظيما. يقول الله تعالى إننا أودعنا الإنسانَ رغبةً في البحث وعندما يستخدمها يتجلى الله تعالى أمامه وهو يجده سبحانه وتعالى. وعندما يبحث الرجل عن المرأة ويجد في قلبه هياجا لها يقول اللهُ له: ألست جديرا بأن تبحث عني؟ عندئذ يصدر من لسانه صوت "بلى" ويقول عفويا: إنك أنت المقصود الحقيقي. كذلك عندما تبحث المرأة عن الرجل يقول الله تعالى لها: ألست جديرا بأن تبحثي عني، فتقول عفويا: "بلى" إنك أنت المقصود الحقيقي. إذن، بسبب تحلّي الرجل والمرأة بعاطفة البحث عن بعضهما ينالان حب الله تعالى ويجدانه سبحانه وتعالى.

لماذا أبقى الله تعالى عاطفة حبه خافية في فطرة الإنسان؟

قد ينشأ هنا سؤال: لماذا لم يخلق الله في الرجل والمرأة حبه بصورة ظاهرية ولماذا أخفاه على هذا النحو؟ والجواب على ذلك هو: لو كان الحب سطحيا ظاهريا لما كان حصول الاتصال مدعاة للتقدم والثواب، لأن جانب الإخفاء ضروري للثواب؛ لذا فقد أخفى الله تعالى حبه وراء حب الرجل تجاه المرأة ووراء حب المرأة تجاه الرجل لكي يناله الناس بالجهد وتكبّد المشقة فيستحقوا الثواب. الرغبة في المرأة التي أودعها اللهُ الرجلَ وكذلك في الرجل التي أودعها المرأةَ، هي أمنية مبهمة، والأمنية الحقيقية للوصول إلى الله تعالى. لذا فقد أودع الله الإنسانَ عاطفة الرغبة في إكمال نفسه، ويفهم أنه بحاجة إلى شيء آخر للإكمال. ولكن إذا أُودع الناس اضطرابا ورغبة في التجسس فقط فإن الاضطراب يؤدي أحيانا إلى اليأس أيضا، لذا كان ضروريا أن يكون في قلب الإنسان اضطراب

من أجل الإكمال، ومن ناحية ثانية يجب أن يكون هناك مخرج أيضا من الاضطراب، كما يكون في المحرك مخرجٌ للبخار الزائد. إذن، فقد خلق الله تعالى في الإنسان اضطرابا وفي الوقت نفسه جعل الرجل للمرأة والمرأة للرجل بمنزلة صمام الأمان وبذلك أعطاهما فرصة لاستخدام الفائض من الحب الذي كان مقدّرا أن يُخلق لله تعالى. ولولا وجود صمام الأمان لأدى هذا الحب إلى إصابة كثير من الناس بالجنون. لا يقبل عاقل في العالم أن يضيع شيء، فأنّى كان ممكنا أن يدَعَ الله تعالى شيئا يضيع؟ فقد عالج الله تعالى الموضوع إذ قسم الإنسانية إلى جزأين وأظهرها على شكلَين وبالنتيجة يخرج هياج الإنسان الإضافي وغير الضروري إلى جانب آخر فيشعر الإنسان -رجلا كان أم امرأة- بالسكينة. هذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ في حديث: حُبِّبَ إِلَيَّ مِن الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ. (مسند أحمد، مسند أنس بن مالك) وفي رواية: "...من دنياكم". يتبين من هذا الحديث أن العلاقة بين الرجل والمرأة مدعاة للسكينة والهدوء، وكذلك الطيب يؤدي إلى سكينة القلب، وأما ما يخلقه التضرع والأدعية في الصلاة من اللذة والمتعة فهو أيضا يجلب السكينة والطمأنينة للإنسان.

الرجل والمرأة يسببان السكينة لبعضهما

لا يخطرن ببال أحد هنا أنه قد قيل هنا بأن المرأة سبب السكينة للرجل ولم يُذكر أن الرجل أيضا يسبب السكينة للمرأة. إن معنى العلاقات بين الرجل والمرأة المذكور لا يصح إلا إذا كان كل واحد منهما يسبب سكينة للآخر. وليكن معلوما أن الله تعالى يقول بهذا الشأن في آية أخرى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٨)، فكلاهما سواسية من حيث كونهما سكينة لبعضهما، أي الرجل سكينة للمرأة والمرأة سكينة للرجل.

لقد أشار الله تعالى في قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ إلى أن على الرجل والمرأة أن يحميا بعضهما. إذا استحم أحد مثلا ثم لبس لباسا

وسخا فهل سيُعَدّ نظيفا؟ كلا، بل إذا كان لباسه وسخا فسيُعدّ وسخا مهما كان نظيفا ظاهريا. إذن، ففي قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ عدّ الرجل والمرأة شريكين في الفرح والترح، وقال بأن عليهما أن يحفظا بعضهما، وبذلك يتحقق مفهوم: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لأنهما بمنزلة رفيق السفر لبعضهما.

علاقة القوى الروحانية مع القوى الجسدية

الحق أن كثيرا من الناس لم يدركوا أن للقوى الروحانية علاقة مع القوى الجسدية في هذه الدنيا، وأن الروح تعمل بواسطة الجسد. هذه الحقيقة خافية عن أعين عامة الناس. يقول العلماء العلمانيون الأغبياء نظرا إلى حركات الجسد أن الروح ليست بشيء، أما العلماء الذين يدّعون أن لهم علاقة مع الروحانيات ولكنهم لا يعلمون علوم القرآن الكريم فيقولون إن الروح شيء منفصل عن الجسد مع أن الروح والجسد مندمجان في بعضهما اندماجا كاملا. لقد أعطى الله تعالى الروحَ كنوز العلم والمعرفة، وقد أناط البحث عن هذه الكنوز واللوعة لها واستخدامها بمساعي الجسد. فعندما يبحث الجسم عنها ويتحراها تستمر تلك الكنوز في البروز والظهور للعيان. لذا لن ترى شخصا معتوها واصلا إلى الله لأنه لو كانت الروح منفصلة عن الجسم ولم تكن بينهما علاقة لكانت للمعتوه علاقة مع الله تعالى، لأن المعتوه يكون مختل الذهن وللذهن علاقة مع الجسم ليس مع الروح، ولكن هذا لا يحدث، لذلك قال النبي ﷺ إنه قد رُفع القلم عن المعتوه حتى يعقل ويهيئ الله له فرصة العمل مرة ثانية. فإذا كان إنشاء العلاقة مع الله تعالى مهمة الروح فقط ولا دخل للجسم فيها، فقد سبق أن قالت الروح "بلى" وانتهى الأمر، ولكن الحقيقة أن الروح مندمجة مع الجسم كليا. لقد أودع اللهُ الجسمَ قدرات تزيد في الروحانية.

علاقة قوى الرجولة والأنوثة مع الروح

من القوى التي أُعطيها الإنسان للحصول على الأبدية فعلُ الغدد المتعلقة بالرجولة والأنوثة. هذه الغدد ليست جزءًا من الجسم فقط بل لها علاقة مع الروح أيضا، وإلا لما مُنع الرجال من أن يجعلوا أنفسهم مخنّثين. يقول الله تعالى بأنه يكون للأنبياء أيضا أولاد وزوجة لأن هذه الأعضاء ضرورية للروحانية، بل بسببها تكتمل الروحانية. الهدف الحقيقي من الرجولة والأنوثة هو الأمنية لخلق الشعور بالبقاء. وبسبب هذه الرغبة تخدم غدد الرجولة والأنوثة وجهًا آخر للبقاء، أي التوالدَ. إذن، إن نمو هذه الغدد وتأثيرها وسيلة لخلق نسل الإنسان. والقوة التي هي وسيلة بقاء الروح جعلها الله تعالى نفسها وسيلة لبقاء العالم أيضا، وهذا يحدث عن طريق التوالد والتناسل. إن تقدم الروح يتسبب في البقاء الأبدي، وبواسطة الأولاد يستمر بقاء الأجساد. لذا فقد استُخدمت القوة الإضافية، خالقة البقاء لهذا الغرض.

وإذا قال قائل: ما فائدة وضع هذه القوة في الحيوانات؟ فليكن معلوما بهذا الشأن أن الإنسان خُلق بعد مروره بمراحل مختلفة. أولا جاء إلى حيز الوجود كحيوان صغير ثم كبير ثم أكبر منه وفي النهاية اكتمل خلق الإنسان[١]. يقول الله تعالى في

[١] لا يعتقد المؤلف ﷺ بالتطور على طريقة داروين والتي تقول بأن الإنسان تطور من حيوانات مختلفة وكان سمكة أولا ثم أصبح قردا نتيجة لطفرات، بل ما يقصده هو أن الإنسان في خلقه الأول قد بدأ بالنمو كالنبات في الكهوف ثم بدأ ينمو ويظهر الصفات الحيوانية في مراحل مختلفة حتى اكتمل خلقه وبدأ يشعر ويتصرف كإنسان. وفي هذه المرحلة خلق الله الجنسين الذكر والأنثى في تلك الكهوف واصطفى منهم الأنبياء ووجههم في أمور حياتهم. وفي خلق الإنسان بالتناسل- بعد ذلك الخلق الأول- فإن الإنسان في بطن أمه يمر بأطوار أيضا يكون فيها كالنبات بداية في جدار الرحم، ثم يبدأ بإظهار الصفات الحيوانية والحركة في داخل الرحم حتى يكتمل خلقه فيولد ويبدأ بالنمو، فهو يخلق أطوارا أيضا، وهذه الأطوار تشير إلى ذلك الخلق التطوري الذي كان بصورة مختلفة في الخلق الأول أيضا. وقد بين الخليفة الثاني ﷺ هذا

القرآن الكريم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح: ١٤-١٥)، أي ما لكم لا تريدون لله وقارا وتقولون بأن عليه أن يستعجل؟ انظروا كم استغرق خلقُكم الأول من الوقت. باختصار، لقد خُلق الإنسان بعد مروره بمراحل مختلفة بما فيها مراحل حيوانية. فالحق أن جميع أحوال الحيوانات بمنزلة سُلّم الوصول إلى مرحلة الإنسان، غير أنها ليست الغاية المنشودة في حد ذاتها. وما يتم تمريره عبر السلالم يمكن أن يسقط أيضا في الطريق، لذا فإن الأشياء التي كانت ستُخلق لارتقاء الإنسان وُجدت في الحيوانات أيضا، ولكن الحقيقة الثابتة هي أن القوى الشهوانية في الحيوانات لم تبلغ مبلغ الارتقاء بقدر ارتقائها في الإنسان. ومن الحقيقة الثابتة أيضا أن للقوة الشهوانية علاقة متينة مع المواهب الدماغية. وفي عصارة الغدد الجنسية يكمن علاج كثير من النقائص العصبية والدماغية.

باختصار، الحق أن المهمة الحقيقية للأدوات المسؤولة عن خلق القوى الشهوانية هي إصلاح الأخلاق، ولكن بعد إنجاز مهمتها يبقى بعضها وتكون بمنزلة البخار الإضافي الذي إن لم يتم إخراجه لشكّل خطرا قد يحطم المحرك. فقد سخّرها الله تعالى لعمل آخر وهو بقاء النسل، أي قد اختار هذه الوسيلة بدلا من وسيلة أخرى لاستمرار نسل الإنسان. هذه حقيقة لم يدركها العالم كاملة إلى الآن إلا أنه بدأ يدركها شيئا فشيئا مؤخرا. يقرُّ عالَم الطب أن للقوى الشهوانية علاقة متينة مع المواهب الدماغية وتُستخدَم هذه الغدد الجنسية ذاتها. يقول عالم أوروبي إن الخلل في هذه الغدد يؤدي إلى اليأس والعديد من العيوب الجسدية الأخرى. وقد ألّف شخص أميركي كتابا في سبعة مجلدات قال فيه إن الاعتراض على تعدد زواج رسول الله ﷺ اعتراض لغو تماما، لأنه كان يظل منهمكا في حب الله تعالى وذكره، والمعلوم

الأمر في مناسبات أخرى، ومن ضمنها خطابات جُمعت في كتابه "السياحة الروحانية" وكذلك في مواضع مختلفة من مؤلفاته. (المترجم)

أن قوة الرجولة عند إنسان مِثلِه تزداد باستمرار. مع أن هذا الكاتب لم يبيّن الحقيقة بكلمات صحيحة ولكن الحق أن الوسيلة للبقاء الأبدي هي الغدد الجنسية، وأن بقاء النسل إنما هو فعلها الثانوي والتابع لمهمتها الأصلية. فكان ضروريا –للتقليل من الهياج الذي خلقه الله تعالى في الإنسان بواسطة الغدد الجنسية، وبذلك دعاه إلى نفسه– ألا ينحرف الهياج عن طريقه الصحيح، وأن يُستخدَم الفائض أيضا للقوة التي من أجلها سُنَّت العلاقة بين الرجل والمرأة، وجُعلا مدعاة سكينة لبعضهما.

أتذكر قولَ الخليفة الأول ﷺ: صمتُ ذات مرة في حالة المرض وهذا أدى إلى كثير من الضعف في قوتي الجنسية. والغريب في الأمر أن عشرات الناس يستفيدون من هذا العلاج ولكنه لم ينفعني شيئا. ثم ذهب وهلي إلى أن أشرع في ذكر الله فأكثرتُ من التسبيح والتحميد وشفيتُ. إذن، هذه علاقات دقيقة لا يمكن لكل شخص أن يدرك كنهها.

في الروحانية أيضا تكمن صفات الرجولة والأنوثة

إن سلسلة خلقِ الله تعالى من كل شيء زوجين جارية في الأمور الروحانية أيضا إلى جانب الأمور الظاهرية كيلا يكون الكمال في الغفلة مدعاة للسكينة الباطلة وبالنتيجة سببا للهلاك، وكيلا يكون كل شيء كاملا بحد ذاته بل يبقى التوجه قائما إلى الوجود الكامل الذي يُنال منه الكمال. ومن هذه الظاهرة أيضا تتبين حقيقة هذه السلسلة الظاهرية. يتبيّن من القرآن الكريم أن حالة رجولة الإيمان تتغلب على كل كافر في البداية، وعلى كل مؤمن تتغلب حالة رجولة الكفر. فمثلا إذا كان أحد جاهلا فبسبب جهله تنشأ في قلبه رغبة عارمة في تحصيل العلم. ولكن عندما ينال المرءُ العلمَ يطمئن أنه حاز العلم. وهذا المبدأ ينطبق على كل موقف. لقد ضرب القرآن الكريم مثال المؤمن بامرأة فرعون لأن الكفر ينوي أن يتغلب على المؤمن في البداية ولكنه في نهاية الأمر يصبح مغلوبا. هذا ما أشير إليه في حديث مفاده أن لكل إنسان بيتا في الجنة وبيتا في الجحيم. ولكن هذا لا يعني أن لكل إنسان بيتا في الجنة وبيتا في

الجحيم في الحقيقة بل المراد أن في الإنسان كِلتا القوتين. قوة الكفر تجره إلى الكفر وقوة الإيمان تجره إلى الإيمان، فينجرّ المرء إلى هذا الجانب أو إلى الآخر.

الحقيقة أن الرجولة في مصطلح القرآن الكريم تُطلق على القوة الفاحصة، والأنوثة تسمّى الفيضُ. ولكن الإنسان ينصرف فيما بعد إلى هذه القوة أو تلك، غير أن هناك بعض الاستثناءات وهم أناس ذوو صفات مريمية. أي أن رجولتهم وأنوثتهم تكون متصبّغة بصبغة واحدة منذ البداية، فهم يحتلون مقام القدوسية، بمعنى أن بعض الناس يملكون بطبيعتهم صفة التأثر والتأثير أيضا. عندما تكتمل رجولتهم وأنوثتهم يولَد نتيجتهما ولدٌ يتصف بصفة القدوسية أو بصفة كونه مسيحا، أما غيرهم فيكسبونها كسبا. ولكن الذي يتحلى بهاتين القوتين توهب له مرتبة جديدة ويولَد ولادة جديدة. عندما استدل المسيح الموعود عليه السلام من سورة التحريم أن بعض الناس يملكون صفات مريمية اعترض عليه الجهلاء وقالوا بأنه يدّعي تارة بكونه امرأة ويدّعي بالحمل تارة ويدّعي الإنجاب تارة أخرى، مع أن جميع الصوفية قالوا مثل قوله. فقد روى شهاب الدين السُهْروَرْدي رحمه الله في كتابه "عوارف المعارف" عن المسيح عليه السلام رواية: "لن يلج ملكوت السماء من لم يولَد مرتين"[١]. أي ولادة حدثت بيد الله وولادة أخرى هي ولادة مريمية. ثم يقول: "وصرفُ اليقين على الكمال يحصل في هذه الولادة، وبهذه الولادة يستحق ميراث الأنبياء. ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما وُلد وإن كان على كمال من الفطنة والذكاء، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل، والعقلُ إذا كان يابسا من نور الشرعِ لا يدخل الملكوت ولا يزال مترددا في المُلك".[٢]

إذن، في الأمور الروحانية أيضا أزواج، وهذا ما أشير إليه في حديث: مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ

[١] "عوارف المعارف" للسهروردي: ص ٤٥- ٤٦، و"إحياء الدين" للغزالي: ص ٧٤، طبعة بيروت عام ١٤٠٤ هـ.

[٢] المرجع السابق.

إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا. (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن: تفسير سورة آل عمران، آية: وإني أعيذها بك..)

ليس المراد هنا مريم وعيسى عليهما السلام حصرا بل المراد هو كل مَن يملك صفات مريمية، وإلا نضطر إلى القول إن الشيطان مسّ رسول الله ﷺ أيضا، والعياذ بالله. الحقيقة أن النبي ﷺ بيّن في هذا الحديث أن هناك ولادتين كاملتين، ولادة مريمية وولادة عيسوية. إن الذي يولَد بصفات مريمية يصبح مسيحا، والذي يولَد بصفات عيسوية يصبح محمدا ﷺ. الذين وُلدوا بصفات المسيح كانوا أنبياء متصفين بصفات الجلال، وكان أصحاب الصفات المريمية متصفين بصفات الجمال. أي أحد الحزبين ملكوا صفة التأثير والآخر صفة التأثُّر كاملة. أي أن الصفة الأصلية لدى أحد الحزبين هي صفة الأنوثة وتكتمل الرجولة فيما بعد، وهم أنبياء تابعون ومتصفون بصفات الجمال، وهناك حزب آخر يتولّدون من كيان ذي صفات مسيحية ثم تكتمل أنوثتهم وهم يتصفون بصفات الجلال، أي الأنبياء المشرّعون.

باختصار، في السلسلة الروحانية أيضا أزواج، ولا يكتمل أي إنسان ما لم تجتمع صفاته المتعلقة بالرجولة والأنوثة مع بعضها وما لم تكن هاتان الصفتان الكاملتان اللتان يمكن أن نسميهما بتعبير آخر جانب الأخلاق الذي يؤثّر ويتأثر. عندما ينشأ هذان الجانبان تتولد الروح الجديدة التي تُسمّى خَلقا جديدا. والروحانية تنال السكينة باجتماع التأثير والتأثُّر، ويطمئن قلب المرء لدرجة يحظى عندها بولادة جديدة ويصبح مقرّبا إلى الله تعالى.

إنها لَمسألة واسعة لعلم النفس الروحاني أن جميع قوى أخلاق الإنسان– التي يتعلق بعضها بقوة الرجولة وبعضها بالأنوثة– عندما تجتمع ببعضها تنشأ الأخلاق السامية. ولكن ما دام هذا الموضوع لا يعنيني في هذا المقام لذا اكتفيتُ بالإشارة إليه فقط.

صفة المودة في الرجل والمرأة

الأمر الثاني الذي بيّنه الله تعالى هو: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً﴾ (الروم: ٢٢) والمودة تعني الحبّ، ولكن إذا أمعنّا النظر في استخدامهما ومعانيهما لوجدنا أن بينهما فرقا وهو أن المودّة تعني حبًّا يقدر على جذب غيره في نفسه. ولكن لا يوجد هذا الشرط في الحبّ، لذلك استُخدمتْ كلمة "المودة" للحب المتبادل بين البشر. والمراد من ذلك أن الرجل يودّ أن يفوز بالمرأةِ والمرأةُ تودّ أن تفوز بالرجل. ومن يفوز بغيره من بينهما يسمّى رجلا ومَن يُفاز به يسمى امرأة. ولكن هذه الكلمة لم تستخدم بحق الله تعالى لأن العبد لا يقدر على أن يجذب اللهَ ﷻ. فلم يرد في القرآن الكريم أن العبد ودودٌ لله ولكن جاء بحق الله أنه ودودٌ فهو يجذب العبد. بينما استخدم اللهُ تعالى كلمة المودة بحق الرجل والمرأة. ولما كان إكمال الإنسان مطلوبا لذا فقد أودع الله تعالى في الرجل والمرأة مشاعر بحيث يودّ الرجل أن يجذب المرأةَ والمرأةُ تودّ أن تجذب الرجلَ. ولكن العبد لا يستطيع أن يجذب اللهَ تعالى. لذا وردت بحق العباد كلمات مثل: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ و﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ولم يرد: "يودّون الله".

لقد بيّن الله تعالى بخلق علاقة المودة بين الرجل والمرأة بأنه ﷻ جعل بهذه الطريقة من نفس واحدة جزأين أودعهما عاطفة الجذب، فيجذب كل جزء غيره إلى نفسه. وهكذا تظل الإنسانية تجري نحو الكمال تلقائيا. وإن لم يخلق الله تعالى هذه المودة لامتنع كثير من الناس من الزواج خشية المشاكل الناتجة عنه ولقالوا: لماذا نبذل الأموال ولماذا نجعل أنفسنا تحت أعباء المسؤوليات. ولكن ما دام الله تعالى قد خلق المودة بين الرجل والمرأة فيتحمل الناس مشاكل الزواج.

العلاقة بين الرجل والمرأة مدرسة رحمة

الأمر الثالث الذي بيّنه الله تعالى هو أن الرحمة خُلقت بهذه الوسيلة، لأن النفس عندما تشعر بأنها تملك شيئا معينا تعامله بالرحمة، فعندما يشعر الرجل بأن المرأة

جزء منه يحميها أيضا. قد يقول بعض: ألا يحدث الشجار والنزاعات بين بعض الرجال والنساء؟ فجوابه أن هذا يحدث حيثما لا يجتمع الجزءان المناسبان مع بعضهما كما يجب، وحيثما يجتمع الجزءان الصحيحان تسري أمور الحياة بالأمن والسكينة والوئام تماما ولا يحدث شجار ولا نزاع. لقد لوحظ مرارا أن النزاع يستمر بين رجل وزوجه حتى يبلغ الأمر إلى الطلاق في نهاية المطاف، ثم يتزوج الرجل من امرأة أخرى وتتزوج المرأة برجل آخر وتجري حياتهما بكثير من الحب والوُدّ. فيتبين من ذلك بكل وضوح أن المرأة قطعة من الرجل دون شك ولكن عندما تجتمع القطعة الصحيحة مع مقابلتها ينشأ الأمن والوئام والسكينة. إذن، يرحم الرجل زوجه حاسبا إياها قطعة منه وهكذا يعتاد على الرحم، ثم يمارس عادته هذه في كل موطن. الذين يقومون بالسرقة ويقتلون الناس، لو عاشوا بين الأهل والأولاد لغمرت الرحمة قلوبهم، ولكن بسبب عيشهم منعزلين تنعدم فيهم الرحمة. لذلك يقال إن إبقاء المجرمين في السجون يؤدي إلى ازدياد الجرائم لأنهم يبقون منعزلين وتتحجر قلوبهم أكثر بسبب عيشهم منعزلين عن الناس. إذن، بسبب العلاقة بين الرجل والمرأة يجد الإنسان مدرسة رحمةٍ يتربّى فيها ويظل يتقدم ويجلب رحمة الله. باختصار، لقد بيّن الله تعالى أن العلاقة بين الرجل والمرأة مبنية على حكمة عظيمة، وقطع هذه العلاقة يجعل الإنسانية والسلوك ناقصا، وإن إقامتها يؤدي إلى السهولة في السلوك والرغبة في الله تعالى دون العرقلة في هذا السبيل.

الحكمة في عدِّ المرأة حرثًا

هنا ينشأ سؤال: على أيّ أساس يجب أن يؤسس الرجل والمرأة علاقتهما؟ من الفلاسفة الأوروبيين من يقول إن الزواج ضروري لتربية الأخلاق ولكن العلاقات الشهوانية ضارة، فيجب اجتنابها. وقد ردّ الله تعالى عليه أيضا بالقول: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٤).

قد يقول قائل هنا: ما دام قد قيل (أنّى شئتم) فنريد ألا نكون على علاقة مع النساء. فيقول الله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي يجب أن تتصرفوا بأسلوب يؤدي إلى استمرار النسل وبقاء الذكرى، فلا تستنكروا هذه العلاقة. لقد ذُكرت في هذه الآية الأمور التالية:

١- لقد أُجيزت العلاقة بين الذكر والأنثى، ولكن بإشارة دقيقة؛ أي قد بيّن بوصف المرأة "حرث" أن عمل الإنسان محدود. فما الذي يجب فعله لجعله غير محدود؟ الجواب هو: إجراء النسل. كما أن الحارث لا يترك أرضه دون الزرع فكيف تنبذون وسيلة يمكن أن تجنوا ثمارها؟ ولو فعلتم لضاعت بذرتكم.

٢- الأمر الثاني الذي بيّنه الله تعالى هو: يجب أن تكون علاقتكم مع النساء بقدر لا تضيع به قوتهن ولا قوتكم. فإذا بُذرت في الأرض بذور أكثر من اللازم لضاعت، كذلك إذا استُخدمت الأرض بكثرة على التوالي لفسدت. فقال ﷻ هنا: يجب أن يكون هذا العمل ضمن الحدود. كما أن الحارث الفطين يستخدم الأرض بالحكمة ويهتم بمقدار البذور التي يجب زرعها، وإلى أيّ مدى يحصد منها الزرع، كذلك يجب أن تتصرفوا بالحكمة.

يتبين أيضا من هذه الآية أن الذين يقولون إنه لا بدّ من الإنجاب في كل الأحوال ولا يجوز ضبط إنجاب الأولاد بأي حال مخطئون. كما لو زُرعت الأرض فورا بعد الحصاد لما كان الزرع التالي جيدا، والزرع الذي يليه سيكون أسوأ من سابقه. الإسلام لا يمنع من إنجاب الأولاد بل أمر بذلك، بل قال إلى جانب ذلك أن قانون الله الذي تلتزمون به بشأن الزرع التزِموا بالقانون نفسه في إنجاب الأولاد. كما أن الحارث الفطين لا يستخدم أرضه إلى حد يؤدي إلى إنهاكها أو يضعفُ نفسه لدرجة لا يقدر عندها على حصد الزرع، أو أن يكون نتاج أرضه غير سليم، كذلك عليكم أن تهتموا بأزواجكم. أي إذا لم تتم تربية الأطفال على ما يرام وكان هناك خطر على صحة المرأة فتوقفوا عن الإنجاب.

والأمر الثالث الذي بيّنه الله تعالى هو أنه لو عاملتم النساء بالحسنى لترك ذلك تأثيرا حسنا على الأولاد، وإن ظلمتموهن لما كان الأولاد مخلصين وأوفياء لكم. فيجب أن تعاملوا النساء بالحسنى ليكون الأولاد جيدين. أما إذا فسدت المزرعة بسبب سوء المعاملة لكان الحصاد أيضا فاسدا، أي أن سوء معاملة النساء سيؤدي إلى سوء أخلاق الأولاد لأنهم يتعلّمون الأخلاق من الأمهات.

الأمر الرابع المذكور هو أنه يجب أن تكون علاقتكم مع الزوجة بأسلوب يؤدي إلى الإنجاب. بعض السفهاء يزعمون أن في آية: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ إذنٌ لفعل يخالف الفطرة، ولكن زعمهم هذا خطأ تماما. يقول الله تعالى أن اعمَلوا ما يُنبتُ الزرع. القرآن الكريم كلام الله تعالى وهو يذكر الأمر بكلمات مكشوفة بقدر ما كان ضروريا بحسب مقتضى الأخلاق، أما ما سواه فيذكره إشارة وتلميحا. لقد أنذر الله تعالى في قوله: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أن النساء حرث لكم فعاملوهن كما تشاؤون، ولكن تذكّروا نصيحة أنه يجب أن تعملوا بما فيه خير لكم، وإلا ستواجهون مغبة أعمالكم. هذا الأسلوب من الكلام متداول في العالم كله. فمثلا نؤجّر بيتا لشخص ونقول له: استعمِلْه كما تشاء، يكون المراد من ذلك أن عليك أن تنتبه جيدا إلى أنك إن لم تهتم به جيدا للحق به الضرر وبالنتيجة ستواجه خسارة.

كذلك عندما يزوّج الناس ابنتهم يقولون لزوجها وأهله مثلا: لقد سلّمناها إليكم فلكم أن تعامِلوها كما تشاؤون. ولكن لا يكون المراد من ذلك أن تسيئوا معاملتها بل يكون المراد بأنها صارت جزءا منكم وعليكم أن تهتموا بها. فالمراد من ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ هو أن زوجتكم صارت جزءا لكم، فإن أسأتم معاملتها لكانت النتيجة سيئة في حقكم وإن أحسنتم معاملتها كانت النتيجة حسنة في حقكم. الحق أن الناس يستنتجون من هذه الآية معنى خاطئا ويزعمون أن لهم الحق أن يفعلوا ما يحلو لهم دون حدود وقيود.

علاقة الزواج بإكمال الروحانية

ثم يقول القرآن الكريم إن في الجنة أيضا زوجات. يتبين من ذلك بوضوح أن العلاقة بين المرء وزوجته ضرورية عند الإسلام لإكمال الروحانية، وإلا ما الحاجة إلى الزوجات في الجنة إذ لا إنجاب فيها. فتبين بكل جلاء أن الهدف الحقيقي من الرجولة والأنوثة هو إكمال الإنسانية، أما الأولاد فهم كفائدة ثانوية.

باختصار، خذوا أيًّا من أوامر الإسلام، مهما كان يتعلق بالمراحل الأولية، ستجدون فيه تعليم الإسلام هو الأفضل. كم هي مسألة العلاقة بين الذكر والأنثى أوّلية! وكم جعلها القرآن الكريم مسألة علمية! بينما قد لا تكون مذكورة أصلا في الكتب الأخرى. إذن، لا ندّعي فقط أن القرآن الكريم يتناول أمورا لا يتناولها أيّ كتاب ديني آخر، بل ندّعي أيضا أنه لم يُذكر في القرآن شيء إلا وهو مذكور بوجه أفضل مما هو في كتب موحى بها للأديان الأخرى سواء أكان يتعلق بالأكل والشرب أو بأمور التجارة أو المعاملات. نستطيع أن نتحدى بهذا الشأن أن ينهض أيّ من النصارى والهندوس أو من أتباع أيّ دين آخر ويطالبنا أن نثبت له أفضلية بيان القرآن الكريم في أية قضية، وسوف نثبتها حتما بإذن الله تعالى.

فالقرآن الكريم ليس أفضل من غيره في بعض الأمور فقط بل هو أفضل في كل شيء حتى من حيث اللغة. ولكن ما دامت التفاصيل تقود إلى العثور على الجزئيات فقط لذا أعود الآن إلى الأصول.

لقد بيّنت في جلسة العام المنصرم ستة أصول لأفضلية القرآن الكريم، وأثبتُّ أنه أفضل من الكتب الأخرى في كل واحد منها. وتلك الأصول هي: (١) مصدره أفضل. (٢) جماله الظاهري. (٣) يحقق الهدف الذي جاء من أجله. (٤) فائدته أكثر من غيره. (٥) ليس محرَّفا. (٦) ما يملكه المرء بنفسه.

والآن سأتناول بعض الأصول الأخرى للأفضلية وأبين أن القرآن الكريم أفضل من جميع التعاليم الإلهامية وغيرها من منطلق هذه الأوجه أيضا.

الوجه السابع لأفضلية القرآن الكريم

الوجه السابع لأفضلية شيء هو أن يكون مصونا أكثر من التمزق والاهتراء أكثر من الأشياء من جنسه. فمثلا عندما نشتري ثوبا نبحث عما يمكن استخدامه لمدة أطول نسبيا، ولا نشتري ما كان قابلا للتمزق سريعا. والمبدأ نفسه ينطبق على أشياء أخرى، فنشتري ما كان أكثر متانة ونترك ما كان على عكس ذلك. ينشأ هذا السؤال عن التعاليم أيضا دون شك. فمثلا لو كان هناك تعليمان متساويان لكان المصون من الفساد والتحريف هو المقدَّم حتما. فنرى من هذا المنطلق هل القرآن الكريم مصون من التمزق والاهتراء أم الكتب الأخرى؟ ما معنى تمزق الكتب الإلهامية واهترائها يا تُرى؟ معناه أن يكون تعليمها مصونا من الفساد والتحريف وألا تكون هناك إمكانية تحريفه في المستقبل أيضا. لقد قلتُ من قبل إن الكتب الأخرى طالها التحريف ولكن القرآن منزه عنه، مع أن بياني كان بإيجاز شديد حتى أني ما تمكنت من بيان الأدلة. ولكن سأبيّن الآن أن القرآن الكريم محفوظ بحيث لا يمكن أن يطاله التحريف أبدا. هناك فرق كبير بين عدم التحريف واستحالة التحريف مستقبلا. القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا يمكن أن يطاله التحريف أبدا وذلك للأسباب التالية:

(١) يدعي القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠) ومن الحقائق الثابتة أنّ الشيء الذي يحفظه -كل حين- قادرٌ ذو قدرة بلا حدود لا يمكن أن يتعرض للفساد أو يطاله التزييف أو التحريف. غير أن هذا ادّعاء بحت ولا أقدمه كدليل حاليا. القرآن الكريم أفضل من الكتب الأخرى في هذا الادعاء أيضا لأنه ما من كتاب آخر ادّعى أن الله تعالى حافظه، فلم يدّعِ ذلك الإنجيل ولا التوراة ولا الفيدا ولا كتاب آخر. أما القرآن الكريم فقد بيَّن السبب أيضا مع هذا الادعاء، وهو: (أ) إنه ذِكر كامل، فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي نحن أنزلنا هذا الذكر الكامل، ولأن وقوع الخلل فيه يؤدي إلى دمار العالم لذا نتحمل مسؤولية حفاظته. كلما يُصنع شيء جديد يُجعلُ أفضل من سابقه. ولكن

ما دام القرآن الكريم كاملا، فلا حاجة لتفكيكه أبدا. (ب) الأمر الثاني الذي بيّنه الله تعالى هو: لقد وهبنا القرآن الكريم كمالا، وما دمنا نحن وهبنا له الكمال فكيف يمكن أن نضيع كمالا وهبناه؟

وسائل حفظ القرآن الكريم

ثم ذكر الله تعالى الوسيلة أيضا لحفظ القرآن الكريم فقال في سورة الحجر: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر: ٢)، "مبين" أي كتاب يكشف الحقائق كلها. فلما قال الله تعالى عن القرآن الكريم إنه كتاب كامل، وكان معناه أنه سيبقى محفوظا، فاعترض الكفار وقالوا: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الحجر: ٨)، أي إذا كانت حفاظة هذا الكتاب مقدرة فلماذا لم نُخبَر بوسائل حفظه، إذ كان من المفروض أن ينزل معه الملائكة. هذا الاعتراض كان معقولا من وجهة نظرهم، لذا ردّ الله تعالى عليه قائلا: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ (الحجر: ٩). أي الملائكة رُسلٌ، فيأتون بأنباء العذاب أو بالبشارات. فهم لا يقدرون على أن يحفظوا كلام الله! الملائكة لا يملكون علما كاملا، فلا يقدرون إلا على حفظ الكلمات على أكثر تقدير ولا يقدرون على حفظ المعاني والمفاهيم. فلا يقدر أحد على الحفظ إلا نحن، فنخبركم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي قد قررنا حفظه ونحن المسؤولون عنه. فلكم وللكفار في المستقبل أن تسعوا بكل ما في وسعكم، ولن تقدروا أنتم ولا أحد في المستقبل على فعل شيء. ثم قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: ١١-١٤)، أي قد واجه الأنبياء السابقون أيضا الإنكار والاستهزاء، ولكنهم لم يقولوا عن كتاب نزل عليهم إنه سيبقى محفوظا إلى الأبد، فلماذا استهزأ الناس بهم؟ ليس لهؤلاء الناس هدف إلا الاعتراض فحسب، وما يقولونه ليس معقولا قطعا، بل هو نتيجة جريمة ظهرت في كل زمان.

أما الدليل على الحفظ فيقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ * وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (الحجر ١٥-١٩)، أي يقول هؤلاء السفهاء جهلا منهم إن القرآن أيضا كتاب مؤلَّف من كلمات، فلمّا فسدت الكتب مثله من قبل فلماذا لا يمكن فسادهُ؟ الحق إنهم لا ينظرون إلى وسائل سماوية، فلو فتحنا عليهم بابا من أبواب السماء وعرجوا إليها- أي اطّلعوا على وسائل سُخِّرت لحفظ هذا الكتاب- لما قالوا مثل هذا الكلام السخيف. لو رأوا وسيلة واحدة لاستغربوا وقالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ فلا نستطيع أن نرى شيئا، أما ما نراه فلا يمكن حدوثه على صعيد الواقع؛ أي قد عميت أبصارنا، وإنْ هذا إلا حُلم، أو قد سحَرَنا هذا الشخصُ لدرجة إن هذا القدر الهائل من الوسائل يؤيد هذا الكلام.

ثم يذكر الله تعالى وسيلة من تلك الوسائل ويقول: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٧)، أي قد جعلنا في سماء هذا الكلام نجوما متلألئة، أو سخّرنا بعض النجوم للمحافظة عليه. وزيّنّا سماءه بالنجوم، أي أكثرناها فيها و: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (الحجر: ١٨)، أي حفظنا هذه السماء بواسطة هذه النجوم من كل شيطان رجيم يريد إفسادها، فلا يسع شريرا أن يمسّ هذا الكلام بسوء؛ ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (الحجر: ١٩)، إلا أنه يمكن أن يسمع أحد من بعيد مما جاء في هذا الكلام ويسعى لإفساد معانيه كما يفعل النصارى، ولكنهم يكونون ممن يسمعون من بعيد ويختلقون الأمور من عندهم، ولكنهم لن يكونوا في مأمن بل نسخّر لهم شهابا يكشف حقيقتهم، أي قد عيّنّا رجالا سيُهلكون- بصفتهم شُهُبا -كلَّ من حرّف معنى آية.

فقد اختيرت هذه الوسيلة لحفظ القرآن الكريم. وقال الله تعالى في: ﴿زَيَّنَّاهَا﴾ إن وسائل النور التي جعلناها ليست قليلة بل هي كثيرة جدا، ثم بيّن في ﴿مُبِينٌ﴾

حقيقة أنه ليس المراد من الشهب التي تسقط، بل المراد أن كل من يبين مفاهيم القرآن الكريم سيكون شهابا.

وقد قيل في هذه الآية إنه لا يسع أيّ شيطان أن يمس السماء. وقد فصِّل هذا الأمر في آية أخرى بكلمات: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٨٠). أي لا يمسه إلا المطهَّرون وخدام الدين، أما لو أراد غيرهم أن يمسّوه بنية سيئة وبنية إفساده فلن يقدروا على ذلك. فقد جاء بحق القرآن حصرا أن الشيطان لن يقدر على مسِّه، وإلا فلمّا كان الشيطان لا يستطيع أن يمس سماء فهل يستطيع الإنسان أن يمسّها؟ أما هذه السماء فلا يستطيع الشيطان مسّها ولكن المؤمن يقدر على ذلك. فالقرآن هو الذي يستطيع المؤمن أن يمسه.

وقد فُسِّر ذلك في آية أخرى حيث يقول الله تعالى إن بعض الجِنّة حين رجعوا بعد سماع القرآن قالوا لقومهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ (الجن: ٩-١٠)، أي كنا نلمس السماء من قبل أما الآن فحين حاولنا ذلك وجدنا أن هناك حراسا كثيرون لحفاظتها ووجدناها ملئت شهبا. كنا من قبل نسترق السمع جالسين في السماء، أما الآن فحين يحاول أحد السمع يُمطَر بالحجارة.

يتبين مما سبق أن السماء التي نراها ليست إلا جوًّا وليست مكانا يمكن للإنسان أن يجلس فيه. ولو افترضنا جدلا أنه يمكن لأحد الجلوس فيها فهذا يعني أن الشياطين كانت تجلس في السماء قبل بعثة النبي ﷺ ولكنها لم تجلس بعده ﷺ، مع أنه يتبين من الحديث أن الأرواح الكافرة لا تستطيع الوصول إلى السماء. فنقول: إذا كان الشيطان يجلس في السماء قبل بعثة النبي ﷺ فلماذا لا يجلس الآن؟ ألم يكن اللهُ بحاجة إلى حفظ الغيب من قبل؟ ثم مَن كانوا يأتون إلى الأرض بعد أن يسمعوا غيب الله تعالى؟ القرآن الكريم يدحض هذا المعنى بكل وضوح، ويقول بأنه ليس لأحد أن يصعد إلى السماء ولا يمكن أن يطّلع على الغيب دون أن يُطلِعه الله عليه.

ولو أخذنا بالمعنى المذكور لاضطررنا إلى الاعتراف بأن الله تعالى أيضا ما كان يعرف الغيب، والعياذ بالله، لأنه كان هناك من يذهب إلى السماء ليستمع أمور الغيب دون أن يعرف الله بوصوله، أما الآن فقد وضع الله حراسا للعثور على ذلك.

الحقيقة أن الآيات المذكورة تعني أن الكتب التي جاءت من السماء الروحانية من قبلُ كان الأعداء قادرين على لمسها، أي كانوا يفسدونها ويبدّلونها، أما الكتاب الذي جاء الآن فلا يقدر أحد على المساس به- أي على إفساده؛ لأنه قد اتُّخذت إجراءات ضرورية لحفظه. بينما كنا، أي بعض منا؛ يسمعون الكلام من قبل ثم يروونه باللف والدوران كما يحلو لهم، أما الآن فقد سُدّ هذا الباب إذ جاء الكتاب الذي لا يمكن لمفسد أن يلمسه، بل لو حاول أحد فعل ذلك لسقط عليه شهاب ثاقب فورا. إذن، اللمس محال قطعا وأما السمع فممكن ولكن إلى جانب ذلك هناك وسائل تفيد أنه إذا حاول أحد أن يقول شيئا لخلطِ الكذب فيه، وليُسمع بسوء النية، يتم دحضه فورا.

باختصار، قد حُفظ القرآن الكريم حفظا كاملا بحيث لا يقدر أحد على تحريف ألفاظه، كذلك وضع الله تعالى ضد مفسدي معانيه أيضا أسبابا تُصلح ذلك الفساد باستمرار.

قد يظن هنا أحد أن الكلمة الواردة في الآية هي "السماء" فلا بد أن يكون المراد هو لمس السماء دون غيرها. فليكن معلوما بهذا الشأن أن:

(١) السماء التي ينزل منها الكلام لا يمكن أن تكون سماء مادية، وإلا لا بد من الاعتراف بكون الله أيضا ماديا. وأضفْ إلى ذلك أن السماء إنما هي مادة لطيفة وليست صُلبة حتى يُعقَل لَمسها والجلوس فيها. فلا بد من أن نستنتج أن السماء التي نزل منها الكلام لها معنى آخر.

(٢) تُستخدم في اللغة العربية كلمة "السبب" و"المقام" على سبيل الاستعارة لشيء أيضا يخرج من السبب والمقام، لذا من معاني "السماء" المطر أيضا، فلأن

المطر ينزل من الأعلى لذا يُطلق عليه "السماء" أيضا. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ (الأنعام: ٧)، أي أرسلنا عليهم السُحُب الماطرة مطرا غزيرا. كذلك تُطلق "السماء" على الخضروات والأعشاب أيضا لأنها تنبت بالماء. يقال: "ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم".

إذن، المراد من السماء هنا هو الكتاب السماوي، وإلا لا معنى للقول بأننا كنا نسمع من قبل جالسين هنالك ولكن لا نستطيع فعل ذلك الآن. لماذا كانوا يسمعون من قبل ولا يسمعون الآن؟ لا بد من أن نبحث عن سماء كانوا يلمسونها من قبل ولا يستطيعون لمسها الآن. يتبين من القرآن الكريم بهذا الشأن أن المراد من تلك السماء هي الكتب السماوية، لأن الناس كانوا يحرفونها من قبل، فقد جاء في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة: ٢-٤)، أي لن يتخلى أهل الكتاب والمشركون عن جهلهم ما لم تأتهم البينة. ولكن ما هي البينة؟ إنها رسول الله الذي يتلو عليهم كتابا ذي صحف مطهَّرة كثيرة. كان هناك عديد من التعاليم التي تطرق إليها الفساد ولكنها عُرضت في القرآن في حالتها الأصلية. فلما اجتمعت في القرآن كتبٌ قيِّمة، لذا لا يمكن أن يفسد.

فبوصف القرآن الكريم بـ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ بين الله تعالى أنه كان في التعاليم السابقة عيبان اثنان. أوّلهما الذي لم تعُد من حاجة إلى إصلاحه، لأنه نُسخ، لذا فقد تركه وشأنه. أما العيب الثاني الذي كان في تعليم كان بقاؤه مقدّرا، فقد أُصلح ذلك العيب وأُخذ التعليم. باختصار، إذا كان التعليم من النوع المذكور قد فسد ولم يعُد العالم بحاجة إليه فقد أُهمل ذلك التعليم. أما إذا تطرق الفساد إلى تعليم كان جديرا بالبقاء فقد أُخِذ التعليم السليم بعد إصلاح العيب فيه.

أساس السماء الروحانية على صفَتي الله "الحي والقيوم"

السماء الجديدة التي تكوّنت بواسطة القرآن الكريم مقابل التعاليم السابقة قد أُسِّست على صفتَي الله "الحي والقيوم". الكلام على مختلف الأنبياء كان ينزل بحسب صفات الله المختلفة، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٣٠)، أي أن كلام الله ﷻ في زمن كل نبي كان ينزل بحسب صفات الله المتجددة. المراد من "يوم" في هذه الآية هو زمن النبوة إذ يقول تعالى في آية أخرى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٦). إذن، المراد من "يوم" هو زمن النبوة، والمراد من السماء هو القرآن الكريم لأنه قد وُصف بأنه "صحف مرفوعة"، ومعنى السماءِ العلوُّ أيضا. فيمكن إطلاق كلمة "السماء" على هذه السماء الروحانية، وقد استُخدمت لهذا الغرض صفتان: "الحي والقيوم".

الدليل على أن القرآن الكريم مؤسَّس على صفتَي الله "الحي والقيوم" موجود في القرآن والحديث، فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل: أي آية من آيات القرآن هي الأعظم فقال: آية الكرسي. (انظر سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في آية الكرسي) وأساس آية الكرسي هو على "الحي والقيوم". هذه الرواية مروية عن أربعة أو خمسة من الصحابة ﷺ بمن فيهم أُبي بن كعب، وابن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وأبو هريرة ﷺ، ومذكورة في معظم كتب الحديث.

المراد من أعظم آية هو أن هذه الآية منبع القرآن الكريم وإلا فكل الآيات هي أعظم. "المنبع" يُطلق على آية هي بمنزلة الأُمّ، أي فيها ما يميّز القرآن الكريم من حيث الأصول عن كتب أخرى. هناك رواية عن عليّ ﷺ أن النبي ﷺ قال: "أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش، ولم يؤتَها نبي قبلي". (الدرّ المنثور) الحق أنه لم يُعط نبي قبله ﷺ أي آية من آيات القرآن الكريم، ولكن المراد من عدم إعطاء آية الكرسي هو أنه لم ينزل على أيّ نبي كلام بحسب الصفتين المذكورتين في هذه الآية

أي: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. ففي سورة آل عمران ذكر الله تعالى نزول القرآن الكريم ببيان هاتين الصفتين. فقال إن هذا الكتاب نزل من الحيّ، الله الذي هو حيٌّ بنفسه ويحيي الآخرين، أي أن هذا الكلام سيبقى حيا إلى الأبد وسيهب الحياة. وقد نزل هذا الكتاب من القيوم الذي هو قائم بحد ذاته وهو قيوم الآخرين أيضا. فسيجعل هذا الكتاب قائما إلى الأبد. يقول النبي ﷺ عن آية الكرسي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. (صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن) فتبين من ذلك أن للقرآن الكريم علاقة متينة مع هاتين الصفتين.

ثم نرى أن هذا هو الكلام الوحيد الذي قال الله تعالى عنه: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، فهذا هو الكلام الوحيد الذي وُعد ببقائه حيا وبحفظه ولم يرد هذا الوعد عن أيّ كلام آخر من قبل مع أن كافة تلك الكتب كانت سماوية، والناس كانوا يلمسونها. ولكن الكلام الذي مُنع من لمسه هو هذا الكلام، أي القرآن الكريم. فمن الواضح أنه قد أشير إلى هذا الكلام حصرا في آية جاء فيها: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾. يجب التذكر أيضا أنه إن لم يكن المراد من الحفظ هو حفظ القرآن الكريم فما معنى ذكر نزول الشهب بشأن سؤال الكفار؟ كان الكفار يسألون عن القرآن الكريم، فما معنى القول ردًّا عليهم إن الشيطان لا يمكن أن يصل إلى السماء، وإذا فعل سقط عليه شهاب؟

التحريف في الكتب السابقة

انظروا كيف حُرِّفت الكتب السماوية السابقة؟ لقد نزلت التوراة على موسى وورد فيها ذكر موت موسى نفسه. كذلك ذُكر موت المسيح عليه السلام في الإنجيل. يقول المجوس بأنفسهم عن كتبهم "دساتير" إن المسلمين أفسدوها. أقول: سوف يُرى لاحقا إلى أيّ مدى تدخّل المسلمون في الكتب السماوية للمجوس، ولكن يثبت من قولهم هذا أن التحريف قد طال كتبهم. كذلك إن هيئة "الفيدات" توحي بأنها قد حرِّفت.

وقد عُلّم فيها الأدعية عن اختطاف نساء الآخرين وعن السرقة، وتوجد فيها تعليمات قيل فيها بأنه يجب القيام بالسرقة من حيث لا يرى السارقَ أهلُ البيت. الكتاب الذي يعلّم السرقة والاختطاف كيف يُعقل كونه مصونا من مسِّ الشيطان؟ يثبت من الأمور مثلها بجلاء أن الشيطان مسَّ هذه الكتب. أما القرآن الكريم فلا يدّعي نزاهته فقط مقابل ذلك بل يقول أيضا: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، أي لا يقدر أحد على المسِّ به بسوء، ولو حاول أحد ذلك لسقطت عليه الشهب. هذا ليس بأمر عادي، في حين نرى أن الكتب الأخرى يحرِّفها الناس بين حين وآخر. ولقد أعلن مؤخرا المسيحيون أنفسهم عن الكتاب المقدس ما مفاده:

"نشرت مؤسسة الكتاب المقدس بضعة مجلدات للترجمة الجديدة بعد تفكير طويل ورصين راجية أن تصلها الاعتراضات على هذه الترجمة، فتُجرى فيها تعديلات مناسبة نظرا إلى الاعتراضات." [1]

كذلك شُطب جزء من الإنجيل نهائيا. عندما اعترض المسيح الموعود عليه السلام على شفاء يسوعِ المسيح المرضَى وقال بأنه قد ورد في الإنجيل أن المرضى كانوا يُشفون نتيجة الاستحمام في بِركةٍ، شطب المسيحيون منه هذا الكلام قائلين بأنه كان مقتبسا من كتاب آخر ولكنه نُقل في الإنجيل خطأ. فنقول: هذا يُثبت أن الشيطان مسّ الإنجيلَ بينما لم يقدر أحد على مسّ القرآن الكريم. لماذا لا يحاول أتباع الكتب الأخرى تحريفَ القرآن الكريم؟ لماذا يخافون ذلك؟ حاولت الحكومة الروسية ذات مرة أن تمحو من القرآن الكريم آيات تتعلق بالجهاد، فقامت في البلاد ثورة وضجة كبيرة حتى اضطرت الحكومة إلى التراجع عن نيتها القذرة. هذه أيضا كانت الشهب التي سقطت على الحكومة. لماذا لا يحدث هذا مع الإنجيل؟ ثم حدث أن الحكومة الروسية التي أرادت شطب الآيات المتعلقة بالقتال من القرآن الكريم واجهت الحرب بنفسها.

---

[1] جريدة نور أفشان، عدد ١٩٣٠/١١/٢٨م.

حفظ القرآن الكريم والمستشرقون

الوسيلة الثانية التي تحول دون أيّ تحريف وتبديل في القرآن الكريم، كما بيّنها الله تعالى في الآية المذكورة هي أن هناك حراسا مسخَّرين لحماية القرآن الكريم، فلا يمكن أن يحدث فيه أيّ تغيُّر. وقد ذُكر هذا الموضوع بتفصيل أكثر في آية أخرى حيث يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ* مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ *كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٢-١٧).

إنها آية عجيبة بحيث يبدو بقراءتها أنها أُنزلت بالنظر إلى أدبيات النصارى. لقد استخرجتُ من كتبهم الحالية كلمات تبدو أنها شرحُ هذه الآية. يقول الله تعالى أننا سخّرنا لحفظ هذا الكلام وسائل ومنها: (١) إن هذا الكتاب سيبقى مكرَّما إلى الأبد، ونلقي إكرامه في قلوب الناس، فلن يحرِّفوه ولن يُفسدوه بسبب إكرامهم واحترامهم له. وقد قبل السير "وليم موير" هذا الاحترام كما يلي:

The two sources would correspond closely with each other; for the Coran, even while the Prophet was yet alive, was regarded with superstitious awe as containing the very words of God; so that any variations would be reconciled by a direct reference to Mahomet himself, and after his death to the originals where they existed, or copies from the same, end to the memory of the Prophet's confidential friends and amanuenses. [1]

أي أن هيبة القرآن الكريم كانت مستولية على الناس لدرجة أنهم ما كانوا يقررون بشأنه شيئا بعقولهم، بل كانوا يسألون رسول الله أو يراجعون الحفاظ ويقارنونه بنُسخ القرآن الكريم ولا يقررون بأنفسهم شيئا.

الأمر الثاني المذكور في هذه الآية هو: ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ أي لا يمكن أن يتطرق إليه الفساد باطنيا أيضا، لأن مفاهيمه جُعلت سامية جدا، وقد أُودع علوما بأسلوب لا يقدر على فهمها مَن لا يؤمن به كلامَ الله. من المعلوم أنه لا يحرّفه أحد إلا إذا

[1] The Life of Mahomet By William Muir P. 555 Published in London 1877.

فهِم معانيه وعلم أنه لو غيّر فيه شيئا لصار الكلام على نحو كذا. فيقول الله تعالى بأنه وضع فيه مفاهيم بحيث لا يسعى لتحريفها من لا يفهمها. أما الأعداء فيقولون بأنه كلام فارغ ومجموعة لكلمات عديمة المعاني، فلا يحاولون تحريفه. يقول السير وليم موير بهذا الشأن:

The contents and the arrangement of the Coran speak forcibly for its authenticity. All the fragments that could obtained have, with artless simplicity, been joined together. The patchwork bears no marks of a designing genius or moulding hand.[1]

أي أن كلمات القرآن الكريم توحي بأن أحدا لم يحرِّفه، وقد وُضعت جميع الجزئيات مع بعضها بكل بساطة بحيث يتبين أن اللباس الذي رُقِّعت به تلك الرقعات لم يرقِّعها شخص فطين.

فكيف يتشجع أحد أن يُدخل شيئا في كلام مرفوع مثله؟ الذين يفهمونه وُصفوا بأنهم ﴿بَرَرَةٌ﴾، أما الذين لا يفهمونه يحسبونه كلاما بلا معنى، فلا يرون ضرورة أيّ تغيير فيه.

الأمر الثالث الذي بيّنه الله تعالى هو أن هذا الكتاب نُزِّه من كل عيب، ومَن تدخّل في شيء سامٍ مثله يُبطش به فورا. انظروا مثال ذلك في كشمير مثلا، فحيثما تم التدخُّل في المباني التي بُنيت في عهد السلطنة المغولية عُرِف ذلك فورا وبكل سهولة. كذلك الحال بالنسبة إلى "تاج محل". فلو رمَّم المرء مبنى بسيطا فإنه يمكن أن يخفى على الناس، ولكن إذا فعل أحد ذلك في "تاج محل" عُلم به فورا. إذن، إن الذين يجهلون مزايا القرآن الكريم لا يرون ضرورة إلى الإضافة إليه أو الإنقاص منه شيئا، أما العارفون بها فلا يستطيعون أن يتدخّلوا في حسنه وجماله، لأنهم إن فعلوا ذلك لظهر ذلك للعيان فورا. فلا يتجاسرون على تحريف القرآن الكريم نهائيا.

[1] The Life of Mahomet By William Muir P. 561 Published in London 1877.

الوسائل الظاهرية لحفظ القرآن الكريم

لقد سخّر الله تعالى وسائل ظاهرية أيضا لحفظ القرآن الكريم، وذكر ثلاث وسائل للحفظ الخارجي أيضا كما ذكر ثلاث وسائل للحفظ الداخلي، وقال: ﴿بِأَيْدِيْ سَفَرَةٍ﴾، من معاني "سفرة" الكُتَّاب، فتعني الآية من هذا المنطلق أن هذا الكتاب قد أُعطي بيد قوم ظلّوا يكتبونه بقدر ما كان ينزل، وما كُتب صار محفوظا. ثم قال تعالى إنه سُلِّم إلى كُتَّاب ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي إلى أناس محترمين وأطهار وأخيار. أي سيتوفر له دائما كُتّابٌ مخلصون لن يكتبوا طمعا في المال بل سيكونون ثُلّة من الأشراف ومكرَّمون بكل معنى الكلمة، ويحتلون مكانة سامية بين معاصريهم فيكتبون القرآن لكسب الحسنة فقط. والواضح أن الذين لا يخدم التحريف أي هدف لهم وهم صالحون أيضا لن يرتكبوا التحريف أبدا. فلهذا السبب ستنتشر في العالم نُسخ القرآن الكريم الصحيحة الكثيرة جدا حتى يستحيل تحريفه نهائيا.

انظروا الآن، ما أعظم هذا المبدأ وكيف حققه الله تعالى، فكان هناك ملوك كبار ما كانوا علماء بالدين فلم تكن لهم أي مصلحة في تحريف تعليم القرآن الكريم. وأضف إلى ذلك أن الملوك في مختلف البلاد كانوا معتادين على كتابة القرآن طمعا في الثواب. كان من ملوك الهند ملكٌ معروف اسمه "أورنغ زيب" كتب عدة نُسخ من القرآن الكريم. وقد أُلِّف مؤخرا كتاب حول الحروب الصليبية قال فيه أسامة بن منقذ عن والده "سلطان شهزاد" الذي كان ملكا في ولاية في الشام، أنه إما كان يحارب الإفرنج أو يصطاد أو يكتب القرآن الكريم، وقد ترك عند وفاته ٤٣ نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بيده.

المعنى الثاني لـ "سَفَرَةٍ" هم المسافرون. فمن منطلق هذا المعنى يكون المراد أن القرآن الكريم لن يُكتب فقط بكثرة بل ينتشر أيضا سريعا في كافة أنحاء العالم، وبذلك يسلم من التحريف. فمثلا إذا أراد أحد تحريفه في مصر سوف يزيل هذا التحريفَ القرآنُ الموجود في جزيرة العرب والشام والهند وغيرها من البلاد.

فقال تعالى: لقد سُلِّم هذا الكتاب إلى المسافرين الكرام ليذهبوا به إلى جميع البلاد. فنرى أن القرآن الكريم وصل في زمن النبي ﷺ إلى بلاد العرب كلها وإلى أفريقيا والحبشة. وبعد بضعة أعوام من وفاة رسول الله ﷺ انتشر في فلسطين والشام والعراق وإيران وأفغانستان والصين والأناضول والهند واليونان وغيرها. فبسبب هؤلاء الكتّاب العفيفين ثم نتيجة انتشارهم في بلاد مختلفة استحال وقوع أيّ تغيّر فيه، كذلك لم يعُد مجال للشك فيه لأن النُسخ الموجودة في بلاد مختلفة تصدِّق بعضها. أما الآن فقد خرج انتشاره عن حدود العدّ والحساب نتيجة اختراع المطبعة.

وإضافة إلى ذلك إن الخلاف الذي حدث بين المسلمين في صدر الإسلام قد أيّد حفظ القرآن الكريم. ومن معاني "سَفَرة" من يضع الخطام في أنف البعير، فمن هذا المنطلق يمكن الاستنباط من الآية أن القرآن سيكون في أيدي قادة الجيوش المهاجمة أو زعماء الجماعات الذين يكونون صلحاء كلهم. وبذلك إن وجود القرآن الكريم، بغير أن يكون فيه أيّ اختلاف، في أيدي جماعات مخالفة يجعله مصونا محفوظا تماما ولن تقدر جماعة على عيث الفساد فيه لأن جماعة أخرى سوف تبطش بها فورا.

هذا الدليل قوي لدرجة أنِ اعترف بقوته ألدّ الأعداء أيضا، ولكن أليس غريبا أن القرآن الكريم جمع بنفسه كل هذه الأدلة والبراهين في سورة مكية واحدة. يقول السير وليم موير:

It is conceivable that, either Ali, or his party, when thus arrived at power, would have tolerated a mutilated Coran-mutilated expressly to destroy his claims? Yet we find that they used the same Coran as their opponents, and raised no shadow of an objection against it.[1]

أي كيف يمكننا أن نقبل أن القرآن تعرض لأيّ تحريف. عندما كان المسلمون يتحاربون فيما بينهم كان عندهم قرآن واحد، ولم يعترض أحد على قرآن عند فريق آخر. ثم يقول السير وليم موير:

[1] The Life of Mahomet By William Muir P. 559 Published in London 1877.

So for from objecting to Othman’s revision, Ali multiplied copies of the edition among other MSS. Supposed to have been written by Ali, one is said to have been preserved at Mashhed Ali as late as the fourteenth century, which bore his signature.[1]

أي إن عديدا من المؤلفين الآخرين أيضا قالوا باستحالة التحريف في القرآن نتيجة انتشاره بسرعة وكونه عند فئات مختلفة متحاربة.

ولكن انظروا إلى القرآن الكريم إذ قد بيّن هذه الحقيقة سلفا بالتفصيل، وهذه معجزة عظيمة بحد ذاتها. فقد قال القرآن الكريم إنه سيُكتب بكثرة، وينتشر إلى بلاد نائية، وستندلع الحروب بين المسلمين أنفسهم، لذا لن يقدر أحد على تحريفه. إنها لأدلة قوية لدرجة أنِ اعترف بها النصارى أيضا، مع أن هذه الأمور ذُكرت حين كان النبي ﷺ لا يزال في مكة حيث لم يكن هناك أدنى مجال للتحريف في القرآن.

ومن معاني "سفرة" الكناسة، ورفع الستار أيضا. فمن هذا المنطلق يكون معنى الآية أن هذا الكتاب قد سُلِّم إلى أناس يزيلون باستمرار غبارا يمكن أن يتراكم على تعليم القرآن ويشوهه ويعيدونه إلى حالته الأصلية ويبيّنون مفاهيمه الخافية ويعرضون على الناس معارفه السامية، وبذلك يجدّدون باستمرار قبوله في الناس وتأثيره فيهم، وهم كِرامٌ؛ أي الخبراء في هذا المجال. وكذلك هم بَررَة؛ أي لهم باع طويلة في أمور الخير. وبذلك لا يقومون بالخدمة بأنفسهم فقط بل يتركون وراءهم أيضا خداما كثيرين.

الطريف في الموضوع أنه ذُكرت في هذه الآية ثلاث صفات للكِتاب وثلاث صفات لحَمَلته، غير أن هناك فرقا بين الصفتين ما عدا صفة "كِرام" فهي مشتركة بين الاثنين (أي الكتاب وحملته) إذ قد جاء في صفة الكتب: "مرفوعة" و"مطهَّرة"، وفي صفة الناس ورد: "سَفَرَة" و"بَرَرَة". ولكن إذا أمعنّا النظر وجدنا أن في هذا الاختلاف أيضا وحدةً. إن زوج "سَفَرَة" هو "مرفوعة"، لأن الشيء المرتفع يكون خافيا عن الأعين،

[1] The Life of Mahomet By William Muir P. 559 Published in London 1877.

ومن معاني "سَفَرَ" إزالة الخفاء، فحين نقول: "سفرتِ الريحُ الغيم عن وجه السماء" كان معناه: كشفتْه. أي أزالت الريح الغيم وجعلت السماء صافية. وورد "بَرَرَة" مقابل "مطهَّرة" لأن المطهَّر يعني ما اجتمعت فيه كافة أوجه الطهارة. وهذا هو معنى "بررة" أيضا؛ أي مَن كان فيه كافة أوجه الخير. إذن، فقد ذكر الله تعالى مقابل صفات الكتاب الثلاث، ثلاث صفات مماثلة لها لحملة الكتاب الذين سيحفظونه.

سبحان الله، ما أعظمه من ادّعاء! وكيف تم تحقيقه بقوى عظيمة! كاد الخطأ الأول يصدر بعد وفاة النبي ﷺ حين وقعت الشبهة في وفاته ﷺ وكأنه كان سيُعطى مقام الألوهية. ولكن الله تعالى أقام أبا بكر رضي الله عنه بحسب آية الاستخلاف الواردة في سورة النور وبذلك أزال هذا الخلاف، إذ قدّم أبو بكر رضي الله عنه من القرآن نفسه آيةً: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، وقدّمها بأسلوب بحيث لم يعُد صاحب الاختلاف (أي عمر رضي الله عنه) قادرا على الوقوف على قدميه بل سقط. ولكن فكِّروا جيدا ما الذي حدث بعد المسيح الناصري عليه السلام! كان لا يزال حيا وأطلّ الفساد برأسه بعد حادث الصليب. كما بدأ الناس يشركون بالله في حياة موسى عليه السلام، ولم يقدر في ذلك الوقت أناس مثل هارون، وأناس مثل بطرس أن يفعلوا شيئا في زمن المسيح عليه السلام. وبدأ الضلال يلقي بظلاله بين ظهراني الحواريين، وإن سلِم منه الحواريون بفضل الله تعالى كما وصفهم القرآن الكريم. صحيح أن الشرك انتشر بعد فترة طويلة ولكن الفساد الذي بدأ كان بصورة الإباحة.

بعد هذا الزمن كلما وقع التغيّر تمّ إصلاحه، وخُلق في الأمة المحمدية دائما أناس ظلوا يزيلون الخلافات من كل نوع بواسطة القرآن الكريم. ومقابل ذلك ظلت حالة الأديان الأخرى تتدهور ولم يُخلق فيها مصلحون. خذوا هذا الزمن الأخير مثلا كيف أعاد اللهُ الإسلام إلى حالته الأصلية وكيف قام القرآن الكريم على مفاهيمه الحقيقية! إن جميع المفاسد التي نشأت في الزمن الراهن بسبب تفاسير القرآن الكريم الخاطئة

أزالها المسيح الموعود عليه السلام بعد مجيئه، وقدّم القرآن الكريم أمام العالم بأجلى وأبهى صورة كما كان في زمن رسول الله ﷺ.

الوعد الدائم بحفظ القرآن الكريم

إذن، فقد تحقق الوعد الدائم بحفظ القرآن الكريم الذي وعد به الله تعالى ولم يقدر أحد إلى اليوم على تحريف القرآن، لا ظاهريا ولا باطنيا. وما دامت التجارب الممتدة إلى اليوم توحي بأن هذا الوعد ظل يتحقق دائما فلا بد أن يتحقق في المستقبل أيضا. لقد قال الله تعالى بنفسه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ٤)، فلما اكتمل الدين وتمت النعمة فلم تعد هناك حاجة إلى أيّ دين آخر. وكلما جاء مبعوث من الله الآن سيأتي مؤيدا لهذا الدين، لذا لن يتعرض القرآن الكريم إلى التحريف إلى يوم القيامة. إذا كان أحد قادرا على إجراء أيّ تغيير في القرآن الكريم فهو الله تعالى وحده، ولكنه أخبر أنه أكمله من كل النواحي ووضع وسائل الحفظ من كل نوع، وهي تضمن عدم قدرة أيّ إنسان على التحريف فيه، فلا مجال لأيّ نوع من التغيُّر في القرآن الكريم.

نصيحة للأحبة

أودّ أن أنصح الأحبة أنه منذ أن بدأ القطار يسير *(من قاديان)* أطلت مشكلة برأسها وهي أن جميع الناس بدأوا يعودون إلى بيوتهم فور نهاية الخطاب في اليوم الأخير من الجلسة. من كانوا مضطرين لذلك بسبب نهاية عطلتهم فلهم أن يعودوا، ولكن الذين يقدرون على المكث يجب أن يمكثوا لبضعة أيام أخرى؛ فهناك أناس كثيرون لا يجدون فرصة المجيء إلى هنا خلال العام إلا بمناسبة الجلسة السنوية فقط، فعليهم أن يمكثوا بعد نهاية الجلسة أيضا، وليدعوا في المساجد هنا ويقابلوا الناس ويتفقدوا الأمور التجارية الجارية هنا وليدعوا للمدفونين في "بهشتي مقبرة". والآن أدعو الله تعالى أن يوفقنا للعمل في المستقبل أيضا على المنوال نفسه كما جعل هذه الجلسة ناجحة بفضله.

فضائل القرآن (٤)

القرآن الكريم وحده حائز على شرف كونه كلام الله من بين جميع الكتب الإلهامية

خطاب أُلقي في ٢٨/١٢/١٩٣١م بمناسبة الجلسة السنوية في "قاديان" دار الأمان

قال رضي الله عنه بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة:

الموضوع الذي أعلنت البارحة بالحديث عنه هو الموضوع نفسه الذي أخطب فيه منذ ثلاث سنين، وهو "فضائل القرآن"، أي ما هي الفضائل التي بسببها لا يفوق القرآن الكريم على التأليفات البشرية فقط بل يفوق الكتب السماوية أيضا. لقد بدأ المسيح الموعود عليه السلام الحديث عن هذا الموضوع في تأليفه "البراهين الأحمدية" وقال بأنه سيكتب فيه ٣٠٠ دليل. لقد تأملتُ في هذا الأمر وتوصلت إلى نتيجة أنه يمكن في الحقيقة بيان تلك الأدلة الثلاث مئة، ويمكن للإنسان أن يشرح البراهين الأحمدية بحسب فهمه وبقدر استطاعته في ضوء علوم جاء بها المسيح الموعود عليه السلام ومستفيضا من نور جاء به.

مقدمة تفسير القرآن الكريم

"البراهين الأحمدية" هو بحسب رأيي مقدمة تفسير القرآن الكريم. المواضيع التي يجب مناقشتها مفصلا عند كتابة تفسير القرآن الكريم قد بدأ بها المسيح الموعود عليه السلام في البراهين الأحمدية، وفي قلبي رغبة عارمة أن يكتمل هذا العمل ظاهريا أيضا بتوفيق من الله، وقد أكمله الله تعالى باطنيا إذ قد قدّم عليه السلام مئات آلاف الأدلة السماوية فضلا عن ثلاث مئة دليل، ولكن ما دامت الأدلة السماوية قد قُدّمت فإن تقديم الأدلة الظاهرية أيضا يكون خدمة عظيمة للجماعة. أريد من الأعماق أن يوفق الله تعالى أحدا ليحقق الهدف الظاهري أيضا من البراهين الأحمدية.

كنت قد ذكرتُ بعض التعليقات التمهيدية حول هذا الموضوع في عام ١٩٢٨م، وقدمت في خطابين في عام ١٩٢٩م و١٩٣٠م ستة أدلة على أفضلية القرآن الكريم، وبمناسبة الجلسة عام ١٩٣٠م طال الوقت كثيرا قبل أن ينتهي بيان الدليل السابع، وإلى جانب ذلك بدأت أشعر بالضعف لذا اضطررتُ إلى إنهاء ذلك الخطاب سريعا بينما كان جزء من الدليل السابع ما زال غير مكتمل، لذا أبيّن ذلك الآن ثم سأبدأ بالدليل الثامن.

البقية من الدليل السابع

لقد تحدثت في العام الماضي حول هذا الموضوع وقلتُ إن القرآن ليس محفوظا من منطلق أنه لم يتعرض لتحريف على يد البشر فقط بل لا يمكن أن يتعرض لأي تحريف بشري أبدا. أي لم يحصل للقرآن شرف عدم التعرض لأي تحريف فحسب، بينما تعرضت له بقية الكتب السماوية، بل هو حائز أيضا على شرف أنه لا يمكن التحريف فيه مستقبلا أيضا بينما يمكن تصرّف البشر في الكتب الأخرى. لقد قدّمت في العام الماضي دليلين على ذلك، والآن سأقدم دليلا ثالثا على استحالة حدوث التغيُّر في القرآن الكريم، وهو أنه كلام الله، فتغييره من قِبل البشر مستحيل عقلا. لعل كثيرا من الناس يستغربون من قولي هذا ويقولون إن الكتب الأخرى أيضا

كلام الله فكيف حصلت هذه الميزة للقرآن وحده؟ الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام كان كلام الله، كذلك أيضا نزل كلامه عز وجل على نوح وإبراهيم والأنبياء الآخرين عليهم السلام. فلما كانت تلك الكتب أيضا كلام الله فلماذا يمكن التحريف فيها بل قد حُرّفت فعلا، بينما لم ولن يتعرض القرآن الكريم للتحريف؟ ولماذا هذا الفرق بين الأشياء من نوع واحد؟

سأشرح الآن أن هذا الاستغراب ليس في محله، وأنه أكبر دليل على أفضلية القرآن الكريم أنه كلام الله. لذا فالقرآن الكريم ليس أفضل من الكتب غير الإلهامية أو من الكتب الإلهامية في حالتها الراهنة فقط بل هذه أفضلية لم يضاهِه فيها أيّ كتاب قط.

الكتب الإلهامية السابقة لم تكن كلام الله

من الخطأ القول إن الكتب الإلهامية السابقة كانت كلام الله. لا أقول إن التوراة الحالية ليست كلام الله بل أقول إن الكتاب الذي أُعطيه موسى لم يكن كلام الله. كذلك لا أقصد أن الأناجيل الحالية ليست كلام الله، علما أنها لم تنزل على المسيح عليه السلام أصلا. أنا متأكد من أنه لو كان الإنجيل الذي نزل على المسيح عليه السلام موجودا لقلنا مع ذلك إنه ليس كلام الله. ذلك الإنجيل كان كتاب الله ومصداقا لما أُنزل على المسيح ولكنه لم يكن كلام الله. كذلك لو وُجدت اليوم صحف إبراهيم وصحف نوح عليهما السلام وبدون أن تدخلها كلمة واحدة من كلام البشر لما كانت كلام الله، إلا أنها كانت كتب الله. لقد استُخدمت في القرآن الكريم عبارة "كلام الله" ثلاث مرات، وفي كل مرة استُخدمت بحق القرآن الكريم حصرا. والقرآن الكريم وحده يدّعي أنه كلام الله.

لقد جاء في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦)... أي ليسمع

كلام الله في صحبتك ثم أبلغه مأمنه. لقد أُمر بذلك لأنهم لا يعلمون من الدين شيئا، وما لم يتعلموا علوما دينية كيف يتعلمون الدين؟ مع أن هناك حربا بينك وبين الكفار وهم يحاربونك، وفي الحرب يحق لك أن تقتل خصمك، ولكن ما دمت زعيما دينيا لذا نأمرك بأنه إذا جاءك أحد من قوم آخرين مخالفا قانون الحكومات السائدة وأراد أن يسمع كلام الله فأسمعه، ثم إذا أراد العودة فأبلغه إلى غايته المنشودة دون أن يصيبه أذى. ويقول الله في آية أخرى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٦)، أي: أيها المسلمون هل تتوقعون أنهم يقبلون كلامكم؟ كان بعض الصحابة يظنون أن اليهود سيسمعون لهم، وكانت لبعض المسلمين علاقات صداقة معهم. فيقول الله تعالى: هل تتسم صداقتكم بصفة أن يقبلوا كلامكم مع أن جماعة منهم يأتون ويسمعون القرآن ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فما دام هذا سلوكهم تجاه القرآن الكريم أنّى لهم أن يقبلوا كلامكم؟

يقول البعض إن المراد من كلام الله هنا هو التوراة، ولكن هل كان في زمن رسول الله ﷺ من علماء اليهود مَن كان لتحريفه تأثير؟ كانوا أناسا عاديين فقط، وإذا كان فيهم زعيم فلم تكن له أهمية أكثر من زعيم حارة واحدة. لذا ما كان ليخطر ببال اليهود في المدينة أنهم إذا قدموا التوراة بإجراء التعديل فيها سيقبلها الناسُ. بل كل ما كانوا يفعلونه هو أنهم كانوا يحضرون صحبة النبي ﷺ ويسمعون القرآن ويخترعون أمورا من عندهم وينشرونها، كما كان الناس يكذبون عن المسيح الموعود عليه السلام وقاديان. فمثلا قال شخص من مدينة فيروزبور للناس: ذهبت إلى قاديان ذات مرة وأُسكنتُ في دار الضيافة. ثم علمتُ فور وصولي أن المرزا قد أرسل الحلوى وقال: أطعموها الضيوف كلهم، فأكلها الضيوف الآخرون ولكنني رميتُها منتهزا الفرصة. بعد هنيهة اصطحبني المرزا وخرج للتنزه في عربة يجرها حصانان -من هنا يتبين أنه

لم يحضر قاديان أصلا- وبدأ يحدثني في الطريق، وقال: "إني إله"، فقرأت الحوقلة بسماع هذا الكلام، فشحب لونه ثم قال بالنظر إلى المولوي نور الدين: ألم تطعموه الحلوى؟ فشحب لون المولوي أيضا وقال: لقد أرسلتها له ولكن لا أدري ما الذي حدث. ثم هربتُ من هنالك.

كان في المجلس نفسه شخص محترم من غير الأحمديين فقال: هذا الشخص كذاب، لقد عدتُ بنفسي من قاديان ولم يذهب هذا الشخص إلى هناك قط. يصعب أن تجري في قاديان عربة يجرها حصان واحد ناهيك عن عربة يجرها حصانان.

باختصار، هكذا كان هؤلاء الناس يفعلون، أي كانوا يسمعون الكلام ويحرفونه كما يحلو لهم ويسردونه للناس كما يشاؤون. الدليل على أن الآية المذكورة تتحدث عنهم ملحوظ في الآية التالية حيث جاء فيها: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٧)، يتبين من هنا أن هؤلاء المحرفين كانوا في زمن رسول الله ﷺ، فكانوا يسمعون القرآن ثم يكذبون أمام الآخرين ويقولون إنه قال كذا وكذا. يقول الله تعالى في آية مذكورة من قبل: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، ولكن اليهود ما كانوا يسمعون أيّ كتاب بل كانوا يقرأونه. ومن أراد أن يُدخل فيه جُملا من عنده لا يستطيع أن يفعل ذلك بالسماع بل يستطيع فعله بالقراءة. إذا كان المراد منه هو الكتاب المقدس لوَرَدَ "يقرأون" لأن الناس كانوا يقرأونه. إذن، التوراة ليست مذكورة هنا بل ذُكر القرآن الكريم. والمراد أنهم كانوا يسمعون من المسلمين ويفهمون ثم يسردون بأسلوب يزيد الناس معارضةً.

الآية الثالثة بهذا الخصوص جاءت في سورة الفتح وهي: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ (الفتح: ١٦)، أي عندما تخرجون للقتال يزعم هؤلاء الناس أنكم ستنتصرون وتنالون الغنائم،

فيقولون: خذونا أيضا معكم. وهم يريدون أن يبدّلوا كلام الله بتصرفهم هذا. أي لو أخذتموهم معكم لقالوا: انظروا قد بدّلنا كلام الله الذي قيل فيه بأنهم لن يذهبوا وها قد ذهبنا. ولو لم تأخذوهم معكم لقالوا: المسلمون طماعون ويريدون أن يستأثروا بكل شيء.

باختصار، لقد وردت عبارة "كلام الله" في القرآن الكريم في ثلاث آيات، وفي كل آية جاءت بحق القرآن الكريم ولم ترد بحق أيّ كتاب آخر. لذا فالعقل يقتضي الاعتراف بأن القرآن وحده كلام الله. ولا يحق لنا أن نقول بغير دليل إن كتابا سماويا آخر سوى القرآن الكريم أيضا يستحق أن يسمى كلام الله. لم يُسمَّ كتاب موسى عليه السلام كلامَ الله، فأنى لنا أن نسميه كلام الله، وخاصة سأثبت لاحقا أنه ما من كتاب من بين تلك الكتب هو كلامُ الله من منطلق التاريخ أيضا.

لقد وُصف الأنبياء في القرآن الكريم بـ "كلمة" كما وُصفت الإلهامات بكلمات، بل "كلمات الله" أيضا. وقيل أيضا: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥)، مع ذلك لم يوصف كتاب موسى الذي ذُكر في القرآن الكريم مرارا بكلام الله، فيقول عز وجل: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠٢)، فتبين بجلاء أن هناك فرقا بين كتاب الله وكلام الله. يمكن أن يطلَق "كتاب الله" على كل كتاب رُوي فيه ما قاله الله، ولكن لا يمكن إطلاق "كلام الله" على كل منها. الكتب الإلهامية الأخرى سُمِّيت "كتاب الله" كما جاء هذا التعبير بحق القرآن أيضا. أما التعبير "كلام الله" فقد استُخدم بحق القرآن حصرا دون غيره. هذا هو الفرق وهو ليس بغير حكمة.

أنواع الوحي

يجب التذكّر لفهم هذا الفرق أن وحي الأنبياء عدة أنواع. (١) الوحي الذي يتناهى إلى الأذن ويجري على اللسان بكلمات الله. فمثلا أسمع اللهُ رسولَه ﷺ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فهذه الكلمات سمعها النبي ﷺ بأذنيه كصوت وجرت على لسانه. فأحرف هذه الآية- أي: ا ل ح م د- وحركاتها كلها مما أخبره بها، ولم يُلق الله تعالى مضمونها في قلبه ﷺ، بل كل حرف وكل كلمة جاءت من الله تعالى. وهذا الوحي نزل على جميع الأنبياء.

(٢) النوع الثاني من الوحي هو الرؤى والكشوف، وهي لا تأتي بالكلمات بل بصورة المشاهد. فمثلا عندما كان النبي ﷺ على وشك الخروج لغزوة أُحُد رأى في المنام أن حدّ سيفه قد كُسر ورأى أيضا بقرًا تُذبح، فقال ﷺ: المراد من كسر السيف هو الفتح الذي سيصبح مشتبها فيه، أما ذبح البقر فالمراد منه استشهاد بعض الصحابة. هذا الوحي أيضا كان من الله تعالى ولكن الفرق هو أن الوحي من النوع الأول كان بالكلمات أما الثاني فبصورة المشهد. وعند بيان المشهد يستخدم المرء كلمات من عنده. ومن الممكن جدا أن يحدث فرق بسيط عند انتقاء الكلمات لدى البيان.

(٣) النوع الثالث هو الوحي الخفي الذي لا ينزل بالكلمات ولا يُرى مشهدٌ بل يكون بصورة التفهيم والانكشاف. تنشأ في القلب فكرة ولكن يُلقى في قلب صاحبها فورا أنها ليست فكرته بل ألقاها الله في قلبه، ثم ينتقي متلقيها كلمات مناسبة لبيانها. هذا أدنى أنواع الوحي، ويفوقه وحي الرؤيا والكشف ولكنه يكون بحاجة إلى تفسير. والمعلوم أن التفسير يحتمل إمكانية الخطأ. أما الوحي الذي ينزل بالكلمات فلا إمكانية للخطأ فيه، وهذا أرفع أنواع الوحي.

فلو جمع نبي في كتابٍ وحيَه كله بما فيه وحي الكلمات ووحي الكشف والرؤيا والوحي الخفي المحتوي على كلمات النبي نفسه فيمكننا أن نسميه كتاب الله ولكن لا يسعنا أن نسميه كلام الله، لأنه ليس كله كلام الله، بل يتضمن كلام البشر أيضا إلى حد ما وإن كان المضمون كله من الله، فبناء على ذلك يُعَدّ ذلك الكتاب كتاب الله.

فانظروا الآن واضعين الفرق في الحسبان أن أيّ كتاب في العالم- لأي قوم كان ومهما كان- يُنسب إلى الله تعالى بقوة وشدة لا يمكن أن يكون كلام الله؛ لأنه ما من كتاب يحتوي على كلمات الله كلها في حالتها الراهنة ولا حين قدّمه نبي. بل يكون الكتاب محتويا على بعض كلمات الله وبعض المشاهد وتُذكر فيه بعض المفاهيم أيضا. فلو شطبنا من التوراة الحشوات التي أدخلها اليهود من عندهم مثل: "فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. (اَلتَّثْنِيَة ٣٤ : ٥-٦). في تلك الحالة أيضا لن تكون التوراة كلام الله لأنه قد ورد فيها:

وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. (اَلْخُرُوجُ ٣ : ٢).

والأمر نفسه ينطبق على كتاب عيسى والأنبياء الآخرين عليهم السلام. فلو شُطبت منها الحشوات التي أدخلها الناس فيما بعد لما كان كتاب موسى كلام الله حين دوّنه موسى ولا كتاب عيسى حين حكاه، ولا الفيدات حين نزلت. إن لم يكن فيها كلام الناس الآخرين حينذاك كان فيها كلام الأنبياء حتما. باختصار، لم تكن تلك الكتب كلام الله حتى في زمن سلامتها من التحريف أيضا.

لا يقولنّ أحد هنا: أي أفضلية هذه؟ لو أراد موسى لجمع كلام الله منفصلا. لو فُصل كلام كلٍّ من موسى وعيسى- عليهما السلام- من التوراة والإنجيل هل يصبح هذان الكتابان مساويان للقرآن الكريم؟ سأقول: لا، لأن موسى إذا كان قادرا على ذلك لفعل حتما. لو أمكن لموسى عليه السلام أن يفصل وحي الكلمات ودوّن منه كتابا منفصلا لفعَل حتما. كذلك إذا أمكن ذلك لعيسى عليه السلام لفعل أيضا. إذن، هذه الأفضلية كانت من نصيب رسول الله ﷺ فقط إذ أُعطي الشريعة كلها بكلمات الوحي. أما في كتب الأنبياء الآخرين فكان شيء من كلام الله وشيء من المشاهد وشيء من المفاهيم التي بيّنوها بكلماتهم. فلو فصَلُوا الجزء المحتوي على المشاهد

والمفاهيم لصارت كتبهم ناقصة، لأن أديانهم كلها لم تكن محصورة في كلام الله بل كان فيها جزء من الرؤى والكشوف وجزء من الوحي الخفي. وإذا فصلوا منها كلام الله لصارت أديانهم ناقصة. وعلى النقيض من ذلك شمل القرآن الكريمُ الدينَ كله، والدين كله محصور في كلام الله. إذن، لا يمكن أن يسمى كتاب أيّ نبي كلامَ الله سوى القرآن الكريم، فهذا الاسم خاص بالقرآن الكريم وحده.

الحق أنه لما كان مقدرا عند الله أن يجعل القرآن أكمل كتاب وآخر كلام، ويجعل الإسلامَ أكمل دين، كان ضروريا أن يحفظه بحيث لا يفوته أيّ مضمون. وهذا كان ممكنا في حالة واحدة وهي أن يتم بيان كل شيء بكلمات عالم الغيب، لأن الرؤى والكشوف قد تؤدي إلى النزاعات والخلافات. لذا فقد أنزل الله تعالى الشريعة الإسلامية بكلماته وسماها كلام الله، وقال إنها تحتوي على كلمات الله فقط. لذا ليس هناك كتاب سوى القرآن الكريم تترشح من كلماته مضامين متجددة دائما. القرآن الكريم وحده الكتاب الذي لا تنتهي مفاهيمه. اقرأوه ليل نهار فلن تنتهي حقائقه أبدا، بل تترشح منه حِكمٌ جديدة ويثبت أن كل لفظ منه مليء بالحكمة. لقد ذُكر في الأساطير من قديم الزمان كيسٌ تخرج منه كافة أنواع الأطعمة. لا شك أن هذا خيال ووهمٌ فقط أما القرآن الكريم فهو في الحقيقة كنز لن ينفد أبدا. وهذا ليس في نصيب الكتب الأخرى. فمثلا يعترف المسيحيون وغيرهم بأنفسهم أن الأخطاء وقعت في العبارات الأصلية. لا أقصد أن كلام الله لم ينزل على الأنبياء السابقين بل أقصد إن أديانهم وكتبهم لم تكن كلها محصورة في كلام الله فقط.

السبب وراء فساد الكتب السابقة

إذا تأملنا أكثر تبين لنا أن السبب وراء حدوث الفساد في الكتب السابقة هو أنها لم تكن كلام الله. فلما كانت شروح الأنبياء ورؤاهم وكشوفهم ومفاهيمهم مذكورة فيها بكلماتهم، لذا لم يكن ممكنا أن يهتم الناس بحفظها اهتماما كبيرا. عندما رأى أصحاب موسى عليه السلام أن وحيا نزل عليه وأملاه وأملى إلى جانبه رؤياه وكشفه وأملى

أيضا أنه قد انتابته فكرة إلهامية كذا وكذا، تشجعوا على أن يُدخلوا في العبارة ما كانوا يفهمونه من التوراة زاعمين أنه لا ضير إذا كتبوا كمذكِّرة ما فهموه. ولأن كل شخص يحسب فهمه صائبا لذا كانوا يحسبون فهمهم مبنيا على أمر إلهي. هكذا حرِّفت تلك الكتب، مع أنه لو أدركوا الأمر على حقيقته لفهموا أن فهم النبي كان جزءا من الكتاب لكونه من الله، أما فهمهم فلا. بل لو كان فهم أحدهم من الله أيضا مع ذلك ليس له أن يكون جزءا من الكتاب مثل فهم النبي. أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد رأوا أنهم عندما يأتون إلى النبي ﷺ يقول لهم: هذا ما أوحى الله إليّ اليوم، فيسأله الصحابة: هل نكتبه؟ يقول ﷺ: نعم اكتبوا. ثم يقول ﷺ: هذا ما رأيته في الكشف وهذا ما رأيته في الرؤيا. فكان ﷺ يبين مفهومه ويقول: لا تكتبوه ضمن الوحي. فلما رأى الصحابة أن النبي ﷺ بنفسه لا يستطيع أن يضيف إلى الوحي شيئا قالوا: أنّى لنا أن نضيف إليه شيئا؟ لقد رأى الصحابة ﷺ أن النبي ﷺ لا يضيف إلى الوحي الحرفي نوعا آخر من الوحي مثل الكشوف والرؤى وما أُلقي في قلبه بصورة مضمون فضلا عن أن يضيف شيئا من عنده، أنّى كان لهم أن يضيفوا إلى الوحي شيئا من عندهم. ولكن لما كان الأنبياء السابقون يكتبون شروحهم ورؤاهم وكشوفهم وتفهيماتهم بكلماتهم فتشجع أتباعهم أن يكتبوا فيها تفهيماتهم أيضا.

يقول الباحثون في الكتاب المقدس إن ما أضيف إلى الصحف القديمة كان سببه أن كل مَن انتابته فكرة كتبها فيها. ولكن لما كان القرآن الكريم كلام الله الخالص، فلم يُدخل النبي ﷺ فيه إلهاماته ولا كشوفه أو رؤاه أو تفهيماته. وهذا الأمر ترك في الصحابة تأثيرا عميقا وعلموا أنه يجب ألا يضاف إلى هذا الكتاب شيء آخر لدرجة أنهم حافظوا على أسلوب الكتابة وعلامات الوقف أيضا، وبذلك حُفظ القرآن الكريم إلى الأبد لكونه كلام الله.

لقد اعترف ألد أعداء الإسلام أيضا أن كون القرآن الكريم كلام الله لعب دورا كبيرا في عدم تعرضه للتحريف، فيقول السير وليم موير:

A similar guarantee existed in the feelings of the people at large, in whose soul no principle was more deeply rooted than an awful reverence for the supposed word of God. [1]

أي ما يضمن كون القرآن محفوظا هو أنه كان منقوشا في قلب كل مسلم. إن كل حرف وكل حركة فيه إنما هي من عند الله.

الفائدة الثانية لجمع كلام الله على هذا النحو كانت أنه لا يمكن أن يتطرق إليه تاريخ أو فهمُ شخص. فمثلا لم يرد في القرآن كلام مثلا أنني ذهبتُ إلى مكان كذا وتلقيت هنالك إلهاما كذا، بل إن عبارته تجري بأسلوب بحيث كل كلمة توحي بأنها من الله تعالى، فلا يسع بشرا أن يُدخل فيه كلاما آخر أبدا، وإذا فعلَ فسيبدو غير مترابط تماما. ولما كانت الكتب السابقة تشمل المفاهيم أيضا لذا فإن إدخال أحد مفهوما آخر كان يحول دون ظهور الخطأ للعيان.

القرآن الكريم وحده تفرّد بكونه "كلام الله"

إذن، القرآن الكريم فريد من حيث كونه "كلام الله"، كانفراد الكعبة –بتسميتها "بيت الله"– عن البيوت الأخرى. لقد وصف الله تعالى الكعبة بأنها بيت الله، والقرآنَ الكريم بأنه كلامُ الله. لقد أُطلق على الكعبة هذا الاسم لأن الله تعالى أمر ببنائها. لو أمر الله تعالى ببناء بيوت أخرى أيضا لما أُلغيتْ، ولما كان مقدرا أن تُلغى البيوت الأخرى لذا لم يُطلق عليها هذا الاسم. كذلك لما كان مقدرا أن يبقى القرآن الكريم إلى الأبد لذا أُنزل بصورة كلام الله، وأُطلق عليه هذا الاسم كيلا يقدر أحد على إدخال كلامه فيه.

إذا قال أحد إنكم تقولون إن الشريعة كلها موجودة في القرآن الكريم، ولكن هذا ليس صحيحا لأن القرآن محتاج إلى الحديث والسُّنَّة، فجوابه أن مفهوم السُّنة هو أن النبي ﷺ عمل بما جاء في القرآن الكريم، والمراد من الأحاديث هو ما فهمه ﷺ من القرآن الكريم وليس أكثر. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا

[1] Life of Mahomet by William Muir P. 560 Published in London 1877.

وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤-٥)، أي أن محمدا رسول الله لا يقول شيئا عن الدين من عنده بل يقول بالاستناد إلى الوحي. فكل ما في الأحاديث إنما هو شرح القرآن ومفاهيمه فحسب.

الدليل الثامن على أفضلية القرآن الكريم

والآن أبين الدليل الثامن على أفضلية القرآن الكريم وهو أن أفضلية كل كلام نازل من الله وعظمته تعتمد على من يأتي به، لأن الرسُل يُرسَلون بصفتهم حاملي الرسالة. فمثلا إذا أراد الملكُ تنظيف غرفته سيقول لخادمه أن يُحضر كناسا، ولكن إذا أراد أن يدعو ملكا للقائه فلن يقول ذلك للخادم بل سيقول للوزير، وهو بدوره سيوصل إليه الرسالة قائلا بأن الملك يريدك أن تلقاه.

باختصار، إن أفضلية الرسالة ترتبط بحاملها. السفراء الذين يحملون رسائل الملوك يُهتَمّ بهم أيضا ليكونوا ذوي مكانة سامية.

كذلك لتفهيم الكلام من الدرجة العليا يحتاج المرء إلى علم بالغ درجة عليا. لو كان هناك كتاب يحتل درجة عليا من الناحية العلمية لاحتاج معلّمه أيضا إلى ثقافة عليا كذلك. لا يمكن أن يدرّس شخص ذو ثقافة عادية طلابا في الدراسات العليا. إذا أُرسل شخص خريج في المدرسة الابتدائية يُفهم من ذلك أنه سيدرّس منهاجا ابتدائيا جدا. وإذا أُرسل خريج في المدرسة الثانوية يُفهم أنه سيدرّس الصفَ الرابعَ أو الخامس الابتدائي، وإذا أُرسل شخص حائز على شهادة بكالوريوس يُفهم أنه سيدِّرس الصفَ التاسع أو العاشر في المدرسة الثانوية، وإذا أُرسل الحائز على شهادة عليا سيُفهم أن مهمته تدريس الصفوف العليا. فعلى هذا النحو تتبين أفضلية الكتاب أو عدمها مِن هوية الذي يأتي بالكتاب الإلهامي. أما إذا أثبت الكتابُ أفضليته بنفسه فهذا يُعَدّ أمرا أعظم، لأنه قدّم الدليل بنفسه في هذا المجال أيضا ولم يحتجْ إلى أيّ دليل آخر.

باختصار، لأن سلوك الذي نزل عليه الكتاب يؤثر بوجه خاص على انتشار الكتاب لذا فالكتاب الكامل هو الذي يقدم سلوك المنزَّل عليه بصورة بارزة

كيلا يرتاب الناس في أمر مصدر الكتاب. فلإثبات أن مصدر القرآن ليس مشتبها فيه بل جرى القرآن على لسان شخص يحتل مكانة عليا، يجب أن يثبت القرآنُ نفسه أن الذي جاء به كان إنسانا مقدسا ونزيها عن كل عيب؛ لأنه ما لم يثبت ذلك ستخالج قلب الإنسان شبهةٌ -مهما كان الكتاب كاملا وأفضل- في سلوك وسيرة الذي جاء به. والشبهة الثانية التي تنتاب الإنسان هي: ما مدى تأثير هذا الكتاب على أولِ مخاطَب به؟ فإن لم يترك فيه تأثيرا جيدا فماذا عساه أن يؤثر فينا؟ وإن لم ينفع المخاطَب الأول فماذا يمكن أن ينفعنا؟ فعند مناقشة أفضلية الكتاب لا بد لنا من أن نبحث أولا في أخلاق الذي جاء به، وكذلك عند النقاش حول أفضلية صاحب الكتاب لا بد من البحث فيما يقدم من أفكار.

القرآن الكريم حائز هذه الأفضلية أيضا على الكتب الأخرى؛ أي أن الذي جاء به هو أفضل الناس جميعا أيًّا كانوا، وأفضليته الإضافية هي أنه ليس محتاجا إلى أحد لحفظ هذا الدليل أيضا بل قد حفظه بنفسه، لدرجة أنْ يقول شخص معاند مثل وليم موير أيضا إن أفضل مصدر للعثور على سيرة محمد (ﷺ) هو القرآن.[١] وفي هذا المقام نقل وليم موير قول عائشة رضي الله عنها: "كان خُلقه القرآن".[٢] أي يجب أن تقرأوا القرآن للعثور على أخلاق رسول الله ﷺ، فكانت أخلاقه كلها تطابق معايير وضعها القرآن الكريم. فيحق للقرآن الكريم أن يدّعي أنه خلق شخصا واحدا على الأقل بحسب معياره؛ لذا لا نستطيع أن نشك في تعليمه بأنه (١) ليس قابلا للعمل. (٢) أنه لم يُصلح شخصا جاء به فأنّى له أن يصلح الآخرين؟ لأن محمدا ﷺ عمل به وصار إنسانا من الدرجة العليا. فلا يسع أحدا أن يقول بأن القرآن لم ينفع الذي جاء به فكيف يفيدنا نحن؟

[١] Life of Mahomet by William Muir P. 550 Published in London 1877.

[٢] مسند أحمد بن حنبل.

ما قلتُه إن من أدلة أفضلية الكتاب الإلهامي أن يكون الذي جاء به أفضل من غيره، فهذا الدليل قدّمه القرآن بنفسه، ويتلخص في أن تكون حياة النبي السابقة طاهرة وكاملة، وأن تكون حياته بعد إعلانه مطابقة للوحي تماما. فيقول الله تعالى في القرآن عن حياته ﷺ قبل الإعلان: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ * فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥-١٢٦)، أي كلما يقدم محمد (ﷺ) أمامهم معجزة يقولون: لن نؤمن بها ما لم نؤتَ ما أوتي رسل الله، أي الوحي والإلهام. فيقول الله ﷻ: هل يجب أن يُنزَل الوحي على كل شخص؟ الله أعلم من يستحق أن يُجعل رسولا، فهو ينظر إلى أحواله وأفكاره وعاداته، ومن كان أفضل من غيره وهبه منصب الرسالة. تقولون: يجب أن تُعطَوا ما يُعطى الرسلُ! ولكن ألا تنظرون إلى حالتكم؟ أنتم أنجاس ولا يكون في نصيب الأنجاس إلا الذلة. بينما الرسالة منزلة محترمة جدا ولا توهب إلا لإنسان طاهر ومن يحتل مكانة عليا، أما أنتم فستُعذَّبون بسبب مكايدكم. ومَن يُجعل صدره ضيّقا حرجا، فهو يشعر عند كسبه عملا صالحا كأنه يتسلق الجبل... هكذا يعامل الله الذين لا يؤمنون.

لقد قيل في هاتين الآيتين: (١) عند بعثه أحد رسولا ينظر الله تعالى إلى سيرته وأعماله. فالرسالة لا توهب للمجرمين لأن في نصيبهم الذلة، بينما الرسالة مدعاة للعزة الكبيرة. (٢) الذي يُبعث رسولا يكون مطيعا لله تعالى قبل البعثة أيضا، وتكون طاعة الله جزءا من طبيعته، ويكون سباقا في قبول الدوافع إلى الحسنات.

وبذلك قد بيّن الله تعالى مبدأ أن حياة الأنبياء السابقة يجب أن تكون على درجة عليا في كل مجال. يمكن لمن كان مذنبا في زمن من الأزمان أن يصبح وليا بعد

أن يتوب، ولكن من الضروري للنبي أن يكون على درجة عليا من الطهارة منذ البداية. (٣) قال ﷻ عن حياة من حاز النبوة: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (فصلت: ٣٩)، أي الحائزون على قرب الله يخبرون الناس بأعمالهم ليل نهار أن الله تعالى سبوح، أي بقدر ما ينالون قرب الله يطيعونه ويُظهرون سبوحية الله بكل عمل من أعمالهم، ويخبرون العالم أن الله تعالى لم يصطفِهم جزافا. أي يُظهرون سبوحية الله بأعمالهم ويُثبتون أن اصطفاء الله ليس خاطئا.

حياة النبي ﷺ الطاهرة قبل النبوة

السؤال الآن هو: هل ذُكر في أيّ مكان تحقق هذا المبدأ العام بحق رسول الله ﷺ. يبين الله تعالى أن حياة رسوله ﷺ قبل إعلان النبوة كانت طاهرة تماما ونزيهة عن كل عيب ونقيصة فيقول: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٧)، أنتم تعلمون أن حياتي كانت طاهرة منذ البداية، إن مدة أربعين عاما ليست بمدة قصيرة فكيف تزعمون بعد ذلك أنني افتريتُ هذا الأمر كذبا؟ إذن، هذا ما أعلنه رسول الله ﷺ عن حياته التي سبقت إعلان النبوة، وقد أعلن ذلك أمام الكفار ولم يقدروا على إنكاره.

قرب الله نتيجة اتباع رسول الله ﷺ

أما عن حياته بعد إعلان النبوة فنجد في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب :٢٢)، أي أن هذا الرسول أسوة حسنة لإظهار مدى تأثير القرآن الكريم في حياته، وهو ليس أسوة لقوم دون قوم أو لبلد دون بلد، بل هو أسوة للعالم كله، ويجب على الناس جميعا أن يتأسوا بها. قد يقول قائل هنا: لا بد أن يكون الأنبياء الآخرون أيضا هكذا، فأُقدِّم بهذا الشأن آية أخرى من القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣٢)، انظروا إلى سموّ المكانة التي تبيّنُها هذه

الكلمات! لم يقل الله تعالى هذه الكلمات من عنده بل قالها على لسان رسوله ﷺ لتكون تحديا للعالم كله، فكأن الله تعالى تحدّى العالم وقال ﷻ لرسوله أن يعلن أنه إذا كانت في قلوبكم رغبة وحرقة لتكونوا محبوبين عند الله فتعالوا أخبركم بسرٍّ إن عملتم به أصبحتم محبوبين عند الله مع كونكم محبين. والسرّ هو: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي اعمَلوا كما أعمل أنا. لم يقل الله هنا "أطيعوني" بل قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي إن كنتم تريدون أن يحبكم الله فاكسبوا الأعمال التي يكسبها محمد رسول الله ﷺ. لم يقل الله أن أطيعوا ما يأمركم به محمد رسول الله ﷺ، بل الكلمة المستخدمة هنا هي الاتباع، وتعني: "اقتفاء الأثر" لذا تستخدَم بحق الله تعالى كلمة "الطاعة" ولا تُستخدم كلمة "اتباع" لأنه تعالى أسمى من الشرائع. ولكن تستخدم بحق الرسول كلتا الكلمتين أي الاتباع والطاعة، أي أنه ﷺ يأمر ثم يعمل بنفسه بما يأمر. إذن، معنى ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ هو أنني صرتُ محبوب الله نتيجة طاعة الله، فإن عملتم كما أعمل أنا ستصبحون أنتم أيضا أحباء الله تعالى. وهذا يعني أن الله تعالى عدّ أعمال رسوله ﷺ اسما آخر للقرآن الكريم.

دحض اعتراضات معارضي الإسلام

الآن أتناول الاعتراضات التي وُجِّهت إلى رسول الله ﷺ وأبين كيف ردّها القرآن الكريم وأثبت كماله ونزاهته ﷺ من كل عيب، لأن القرآن الكريم فرض على نفسه إثبات طهارته ﷺ ولم يتركه على أي إنسان. الاعتراض الأول الذي كان توجيهه إلى حياة النبي ﷺ ممكنا هو: ما هي الدوافع والأسباب وراء إعلانه؟ وماذا كان السبب الحقيقي لتقديمه القرآن الكريم؟ فكان هناك من يقول بأنه مجنون، والعياذ بالله، وهناك من يقول إنه يرى أضغاث أحلام، ويقول آخر إنه ساحر ويقول غيره إنه كذاب ويقول غيره إنه كاهن. باختصار، كانت قلوب الناس تكنّ أفكارا مختلفة، وهي لا تزال مستمرة إلى اليوم. كلما يؤلف أحدهم كتابا ضد النبي ﷺ يقول إنه كان كاذبا، ويقول غيره إنه كان مجنونا، والعياذ بالله.

الاعتراض الأول

أولا أتناول اعتراضا يتعلق بالجنون. لما كانت حياة النبي ﷺ طاهرة ونزيهة لدرجة أنها لم يكن للمنكرين أن يطعنوا فيها، لذا فكلما سمعوا كلامه لم يستطيعوا تكذيبه فقالوا إنه مجنون. من ناحية كانت أفكار الشرك مترسخة في قلوبهم ومن ناحية كانوا يقولون إن محمدا (ﷺ) لا يمكن أن يكذب، فكان لا بد لتضارب الأمرين من أن يؤدي إلى نشوء فكرة أنه ﷺ فقدَ صوابه. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: ٧)، عندما عرض محمد ﷺ القرآنَ الكريم احتار الناس في كيفية إنكاره فقالوا: يا أيها الذي تقول إن كلام الله نزل عليك إنك فقدتَ صوابك وصرت مجنونا. فرد القرآن الكريم على قولهم هذا قائلا: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ (القلم: ٢-٧) الناس يزعمونك مجنونا ولكننا نقدم المحبرة والقلم شهادة على صدقك. من هو المجنون؟ الذي يكون عقله أدنى من عقل عامة الناس، وإلا يملك المجانين أيضا شيئا من العقل على أية حال، فهم يأكلون ويشربون ويلبسون. إنهم يُسمَّون مجانين لأن عقلهم دون أدنى مستوى العقل المعروف لدى عامة الناس. يقول الله تعالى عن الذين كانوا يسمون النبي ﷺ مجنونا: تحسبونه مجنونا؟ ولكن العلماء الأكثر ثقافة من غيرهم يُعَدّون أعقل الناس، كما أن المؤلفين الذين يملكون عقلا رصينا يُعَدّون عقلاء؛ فنقول: هاتوا بكلامهم لمبارزته، وائتوا بجميع الكتب التي أُلِّفت في العالم إلى اليوم -علما أن الله تعالى لم يقل هنا أن يأتوا بمؤلَّفات الناس فقط بل قال ائتوا بكل ما هو مكتوب، أي هاتوا بكتب دينية وسماوية أيضا أو محتوية على العلوم من أعلى الدرجات والموجودة في المكتبات- وإن لم تثبت هذه الكتب كلها عديمة الأهمية أمامه فيجب أن يقرّوا: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

انظروا ما أعظمه من إعلان! وما أقواه من برهان! هذا البرهان قدمه للناس في ذلك العصر، ثم عرض على الذين سيأتون فيما بعد دليلا آخر فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (القلم: ٤). أي أن الذين سيسمونك مجنونا في المستقبل سنقول لهم إن محمدا (ﷺ) ليس فيكم الآن ولكن نتائج أعماله الجبارة موجودة بين ظهرانيكم. المجنون لا يُعطى جزاء على أعماله. فمثلا إذا صار المجنون مَلكا هل يدفع له أحد ضريبةً؟ أو إذا صار طبيبا هل يتعالج أحد على يده؟ أو إذا أصبح نبيا فهل يصبح أحد مريدا له؟ ولكن الله تعالى يقول عن رسوله ﷺ: سنعطيه على أعماله أجرا لن يُقطع أبدا، ولن يأتي زمان ينقطع فيه أجر أعماله. كلما اعترض عليه ﷺ قائل بجنونه سيُقال له إن أعمال المجنون لا تسفر عن نتيجة ولكن انظروا إلى رسول الله ﷺ ترون أن أعماله تأتي بالنتائج حتى بعد مرور عدة قرون.

ثم قال سُبحانه وتعالى: نخبركم بشيء آخر عنه ﷺ وهو: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٥)، لو قلت للمجنون إنك مجنون للطمك، ولكن العاقل يصبر، فلو حسبك هؤلاء الناس مجنونا لما قالوا لك ذلك في مجلسك بل قالوه باقين بعيدا عنك. فما داموا يسمونك مجنونا في وجهك فهذا دليل على أنك لست مجنونا. والدليل على ذلك للذين سيأتون في المستقبل هو أنه يأمر أتباعه أن يلتزموا الصمت مقابل الذين يسمونه مجنونا. فهل من مجنون لا يكتفي فقط بكبت ثورته مقابل الذين يسمونه مجنونا بل ينصح أيضا أجيالا قادمة ألا يعاملوا المعارضين بسوء؟ ثم يقول الله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ (القلم: ٦-٧)، في هذا الدليل بيّن الله تعالى أن نصرة الله لا تحالف المجنون، أما محمد رسول الله ﷺ فيحرز نجاحا بعد نجاح بنصرة الله، فكيف يمكن عدُّه مجنونا؟

الاعتراض الثاني

لقد أثير الاعتراض الثاني حين رأى المعارضون أن العقلاء بدأوا يسمونهم أنفسهم مجانين على تسميتهم النبي ﷺ مجنونا. عندما رأوا أن الذي يسمونه مجنونا لم يقتل

أحدا ولم يضرب أحدا بل أبدى أخلاقا سامية جدا، فكَّروا أن يخترعوا أمرا آخر فقالوا إنه أعلن ما أعلن نتيجة أضغاث أحلام. فيقول الله تعالى في ذكر اعتراضهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ (الأنبياء: ٦)، أي أن كلامه مبني على أضغاث أحلام يراها، وإلا فهو رجل طيب بحد ذاته ويتحقق بعض مما يقول ولكنه يرى بعض الأمور السيئة حسنةً.

الفرق بين الجنون وأضغاث الأحلام هو أن في حال الجنون يحدث الخلل في الدماغ في اليقظة، أما في حال أضغاث أحلام يحدث الخلل في الدماغ أثناء النوم. لما كان المعارضون يرون أنه لا عيب في سلوك النبي ﷺ فقالوا بأن المراد من الجنون ليس الجنون الظاهري، بل هو يرى في المنام أمورا كهذه. فردّ القرآن الكريم على ذلك قائلا: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١١)، الذين يرون أضغاث أحلام هل تشمل أحلامهم أسباب التقدم القومي؟ أضغاث الأحلام تسفر عن نتائج مشتتة. بينما قد أُنزل عليه كتاب هو مدعاة لعزتكم وشرفكم. فهل الخلل الدماغي يفوز بمثل هذا التعليم؟ أنتم تحسبون أنفسكم عقلاء، أفلا تعقلون هذا الأمر البسيط أيضا؟

الاعتراض الثالث

قال بعضهم: ﴿هَذَا سَاحِرٌ﴾ (ص: ٥). من معاني السحر الكذبُ أيضا. ولكن المعارضين سمّوا النبي ﷺ كذابا بوجه عام أيضا، لذا فلو كان معنى السحر الكذب سيكون الرد عليه منفصلا. معنى السحر الثاني هو أن يتراءى الشيء في شكله الظاهري مختلفا عما هو عليه في الباطن. يقول الله تعالى ردًّا على ذلك: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آَيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ٣)، أي كلما يرون من محمد (ﷺ) معجزة يعرضون ويقولون نفهم هذه الأمور جيدا، هذا سحر قديم. ثم يقول تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر: ٦)، أي في القرآن حكمة بالغة، وفيه مضامين من شأنها أن تحدث تغيُّرا. معنى السحر أن يُمسخ الظاهر ويبقى الباطن

مستقلا، ولكن تأثير القرآن هو أنه يغيّر القلوب بدلا من الظاهر، لذا لا يمكن تسميته سحرا. هذه حكمة بالغة تؤثر إلى أبعاد شاسعة، وتؤثر في العواطف والأفكار الداخلية ولكن هذا الإنذار لا ينفع هؤلاء الناس.

الاعتراض الرابع

قال بعض إنه لا يبدو ساحرا بل هو مسحور دون شك. أي هو رجل طيب في حد ذاته ولكن سحره أحدٌ لذلك يقول مثل هذا الكلام، فيقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الفرقان: ٩)، يقولون إن المسلمين يتبعون رجلا مسحورا، وقد سحره أحد ففقدَ صوابه. لقد سبق هذه الآيةَ طلبُ المعترضين بنزول الملائكة. عندما قال النبي ﷺ إن الملائكة تنزل وتهب الكنوز (المراد من الملائكة هو الإلهام، ومن الكنوز معارف القرآن) قال المعارضون: إنه يرى الملائكة لأنه مسحور، بينما لا نرى الملائكة ولا نرى الكنوز، ولكنه يقول إن الملائكة تنزل عليه ويتلقى الكنوزَ. متى تلقّاها؟ بل هذا تأثير السحر عليه إذ يقول مثل هذا الكلام. فيقول الله تعالى ردا على عدة اعتراضات من هذا القبيل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا * وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٢-٢٧)، أي يقول الأغبياء إنه مسحور، ويأتون عليه بدليل أنهم لماذا لا يرون الملائكة ولا الكنوز؟ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾، لماذا لا تنزل علينا الملائكة وهو يدّعي نزولها عليه؟ ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، هو يقول إنه يرى ربه فلماذا لا نراه نحن؟ يزعم هؤلاء الجهلاء أن هذه الأشياء ليست موجودة ومَن ادّعى وجودها فهو مسحور. ولكنهم لا ينظرون إلى أنفسهم، هل يمكن أن يرى اللهَ أناسٌ نجسون مثلهم؟ ﴿عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ

يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾... سوف يرون الملائكة ولكن بأسلوب آخر، أي عندما يرونهم يقولون متحسّرين: ليتنا لم نرهم. لن ينال المجرمون يومذاك بشارة من الملائكة فيقولون قلقين أن ابتعدوا عنا. يقول الله تعالى بأنهم يرون اللهَ أيضا على المنوال نفسه، ولكن ليس لينعِم عليهم، بل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٤)، أي سيفحص أعمالهم ليبيدهم وسيذروا حكومتهم ذروا. ويكون هذا اليوم يوم فرحة وسرور للذين يقولون عنهم بأنهم يتبعون رجلا مسحورا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٥). أي أنهم يُبوّأون مقاما أحسن ومريحا، ثم بيّن ﷻ تفصيله وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٦)، أي ينزل المطر من السماء وينزل الملائكة كما نزلوا يوم بدرٍ. ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٧). في ذلك اليوم تباد حكومة مكة ويوهب الحُكم لمحمد رسول الله ﷺ. ويوم فتح مكة يكون يوما صعبا جدا على الكافرين.

أما الكنوز فقال ﷻ عنها: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣١)، أي يا ربّ كان بإمكانهم أن يعترضوا بشأن الحكومة إن لم يروها، ويعترضوا عن الكنوز إن لم يروها، ويعترضوا عن الملائكة إن لم يروهم، ولكن كيف جاز لهم الاعتراض على القرآن بعد أن رأوه بأم أعينهم؟ ولكن من المؤسف حقا أنهم أنكروا هذا الكنز العظيم والثمين، مع أنه كان ممكنا أن يروه.

لقد ورد في سورة الإسراء أيضا أن المعارضين سمّوا رسول الله ﷺ مسحورا. فقد جاء فيها: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الإسراء: ٤٨)، وجاء بعد هذه الآية فورا، وكذلك بعد الآية المماثلة من سورة الفرقان: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ١٠)، مع أنهم يبذلون جُلّ مساعيهم في سبيل دحض كلام جاء به، وتكاد نفوسهم تزهق نتيجة خيبة آمالهم وفشلهم، ومع ذلك يقولون إنه مسحور. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا عجزوا عن مبارزة هذا

الشخص الضعيف. المسحور يكون تابعا للآخرين، بينما هو يجعل الآخرين يتبعونه، وجميع الناس الآخرين عاجزون مقابله.

أقول بأسف شديد إن المسلمين أيضا اشتركوا مع الكفار في هذا الاعتراض، وقالوا إن اليهود سحروا مرة رسول الله ﷺ، والعياذ بالله، وبقي تأثيره عليه إلى مدة طويلة. وقد جرّوا في هذا الموضوع الإمامَ البخاري أيضا مع أنهم يقرأون بكل وضوح في القرآن الكريم: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٨). فإذا كان الناس قادرين على سحر رسولِ الله ﷺ فكيف صحّ قوله تعالى: ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؟ إننا نرى أنه لا يسع أحدا أن يسحر حتى خدام رسول الله ﷺ ناهيك عن رسول الله. حكى شخص لأحد الأحمديين قائلا: أنا بارع جدا في المِسْمَرِيّة، وذات مرة أردت أن أُؤَثِّر بها على المرزا المحترم وأجعله يتصرف بتصرفات غريبة أمام الناس، فذهبتُ إلى مجلسه واضعا هذه الفكرة في البال، وبدأت أركّز عليه ولكنه عليه السلام ظل يحاور الناس بكل سكينة وهدوء ولم يقع عليه أيّ تأثير حتى بذلتُ قوتي كلها وسعيتُ أن أُأثر فيه ولكني شعرت كأن أسدا موشك على الهجوم علي، وحين رأيتُ ذلك هربتُ من هناك مذعورا.

ثم بعد وصوله إلى لاهور بعث هذا الشخص إلى المسيح الموعود عليه السلام رسالة قال فيها: إني موقن بأنك ولي الله الكبيرُ. فقال له أحد: كيف علمتَ أنه ولي الله، ألا يمكن أن يكون هو أقوى منك في مجال المسمرية؟ قال: لا بدّ لمن يمارس المسمرية أن يركّز على ضحيته ملتزما الصمتَ، ولكنه عليه السلام كان يتحدث مع الناس، لذا لا يمكن أن يكون ممن يمارسون المسمرية.

الاعتراض الخامس

كان هناك اعتراض آخر أنه ﷺ كاهن. ومعلوم أن الكهان يتنبأون بأنباء مستقبلية نظرا إلى بعض العلامات. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَا بِقَوْلِ

كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة: ٤٣)، أي يحسبك الناس كاهنا ولكن كلامك ليس كذلك، ولكنهم لا يتذكرون قط.

الغريب في الأمر أن كلمة "مسحور" جاءت بحق النبي ﷺ في القرآن الكريم مرتين، وجاءت بعدها آية: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٩، الفرقان: ١٠)، وجاءت كلمة "كاهن" أيضا مرتين، وجاءت مصحوبة بـ "ذكر"، فيتبين من ذلك أن الكاهن والمذكِّر ضدان. فجاء في سورة الطور: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (الطور: ٣٠)، أي أن الكاهن لا يمكن أن يكون مذكِّرا، والمذكِّر لا يمكن أن يكون كاهنا. والسبب وراء ذلك أن كلمة الكاهن تُطلَق على أناس عنيدين ومنجمين وحمقى يسردون أخبار الغيب نظرا إلى بعض العلامات. ولما كان رسول الله ﷺ ينبئ بأخبار الغيب لذا كان بعض الحمقى يسمونه كاهنا. يقول الله تعالى إن أخبار الكهان والمنجمين تكون أخبارا محضة، أما أخباره ﷺ فهي تحمل جانب التذكير، وتتعلق بإصلاح النفس وإصلاح القوم، فكيف يمكن أن يكون كاهنا. إن أخبار الكهان تكون مثلما ذُكر عن المولوي برهان الدين الجهلمي. وبيانه أن المولوي برهان الدين ذات مرة أظهر لمنجم يده وهو جالس خلف ستار. فحسبه المنجم امرأة وبدأ يحدِّثه عن الزوج، وعندما أخرج المنجم ما في جعبته أمسك المولوي برهان الدين يده وقدّم لحيته أمامه، فهرب المنجم من فوره ولم يرجع إلى تلك الحارة بعد ذلك.

باختصار، إن أخبار الكهان تكون أخبارا محضة مثل أن فلانا سيُرزق بابن، ويموت فلانٌ.. فهي لا تُظهر قدرة الله تعالى. أما الأخبار التي ينبئ بها محمد رسول الله ﷺ فلا يمكن تصنيفها في قائمة أخبار المنجمين، بل هي تزيد المرء إيمانا وتُظهر قدرة الله وجلاله. يقول الرسول إنه جاء من الله، ومن يتصدى له يفشل وتخيب آماله، ومن يؤمن به ينتصر. ولكن لا يسع كاهنا أن يقول ذلك. يقول الله تعالى:

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾. لقد فقدَ القائلون بذلك صوابهم لدرجة أنهم يسمعون هذا القدر من النبوءات التي تُظهر قدرة الله وجبروته، ومع ذلك لا يتّعظون.

ويقول الله تعالى في الرد الثاني على الاعتراض المذكور: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٣٩-٤٨)... أي أن ظروفه الظاهرية والباطنية أيضا تشهد أن هذا القرآن كلام رسول كريم. من حيث الظروف الظاهرية يشترك الكهان والشعراء في أمر واحد، أي أن الشاعر يبدي العواطف بشدة وبعد بيان كل شيء يمد يده متسولا، والكاهن أيضا يتسول ببيان الأخبار. ويقول الله تعالى بأن هذا الرسول كريم ينفق من عنده بينما الكاهن يسأل الآخرين.

لا يظننّ أحد هنا أن القرآن الكريم عُدّ هنا كلام رسول الله ﷺ، بل دُحضت هذه الشبهة بإيراد كلمة "رسول" وقال بأن القرآن ليس كلام الرسول لأن الرسول من ينقل رسالة غيره، وإذا قال محمد (رسول الله ﷺ) شيئا من عنده لكان ذلك كلامه، ولكنه رسول فقط.

والدليل الثالث هو أن الكاهن ينسب أخباره إلى علمه، ويقول إنه عثر عليها بواسطة علم الجفر والرمل والأزلام والأرقام وغيرها، ولا ينسب أخباره إلى الله تعالى، أما هذا الرسول فيقول إنه يتلقى الكلام من الله ثم ينقله، ويقول عن كلامه: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لقد بيّن أيضا هنا أن الكاهن لا يعاقَب على سرده مثل هذا الكلام لأنه لا يتقوّل على الله بل يقوله من عنده، ولكن الرسول يقول إنه يسرد ما يتلقاه من الله، ولو كذب لأُهلك فورا. فهذا الرسول ﷺ ليس كاهنا بل هو رسول الله الصادقُ، والكلام الذي نزل عليه إنما أنزله الله تعالى. وإن قلتم إنه يكتم كهانته بهذه الطريقة

فاعلموا أن الذي يفعل ذلك قصدا لا يمكن أن يجتنب العقاب أبدا. ولو نسب هذا الشخص إلهاما كاذبا إلينا، ولو واحدا، لأخذناه باليمين وقطعنا منه الوتين، وما كان لأحد منكم أن ينقذه من عذابنا.

الاعتراض السادس

وقد اعتُرض على النبي ﷺ أنه شاعر كما جاء في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي أنه يؤثر في الناس بكلام فصيح، فردّ الله على هذا الاعتراض في سورة يس وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يس: ٧٠-٧١) .. أي قد أُنزل عليه هذا الذكر والقرآن المبين لينذر الذين فيهم حياة روحانية ولتتم الحجة على الكافرين.

لقد بيّن الله تعالى هنا أن: أولا، القرآن ليس شعرا بل الحق أن هؤلاء الناس فقدوا صوابهم إذ يحسبون النثر شعرا. ثانيا: إن قيل بأنهم يحسبونه شعرا بالمعنى المجازي- لأن الشعر هو ما يأتي من الداخل إلى الخارج، والشعر يسمى شعرا لأنه يثير المشاعر- فقد ردّ الله على هذا بقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، أي لا يليق بمرتبته أن يقول مثل هذا الكلام. الشاعر يحب أن يذاع اسمه، ولكن أمعنوا النظر في حياته ﷺ كلها فهو يقول: ﴿مِثْلُكُمْ﴾ أي أنا بشر مثلكم. الشاعر يمدح الذين يتوقع منهم شيئا، ولكن هذا الرسول يقول: لا أريد منكم ولا أسألكم شيئا. إذن، لا مجانسة بين الشعر والكلام الذي جاء به. ثالثا: هذا الكلام ذِكْرٌ بينما الشعر لا يكون ذِكرا بل الشاعر يثير المشاعر والعواطف الباطنية ويذكر الشهوة والشغف في الجمال. ولكن هذا الذكر يشجب هذه الأمور كلها. رابعا: هذا الكلام يوقظ محاسن عظمى للفطرة وينقذ من السيئات أصحابَ الفطرة السليمة، ويُتم الحجة على من كان من الميتين، بينما الشاعر يثير المشاعر البهيمية. فلا يمكن تسمية هذا الكلام شعرا ولو مجازا.

الاعتراض السابع

الاعتراض السابع هو أنه معلَّمٌ، فيقول الله تعالى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ (الدخان: ١٤-١٥)، أنّ لهؤلاء الأغبياء أن يتذكروا مع أنه جاءهم رسول يبين معارف عليا.. يقولون إنه غبي لدرجة أن الناس يخبرونه ما يخالف دين آبائه وأجداده وهو يحكي الكلام نفسه للآخرين.

كان ولا يزال بعض الناس يعترضون أن القرآن لم ينزل عليه ﷺ ولم يخترعه من عنده بل علَّمهُ إياه شخص آخر. فقال أهل مكة: كيف يروق لمحمد (ﷺ) أن يشجب أوثان قومه -مع كونه من مكة- ويثني على أنبياء قوم آخرين، فلا شك أن أحدا آخر يعلّمه هذه الأمور. كلما سمعوا مديح موسى عليه السلام في القرآن الكريم قالوا لعلّ يهوديا علّمه، وإذا سمعوا ثناءً على عيسى عليه السلام قالوا إن نصرانيا علّمه. وفي ذلك كانوا يجدون تأييدا على موقفهم لأن أحداث الأنبياء السابقين أيضا مذكورة في القرآن الكريم. لم ترد كلمة مجنون في هذه الآية بمعناها الحقيقي، بل هذا كلام قيل في حالة الغضب لأنه لا يمكن أن تجتمع صفتا المعلَّم والمجنون في شخص واحد. فالمراد هنا هو أنه غبي ولا يدرك أن الناس يعلّمونه أمورا تخالف أهل دينه وقومه.

لقد وردت هذه الفكرة في آيتين في القرآن الكريم، فمثلا جاء في سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣-١٠٤)، أي يا محمد (ﷺ) قل للمعارضين إن القرآن الكريم أنزله روح القدس، وفيه جميع أنواع الحقائق من ربك... ﴿أَعْجَمِيّ﴾؛ الأعجمي مَن ليس عربيا أو إذا كان عربيا فلا يكون قادرا على أن يعبّر على ما يرام عما يضمره قلبه. ولكن هذا الكلام عربي وليس عربيا عاديا بل عربي مبين. وقال

الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٥-٧).. ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هناك جماعتان بحسب زعمهم، إحداهما تدوّن المضمون والأخرى تكتب له ﷺ.

لقد اشترك في هذه الأيام المسيحيون أيضا في هذا الاعتراض فيقول كبار مؤلفيهم متلذذين: لم يعرف محمد (ﷺ) ما هو مكتوب في كتب النصارى واليهود، وكان النصارى واليهود هم الذين جمعوا له هذه الحكايات. فما دام هذا الاعتراض يثار في هذه الأيام أيضا وتُعلَّق عليه أهميةٌ كبيرة، لذا سأرد عليه بشيء من التفصيل.

يقول المفسرون إن المراد من البشر في: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ هو "جبر" عبد رومي[١] وكان عبدا لعامر بن الحضرمي، وكان قد درس التوراة والإنجيل. عندما بدأ الناس يؤذون النبيَّ كان ﷺ يجلس عنده، فاعترض الناس على ذلك. وفي روايات أخرى جاء قول الفرّاء والزجاج إن عبدا لحويطب بن عبد العزّى اسمه "عائش" أو "يعيش" كان يقرأ الكتب السابقة، ثم أصبح مسلما مخلصا فيما بعد وكان يحضر مجلس النبي ﷺ. فكان الناس يذكرون اسمه بشأن الاعتراض المذكور آنفا. يقول مقاتل وجُبير إن الناس كانوا يشكّون في أبي فُكهية- اسمه "يسار" - الذي كان يهوديا وعبدا لسيدة في مكة. وأخرج آدم بن أبي إياس والبيهقي وجماعة عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان نصرانيان من أهل عين التمر اسم أحدهما "يسار" والآخر "جبر" وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن الإنجيل، فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرءان فيقف ويستمع فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، وفي بعض الروايات أنه قيل لأحدهما إنك تعلّم محمدا ﷺ فقال لا بل هو يعلّمني.

[١] "الإصابة، لابن حجر"، الجزء الأول، حرف الجيم: جبر مولى عامر بن الحضرمي

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: كان بمكة غلام أعجمي لبعض قريش يقال له بلعام وكان رسول الله ﷺ يعلِّمه الإسلام فقالت قريش: هذا يعلم محمدا عليه الصلاة والسلام.[١]

يقول المؤرخون المسيحيون: لعله ﷺ تعلّم من الراهب بَحيرى. ما دام لا يُعثر على اسم بحيرى في كتب التاريخ للمسيحيين لذا كانوا في البداية يرفضون حتى اسمه، ولكن بدأوا الآن يعترفون به بسبب رواية أوردها المسعودي، ويستفيدون منها من أجل الاعتراض. تقول هذه الرواية إن المسيحيين كانوا يسمون بحيرى باسم "سرجيوس" (Sergius) وهذا الاسم مذكور في كتب المسيحيين. فيقولون الآن بأن رسول الله ﷺ تعلّم من هذا الشخص ودوّن القرآن، والعياذ بالله. ولكن المستشرق "سيل" (Sale) يرفض هذه الفكرة ويقول إن سفر بحيرى إلى مكة ليس ثابتا، وإن الزعم أن رسول الله ﷺ تعلّم القرآن من بحيرى في أيام شبابه قبل إعلانه بالنبوة غير معقول، إلا أنه من الممكن أن يكون قد تعلّم منه شيئا عن المسيحية.

يقول القسيس "ويري" مظهرا سروره بهذه الروايات: إن هذه الرواية مروية بكثرة -وإن كان هناك اختلاف في الأسماء- ولا تترك مجالا للشك في أن بعض النصارى واليهود كانوا يأتون محمدا (ﷺ) وأنه استفاد من الحديث معهم بوجه خاص، وأن الضعف في الجواب يدل على أن وراء الأكمة ما وراءها، وإلا ما معنى الجواب القائل إن لسان الذي يعلّمه أعجمي، إذ يمكن أن يصوغ الأعجمي جملا مكسرة في لغته ثم يضفي عليها محمد (ﷺ) صبغة العربية. (يقدم ويري تأييدا لموقفه هذا مستشرقا اسمه آرنولد أيضا) ويقول:

"It is because of this that we do not hesitate to reiterate that old change of deliberate imposture.[2]

---

[١] تفسير روح المعاني.

[2] A comprehensive commentary on the Quran by the Rev. E.M Wherry M. A Vol III P.47 Published in London 1896.

لا نشعر بأدنى تردد عند إعادة تهمتنا القديمة أن محمدا (ﷺ) قد افترى الكذب عمدا.

يمكن أن يُعرف مما ذُكر آنفًا أن كفار مكة كانوا يعلّقون على هذا الاعتراض أهمية غير عادية، وأن ورثتهم المسيحيين قد أبقوها قائمة إلى الآن.

أولا سأتناول اعتراضات المسيحيين، وأقدم في الجواب شخصا يحسبه النصارى ابن الله. لقد اعتُرض على المسيح عليه السلام أن للشيطان علاقة معه، وهو يُخرج الشياطين بمساعدته، فقد ورد: "وَكَانَ يُخْرِجُ شَيْطَانًا، وَكَانَ ذلِكَ أَخْرَسَ. فَلَمَّا أُخْرِجَ الشَّيْطَانُ تَكَلَّمَ الأَخْرَسُ، فَتَعَجَّبَ الْجُمُوعُ. وَأَمَّا قَوْمٌ مِنْهُمْ فَقَالُوا: بِبَعْلَزَبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ. وَآخَرُونَ طَلَبُوا مِنْهُ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ يُجَرِّبُونَهُ. فَعَلِمَ أَفْكَارَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تَخْرَبُ، وَبَيْتٍ مُنْقَسِمٍ عَلَى بَيْتٍ يَسْقُطُ. فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ أَيْضًا يَنْقَسِمُ عَلَى ذَاتِهِ، فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَمْلَكَتُهُ؟ لأَنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنِّي بِبَعْلَزَبُولَ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ. (إِنْجِيلُ لُوقَا ١١: ١٤-١٨)

هنا قدّم المسيح عليه السلام قانونا. فحين قيل إنه يُخرج شيطانا بمساعدة الشيطان قال: لماذا يُخرج الشيطان شيطانا؟ ففكروا الآن بحسب هذا القانون، هل يبدو القرآن من صنع يهودي أو نصراني؟ إذا كان من صنع نصراني فكيف كان ممكنا أن يكون مليئا بما يفنّد المسيحية؟ وإذا كان من صُنع يهودي فكيف ورد فيه ما يدحض اليهودية؟ أخبروني عن أي فرقة من فِرق المسيحية وسأبين لكم تفنيدها من القرآن. أخبروني عن فرقة من فِرق اليهودية إلا ودحضه موجود في القرآن. هل لأحد أن يظن أن مسيحيا أو يهوديا سيفند دينه؟ القرآن يفند المسيحية كليا. لا نذهب بعيدا بل السورة الأولى في القرآن الكريم تستأصل شأفة المسيحية، فالسورة الأولى التي نزلت على رسول الله ﷺ هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ

الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى *كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: ٢-٢٠).

ففي هذه السورة التي هي الأولى نزولا دُحضت جميع مسائل المسيحية. الهجوم الأول على المسيحية هو: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. إن أساس المسيحية هو على اعتقاد أن الإنسان مذنبٌ فطرةً، ولا يمكن أن يصبح صالحا نتيجة أعماله، لذا صُلب المسيح الذي كان طاهرا ونزيها عن كل عيب وبذلك حمل ذنوب الناس وصار كبش فداء. يقول الله ﷻ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي حب الله تعالى مودَع في فطرة الإنسان، وهو مجبول على العلاقة بالله. وهكذا أُبطِل أول اعتقاد للمسيحية وقيل إن الكفارة ليست بشيء. الكفارة مبنية على أن الإنسان مذنب بينما الإسلام يبدأ من فكرة أن الإنسان صالح وقد أُودعت فطرته حبّ الله لا الذنب.

الرد الثاني الذي قدمه الله هو: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، أي أن الصفات التي توجد في أشياء أخرى تتجلى في الله ﷻ صفات أعلى منها. تقول المسيحية إنه ليست في الله صفة الرحم، فلا يستطيع أن يعفو عن مذنب، ولكن الإسلام يقول: ما دام الإنسان يستطيع أن يعفو عن المخطئ بحقه، ويتحلى بصفة العفو، فكيف لا يقدر الله تعالى على ذلك؟ ولماذا لا يتحلى ﷻ بهذه الصفة؟ الحق أن هذه الصفة موجودة في الله تعالى بوجه أتم وأكمل لأنه "الأكرم"، أي يفوق الجميع في الصفات الحسنة.

الرد الثالث الذي قدمه الله هو: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. إن دعامة المسيحية الثالثةُ هي أن الشريعة لعنة، ولكن القرآن يقول إن في الشريعة أشياء لا يمكن للإنسان أن يكتشفها بعقله. والناس لا يستطيعون أن يصوغوا أحكام الشريعة بسعيهم، لذا تأتي الشريعةُ.

الهجوم الرابع على المسيحية هو: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ أي أن الإنسان متمرد جدا إذ يقول إنه ليس بحاجة إلى شريعة الله وسيهيّئ لنفسه أسباب هدايته، ولكن القائلين بذلك أغبياء جدا.

والرد الخامس هو: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، أي لا تسمع لما يقوله هؤلاء الناس واعبد الله حق العبادة وأطعْه. فقال ﷻ لرسوله ﷺ ألّا يطيع راهبا يعُدّ الشريعة لعنة بل استمِرَّ في طاعة الله. أي بيّن أن وسيلة النجاة والتقرب إلى الله هي السجود (أي الطاعة) أو الإسلام بتعبير آخر، وليس الإيمان بكفارة.

فالسورة الأولى نزولا في القرآن الكريم دحضت المسيحية بالأدلة. كذلك دُحضت المسيحية واليهودية في سورة الفاتحة. فهل لأحد أن يقبل أن النصارى واليهود كانوا يهيئون الأدلة ضد دينهم؟ ليس في الموضوع إلا خياران اثنان؛ إما أن يكون الراهب المسيحي مؤمنا بدينه أو غير مؤمن به. فإذا كان مؤمنا به كان عليه أن يؤيد دينه بدلا من أن يقول ما يعارضه. أما إذا كان غير مؤمن به وكان يدرك أن ما توصّل إليه الآن ذو شأن عظيم فلماذا لم ينسبه إلى نفسه؟ كان عليه أن يؤلف الكتاب باسمه دون أن يملي على غيره.

والآن أتناول تلك الآيات والردود المذكورة فيها. يتبين من آيات في سورة النحل أن هؤلاء الناس اعترضوا أن شخصا آخر يعلِّمه. وردّ الله تعالى على ذلك فقال إن ذلك الشخص أعجمي بينما لغة القرآن عربية. يقول "ويري" إن هذا الجواب سخيف ويتبين منه أن وراء الأكمة ما وراءها. بل كان ذلك الشخص الأعجمي يصوغ المضمون وكان رسول الله ﷺ يحوله إلى العربية بعد ذلك. ولكن السؤال هو: هل بقية الردود القرآنية أيضا سخيفة؟ إذا كان كلام القرآن أرفع وأعلى فلا بد لكم من أن تفكروا أن هذا الجواب أيضا سيكون أعلى حتما وقد يكون فهمكم خطأ. ثانيا: إذا كان هذا الجواب في غير محله فلماذا لم يدحضه أهل مكة؟ ولماذا لم يردّوا كما ردّ به "ويري"؟ إذ كانوا هم المعترضون بأنفسهم وكانوا يدركون معنى اعتراضهم

أكثر من ويري وغيره، فكان ممكنا أن يقولوا إن هذا الجواب لا يعني شيئا، ولكن لم يرد ولو في أضعف رواية أن أهل مكة قالوا إن هذا الجواب في غير محله. يتبين من ذلك أنهم تلقوا جوابا صحيحا ومفحما على اعتراضهم فلزموا الصمت.

أما القول: ما معنى السؤال والجواب أصلا؟ فجوابه أن الكفار لم يطرحوا سؤالا واحدا بل سؤالين، وبسبب عدم فهمهم هذين السؤالين حسبوا الجواب القرآني في غير محله. أحد هذين السؤالين مذكور في سورة النحل والآخر مذكور في سورة الفرقان. ففي سورة النحل نُقل اعتراضهم أن شخصا أعجميا يعلّمه ﷺ ولكن القرآن الكريم لم يذكر اسمه غير أنه قال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ (النحل: ١٠٤)، هذا يعني أن المعارضين كانوا يحدّدون شخصا معينا، ويتبين أيضا أن ذلك الشخص كان معروفا وكان المسلمون أيضا يعرفون اسمه.

إن آية سورة الفرقان تختلف عن الآية المذكورة، وقيل فيها إن الكفار اعترضوا دون ذكر اسم شخص معين وقالوا إن جماعة تعلّم رسول الله ﷺ وتبقى عنده ليل نهار، وهو يملي على أناس آخرين أحداثا تخبره بها هذه الجماعة.

إذن، الفرق واضح، إذ ذُكر في آية شخصٌ معيّن وفي آية أخرى ذُكرت جماعة غير معينة. وفي آية ذُكر التعلُّم فقط وفي الثانية ذُكر أن جماعة تملي عليه. وفي آية ذُكر التعليم فقط وفي الأخرى ذُكر نَقلُ أساطير الأولين وأفكارهم، وفوق كل هذا جاء الرد في كلا الموضعين مختلفا. إذن، هذه الفروق واضحة لدرجة يمكن أن يدركها كل شخص بسهولة.

الحق أنه عندما أعلن النبي ﷺ ادعاءه آمن به في البداية بعض العبيد الذين كانوا من قبل عبدة الأوثان أو نصارى أو يهودا. وكلما وجدوا فرصة صباحا أو مساء جاءوا إلى بيت النبي ﷺ وتعلّموا الدين مع الصحابة الآخرين، وصلّوا الصلوات. يتضح من حادث آمن نتيجته عمر رضي الله عنه أن هذا الاجتماع كان يُعقد في بيت. ذات يوم خرج عمر رضي الله عنه -قبل إسلامه- من بيته ناويا الهجوم على

رسول الله ﷺ. سأله أحد في الطريق: أين تقصد؟ قال: أقصد محمدا الذي صبأ. قال: انتبهْ إلى أهل بيتك أولا. قال رضي الله عنه: ما القصة؟ قال: لقد أسلمتْ أختك وزوجها. بسماع هذا الكلام توجه عمر رضي الله عنه إلى بيت أخته وطرق الباب. كان أحد الصحابة يعلّمهما القرآن آنذاك. عندما علموا أن الزائر هو عمر، أخفى الصحابي القرآن الكريم وواجهَ عمرَ أختُه وزوجُها وسألاه عما جاء به. قال عمر: أخبِراني ماذا كنتما تفعلان؟ وقد سمعتُ أنكما صبأتما. قالا: هذا ليس صحيحا، ولم نصبأ. قال عمر رضي الله عنه: قد سمعتُ بنفسي صوتكم وأنتم تقرأون شيئا. قال ذلك وهجم على زوج أخته. تدخّلت أخته ووقعت الضربة على رأسها وشُجَّ رأسها وسال منه الدم. فقالت بكل حماس: لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فافعل ما شئتَ. كان عمر رضي الله عنه رجلا شجاعا وعندما رأى أن ضربته وقعت على امرأة وهي أخته، ندم بشدة وقال: أرِيني ما كنتم تقرأونه. قالت: إنك مشرك ونجس، فاذهب واغتسلْ أولا ثم نخبرك بالموضوع. فاغتسل عمر رضي الله عنه وزال غضبه تماما ثم قُرئت عليه آيات القرآن التي كانوا يقرأونها. رقّ قلبه رضي الله عنه بسماعها وقال عفويا: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. عندها خرج الصحابي الذي كانا قد أخفياه، وقال عمر رضي الله عنه: أين زعيمكم، أريد الذهاب إليه. قيل له إن المسلمين يجتمعون في بيت كذا. ذهب عمر رضي الله عنه إلى هناك وكان النبي ﷺ وبعض الصحابة موجودين وكان الباب مغلقا، فطرقه عمر رضي الله عنه. سأل الصحابة: من الطارق؟ قال: أنا عمر. ذكر الصحابةُ مجيء عمر للنبي ﷺ خائفين، ورأوا من فتحة الباب أن السيف معلّق في عنقه. قال النبي ﷺ: افتحوا الباب. وحين دخل عمر رضي الله عنه أمسك النبي ﷺ بقميصه وقال: ماذا وراءك يا عمر؟ قال: جئت لأدخل الإسلام. قال ﷺ: الله أكبر،[1] وكبّر الصحابة أيضا على إثر ذلك بأعلى صوتهم.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام؛ المجلد الثاني، إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يتضح من هذا الحادث أن النبي ﷺ كان يدعو الصحابة ﵃ إلى بيت منفصل لتعليمهم الدينَ. ولما كان يجلس مغلِقا الأبواب كيلا يعيث الكفار شرا لذا كان الاجتماع من هذا النوع أمرا غريبا للكفار، فكانوا يزعمون أنهم يدوّنون القرآن الكريم هنالك. ولما كانت في القرآن الكريم إشارة إلى بعض أحداث الأنبياء السابقين فزعم الكفار أن العبيد اليهود والنصارى يلقّنون المسلمين هذه الأمور والنبيُّ يمليها على أصحابه. فردّ الله تعالى على ذلك قائلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (الفرقان: ٥)، أي أن اعتراضهم هذا خطأ وباطل بالبداهة ومبني على الظلم والزور لأنه هل يمكن للعبيد المسيحيين أن يفعلوا ما يعرّض دينهم للضحك والسخرية؟ ما حاجتهم إلى ذلك وماذا ينفعهم الاشتراك فيما لا ينفعهم ولا يجديهم شيئا وليعرِّضوا أنفسهم للضرب والإيذاء ليل نهار ويُجرّوا على رمال حارقة؟ فالمعترضون اقترفوا ظلما وزورا باعتراضهم على أناس مخلصين مثلهم، إذ من المستحيل تماما أن يختلق أناس مثلهم زورا كهذا.

والرد الثاني الذي قدمه الله ﷻ هو أن ما تزعمونه أساطير قديمة فليس بالأساطير بل أخبار وأنباء عن المستقبل، فيقول تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الفرقان: ٧)، أي لا يسع بشرا أن يصوغ كلاما مثله، فهو مبني على أمور الغيب، والغيبَ لا يعلمه إلا الله.

انظروا الآن إلى هذه الردود، فما أقواها وما أصوَبَها، وما أوهن فكرة ويري! وإذ ورد في هذه الآية أيضا اعتراض ذُكر في سورة النحل فلماذا لم يُردّ عليه هنا بما رُدّ به عليه هنالك؟ ما هو السبب يا تُرى أن يُعطى جوابٌ سخيف بحسب زعم ويري إذا كان السؤال نفسه قد ورد في سورة النحل؟ من كان يعرف جوابا صائبا وقدّمه سلفا فلماذا يقدّم جوابا آخر تاركا جوابه السابق؟ إذن، هذا الجواب ليس لغوا بل هناك خلل في عقل المعترضين. الحقيقة أنه لم يُذكر في سورة النحل أن شخصا آخر يصوغ

له مضمونا بل قيل إن الجهلاء يقولون عن شخص أعجمي لا يقدر على التعبير جيدا عما في قلبه وليس لديه إلمام بالعربية إلا قليلا بأنه يعلّم محمدا رسول الله (إذ من معاني الأعجمي من لا يقدر على التعبير جيدا عما في قلبه، وهذا المعنى أيضا مذكور في المعاجم). فردّ الله تعالى على ذلك قائلا بأن الإنسان يستطيع أن ينقل قول غيره بطريقتين، أولا: أن يفهم قصده ويبينه بكلماته هو. ثانيا: أن يحفظ كلماته عن ظهر غيب ويعيدها كما هي كالببغاء. فهذان هما أسلوبان لنقل الكلام لا ثالث لهما. يقول الله تعالى إنكم تعرفون أن الذي تنسبون إليه هذا الأمر لا يستطيع أن يعبّر عما في قلبه على ما يرام، فما دام لا يستطيع أن يعبر عما يضمره قلبه فكيف يفهِّم النبيَّ ﷺ تلك المضامين فيذكرها بعد تحويلها إلى العربية؟ هذا هو الجواب على النصف الأول من الاعتراض. والإمكانية الثانية هي أن يُنقل قول القائل كما هو، ولكن هذا لم يكن ممكنا لأنه كان يتحدث بالعبرية، وإذا أُعيد كلامه كما هو لكانت الإعادة بالعبرية، ولكن القرآن الكريم ليس بالعبرية أو اليونانية -اللتين كُتب بهما الإنجيل والتوراة- بل هو بالعربية. فعندما لا يكون ذلك الشخص قادرا على أن يعبِّر عما في قلبه بالعربية، ولا القرآنُ منقول من لغة أخرى؛ فكيف يمكن نسب هذا الكتاب إليه؟

يجب التذكر أن ترجمة التوراة والإنجيل بالعربية لم تكن متوفرة إلى ذلك الوقت. وثابت من التاريخ أنه قد طُلب من بعض الصحابة أن يتعلّموا العبرية ليتمكنوا من دراسة التوراة والإنجيل. والدليل الثاني على ذلك أن المفسرين ذكروا علوما كثيرة في التفاسير ولكن عندما يقتبسون من الكتاب المقدس يخطئون في الاقتباس. والسبب في ذلك أن الكتاب المقدس بالعربية لم يكن متوفرا، فكانوا يقتبسون بالسماع من هنا أو هناك فيخطئون.

والدليل الثالث هو أنه قد جاء عن ورقة بن نوفل - في صحيح البخاري- أنه: "كان يكتب الكتاب العبرانيَّ". وهذا يعني أن التوراة والإنجيل ما كانا متوفرين بالعربية

حينذاك. فلا بد أن ذلك الغلام (الأعجمي) كان يقرأ الإنجيل إما بالعبرية أو باليونانية، ولم يكن قادرا على بيان مضمونه بالعربية، وهكذا دُحض هذا الاعتراض.

يتضح من التاريخ -كما قال جبر: "بل هو يعلّمني"- أن جبرا أسلم أخيرا، وكشف عبد الله بن أبي سرح سرّ إسلامه للكفار فكانوا يؤذونه بشدة حتى أعتقه النبي ﷺ بأداء المال. وحين سئل قال: لا أعلّمه بل هو يعلّمني.

الاعتراض الثامن

كان الاعتراض الثامن أن له علاقة مع الشيطان ويتلقى الكلام منه. صحيح أنه لم يُنقل أيّ قول للكفار بشأن هذا الاعتراض ولكن توجد الإشارات إليه حتما، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (الشعراء: ٢١١)، ويقول ﷻ أيضا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (التكوير: ٢٦). يتبين من هنا أن الكفار كانوا يعترضون أن الشيطان ينزل عليه. من المؤسف حقا أن المسلمين قوَّوا هذا الاعتراض أكثر، وقد سلَّحوا به الكفار. وبيان ذلك أنهم يقولون بأن زعماء مكة جاؤوا ذات مرة إلى رسول الله ﷺ مجتمعين، وقالوا: يأتيك أناس من الدرجة الدنيا، أما كبار الناس فلا يسمعون لك. فلو ليّنتَ دينك قليلا لجئناك وجلسنا معك وسيأتيك أُناس آخرون أيضا. فقال النبي ﷺ في نفسه إنني لو فعلتُ ذلك لآمن بي كبار الناس. لقد استمتعتُ بما قاله "نولدكه" حول هذه الروايات، إذ قال: يبدو أن مخترعي هذه الرواية كانوا يحسبون محمدا (ﷺ) غبيا مثلهم.

باختصار، قرر النبي ﷺ -بحسب زعم القائلين- أن يليّن الدين، وفي أثناء ذلك صلّى ﷺ وتلا في صلاته سورة النجم، وبعد الآيتين: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ أجرى الشيطان على لسانه: "تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لتُرتجى". معلوم أن هناك سجدة تلاوة في نهاية سورة النجم، فسجد رسول الله ﷺ وسجد معه الكفار كلهم، لأنهم فهموا أن النبي ﷺ ليّن دينَه وآمن بالأصنام.

لقد وردت هذه الرواية بطرق كثيرة لدرجة أنْ يقول شخص مثل ابن حجر إن هذه الرواية بحاجة إلى تأويل. مع أنه ثابت تاريخيا أنها موضوعة قطعا، وأستطيع أن أثبت أنها موضوعة تماما ولكني لن أخوض الآن في أيّ تأويل، بل أريد بيان ما يقوله القرآن الكريم فقط بهذا الشأن، وهل صدر ذلك عن النبي ﷺ فعلا؟

وبهذه المناسبة أذكر قول رجل مسلم صالح وقد أعجبني كثيرا لدرجة أنني كلما أقرأه أدعو لقائله. وهذا الرجل الصالح هو القاضي عياض، إذ قال: لا يتصرف الشيطان على النبي ﷺ بل تصرّف الشيطان على قلم المحدثين وجعلهم يكتبون هذه الرواية. أي إذا كان لا بد من قبول تصرّف الشيطان على أحد فلماذا لا نقبله على المحدثين، ولماذا نقول إنه تصرّف على رسول الله ﷺ؟

يقول بعض الأغبياء إن رسول الله ﷺ قرأ العبارة المذكورة أيضا عند قراءته سورة النجم، فنزل جبريل وقال: ما هذا الذي فعلتَه؟ لم آتِ بهذه العبارة بل أجراها الشيطان على لسانك، فحزن النبي ﷺ على ذلك كثيرا. فأزال الله حزنه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج: ٥٣).

يقولون: عندما نزلت هذه الآية اطمأن النبي ﷺ، ولكن كيف؟ فقد اطمأن مثلما ورد في قصةٍ أن أحدا سأل امرأة عجوزا: هل تحبين أن تزول حدَبةُ ظهرك أم تحبين أن تحدودب الأخريات أيضا مثلك؟ قالت: لقد ضحكتِ النساء علي بقدر ما شئن، والآن أحب أن يحدودبن لأضحك عليهن.

كيف اطمأن النبي ﷺ -بحسب قول القائلين بصحة هذه الرواية- بإخبار الله تعالى له أن الشيطان لم يتسلّط عليه فقط بل ظلّ يسيطر على جميع الأنبياء؟ فزال حزنه ﷺ بسماع ذلك. ما أسخف هذا الكلام! لم يفكر القائلون به أن الله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ هل هذا يعني أن في سيطرة الشيطان على كل نبي ورسول حكمة عظيمة؟ ثم ما علاقة ذلك مع "عليم"؟

كنت أقول إن قول ذلك الرجل الصالح "القاضي عياض" أعجبني كثيرا إذ قال بعد نقل الروايات من هذا القبيل بأننا عِلِمْنا أن الشيطان تصرَّف ولكنه لم يتصرف على رسول الله ﷺ بل على أقلام ناقلي هذه الروايات. هذه نكتة جميلة جدا.

الرد الذي قام به القرآن الكريم على ذلك مذكور في المقام نفسه حيث يقولون بأن الشيطان أنزل عبارة: "تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لتُرتجى"، ويقولون إنه نزلت بعد الآيات: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى* تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (النجم: ٢٢-٢٤)، أي أتجعلون لأنفسكم الذكور وتجعلون لله البنات مثل اللات والمناة والعُزّى؟ ما أسخف هذه القسمة؟ بل هذه أسماء سميتموها بأنفسكم ولم ينزِّل الله شيئا بشأن هذه الأصنام.

هل لأحد أن يظن بعد وجود هذه الآيات أن العبارة المذكورة اندسّت بين آيات القرآن؟ هذه الآيات توحي بجلاء أن العبارة المذكورة لا يمكن أن تتخلل الآيات. كان الكفار أيضا يعرفون العربية على أية حال.

إضافة إلى ذلك تدحض وجودَ العبارة المذكورة آيتان أخريان وهما: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (الشعراء: ٢١١-٢١٢)، أي هذا الكلام نفسه يدحض كلام الشيطان بحيث لا يمكن للشيطان أن ينزله، وإذا أراد الشيطان أو أشياعه أن يخلطوا فيه شيئا لن يقدروا على ذلك. ولا يمكن أن تتلائم معه عبارة دخيلة، بل لو خلطوا شيئا لبدا بجلاء أنه كلام غير مترابط. ثم يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٢-٢٢٤). أي أن الشياطين تنزل على كذاب وآثم كبير، بينما تقولون بأنفسكم أن محمدًا رسول الله ﷺ أصدق الناس، وتعترفون بكونه أمينا أيضا، فكيف يمكن إذن أن يتصرّف به الشيطان. ثم يقول ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (الأنعام: ١٢٢) أي إن الشيطان يوحي إلى الشياطين ليجادلوكم ولا يوحي إلى المؤمنين.

انتبهوا الآن، ما أكبرها من تهمة تلصقها بالنبي ﷺ الرواياتُ التي تُروى بهذا الشأن. الحق أن الشيطان يوحي إلى وليِّه فقط ويقول له: خذ هذا السلاح وجادلْ! فأنّى له أن يقول لمسلم شيئا ضد نفسه.

وورد في سورة النحل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ١٠٠-١٠١). أما محمد رسول الله ﷺ فقد ظل يحارب الشرك على مدى عمره، فكيف يمكن أن تكون له علاقة بالشيطان؟

الاعتراض التاسع

الاعتراض التاسع هو أنه ﷺ مفتر وكذاب. لقد جاء في سورة ص أن الأعداء قالوا: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾، فقد جاء في سورة النحل: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ (النحل: ١٠٢). فرد الله تعالى على ذلك بالقول: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨-٣٩).

خمسة دعاوى عن القرآن الكريم

في هذه الآية قدّمت خمسة ادعاءات عن القرآن الكريم. الأول: القرآن بنفسه دليل على نفسه، ولا يمكن لأحد أن يصنعه من دون الله، لأن فيه أمورا تفوق قدرة البشر، أي الأمور الغيبية. فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٦)، أي في القرآن الكريم أمور غيبية لا يمكن أن يخبر بها سوى الله تعالى.

الثاني: بواسطته تتحقق النبوءات الواردة في الكتب السابقة.

الثالث: فيه شرح الكتب السابقة.

الرابع: يبين كل شيء بالدليل وبأسلوب لا يبقى في صحته شكٌّ.

الخامس: نزل بحسب صفة الله "رب العالمين" لتسَع بركاته الأقوام كلها.

يقول الله تعالى: إذا كان القرآن مفترًى فأْتوا بسورة فيها هذه الصفات الخمس. فإذا أتيتم بسورة فيها هذه الصفات سنعترف أن بشرا يستطيع أن يأتي بكتاب مثله، وإن لم تستطيعوا جميعا، تبين أنه ليس بوسع بشر أن يأتي بكتاب مثله.

يثبت من ذلك أن هذه الأمور الخمسة كانت موجودة في جزء القرآن الذي نزل قبل سورة يونس التي جاءت فيها هذه الادعاءات الخمسة. والآن نرى هل توجد هذه الأمور الخمسة في ذلك الجزء القرآني؟ ولو وُجدت لثبت أنه كلام الله حتما.

علم الغيب

الأمر الأول هو أن في القرآن أمورا لا يعلمها إلا الله، أي فيه علم الغيب. فحين نتأمل في القرآن من هذا المنظور نجد سورة الكوثر –وهي من أوائل السور نزولا– تشمل نبوءة عظيمة، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. كان الأعداء يقولون عن النبي ﷺ إنه أبتر ولا أولاد ذكورا له فمن سيخلفه؟ يقول الله تعالى في هذه السورة لرسوله ﷺ: لستَ أبتر بل عدوك هو الأبتر. ما المراد من عدم كون النبي ﷺ أبتر؟ وما معنى كون عدوه أبتر؟ يقول الله تعالى بهذا الشأن: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، أي قدّرنا يا محمد (ﷺ) أن نعطيك جماعة عظيمة الشأن تكون ذريتك الروحانية وسيكون فيها أناس كبار وعظام. ثم قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فيا محمد أكثِر من الصلاة فرحة وسرورا على ذلك، وقدِّم التضحيات. وكلما كثّرنا جماعتك أكثر، فأكثِرْ أنت من العبادة والتضحيات لأننا سنزيد نسلك الروحاني. وسيزداد هذا النسل الروحاني بحيث سننزع من أبي جهل ابنه ونعطيكه فسيصبح أبتر وتصبح أنت صاحب أولاد. والمعاملة نفسها سيلقاها الزعماء الآخرون، حيث سننزع منهم أولادهم ونسلّمهم إليك. وهذا ما حدث على صعيد الواقع أنه ﷺ أُعطي أولاد أعدائه وصار الأعداء أباتر روحانيا. لذلك كلما أحرز النبي ﷺ نجاحا آذاه الكفار أكثر فأكثر. لقد ذُكر تحقق هذه النبوءة في سورة

الكوثر. وقد قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٥)، أي أننا نعطي محمدا (ﷺ) أولاد أعدائه كل يوم. هل هذا يعني أنهم سيغلبون؟ وأنّى لهم أن يغلبوا في حين نسلّم إليك فلذات أكبادهم كل يوم، وأولاد هؤلاء الذين يسمونك أبتر وأقاربهم يدخلون الإسلام في كل يوم وبذلك يؤكدون على صدقه ﷺ ويثبون أن الكفار أباتر ويؤكدون على كون النبي ﷺ صاحب أولاد. فقد أُعطي النبي ﷺ أولاد وأقارب عائلات كبيرة من مكة بمن فيهم عثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة والأرقم بن أبي أرقم، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد ﷺ، وقد آمن كل هؤلاء الناس في أوائل الأيام، وكانوا أولاد وأقارب الزعماء الذين كانوا أشد الناس إيذاء للنبي ﷺ. وبإسلامهم كان الكفار يشتاطون غضبا إذ وقف هؤلاء المؤمنون ضد آبائهم وأجدادهم وأيّدوا محمدا رسول الله (ﷺ). كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه من أقارب الوليد بن المغيرة وفي ذمته. ذات يوم كان عثمان يمر في الطريق إذ رأى مسلما يؤذَى إيذاء شديدا، ولكنه لم يقل لأحد شيئا إلا أنه ذهب إلى الوليد وقال: لا أريد أن أبقى في ذمتك لأني لا أتحمل أن أرى المسلمين الآخرين يُعّذَبون وأنا مأمون في ذمتك. في بعض الأحيان يمتحن الله إيمان المؤمن، فما لبث أن خرج من ذمة الوليد إذ حدث أن أنشد شاعر كبير اسمه لبيد في مجلس الشطر الأول من بيتٍ له: "أَلا كُلُّ شيْءٍ ما خَلا اللَّهَ باطِلُ "، فقال عثمان رضي الله عنه: صدقت. فنظر إليه لبيد غاضبا على أن طفلا صغيرا يشيد بكلامه، وحسِب ذلك إساءة لنفسه وقال: يا أهل مكة! ما كنتم سيئي الأدب إلى هذه الدرجة من قبل، فماذا جرى لكم الآن؟ قالوا: هذا طفل بسيط فلا تهتم به. ولكن الحقيقة أنه كان قد سمع القرآن ولم تعد عنده أدنى أهمية للشعر بعده، بل هكذا تصرّف لبيد أيضا بعد إسلامه. ذات مرة أرسل عمر رضي الله عنه إلى أحد ولاته أن يرسل له أشعارا حديثة للشعراء المعروفين، وعندما طُلب منهم ذلك كتبوا بعض آيات القرآن الكريم.

وعندما أنشد لبيد الشطر الثاني من البيت: "وكلَّ نَعِيمٍ لا مَحالَةَ زَائِلُ"، قال عثمان ﷺ: كذبتَ، بل إن نعيم الجنة لن يزول أبدا. عندها استشاط لبيد غضبا وقال: لقد سبّبتم الإساءة إليّ فوبّخ أحد الحضور عثمانَ ﷺ ولكمه ففقئت عينه. كان الوليد يشاهد هذا المشهد فقال: هل رأيتَ نتيجة خروجك من ذمتي؟ فادخُل في ذمتي مرة ثانية. قال عثمان ﷺ: أي ذمة تتحدث عنها؟ بل إن عيني الثانية أيضا تنتظر أن تُفقأ في سبيل الله. عندما توفّي عثمان قبّله رسول الله ﷺ وجادت عيناه عليه بالدموع. وعندما توفّي ابنه ﷺ إبراهيم قال: إلحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون.[1]

كتاب يحقق نبوءات الكتب السابقة

الإعلان الثاني بحق القرآن هو أن هذا الكتاب يحقق نبوءات الكتب السابقة، فقد جاء في الكتاب المقدس: يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ. (اَلتَّثْنِيَة ١٨ : ١٥) ففي ذلك نبوءة أن النبي القادم لن يكون من بني إسرائيل بل من إخوتهم أي من بني إسماعيل، بمعنى أنه سيكون من أبناء إبراهيم عليه السلام ولن يكون من قوم آخرين، ثم بيّن علامته فقال: فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ، فَهُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ. (اَلتَّثْنِيَة ١٨ : ٢٢)

انظروا الآن، كيف تحقق ما قاله القرآن الكريم، وكيف تحققت نبوءاته. عندما قال الكفار عن رسول الله ﷺ إنه ليس له أولاد، قال الله تعالى: سنرزقه أولادا وننزع أولاد الذين سمّوه أبتر ونسلّمهم إليه. فهذا ما حدث تماما وتحققت هذه النبوءة بكل عظمة.

لقد أنكر المسيح عليه السلام الناصري كونه مصداق هذه النبوءة، فقد ورد في الإنجيل: فَسَأَلُوهُ: إِذًا مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟ فَقَالَ: لَسْتُ أَنَا. أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟ فَأَجَابَ: لاَ. (إِنْجِيلُ يُوحَنَّا ١ : ٢١) كذلك ورد في (سِفر أعمال الرسل، الإصحاح ٣) أن ذلك النبي سيُبعث قبل البعثة الثانية للمسيح وبعد بعثته الأولى، بل جاء أيضا: وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ

---

[1] شرح المواهب اللدنية، المجلد الأول.

أَيْضًا مِنْ صَمُوئِيلَ فَمَا بَعْدَهُ، جَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا، سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِهذِهِ الأَيَّامِ. (أَعْمَالُ الرُّسُلِ ٣ : ٢٤)

هذه النبوءة تحققت في شخص رسول الله ﷺ لأنه كان من إخوته؛ أي من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

كذلك قال إشعيا مشيرًا إلى النبي القادم (*من أورشليم*) فَتَرَى الأُمَمُ بِرَّكِ، وَكُلُّ الْمُلُوكِ مَجْدَكِ، وَتُسَمَّيْنَ بِاسْمٍ جَدِيدٍ يُعَيِّنُهُ فَمُ الرَّبِّ. (إِشَعْيَاءَ ٦٢ : ٢)

ليس في العالم دين سوى الإسلام سماه الله تعالى بنفسه، فيقول تعالى عن الإسلام: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٤).

وإلى جانب النبوءة الأولى ذُكرت النبوءة الثانية *عن أورشليم*: لاَ يُقَالُ بَعْدُ لَكِ: «مَهْجُورَةٌ»، وَلاَ يُقَالُ بَعْدُ لأَرْضِكِ: «مُوحَشَةٌ»، بَلْ تُدْعَيْنَ: «حَفْصِيبَةَ». (إِشَعْيَاءَ ٦٢ : ٤)

هذه النبوءة أيضا تتعلق بالإسلام فيقول الله تعالى عن مكة: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٨).

يقول المسيح الناصري عليه السلام: "إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ذَاكَ يُمَجِّدُنِي.. ". (إِنْجِيلُ يُوحَنَّا ١٦ : ١٢- ١٤)

انظروا كم ذُكرت في هذه العبارة من علاماتٍ لرسول الله ﷺ!

(١) النبي القادم سيعطي تعليما لم يعطه أحد إلى المسيح عليه السلام، أي سيعطي تعليما أفضل من الجميع.

(٢) سيقول كل شيء، أي سيعطي تعليما كاملا. ولن يأتي بعده أحد بتعليم أفضل منه.

(٣) لن يقول شيئا من عنده بل سيأتي بكلام الله.

(٤) سيشمل كلام الله هذا أنباء عن المستقبل.

(٥) إن ذلك الكلام سيبرئ ساحتي (أي ساحة المسيح ﷺ) من تُهَمٍ ألصقها بي الأعداء.

إذن، كل هذه النبوءات تنطبق على رسول الله ﷺ. الأمر الأول الذي قاله المسيح هو إن ذلك النبي سيأتي بتعليم لم يأت به أحد من قبل. يقول القرآن الكريم بهذا الشأن: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي قد عُلِّمتْ بواسطة القرآن الكريم أمورٌ لم يعلمها أحد. الأمر الثاني الذي ذكره المسيح هو: "فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ" يقول القرآن الكريم في هذا الموضوع: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وجاء في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الكهف: ٥٥)، أي قد بيّنا في القرآن كل ما كان ضروريا وبأساليب مختلفة. الأمر الثالث الذي أخبر به المسيح هو: "لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِه". بل سيقدم ما يأمر به الله. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤-٥). أي لا يقول هذا الرسول شيئا من عنده بل يقدم كلام الله فقط. أما الكتب الأخرى فقد حوت كلام الأنبياء أيضا. القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يحتوي على كلام الله فقط. الأمر الخامس الذي قاله المسيح هو إن ذلك الرسول سيبرئ ساحتي من تهمٍ ألصقها بي الأعداء. يعلم الجميع أنه قيل بحق المسيح إنه ولد زنا، والعياذ بالله، أي عُدّ ملعونا، ولكن القرآن الكريم دحض هذه التهم كليا.

تفصيل الكتب السماوية

والآن أبين الأمر الثالث وهو أن القرآن الكريم يشرح ويفصل الكتب السماوية، وقد فصِّلت فيه العلوم الروحانية، وأُكملت. أقدم بهذا الشأن مثالين اثنين، فقد جاء في التوراة: لاَ تُشْفِقْ عَيْنُكَ. نَفْسٌ بِنَفْسٍ. عَيْنٌ بِعَيْنٍ. سِنٌّ بِسِنٍّ. يَدٌ بِيَدٍ. رِجْلٌ بِرِجْلٍ. (اَلتَّثْنِيَة ١٩ : ٢١)

وجاء في الإنجيل التعليم التالي: سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. * وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. * وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. * وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. (إِنْجِيلُ مَتَّى ٥ : ٣٨-٤١)

ولكن القرآن الكريم يقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤١).

لقد ذكرت التوراة جزءا وأهملت جزءا آخر، أما الإنجيل فذكر الجزء الثاني وأهمل الأول، ولكن القرآن أكمل هذا التعليم وقال إن القصاص جائز ولكن من عفا بشرط ألا تزداد السيئةُ كان أجره على الله. أما من عفا وأدّى ذلك إلى تفاقم السيئة، فسيغضب الله عليه لأنه لا يحب الظالمين.

لقد بيّنتُ أحكاما مفصّلة عن الصدقات، والعلاقات بين الرجل والمرأة في خطابي في العام الماضي، وقلتُ إن الأحكام عن هذه الأمور في الكتب السابقة جاءت بإيجاز شديد، ولكن القرآن الكريم بيّن بكل تفصيل الهدف وراء كل حكم وحدود استخدامه.

الكلام المزيّن بالأدلة والبراهين

ميزة القرآن الرابعةُ التي ذُكرت هي: ﴿لَا رَيْبَ فِيْهِ﴾ أي أنه يبيّن كل أمر بدليل ولا يترك مجالا للشك. الشك ينتج عن الإبهام دائما، بينما إعلانات القرآن الكريم مبنية على المشاهدة. وقد قدّمت فيه الأدلة على وجود الله والملائكة والدعاء والنبوة وضرورة الأنبياء، والقضاء والقدر، والقيامة والجنة والجحيم، والصلاة والصوم والحج والزكاة، والمعاملات وغيرها، ولم يدّعِ شيئا جزافا. فمثلا ورد فيه عن الجنة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٧)، لا نقول إنكم ستنالون الجنة بعد الممات، ولا يسعكم أن تقولوا: لا ندري هل سننال الجنة بعد الممات أم لا، بل يُثبت القرآن الكريم وجود الجنة في هذا العالم أيضا وينالها المؤمنون في هذا العالم؛ فقد قدّم الدليل على ذلك إذ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣١)، أي ينال المؤمنون شرف مكالمة الله في هذا العالم، وإذا حظي المرء بكلام الله فأين بقي الريب؟

ظهور صفة الله "رب العالمين" بواسطة القرآن الكريم

ثم ذكر أمرا خامسا أن القرآن الكريم نزل بحالة تتجلى فيها صفة الله "ربّ العالمين"، لأنه قد رُوعيت فيه كل فطرة؛ فبعض الناس يغضبون أكثر، لذا كان ضروريا أن يوجَّهوا إلى العفو، وفي بعضهم تلاحَظ الديوثية وعدم الغيرة فأُعطوا تعليم الغيرة. لم ينتبه الإنجيل إلى هذا الأمر بل ركّز على العفو في كل حال، وأما التوراة فلم تراعِ العفو بل أكدت على المعاقبة في كل الأحوال، ولكن القرآن الكريم اهتم بالناس من كلا النوعين. واهتم بكل زمان أيضا ووجّه الدعوة إلى العالم كله فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩).

إذن، ليس هناك كتاب قبل القرآن الكريم وجّه الدعوة إلى العالم كله، بل أغلقت الكتب السابقة السبُلَ على الأقوام الأخرى. لقد ورد في الإنجيل قول المسيح: لَمْ أُرْسَلْ إِلَّا إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. (إِنْجِيلُ مَتَّى ١٥ : ٢٤)، وورد أيضا: لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَب. (إِنْجِيلُ مَتَّى ١٥ : ٢٦)، أي أن المسيح رفض أن يهدي أحدا سوى بني إسرائيل، ولكن الله تعالى فتح في القرآن الكريم أبواب الإيمان على كل قوم. منها مثلا: (١) صدّق الأنبياءَ كلهم وبذلك أنشأ البشاشة في قلوب الناس جميعا، ولكن إذا تنصّر هندوسيٌّ اضطر إلى القول إن بوذا وكرشنا كاذبان. وإذا دخل مسيحيٌّ الهندوسيةَ اضطر إلى تكذيب موسى وعيسى عليهما السلام. ولكن ما أعظمها من مزية للقرآن الكريم إذ يقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٥٤)، لذلك قال رسول الله ﷺ لجميع الأقوام إنكم لن تضطروا نتيجة الإيمان بي إلى تكذيب أسلافكم الصالحين، بل هم أيضا كانوا صادقين، غير أن الفرق بيني وبينهم هو أن تعليمهم كان كاملا لزمن جاؤوا فيه فقط. أما التعليم الذي جئتُ به فهو كامل لكل زمان.

المفتري يفشل دائما

الدليل الثاني الذي قدمه القرآن الكريم على عدم كون النبي ﷺ مفتريا هو أنه يقول بعد ذكر المفترين: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (هود: ٢١-٢٣)، أي يقولون إن هذا النبي يكذب بينما مفترو الكذب على هذا النحو يواجهون عذاب الله ولا يستطيعون الحيادَ عنه بأي حال بل يظل عذابهم يزداد كل لحظة، ولا يقدرون على أن يسمعوا كلاما صادقا أيضا ناهيك أن يختلقوا كلاما صادقا بأنفسهم، ويحيط بهم العذاب من كل حدب وصوب. وإذا كان هذا هو حالهم في هذه الدنيا فيمكنكم أن تدركوا ماذا عسى أن يكون حالهم يوم القيامة. فقد بيّن الله تعالى هنا أن من علامات المفترين أنهم يواجهون العذاب، ولكن لم ينزل أيّ عذاب على محمد رسول الله ﷺ بل نصره الله تعالى في كل موطن.

علامة المفتري الثانية هي أن عذابه يظل يتفاقم باستمرار، بينما كل ساعة لهذا الرسول خير من سابقتها.

العلامة الثالثة للمفتري هي أنه يضطر إلى تبديل تعليمه، ولكن هل غيّر هذا الرسول شيئا في القرآن في وقت من الأوقات؟ فكيف يمكن أن يكون مفتريا؟

المعنى الصحيح لـ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾

التهمة الأخرى التي توجَّه إلى رسول الله ﷺ هي أنه كان ضالا قبل النبوة، والعياذ بالله، وظلت تصدر منه الذنوب بعد النبوة أيضا. وأُسِّست هذه التهمة على بعض آيات القرآن الكريم نفسه، فمثلا تُقدَّم تأييدا لـ "ضال" الآية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (الضحى: ٨)، وقد جاء الردّ على ذلك في آية أخرى حيث رفض الله تعالى الضلال من النبي ﷺ رفضا باتا، فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا

غَوَى﴾ (النجم: ٣- ٤). أي نقدّم النجم شهادة. والنجم كل نبات لا جذر له. فيقول الله تعالى: نقدّم شهادة هذا النبات -الذي لا جذر له- إذا هوى؛ أي بقدر ما يحاول الارتفاع يسقط بالقدر نفسه. يمكنكم أن تفهموا من هذه الشهادة أن صاحبكم هذا لم يضلّ من حيث الهداية ولم يضلّ الطريق أيضا. الضلال يعطي معنى الضلالة الظاهرية و"غوى" يعطي معنى الفساد الباطني الناتج عن فساد الاعتقاد.

فيقول الله تعالى إنه بقدر ما تمر الأيام على نبتة ليست لها جذور تُضعفها يوما إثر يوم، فلو لم تكن لمحمد رسول الله ﷺ علاقة مع الله تعالى لما كانت جذوره قوية ولضعُف رويدا رويدا، ولتطرق الفساد إليه، ولكنكم ترون أنه كلما تمر الأيام يحرز رسول الله ﷺ قوة إثر قوة، ويتقدم ليل نهار ظاهرا وباطنا. أما لو كان ضالا لنزل عليه كلام فيه الضلال، ولكن انظروا إلى الكلام الذي ينزل عليه، هل تجدون فيه للأهواء النفسانية أدنى أثر؟ إذا كان ﷺ غاويا لحدث فيه تأثير الشيطان، ولكن في كلامه شوكة وقدرة إلهية. أنّى لمن كان على علاقة مع الشيطان أن يسيطر على العالم.

وقد بيّن الله الموضوع نفسه في سورة الضحى: ﴿وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٥) أي كل لحظة من حياتك خير وأفضل من سابقتها. أليس غريبا أنه تعالى قال هنا إن كل لحظة من حياتك خير من سابقتها ثم قال في السورة نفسها إنك كنتَ ضالا؟ هل كون اللحظة التالية خيرا من سابقتها دليل على الضلال؟

وقد جاء في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٥)، كذلك من علامات الصادق أن تعليمه يحرز التقدم وجماعته تزداد عددا. إذن، هذا الرسول الذي ينال التقدم يوما إثر يوم، لو كان ضالا لكانت في تعليمه كله عيوب. ولكن كثرة كلامه تجعل تعليمه كاملا.

ثم قال ﷻ: لو كان غاويا لوُجد في كلامه أثرٌ للشيطان، ولكن كلامه مصداق: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم: ٤-٦).

هناك آية أخرى تحل هذه القضية، فقد جاء في سورة الإسراء: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٤)، يستنتج بعض الناس من هذه الآية معنى خاطئا ويقولون إن معناها: كادوا ليغوونك. ولكن أنّى لهم أن يغووه؟ بل معناها: كادوا يعذِّبونك عذابا شديدا بسبب كلام أوحي إليك، لتُغيّر فيه خائفا مذعورا. ولو فعلتَ ذلك لاتخذوك خليلا ولكن زعمهم هذا ليس إلا جنونا. ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٥)، أي حتى لو لم نُنزل القرآن فإن فطرتك كانت طاهرة لدرجة استحالة إحداثك التغيير في كلام الله، هذا مع أنك تكاد تتشابه معهم (تميل إليهم) قليلا، أما الآن وبعد أن أراك وحي الله تعالى صراطا مستقيما فلم يعد ممكنا أن تتحقق أمنيتهم (إحداث التغيير) أبدا.

السؤال الآن هو: ما معنى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾؟ الجواب على هذا السؤال أيضا موجود في السورة نفسها وهو دليل متين على صدق النبي ﷺ حيث يقول الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: ٢-٤)، أي اسمعوا أيها الناس إننا نقدم الضحى والليل إذا استقر جيدا وانتشرت ظلمته في كل ناحية شهادةً على أننا لم نخذل محمدا (ﷺ) قط، ولم نسخط عليه قط.

هنا ينشأ سؤال: كيف يشكّل الضحى والليل في منتصفه دليلا على أن الله لم يسخط على محمد ﷺ قط ولم يخذله؟ من الواضح أنه ليس المراد هنا هو النهار أو الليل الظاهريان، بل المراد هو النهار والليل المجازيان، وهذا التعبير متداول في كل لغة أن المراد من النهار والليل هو زمن الفرح والحزن، والصحوة والغفلة. الليل تعبير عن الظلام والمصيبة والجهل، أما النهار فيعبَّر به عن زمن التقدم والنور والعلم. فيقول الله تعالى إننا نقدم ساعات الفرح من حياتك ونقدم كذلك ساعات الحزن، ونقدم زمن شبابك وزمن صغرك الذي هو زمن الجهل بوجه عام. ونقدم زمن النبوة والزمن الذي طلعت فيه شمس النبوة وبلغت نصف النهار، وحل بك أيضا زمن حين كنت في

حضن مرضعك ثم أتاك زمن الشباب الذي يُعبّر عنه بزمن الظلام، وقد حل بك زمن فتور العواطف ثم أتاك زمن حين كان أعداؤك منتشرين في كل حدب وصوب وكان النهار أيضا بمنزلة الليل لك. ثم جاء زمان حين كان القوم كلهم يسمونك صادقا وأمينا. تأملْ في تلك الأزمنة كلها، فهل أتاك زمان لم ينصرك الله فيه أو ظهر سخطُه عليك بأي حال؟ بعض الناس يَفسدون في أيام الراحة والعزة، ولكنك حظيتَ بالأمن واحترمك قومُك، وتزوجت بامرأة ثرية، وكسبتَ حينذاك أيضا أعمالا حسنة. ثم حل بك زمان حين أنزل الله عليك كلامه، فكنتَ مطيعا في هذا الوقت أيضا، أي كل لحظة من حياتك كانت أحسن وخيرا من سابقتها وظلت تزداد في حيازة تأييد الله ورضاه.

انظروا الآن، ما أعظم هذا الدليل على صدق النبي ﷺ! من الغريب حقا أن الله تعالى يقول إنه لم تكن في حياته ﷺ كلها لحظة واحدة من الضلال منذ الصغر إلى آخر لحظة حياته ولم يخذله الله قط، ويقول المعارضون الجهلاء إنه كان ضالا. إذا كان هذا هو الضلال، فكل هداية له فداء!

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٥) أي كل خطواتك تنتقل إلى الأمام. يكون الإنسان بريئا من الذنوب في الصغر، ولكن إذا ضلّ النبي ﷺ بعد أن يكبر، والعياذ بالله، لم تكن آخرته خير من الأولى، بينما يقول الله تعالى إن كل لحظة من حياته كانت أفضل من سابقتها. ولما كانت الآخرة خير من الأولى فأين الضلال؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٦)، يجب أن نرى في القرآن الكريم ماذا كانت أمنية رسول الله ﷺ التي يسعد بتحققها. فقد ورد في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٧) إذن، كانت أمنيته الوحيدة أن يؤمن الناس بكلام الله. ويقول الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، أي لقد رأيتَ أننا جعلنا كل لحظة

من حياتك خيرا من سابقتها فكيف نردّ أمنيتك بهداية قومك، فنحن نعلم أمنيتك هذه وسوف نحققها.

ثم قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (الضحى: ٧). أي: لقد وُلدت يا محمد (ﷺ) يتيما فاحتضنك الله تعالى منذ فترة يُتمك، ولم يأتك وقت كنت فيه خارجا من حضن الله. معنى "آوى": بوّأ في القرب. فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. إذا استُنتج من الضلال هنا معنىً حرفيًا (أي ضد الهداية) فهو لا يصح هنا بأي حال. المعنى الصحيح هو أننا وجدنا فيك لوعة حُبّنا فزوّدناك بوسائل هداية العالم. وهذا المعنى تؤيده آية أخرى؛ فحين قال يعقوب ؑ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قال أهل بيته: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (يوسف: ٩٦). أي أن حبك ليوسف لا يكاد يزول من قلبك وما زلتَ أسير حبه القديم. ما كان هؤلاء القائلون يحسبون يعقوب ؑ ضالا بمعنى ضد الهداية، بل كانوا يحسبونه مشغوفا في حب يوسف، لذا فقد استخدموا كلمة "ضلال" بمعنى الحب الشديد. إذن، معنى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ هو أنه عندما بلغتَ مرحلة الشباب ونشأت في قلبك أمنية أنه لن يهدأ بالك دون الوصول إلى الله تعالى، فدعَوتُك فورا أن تعالَ إلي فها أنا موجود. وأنت تعرف يا محمد (ﷺ) أننا هديناك ولم تكن تلك الهداية لنفسك فقط بل كانت للعالم كله، فجاءك الناس ذوو الطبائع المختلفة، فأعطيناك بصورة القرآن الكريم لكفالتهم رزقا كانت فيه الكفاية لكل شخص أيًّا كان طبعه.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، أي وجدناك تعول الكثيرين فأغنيناك. ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ لا تُلق عليهم الآن عبئًا لدرجة تدمّر مواهبهم، ولا تخفف عنهم كثيرا فيفسدوا. ففي هذه الآية أيضا ورد "سائل" مقابل "ضال" وفي ذلك إشارة إلى أن المراد في الآية السابقة أنه ﷺ كان يتحرى حب الله تعالى.

باختصار، يقول الله تعالى إنه إذا جاءك أحد طالبا الهداية فلا ترفض، بل بلِّغ الهداية التي أعطيناكها إلى العالم كله.

لا يمكن أن يكون لكلمة "ضال" معنى إلا الذي ذهبتُ إليه هنا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ويقول في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ١٠٩). فكيف يمكن أن يُستنتج من الضلال معنى ضد الهداية.

كذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، لقد وضّح الله تعالى في هذه الآية بكل جلاء أن الذنب ينتج عن الضلال لا عن الهداية.

حقيقة الذنب والاستغفار

يقال أيضا إن رسول الله ﷺ كان مذنبا، والعياذ بالله، ويقدمون تأييدا لموقفهم هذا كلمة الذنب والاستغفار. ولكن الحق أن الناس بوجه عام لم يفهموا معنى هاتين الكلمتين. معنى الاستغفار هو ستر المشاكل العارضة في السبيل، كذلك معنى الذنب إثمٌ وكلامٌ غير مهمٍّ. فمعنى "غفر" هو ستر، ومعنى الذنب هو الزوائد. عندما تستخدم كلمة الاستغفار بحق النبي ﷺ يكون المراد منها زوال المشاكل الحائلة في سبيله، والمراد من غفران الذنب إزالة الزوائد. فانظروا مثلا فقد ذُكرت في سورة النساء الحربُ أولا ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ (النساء: ١٠٦-١٠٧)، أي يا محمد عندما نعطيك حكومة سيكون هناك بعض الخائنين في أمور الدين، ويسلكون مسلكا معوّجا، فلا تخاصِمهم بل ادعُ الله تعالى أن يزول ضعفهم هذا. وقال سبحانه وتعالى في سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ (غافر: ٥٢)، وذكر في هذه الآية نصرته عز وجل للنبي ﷺ، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (غافر: ٥٦)، وبذلك أمره عز وجل بالاستغفار والتسبيح. وفي سورة محمد أيضا ذكر سبحانه وتعالى الساعة أولا (أي الفتح) ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ (محمد: ٢٠)، وفي سورة النصر أيضا ذكر الفتح أولا ثم قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ (النصر: ٤)، وفي سورة الفتح ذكر سبحانه وتعالى الفتح أولا ثم قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا

لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢-٣). في هذه الآيات كلها ذُكر الاستغفار مقرونا بالفتح، سواء قبل الوعد بالفتح أو بعد ذكر الفتح. في أربع آيات ذُكر الاستغفار مقرونا بوعد الفتح وفي آية ذُكر فتحٌ مبين، وقال هنالك: ﴿لِيَغْفِرَ﴾ والمعنى هو أن أدعيتك قد أُجيبت، وأعطيناك فتحا مبينا - بدلا من فتوحات عادية- ليُغفَر ذنبُك.

يجب التأمل الآن، هل نيل الفتح والنصرة ذنبٌ؟ ولماذا جاءت هذه الكلمة مقرونة بالفتح دائما؟ يتبين من ذلك أن هذا الاستغفار والذنب من نوع آخر. إذا كان المراد هو إثمٌ لكان من المفروض أن يُذكر ذلك الإثم ولكن لم يُذكر أيّ إثم في أي مكان، بل قيل بدلا من ذلك إننا نرزقك فتحا ونصرة فاستغفِرْ. فثبت بكل ما جاء أن له معنى آخر، وهو أن الذين يبايعون نتيجة الفتوحات وهم بمئات الآلاف لا يمكن تربيتهم على ما يرام، وبالنتيجة يمكن أن يبدأ انحطاط القوم من اليوم نفسه. عندما أسلم مئات آلاف الناس وانتشروا في البلد كله كانت تربيتهم مستحيلة. فقال ﷻ إن تربية هذا العدد الهائل كما يجب يفوق قدرة البشر، بل الله وحده القادر على تربيتهم. لذا فادعُ الله تعالى أن يهيّئ أسبابا ووسائل لتربيتهم الحسنة. ثم بشّره ﷺ أننا أجبنا أدعيتك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: ٢-٣) أي أن الفتح الذي نرزقك سيكون فتحا مبينا ويميز بين الحق والباطل، ولن يكون الفتح على الأجسام فقط بل على القلوب أيضا، ولن يدخل الناسُ الإسلام نفاقا بل شوقا في الدين، وأعطيناك هذا الفتح ليتقوى جانب التربية، وهذا ما حدث بالفعل.

فبتوضيح الحق قوّى الله تعالى جانب التربية، وأعطاه ﷺ نُوّابًا صاروا حَفَظَة الدين إلى الأبد. انظروا مثلا، كان هناك وقتٌ حين هرب عكرمة بن أبي جهل من مكة قائلا إنه لا يستطيع العيش حيث يعيش محمد (ﷺ)، ثم جاء وقت حين أسلم عكرمة وصار مسلما مخلصا؛ حيث يُروى أن الأعداء كانوا يقتلون الصحابة واحدا

بعد الآخر في قتال، فقال عكرمة: لا أستطيع أن أتحمل هذا الموقف، فهل من أحد يصحبني لمقاومة العدو؟ فاصطحب بعضَ الناس واستأذن القائد وهاجم قلب جيش العدو الذي كان عدده ستين ألفا فانهزم العدو وفرّوا. لوحظ في هذا الوقت أن عكرمة يلفظ أنفاسه لشدة الجروح، وجيء إليه بالماء نظرا إلى عطشه، فقال: اسقوا صاحبي أولا، وأشار صاحبُه إلى جريح آخر والآخر أشار إلى الثالث. كانوا سبعة شباب وكانوا على وشك لفظِ أنفاسهم لشدة الجروح ولكن لم يشرب أحدهم الماء بل قال كل واحد منهم أن اسقوا صاحبي فلانا قبلي ثم يمكن أن تسقوني. عندما رفض الجميع واحدًا بعد الآخر عاد حامل الماء إلى عكرمة وكان قد لفظ أنفاسه. ثم ذهب إلى الآخرين وكانوا قد استُشهدوا كلهم.

باختصار، لم يرزق الله تعالى رسوله ﷺ فتحا ظاهريا فقط بل وفقه لفتح القلوب أيضا.

المكانة الأسمى لرسول الله ﷺ

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم لا يؤكد فقط على أن رسول الله ﷺ ليس بريئا عن الذنب فقط بل يعُدّه إنسانا عظيما يحتل أسمى مكانة، فيقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٥)، أي لا يقولنّ أحد إن نبينا آثم، وإذا قال الأعداء ذلك فإنهم يهذون فقط إذ نعلم إنه على خُلق عظيم.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ٢)، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، فتستطيعون النجاة نتيجة التأسي بأسوته.

ثم بيّن الله تعالى مكانة أعلى منها أيضا وهي أنه ﷺ يزكّي الآخرين أيضا فقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢)، ثم قال فوق ذلك: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣٢). أي يا من تعترضون عليّ، إن كنتم تريدون أن تصبحوا أحباءَ الله فتعالوا أخبركم السبيل إلى ذلك؛ وهو أن تعملوا مثلما أعمل أنا، عندئذ يجعلكم الله أحباءه.

ثم تقدم خطوة أخرى وقال إن الكلام الذي نزل على محمد رسول الله ﷺ لا نسمح لأحد أن يمسَّه، فهل يمكن أن يكون مَن جاء به غير طاهر؟ فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٨-٨٠)، أي القرآن الكريم كتاب عظيم وقد أنزله الله تعالى منزلا لا يمكن أن يمسّه نجس، ولا يمسه إلا مطهَّر فقط، فالذي نزل عليه هذا الكلام كيف يمكنكم أن تسموه غير طاهر؟

ثم قال: لقد أعطيناه كتابا لن يقدر على المساس به أحد اليوم ولن يقدر على ذلك في المستقبل أيضا، وذلك لأنه: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ *كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٦-١٧)، أي سيبقى في أيدي أناس سيختارون أسفارا طويلة وهم محترمون جدا وصالحون من الدرجة العليا.

لا يمكنني في هذا الوقت إلا تناول اعتراضين فقط، وذلك بإيجاز شديد. والآن أدعو الله تعالى أن يورث الإخوة الذين اشتركوا في الجلسة نِعمه، وينزل رحمته على الذين ساهموا في ضيافتهم رجالا ونساء وصغارا وكبارا. ويُنزل رحمته أيضا على الذين كانت قلوبهم مشتركة في الجلسة وإن لم يتمكنوا من الاشتراك فيها جسديا، ويوفق جميع أفراد الجماعة أن يبلّغوا إلى العالم النور والصدق الذي نالوهما، ويجعل المخطئين منهم صالحين ويقوّي الضعفاء من أفراد الجماعة، ويشفي المرضى ويوفق المدينين لتسديد الديون، ومن كان في إيمانه ضعفٌ فندعوه ﷻ أن يزيل ضعفه، ويؤيد الدعاة في جماعتنا وينصرهم، وأن تحفظهم ملائكة الله ويكونوا أحباء الله، ويبارك الله في كلامهم وأفكارهم. وأن يشارك الله في بركات الجلسة كل فرد من أفراد الجماعة حيثما كانوا. ويشرح قلوب الناس جميعا بمن فيهم الهندوس والسيخ والنصارى والملحدون ليصبحوا أبناء آدم ويعيشوا كالإخوة.

كما أتمنى من الإخوة أن يعملوا بما سمعوه في الجلسة. أنا أدعو لهم وسأظل أدعو، وأرجو من الإخوة أيضا أن يدعوا الله تعالى ليوفقني لأداء واجباتي ويجعلني ناجحا في أداء المسؤولية التي كلّفني بها. هذا عبء كبير، ولا يمكن لأحد أن يحمله بغير نصرة

الله وعونه. هذه مسؤولية جسيمة وفيها أخطار كثيرة. نسأل الله رحمته ليبشرني عند مثولي أمامه – إذ لا يمكنني أن أقول شيئا– بأني قد أديتُ واجبي.

أدعو للإخوة مرة أخرى أن يجعلهم الله كاملين في الإيمان ويوفقهم لأداء واجباتهم، وأن نكون جماعة يرضى بنا ربنا ونرضى به، آمين.

فضائل القرآن (٥)

نبوءات الأنبياء السابقين
عن بعثة رسول الله ﷺ
وخمسة إصلاحات قام بها القرآن الكريم

(خطاب أُلقي في ١٩٣٢/١٢/٢٨م
بمناسبة الجلسة السنوية في قاديان)

بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة قرأ رضي الله عنه الآيات التالية من سورة الأعراف:

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٩)

بعد محاضراتي البارحة كان حلقي على ما يرام إلى المساء ولكن بعد اللقاءات ليلا بُحّ صوتي، وقرب الساعة الثانية عشرة ليلا أصبتُ بنوبة برد وبدأت أشعر بالصعوبة في الكلام. وعندما انتهت سلسلة اللقاءات بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل كان صوتي قد بُحّ إلى حد كبير، لذا لا أستطيع أن أتكلم الآن بصوت عال، ولكنني أتوقع من فضل الله تعالى أن الصوت سيعلو بعد قليل بعد أن يسخن حلقي قليلا. من الممكن ألا تصل بعض أجزاء خطابي إلى بعض الإخوة في البداية ولكن أرجو منهم أن يصبروا و يأملوا من الله تعالى -ما داموا قد جاءوا من مسافات بعيدة لسماع كلمات الحق، وما دمتُ قد قمتُ متوكلا على الله وراجيا منه أن يوفقني لأقول الحق- أنه سيرحمني وإياكم وسيوفقني للخطاب وسيوفقكم للسماع.

أهمية المجالس الدينية

أقول متأسفا إن بعض الإخوة، وإن كان عددهم قليلا جدا، يخرجون من المجلس ويتمشون في الخارج رغم إسداء النصح لهم. مما لا شك فيه أن في كل جماعة بعض المرائين ويخرجون من المجلس بعد أن يبرزوا أنفسهم فيه. لقد ورد في القرآن الكريم أن بعض المرائين من هذا القبيل كانوا في زمن النبي ﷺ أيضا، فكانوا يأتون عند انعقاد المجلس -لأنه في بداية المجلس يقع النظر على كل واحد- فكان الصحابة يرونهم، وحين تبدأ الفعاليات يتسللون لواذا. يقول الله تعالى عن هؤلاء الناس: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ (النور: ٦٤).

فقد يكون هنا أيضا المراؤون من هذا النوع ولكن هناك كثيرون لا يدركون أهمية هذا الموضوع، ولا يعلمون كيفية فعلهم هذا. لقد جاء في الأحاديث ما مفاده: ذات مرة قال النبي ﷺ في أثناء الخطاب إن الله تعالى أخبره أن شخصا جاء إلى هذا المجلس ورأى المكان مكتظًا بالناس، ولم يصِل إليه الصوت إلا بالكاد، ولكنه قرر ألا يخرج من المجلس لأن فيه يُذكر اسم الله، فجلس استحياء. فقال الله، سأغض الطرف عن ذنوبه، ولن أؤاخذه بها. ثم جاء شخص آخر ووجد أنه لا مكان

للجلوس فيه، ولكنه بحث عن مكان هنا وهناك وجلس في مكان حيث أمكن له سماع الصوت، فقال الله تعالى: كما تقدّم هذا الرجل جاهدا كذلك سأفسح له مكانا في قربي. ثم أخبره الله عن شخص ثالث أنه جاء ووجد أن الصوت لا يصله فانصرف، فقال الله تعالى: لقد انصرف هذا الشخص من مجلس ذكر الله وسأصرف وجهي عنه ولن أفتح له أبواب الرحمة.[١]

باختصار، إن لمجالس ذكر الله آدابا. الذين كان في قلوبهم مرض لم يستطع النبي ﷺ أيضا أن يعالجهم، واكتفى بالقول إن شخصا جاء وانصرف. فلما لم يستطع رسول الله ﷺ أن يعالج ذا قلب مريض فأنى لنا أن نفعل. ولكن بعض الناس يواجهون موقفا محرجا على حين غرة منهم، إذ لا يعرفون ماذا عسى أن تكون نتيجة فعلهم. يقول النبي ﷺ: عندما يُعقد مجلس ذكر الله ينزل ملائكة الله برحمته تعالى حتى نهاية المجلس. إن مَثل مجلس ذكر الله كمثل بلاط الملك، فإذا كان الخارج من بلاط الملك مجرما فكيف لا يكون الخارج من مجلس ذكر الله مجرما؟ لذلك أمر النبي ﷺ الناسَ أن يظلوا جالسين في المجلس، إلا إذا اضطر أحد للخروج فليفعل بعد الاستئذان. إن استئذان الناس في مجلس كهذا- الذي يضم من ١٥ إلى ٢٥ ألف نسمة- هو أمرٌ صعب. ولكنني أقول مؤكدا إن الذين يخرجون مضطرين فليعودوا فورا بعد قضاء حاجتهم، وليعلموا أن جلوسهم في المجلس ليس بلا جدوى، لأنهم أولا لو التزموا بما سمعوه في المجلس لكان وسيلة نجاتهم، وإن لم يفهموا بعض ما قيل فيه فمع ذلك إن الجلوس في المجلس حسنةٌ. نريد أن يعلم كل أحمدي ترجمة معاني القرآن الكريم، ولكن هناك الكثيرون لا يعرفونها. لا شك أن الذين يقرأونه دون أن يعرفوا ترجمة معانيه يُثابون أيضا. وإن لم يصل الصوت إلى المرء في هذا المجلس أو فهم مضمون المحاضرة أو لم يفهم فلسوف يُثاب على الجلوس في المجلس على أية حال.

---

[١] صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس...

وأقول الآن إن موضوع محاضرتي اليوم استمرارٌ لموضوع لا أزال أتناوله منذ أربع سنين بفضل الله تعالى. أي موضوع خطابي اليوم هو القسط الخامس لموضوع: فضائل القرآن. هناك مواضيع واسعة جدا كسعة موضوع وجود الله تعالى لدرجة أنّ الكلام فيه لا يتكرر مهما أكثرنا بيانه. كذلك إن موضوع فضائل القرآن أيضا لا يتكرر، لأن معارف كلام الله تعالى لن تنتهي ولو استمر العالم كله في بيانها إلى يوم القيامة.

المحاضرات التي ألقيتها في السنين الماضية حول هذا الموضوع لم تُنشر إلى الآن لأنني أود أن تُنشر كلها في مجلد واحد ليجد الإخوة سهولة ويسرا عند المقارنة بين القرآن الكريم وكتب الأديان الأخرى الإلهامية، ولنتمكّن من المساهمة في تحقيق أمنية المسيح الموعود عليه السلام لإكمال البراهين الأحمدية.

الفائدة من المحاضرات العلمية

قال لي بعض الإخوة إن عامة الناس لا يفهمون محاضرتك العلمية بمناسبة الجلسة، وكثير منهم يجلسون فيها بنية التبرُّك فقط. والجواب الأول على قولهم هو أنهم إذا كانوا يجلسون بنية التبرك ويبارك الله لهم فما الذي يُحرجكم في ذلك؟ هذه هي الغاية من المجيء إلى هنا، فإذا تحققت هذه البُغية فقد تحقق المراد سواء أفهموا المحاضرة أم لا. فيجب ألا تنشأ لدى أحد شكوى تجاه هذا الموقف. خذوا مثلا أنه إذا أدخل اللهُ مذنبا الجنة بدون سؤال فهل يرفض دخولها؟ كلا! بل سيجري إليها فورا. كذلك إن نال المرء ثوابًا بمجرد الجلوس في المحاضرة فما مجال الشكوى من ذلك سواء أفهم ما قيل في المحاضرة أم لم يفهم. غير أنني أرى أن القول المذكور خاطئ لأن الله قد أبلغ أذهان أفراد جماعتنا درجة عليا، وقد استغربت كثيرا حين سمعتُ من أخ أحمدي أن بعض الناس لا يفهمون المحاضرة. قبل بضعة أيام قال أحد زعماء المؤتمر الهندوسي: "المسلمون جهّال وليسوا مثقفين بما فيه الكفاية، لذا إن التحكم فيهم ليس سهلا. ولقد حدث أول مرة في تاريخ العالم أن زمام الحكم يكاد يُعطى في يد فئة غير مثقفة". فكتبت الجريدة اليومية "الخلافة" الناطقة باسم

لجنة الخلافة المركزية معلّقة على قوله: "لو لم يُفحِم سائقُ عربة حصان من قرية صغيرة مثل قاديان الحائزين على شهادة بكالوريوس من كلية "خالصة" وكلية "ديانند" لكنا مخطئين في طلبنا هذا، وفي هذه الحالة لن يطلب المسلمون حرية الإقليم أبدا".

فإذا كان سائق عربة حصان في قاديان مثقفا إلى هذه الدرجة في رأي المعارضين، أفليس غريبا أن يقول أحد من أفراد جماعتنا إن الأحمديين لا يقدرون على فهم محاضرتي؟ الحق أنهم يفهمون محاضراتي جيدا ولكن القائلين إن بعض الأحمديين لا يفهمون المحاضرة لم يقدّروا مواهب إخوتهم. فقد أحسنوا الظن بأنفسهم أنهم يفهمون المحاضرة ولكن أساؤوا الظن بغيرهم وقالوا إنهم لا يفهمونها مع أن المؤمنين بالأنبياء، وإن جهلوا العلوم المتداولة، يفهمون الأمور الدينية جيدا لأنهم يوهَبون علوما سماوية. يقول المسيح الموعود ﷺ ما مفاده: لقد جئت بمعجزات سماوية متجددة وأقدم مشاهدتي الشخصية، ولكن الآخرين يقدمون قصصا وحكايات. كذلك إن جماعته ﷺ حائزة على المشاهدة في العلوم الروحانية، وكل أحمدي ينال علما جديدا يوم إيمانه بالمسيح الموعود ﷺ. والله تعالى بنفسه يعلّم الأحمديين ردودا على الاعتراضات من كل نوع. فمثلا لو استهزأ أحد لنال الجواب فورا. يروي المولوي غلام رسول الراجيكي أنه كان يناظر ذات مرة شيخا من الخصوم، وفي هذه الأثناء أُرسل أحد الأحمديين إلى ذلك الشيخ بورقة صغيرة، وظن الشيخ أن حامل الورقة غير مثقف وسوف يتغلب عليه بسهولة. فقال للأحمدي واضعا ذلك في الحسبان: جاء في القرآن الكريم عن عيسى ﷺ: ﴿رافِعُكَ إِلَيّ﴾ وهذا يعني أنه لا يمكن أن يموت. قال الأحمدي: ما هي العلامة تحت "ف" في ﴿رافِعُكَ﴾ قال الشيخ: تحته "جر". قال الأحمدي: من الممكن أن ترفعه كلمة ﴿رافِعُكَ﴾ إلى الأعلى ولكن الجر تحت "ف" يجره إلى الأسفل ولا يسمح له بالصعود. فلزم الشيخ الصمت. باختصار، الأسلوب الذي يعترض به معارض يفهّم الله تعالى الأحمديين لإفشاله ردا بالأسلوب نفسه. فيرد الأحمديون غير الملمّين بالعلوم الظاهرية تماما ردودا جميلة لا يسع

المعارضين إلا أن يلزموا الصمت. كان عند المسيح الموعود عليه السلام خادم اسمه "بِيران دِتّا"، وكان فهْمه وعقله عاديا جدا، لكن بقاءه في صحبة المسيح الموعود عليه السلام أثّر فيه بشدة. ذهب ذات يوم إلى "بطالة" لإرسال البرقية. كان المولوي محمد حسين البطالوي في ذلك الزمن يمنع الناس من المجيء إلى قاديان، وذات مرة رأى المولويُّ محمد حسين هذا الخادم وأمسك به وقال: أين ذهبتَ؟ ماذا وجدتَ هنالك؟ يجب ألا تبقى هناك، وقال كلاما كثيرا من هذا القبيل. قال الخادم: أنا لست مثقفا كثيرا ولا أعرف تفاصيل القضية، ولكنني أعلم شيئا واحدا وهو أن المرزا المحترم جالس في بيته والناس يأتونه من مسافات بعيدة، ويصِلُون إليه بعد تكبّد مشقة السفر في عربات الأحصنة، أما أنت فتسعى جاهدا وتتجول هنا وهناك ولا يتوجه إليك أحد. أقول: هذا دليل علمي قدمه على صدق مبعوث من الله شخص جاهل لدرجة أنه كان يشتري الكيروسين ببضع مليمات ويصبه في طبيخه ويأكل دون أن يعرف ماذا يفعل. ما كان يعرف تعابير علمية ولكن ما قاله كان دليلا علميا، أي أن نصرة الله تحالف حضرة المرزا وأنت تصيبك اللعنة فقط.

باختصار، عندما يدخل أحد في جماعة ربانية يُشحَّذ عقله فيفهم أدق معارف الروحانية بكل سهولة. والأقوام الذين يقولون إننا لا نستطيع أن نفهم أمورا من نوع كذا وكذا تنحط عقولهم ويعجزون عن فهم أمور بسيطة أيضا. ولكن الذين تُبيِّنُ أمامهم نكات روحانية وعلمية ويحاولون فهمها تنشأ في غير الفاهمين منهم أيضا مواهب حتى يبدأون بفهمها رويدا رويدا. فلا يخطر ببالي عند إلقائي محاضرة علمية حتى أمام الفلاحين الأحمديين أنهم لن يفهموها، ولكن مقابل ذلك أخشى عند إلقاء محاضرة علمية على طلاب الكليات من غير الأحمديين أنهم قد لا يفهمون كلامي. والسبب في ذلك أن الأحمديين معتادون على سماع محاضرات علمية وروحانية، بينما الآخرون ليسوا متعودين على سماع أمور دينية. للتعوُّد على سماع أمور دينية، أمر النبي ﷺ برفع الأذان في أذنَيْ الوليد فور ولادته. فإذا كان ممكنا أن

تنشأ موهبة فهم الأمور الدينية على هذا النحو في ولد صغير فكيف لا يفهمها الأحمديون ببيان الأمور العلمية أمامهم؟

الحق أن الناس بأنفسهم جعلوا العلوم صعبة. قد هيأ الله تعالى علوما لكل شخص، وأودع الناس -أيًّا كان مستواهم- موهبة لفهمها سواء كانوا فلاحين أو يقومون بأعمال علمية. لو لم يُعقِّد الناسُ العلومَ بأنفسهم لما تعذر فهمها على أحد. عندما يقول أحد إن كذا وكذا ثابت من دليل الاستقراء يقول كثير من الناس: ما أدرانا ما دليل الاستقراء؟ ولكن إذا قيل: هل ظل آباؤكم يموتون كابرا عن كابر أم لا؟ سيفهم الأمر كل شخص.

باختصار، إن الله لم يجعل أيّ علم معقّدا، بل الناس يجعلونه كذلك نتيجة انتقاء الكلمات. وإن لم يفهم الناس محاضرتي فأنا المخطئ في ذلك لأني لم أستخدم كلمات سهلة الفهم لهم، وإلا ليس في القرآن الكريم مضمون لا يقدر المرء على فهمه. فسأحاول أن ألقي المحاضرة بكلمات سهلة، ولكن بعض الكلمات الصعبة تخرج من اللسان عند تسلسل الكلام ولكنها لا تفسد الموضوع.

الدليل التاسع على أفضلية القرآن الكريم

لقد بيّنتُ إلى الآن ثمانية أدلة على أفضلية القرآن الكريم، واليوم سأقدم الدليل التاسع.

الدليل التاسع على أفضلية القرآن الكريم على الكتب الإلهامية السابقة والفلسفات الأخرى هو أنه يوضح الأخطاء الواردة في كتب الأديان الأخرى الإلهامية والفلسفات الدينية كلها، ولا يكتفي بإيضاحها فقط بل يصححها أيضا. من الواضح أن الذي يستخرج خطأ يكون أفضل من المخطئ. ومستخرج الخطأ يكون أستاذا وبارعا في المجال المعني. إن أفضلية القرآن الكريم التي ستتحقق من خلال هذا الدليل سوف تثبت على الكتب الإلهامية الحالية والأديان المعاصرة، لأنه من الممكن جدا أن الخطأ الذي يستخرجه القرآن الكريم قد لا يكون موجودا في

الكتاب الأصلي بل أُضيف إليه فيما بعد. أو قد لا يكون ذلك الأمر موجودا في ذلك الدين بل نسبه الناس إليه فيما بعد، لأن جميع الأديان جاءت من الله تعالى فلا يمكن أن يكون فيها أمر خاطئ وكاذب من الله تعالى. فكلما وصف القرآن الكريم كتابا سابقا بأنه غير مكتمل يكون المراد من ذلك أن الكتب السابقة لم تكن على هذه الحال في وقتها، وكلما قال إن فيها خطأ كذا وكذا يكون المراد منه أن الله تعالى لم يقله. وحين يذكر أخطاء الفلسفة يكون المراد أن الناس اختلقوا تلك الأمور بعقولهم، وهي خاطئة.

لقد قلت إن أخطاء الكتب السابقة التي ذكرها القرآن الكريم لم تكن موجوده فيها في حالتها الأصلية. ومن هذه الناحية أيضا يثبت القرآن الكريم أنه أفضل منها، لأنها محرَّفة ومبدَّلة في حالتها الراهنة. ولكنها ما دامت موجودة أمام العالم في حالتها الحالية ويعمل بها الناس ويتضررون، لذا فإن أفضلية القرآن الكريم ثابتة على أية حال لأن الناس بواسطته يطّلعون على أخطاء الكتب السابقة. ويثبت أيضا أنه ما من كتاب جدير بالعمل الآن سوى القرآن الكريم. لقد ادّعى القرآن الكريم ذلك بنفسه وقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٦٤-٦٥).

إعلانات القرآن الكريم الستة

لقد قدّم الله تعالى في هاتين الآيتين ستة ادعاءات. الأول: جاء الأنبياء قبل رسول الله ﷺ أيضا، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾. الثاني: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي فسدت الأمم بعد ذلك وجعلوا التعاليم التي أُعطوها معيبة، وبدأ الناس يرون أهواءهم النفسانية حسنة.

من طبيعة الإنسان أنه يرتكب السيئة أولا ثم يأتي بأدلة تؤيدها. كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول إنه سأل ذات مرة سارقا: ألم تستحِ مرة عند

السرقة؟ قال: الحق أن المالَ الحلال هو ما نكسبه نحن، إذ نخاطر بأنفسنا للحصول على المال، وما دمنا نتكبد كثيرا من المشقة والجهد لذا فإن ما نحصل عليه هو حلال لنا. يتبين من ذلك أن السارقين أيضا يقدمون الدليل على جواز سرقتهم.

باختصار، الإنسان يرتكب السيئة أولا ثم يخترع أدلة على جوازها. الحق أن الله تعالى أودع فطرة الإنسان حِسًّا يلومه على ارتكابه فعلا سيئا. وما دام الإنسان لا يقدر على تحمُّل اللوم في كل وقت لذا يختلق أدلة ليُجيز فعله. يقول الله تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي عندما يعتاد الناس على فعل سيء يحسبونه حسنا.

الادعاء الثالث هو: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾. أي أن هذه السلسلة لم تنته بعد بل تجد اليوم أيضا الأقوامَ كلها في الحالة نفسها ولا يزال تأثير هذا العمل الشيطاني ولعنته ملحوظة عليهم لأن الفساد الذي يطلّ برأسه مرة لا يمكن لأحد أن يزيله سوى الله تعالى.

الادعاء الرابع هو: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي لأنهم مهددون بالوقوع في الجحيم بسبب هذا العيب، لذا تريد رحمة الله أن تسعفهم.

الأمر الخامس المذكور هو: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. أي كان ضروريا في هذه الحالة أن يُفتح باب رحمة الله. عندما ضلّ عباد الله وفسدت الكتب السابقة فتح الله باب رحمته. فيا رسول الله، قد أنزل الله عليك كتابه لتطلعهم على تعليم حقيقي ليزول الفساد، ولكنهم خالفوه وضلّوا الطريق.

الأمر السادس هو: لم يكتفِ الله بإزالة الفساد فقط بل بيّن في هذا الكتاب أمورا إضافية أيضا، ولم يكتف ببيان أخطاء الكتب والفلسفات السابقة بل جاء أيضا بأمور لم تخطر ببال الفلاسفة السابقين. وهي نوعان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أحدهما هدى والآخر رحمة. الهداية تعني وسائل الارتقاء الذهني والعقلي. والرحمةُ تعني وسائل الراحة والهناء والارتقاء العملي. فهذا يعني أن القرآن الكريم لا يشمل وسائل الارتقاء الذهني فقط بل فيه وسائل الارتقاء العلمي أيضا. والأديان

والفلسفات كلها تسعى للحصول على هذين الأمرين فقط، وكلاهما موجود في القرآن الكريم، ففيه هُدى ورحمة.

القرآن الكريم هو الفرقان

الآية الثانية التي تدل على هذا الموضوع هي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٢). للفرقان عدة معانٍ ولكنني سأذكر فقط المعنيين اللذين ينطبقان هنا. الأول: كل ما يفرّق بين الحق والباطل. الثاني: الصبح والسَّحَر. يقول الله تعالى: يمكن التمييز بين الحق والباطل بواسطة هذا الكتاب. وثانيا إننا جعلناه مثل فلق الصبح، بمعنى أنه عندما ينبلج الصبح تظهر للعيان حقيقة كل شيء. كذلك أظهر هذا الكتابُ الحقيقةَ. فمن منظور هذا المعنى يكون معنى الآية: (١) تبارك الله الذي أنزل على عبده كلاما يميز بين الحق والباطل. (٢) تبارك الذي أنزل على عبده كلاما ترى في ضوئه جميعُ الفلسفاتِ عيوبها وتشرع في إصلاحها. كما يتراءى عيب كل بيت عند انبلاج الصباح كذلك في ضوء القرآن سيرى أصحاب الأديان كلها ما عندهم من العيوب ويشرعون في إصلاحها.

باختصار، لقد قدِّمت في القرآن الكريم أدلة تميز بين الحق والباطل، وقدِّمت التعليمات الصحيحة بأسلوب أظهر على الناس نقاط ضعف أديانهم تلقائيا، وبدأوا بسترها.

براءة أقوام العالم من الشرك

انظروا الآن كيف تحقق هذان الأمران. سأذكر أحدهما بالتفصيل لاحقا، أما القول إن الناس يبدأون بإصلاح عيوبهم عند انفلاق الصبح فيتبين صدقه من حقيقة أن الأقوام كلها كانت متورطة في الشرك عند بعثة رسول الله ﷺ. كان اليهود قد اتخذوا "عزيرا" ابن الله، مع أن لديهم تعليم الإيمان بإله واحد. كذلك كانت الزرادشتية مؤسسة على وحدانية الله، ومع ذلك فسد أتباعها واتخذوا إلهين اثنين. واتخذ الهندوس ٣٣٠ مليون إله. أما البوذية في الصين فقد اتخذت إلها منفصلا لكل

شيء. فمثلا كان هناك إله للخشب، وإذا صُنعت من الخشب طاولة صار لها إله منفصل. فبُعث النبي ﷺ في هذا الوقت وعلّم أن هناك إلها واحدا فقط. كان الناس حينذاك قد ابتعدوا عن التوحيد كثيرا فضحكوا على هذا الكلام، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ (ص: ٦). ولما لم يكن ممكنا أن يخطر ببالهم أن الإله واحد فكانوا يزعمون أن رسول الله ﷺ قد ضم آلهة كثيرة في إله واحد، ورأوا تقديم عقيدة إله واحد حمقا، فكأنهم كانوا يرون تقديم الاعتقاد بإله واحد حمقا. كذلك كان النصارى يعتزّون باعتقادهم بثلاثة آلهة. باختصار، كانت الأقوام كلها متورطة في الشرك. ولكن بعد انتشار نور القرآن الكريم آلت الحالة إلى أن مسيحيا يهُبُّ اليوم ويقول: لا يقدم التوحيد الخالص أيّ كتاب سوى الإنجيل، ولا يشعر عند قوله هذا بكِبَرِ الكذب الذي يتفوه به! إذن، كان الناس من قبلُ يضحكون على النبي ﷺ على تقديمه عقيدة التوحيد، أما الآن حين طلعت الشمس فقد ظهر سواد وجوههم وبدأوا يغسلونه. كان الهندوس قد اتخذوا ٣٣٠ مليون إلها وكانوا ساخطين على السلطان محمود الغزنوي بسبب كسره أصنامهم. أما الآن فترى الهندوس أنفسهم يكسرونها هنا وهناك لأن شمس القرآن قد طلعت وعلموا أن الوثنية اعتقاد سيء. خذوا أيّ قوم فتجدونهم يخالفون أفكار الشرك. فما أعظم هذا الدليل على كون القرآن فرقانا! يمكن تقديم عشرات الأدلة حول هذا الموضوع ولكنني لا أريد الإسهاب فيه لأنه أمر ثانوي. على أية حال؛ الحقيقة هي أنه لم يكن هناك دين من بين اليهودية والنصرانية والمجوسية والهندوسية وغيرها إلا وكان أهله مشركون في البداية، ولكنهم غيّروا اعتقادهم بعد نزول القرآن الكريم. هذا أمر بديهي لدرجة أنه يكفي وحده أي عاقل دليلا على الأفضلية.

باختصار، أُعلن في هذه الآية أنه قد استُخرجت بواسطة القرآن الكريم أخطاء كل دين وملّة وكل فلسفة وفكرٍ وأُعطي مقابلها تعليم صادق. ثم يقول الله تعالى إن حدوث ذلك كان ضروريا. ولا يصح القول: ماذا كانت حاجته إلى استخراج

أخطاء الآخرين، بل كان يكفيه أن يقدم تعليمه؟ يقول الله تعالى إن ذلك كان ضروريا: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، أي قد أنزلنا القرآن للعالم كله، فهو ليس موجَّها إلى اليهود أو إلى النصارى أو إلى الهندوس فقط، وهو ليس لأهل الأديان فقط بل موجَّه إلى أصحاب الفلسفات أيضا. وما لم تتم الحجة لا يمكن أن يكون نذيرا. فكان ضروريا بواسطته تدارك الأديان الباطلة والفلسفات الباطلة وإزالة الأوهام الباطلة والوساس كلها، وإلا لما جاز إرساله إلى العالم كله.

انظروا الآن، ما أعظم هذا الإعلان الذي قام به القرآن! لا يسع كتابا آخر أن يعلن ما أعلنه القرآن الكريم. بل الحق أنه لا يمكن لأحد أن يعلنه ما لم يتحلّ بست مزايا. الأولى: أن يكون مطّلعا على جميع الكتب. وعندما لا يعرف أحد عن الفيدا والدساتير فكيف له أن يستخرج أخطاءهما؟ كذلك إن لم يطّلع على أفكار الفلاسفة أنى له أن يدحضها؟ فلا يمكن أن يدّعي ذلك إلا من كانت لديه مكتبة كاملة تشمل كتب أديان العالم كلها وكتب الفلاسفة كلهم. ولكن المكتبة مثلها لم تكن موجودة عند رسول الله ﷺ بل لم يعلم عن عشرات الأديان شيئا.

الميزة الثانية التي يجب أن يتحلى بها هذا المدّعي هي أن يكون قادرا أيضا على العثور على الأخطاء، وكانت لديه معلومات تشمل مضامين الكتب كلها. لم يكن لرسول الله ﷺ أن يدّعي ذلك لأنه لم تكن لديه كتب أديان العالم، فلا ينشأ سؤال قراءته إياها.

الميزة الثالثة المطلوبة هي أن يكون مطّلعا على كافة أنواع الفلسفات.

والميزة الرابعة المطلوبة هي أن يكون لديه إلمام بكافة أنواع الأوهام والوساوس، لأنه قد أُعلن أن القرآن الكريم يدحض الوساوس أيضا، وليس بوسع إنسان أن يعثر على وساوس الناس. فلا يسع بشرا أن يدّعي أنه قادر على إزالة وساوس الناس ما لم يكن مطّلعا على أفكارهم جميعا. والمعلوم أن الاطلاع عليها يفوق قدرة البشر.

وخامسًا لو فرضنا جدلا أن أحدا اطلع على كافة أنواع الأوهام والوساوس وما شابهها، فمع ذلك لن يقدر على دحضها ما لم يكن قادرا على الرد أصلاً. لذا يجب أن يتحلى المدّعي بميزة خامسة وهي قدرته على الرد على كل اعتراض.

والميزة السادسة المطلوبة هي أن يردّ في كتاب صغير مثل القرآن الكريم على أخطاء الكتب كلها، ويبين جميع الأمور الحسنة. يعترف المسيحيون أن القرآن الكريم أقل حجما من الكتاب المقدس، ومع ذلك لم يرد في الكتاب المقدس ادعاءٌ إلا أن الله محبة. هذه الميزات الست لا توجد إلا في الله تعالى. والله تعالى وحده يعلم كم يوجد في العالم من الأديان والفلسفات، ونظره الدقيق فقط يصل إلى أدق الأمور، وهو وحده يرى أوهام البشر ووساوسهم. وهو وحده قادر على أن يدحض الأمور الخاطئة كلها، ويذكر كل شيء في كتاب صغير. إذن، لا يمكن أن يعلن ذلك إلا كتاب الله، كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد﴾ (ق: ١٧). في الآية المذكورة سابقا جاء الادعاء عن استخراج أخطاء أتباع الكتب الدينية، أما في هذه الآية فقد أعلن عن بيان أخطاء الناس كافة سواء كانت لهم علاقة بالكتب الدينية أو كانت أفكارهم مبنية على الأدلة العقلية فقط. الكتب الأخرى لم تقدر حتى على بيان الاعتراضات التي تطل برأسها ضد الدين، ناهيك أن تدّعي الرد عليها.

التحدي للعالم

هذا إعلان عظيم لدرجة أنْ أراه وحده يستطيع إثبات أفضلية القرآن الكريم، وإن اختبار مصداقيته أيضا سهل جدا. فليقدم الناس بعض الاعتراضات الغريبة عن الدين ثم لينظروا هل الردُّ عليها موجود في القرآن الكريم أم لا. وقد سبق أن تحديثُ العالم كله أن يعترضوا على الدين كما يحلو لهم وأنا مستعد للرد على كافة اعتراضاتهم من القرآن الكريم نفسه. فلينشروا اعتراضاتهم في كتاب وسأفرض على نفسي أن أردّ

عليها من القرآن الكريم حصرا. وإن لم أستطع يمكنهم أن يقولوا إن قولك بأن القرآن الكريم ردّ على كل اعتراض باطل. ولكنني واثق من أنه إذا استعد أحد لهذا الاختبار سيجعلني الله تعالى ناجحا فيه. لقد علّمني ملائكة الله سورة الفاتحة التي هي أصل القرآن الكريم وأطلعوني على معارفها. وإنني موقن بأنه ما دام ملائكة الله، منزِّل القرآن، علموني سورة الفاتحة ومعارفها وقال لي الملاك أيضا إنه علّمني ما لا يعرفه أحد. فلا يمكن أن يأتي معارض باعتراض لا أستطيع الرد عليه من القرآن الكريم فقط. لذا أتحدى مرة أخرى معارضي الإسلام كافة أن يطرحوا شيئا معاديا وسأردّ عليه مبدئيا من القرآن الكريم فقط. قبل بضعة أيام جاءني شخص وقال: أريد أن أسألك بعض الأمور الدينية، قلت: تفضل بكل سرور. قال: هل يصدّق القرآن الكريم ادعاء المرزا المحترم؟ قلت: نعم. قال: أخبِرني عن آيةٍ تصدِّقه؟ قلت: القرآن كله يصدقه. قال: كيف ذلك؟ قلت: هذا ما أراه أنا، ولكن يمكنك أن تقرأ أي آية تشاء وسأثبت صدقه منها، وسأوضح الموضوع بواسطتها بفضل الله تعالى. ثم قلت: يمكنك أن تقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مثلا. فتردد قليلا على ذلك وظن لعلني سأثبت له ادعائي من هذه الآية، فأهملها وقرأ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩)، قلت: المؤمنون قسمان. الأول: هم الذين يظنون أنهم مؤمنون ولكنهم يكْذبون، والقسم الثاني هم الذين يؤمنون في الواقع. فالذين يزعمون أنهم يؤمنون ولكنهم ليسوا بمؤمنين في الحقيقة عندما يمثلون أمام الله تعالى يقول لهم إنكم ادّعيتم الإيمان ولكن لم تؤمنوا في الحقيقة. فيقولون: لماذا إذن لم تنبّهنا بواسطة رسول؟ ثم سألتُ الزائر: كم من الناس يصلّون الصلاة في هذه الأيام؟ قال: عدد قليل جدا. قلتُ: الناس من هذا النوع هم الذين يقولون إننا آمنا ولكنهم لا يؤمنون في الحقيقة. ما الذي سيحدث لهم؟ لا يمكن أن يكون بيان القرآن صادقا ما لم يعالجهم. فإذا كان الناس من هذا النوع موجودين فهل يجب أن يأتي من الله مبعوث أم لا لإرشادهم إلى الصراط المستقيم؟

الإصلاح المبدئي الأول الذي قام به القرآن عن وجود الله تعالى

والآن أتناول على سبيل المثال أمورا مبدئية وأبيّن كيف استخرج القرآن الكريم أخطاء الأديان الأخرى وأفكار الفلاسفة وأصلحها. أول ما يخطر ببال الإنسان فور تفكيره في موضوع الدين هو: هل لهذا العالم إله أم جاء العالم إلى حيّز الوجود تلقائيا وليس له خالق؟

لقد أقرَّ القرآن الكريم بأن هناك أناسا يزعمون أنه ليس هناك إله، ثم شرح مصدر علمهم أيضا. ولكنني سأقدم دليلا واحدا حول هذه الأمثلة دون الخوض في التفاصيل. يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٥)، يقولون إننا نموت ونتولد بحسب قانون ثابت وإلا ليس هناك مَن يعمل ذلك.

إن كثيرا من الملحدين يشرعون في تقديم الأدلة ضد وجود الله، ولكن كبار الملحدين والشاطرين منهم مثل "هكسلي" وغيره يقولون إنهم لا يجدون دليلا على وجود الله. فحين سئل "هكسلي" عن دينه قال: لا أعلم. إذن، إن أساسهم هو على الإنكار. وهذا ما أخبر به الله قبل ١٣٠٠ عام حين قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٥) كل ما يستطيع الملحدون قوله هو إننا نظن أنه ليس هناك إله، وليس لديهم دليل إيجابي على ذلك، بل إنما ظنهم ووَهمُهم أنه ليس هناك إله. والقطعيةُ لا يمكن أن تؤسَّس على النفي. فهذا ذكر الإلحاد.

والآن أبين كيف دحض القرآنُ الكريم الإلحادَ. ولكن سأكتفي بدليل واحد، وهو قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الجاثية: ٢٨)، أي في العالم مَلِك يتصرّف في السماوات والأرض، وتتجلى قدراته دائما. المراد من السماء هنا هو النظام الشرعي. المراد من الأرض هو النظام الطبيعي. والآية تعني أن هناك انسجاما عظيما بين الأنظمة السماوية أي الشرعية، والأنظمة الأرضية أي الطبيعية.

فلا يسع أحدًا أن يقول نظرا إلى هذا الانسجام إن كل هذا جاء إلى حيّز الوجود صدفة ومن تلقاء نفسه. فلو كان النظام الطبيعي من تلقائه لما حدث التوافق بينه وبين كلام الأنبياء؟ بينما تلاحظ في هذين النظامين وحدة لا يسع أحدا أن يقول نظرا إليها إنه ليس هناك من يدير هذا العالم. إن أدلة المشاهدة ونظام العالم مذكورة بالتفصيل في محاضرتي بعنوان: "وجود البارئ تعالى". أي أن هناك انسجاما بين كلام الله والنظام الطبيعي بحيث لا يمكن لأحد أن يقول نظرا إليه إن كل هذا وُجد تلقائيا. إذا كان النظام الطبيعي موجود تلقائيا فلماذا يتوافق مع كلام الأنبياء. إذن، إن تأييد النظام الشرعي والنظام الطبيعي لبعضهما، بل إن سير النظام الطبيعي تحت النظام الشرعي يدل على أن هناك من يدير هذا العالم حتما. وهذا الدليل مجموع دليل المشاهدة ودليل النظام، وهو أقوى الأدلة كلها في رأيي. إن دليل النظام يبيّن أن العالم كله خاضع لنظام، أما دليل المشاهدة فيقول إن مع الشريعة أدلتها. ومجموع هذين الدليلين يوحي بأن كِلا النظامين متّحد مع بعضه البعض. وهذا الاتحاد أقوى دليل على وجود الله تعالى. أُقدِّم على ذلك دليلا من القرآن الكريم نفسه، وأبيّن كيف توافق النظام السماوي مع النظام الأرضي.

لقد ادّعى النبي ﷺ قبل ١٣٠٠ عام أنه جاء من الله تعالى، وأعلن أن خالق الأرض والسماء هو إله واحد، وادعى أيضا أن آيات الله تؤيده. فنرى أن العالم الذي كان يجري تحت نظامٍ، فإنه بعد ولادة رسول الله ﷺ فورا بدأت التغيُّرات تحدث فيه تحت الكلام السماوي. يتبين من ذلك بجلاء أن العالم يجري تحت أحكام الذي جاء منه القرآن الكريم.

دعاء إبراهيم عليه السلام لبعثة محمد ﷺ

أعود إلى الوراء بقدر أربعة آلاف عام من اليوم لإثبات كيف يجري ملكوت السماء والأرض تحت ملك ذات واحدة. فقبل أربعة آلاف عام، عند رفع قواعد

الكعبة دعا إبراهيم مع إسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٠)، أي ندعوك يا ربّ أن تبعث في ذريتنا التي ستنتشر في هذا البلد في المستقبل رسولا تكون مهامه: (١) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾، (٢) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي الشريعةَ، (٣) ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، أي يوضح لهم حِكَم الأحكام. (٤) ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي يطهّرهم وينقذهم من السيئات. لقد دُعي هذا الدعاء قبل أربعة آلاف عام في مكان غير ذي زرع. إن بئر زمزم الذي انفجر هنالك كمعجزة كان ماؤه مالحا نسبيًا، فلا يستسيغ الهنود شربه، وحول هذه البئر سكنت بعض العائلات. وفي ذلك المكان، عند بناء بيت من الحجارة دعا إبراهيم عليه السلام أن ابعثْ يا ربنا إلى مَن يولَدون هنا رسولا يعلّمهم أدلة على وجودك ويعلّمهم شريعتك ودقائقها؛ أي يُطلعهم على الفائدة من العمل بها، ويزكيهم.

لو تأملنا في هذا الدعاء جيدا لتبين لنا أنه قد أُخبر فيه عن الأمور التالية:

الأول: ستبقى مكة قائمة إلى وقت تظهر للعيان ضرورة بعثة هذا النبي. الأمر الطبيعي في تلك المنطقة هو أن الرياح العاصفة تهب، وتحدث الزلازل وتدمر مدنا كبيرة، ولكن قد أُخبر هنا أن كل هذه الحوادث لن تقدر على خراب هذا العمران، وهكذا كان بالفعل.

الأمر الثاني المذكور هنا هو أن ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ستستمر إلى الأبد لأنه قيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾. يتضح منه أن ذريتهما ستكون موجودة إلى بعثة ذلك الرسول. إن نسل معظم العائلات في العالم يجري إلى ثلاثمئة أو أربعمئة عام على أكثر تقدير ثم يندثر، ولكن قيل هنا إن نسل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سيستمر إلى ألفَي عام في كل الأحوال أي إلى بعثة رسول الله ﷺ. وستتحكم هذه النبوءة في الأمراض حتى لا تقضي على هذا النسل، وتتحكم بكافة أنواع الحوادث لكيلا تقضي على هذا النسل، وستولد ذرية بعد ذرية ويستمر هذا النسل إلى الأبد.

الأمر الثالث الذي يثبت من هنا هو أن رسولا سيأتي من نسل إبراهيم، مع أنه لا يسع أحدا أن يدّعي أيّ نوع من الناس ستكون ذريته.

الأمر الرابع المذكور هو أنه سيقلب حالة هذا القوم رأسا على عقب، وينتقلون من حالة دنيا إلى حالة عليا. كم من أناس يقدرون على تزكية الآخرين؟ الأستاذ لا يستطيع أن يزكّي حتى تلميذا واحدا! يُروى عن أبي علي بن سينا أنه كان ذات مرة يدرّس تلاميذه كتابا فقال أحدهم في أثناء الدرس: أنت أفضل من محمد (ﷺ). كان ابن سينا مؤمنا صادقا وكان يتقن علم النفس، فظن أنه لو شرح له الموضوع الآن فقد لا يفهمه ولعله يضلّ أكثر بسبب عناده، فلزم الصمت. ولكن في أحد الأيام حين كان الطقس باردا وماء البِركة متجمدا بسبب البرد قال لذلك التلميذ: اخلعْ ثيابك واقفزْ فيها. قال التلميذ: ما أغبى هذا الكلام الذي تقوله! هل تريدني أن أموت بالقفز في الماء البارد؟ قال ابن سينا: كنتَ يوما تفضّلني على محمد ﷺ أما اليوم فلا تطيع أمري البسيط. بينما لم يقل أتباع محمد ﷺ إننا سنموت إذا أطعنا أمرك كذا وكذا. بل كانوا ينفِّذون أمره ﷺ فورا وإن رأوا الموت محدقا بهم، فكانوا يضحّون بحياتهم من أجله بكل سرور.

إذن، ما أعظم هذا الكلام القائل إنه لن يغيّر شخصا أو شخصين بل يقلب حالة القوم كله رأسا على عقب. فنرى أن مكة كانت موجودة بعد ألفَي عام من هذه النبوءة، وذرية إبراهيم عليه السلام موجودة. كان ممكنا أن يكون النسل موجودا دون أن يعرفوا مَن أبوهم، ولكن الله تعالى قدّر أن يذكر في الكتاب المقدس إنها ذرية إبراهيم عليه السلام، ثم وُلد فيهم رسول الله ﷺ، وأعلن النبوة وقلب حالة القوم رأسا على عقب.

نبوءة موسى عليه السلام

ثم نأتي إلى فترة تالية ونرى أن محمدا ﷺ يؤتى به أمام العالم مرة أخرى. وبعد مرور ٦٠٠ عام من إبراهيم عليه السلام بُعث موسى عليه السلام وأنبأ عن النبي ﷺ بما يلي:

أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. (اَلتَّثْنِيَة ١٨ : ١٨)، وبذلك تمّ تصديق دعاء إبراهيم عليه السلام. كان إسحاق أخو إسماعيل، وكان موسى من أولاد إسحاق عليهم السلام، وكان رسول الله ﷺ من أبناء إسماعيل عليه السلام. أي أُقيمَ رسولُ الله ﷺ من إخوته، وبذلك تكرر بعد ٦٠٠ عام وعدٌ أُعطيه إبراهيم عليه السلام، وهذا يعني أنه قد أُنبئ –لبقاء نسل إسماعيل– ببعثة نبي من نسله.

ثم ذُكر أمر آخر عن ذلك الشخص وهو: جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وجاء معه عشرة آلافٍ قديسين. وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ.[1] (اَلتَّثْنِيَة ٣٣ : ٢)

سيناء هو الجبل نفسه الذي ذُكر في القرآن الكريم باسم "الطور" والمراد منه هو ظهور موسى عليه السلام؟ يقول البعض إن المراد من "سعير" هو المسيح الناصري عليه السلام، ولكنهما اسمان للجبلين اللذين مر بهما موسى وانتصر على الأعداء، لذا المراد هنا أيضا هو موسى عليه السلام. ثم قيل: وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وجاء معه عشرة آلافٍ قديسين. هنا أيضا ذُكر أمران. الأول: سيتجلى من جبل فاران. الثاني: سيأتي معه عشرة آلاف من القديسين. وكلا هذين الأمرين يتعلق بشخص واحد، كما كان الأمران المذكوران من قبل عن شخص واحد.

ثم قال: ستكون معه شريعة نارية. وقد أُخبر في ذلك أنه سيأتي معه عشرة آلاف قدّيس من جبال فاران التي تحيط بمكة وفي يده شريعة نارية. قيل في هذه النبوءة، (١) سيخرج ذلك النبي من مكة، لأنه قيل من قبل إنه سيولَد في مكة، ثم قيل: جاء معه عشرة آلاف قديس. فيتضح من ذلك أنه سيُخرج من مكة أولا. (٢) وبعد فترة من الزمن سيهاجم مكةَ بجيش. (٣) يكون معه عشرة آلاف

---

[1] حُرّفت هذه الكلمات في بعض الطبعات الجديدة خاصة العربية، ولكنها موجودة في الطبعة الأردية British And Foreign Bible Society لاهور ١٩٠٨ و١٩٢٢. وفي الطبعة الإنجليزية " Oxford Univ. Press London New york , Toronto ". (المترجم)

جندي. (٤) يكون هؤلاء قديسون؛ أي مصداقو ﴿يُزَكِّيْهِم﴾ (٥) ستكون معه شريعة تحرق الذنوب. هذه ترجمة آية: ﴿يُعلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾ فحين يعلم الإنسان أن في طاعته أمرًا كذا مصلحته، سيعمل به. إن معنى الشريعة يُستمَدّ من "الكتاب" وحارقة الذنوب تُستمدّ من "الحكمة" لأن الإنسان يجتنب ارتكاب الذنب بعد تعلّم الحكمة.

يعلم الجميع أن ما ذُكر في هذه النبوءة قد تحقق. وثابت تاريخيا أن جبل فاران هو جبل مكة. كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول: "لو سألتم بائعي زهور الخزامى في وادي فاطمة (هذا منزل بين مكة والمدينة) من أين أتيتم بهذه الزهور؟ لقال المراهقون والأولاد الصغار أيضا: "من برّيّة فاران". (فصل الخطاب: المجلد ٢، ص ٣٨) وفي الكتاب المقدس أيضا مراجع تشير إلى أن هذا هو وادي فاران.

نبوءة سليمان عليه السلام

مضت على ذلك أربعمئة عام، وبُعث سليمان عليه السلام وتغنّى في مدح محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أُحَلِّفُكُنَّ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ *(أي بني إسرائيل)* إِنْ وَجَدْتُنَّ حَبِيبِي أَنْ تُخْبِرْنَهُ بِأَنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا. *

فردن: مَا حَبِيبُكِ مِنْ حَبِيبٍ أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ! مَا حَبِيبُكِ مِنْ حَبِيبٍ حَتَّى تُحَلِّفِينَا هكَذَا! * *فقال:* حَبِيبِي أَبْيَضُ وَأَحْمَرُ. مُعْلَمٌ بَيْنَ رَبْوَةٍ.[1] * رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ. قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْغُرَابِ. * عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ عَلَى مَجَارِي الْمِيَاهِ،

[1] إن المقصود بـ"ربوة" عشرة آلاف، وفي الترجمة الانجليزية ورد: (Chief among ten thousand) أي "علَمٌ بين عشرة آلاف" في النص الأردي المترجمة لهذه الجملة (بين عشرة آلاف رجل). إن ترجمة هذه العبارة هي من إصدارات (كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت – الإسكندرية – مصر) وأما في إصدارات (دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط/ جمعية الكتاب المقدس في لبنان) وهي الأكثر انتشارا، فإن هذه العبارة هي: "حبيبي سليمٌ وأسمَرُ لا عَيبَ فيهِ، عَلَمٌ بَينَ عشَرَةِ آلافٍ". (المترجم)

مَغْسُولَتَانِ بِاللَّبَنِ، جَالِسَتَانِ فِي وَقْبَيْهِمَا. *خَدَّاهُ كَخَمِيلَةِ الطِّيبِ وَأَتْلاَمِ رَيَاحِينَ ذَكِيَّةٍ. شَفَتَاهُ سُوْسَنٌ تَقْطُرَانِ مُرًّا مَائِعًا. * يَدَاهُ حَلْقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، مُرَصَّعَتَانِ بِالزَّبَرْجَدِ. بَطْنُهُ عَاجٌ أَبْيَضُ مُغَلَّفٌ بِالْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ. *سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ. طَلْعَتُهُ كَلُبْنَانَ. فَتًى كَالأَرْزِ. *حَلْقُهُ حَلاَوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ.*(مكتوب في العبرية: محمديم)* هذَا حَبِيبِي، وَهذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ. (نَشِيدُ الأَنْشَادِ ٥ : ٦-١٦)

إذن، نصح سليمان ﷺ أيضا للإيمان بهذا الحبيب عند ظهوره، ثم طرح بنفسه سؤالا وقال إنه سيتحلى بمزايا كذا وكذا. تبدو بعض العبارات في هذا النص كأنها كلام شاعر وبعضها تطابق ملامح رسول الله ﷺ تماما، مثل: "قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ". وقد جاء في الكتاب المقدس بالإنجليزية: His locks are wavy. وعلى هذا النحو ذُكرت ملامح النبي ﷺ في الأحاديث. يقول علي ؓ: "لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ، لَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلَا بِالسَّبْطِ، كَانَ جَعْدًا رَجِلًا". (سنن الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ) وهذا ما قاله سليمان ﷺ إن: قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ. فكانت لمّة النبي ﷺ تضرب منكبيه. أي جاء في النبوءة أن شعره لن يكون جعدا ولا مسترسلا تماما وهذا ما ذكره عليّ ؓ.

ثم بيّن سليمان ﷺ أن لونه أبيض وأحمر، وقال علي ؓ عن لونه ﷺ: "أَبْيَضُ مُشْرَبٌ".(المرجع السابق) ومعنى "مشرب" في اللغة: لون أبيض تخالطه حمرة.

ثم قال سليمان ﷺ: "مُعْلَمٌ" أي يقوم بارزا مثل العَلَم ولن يكون قصير القامة. وقد جاء عن رسول الله ﷺ أن قامته كانت أقرب إلى الطول. باختصار، كان النبي ﷺ يتحلى بجميع الملامح التي ذكرها سليمان ﷺ. كانت لِمّة شعره معروفة حتى نظم الناسُ شعرا في صفتها.

نبوءة النبي إشعياء

ننتقل الآن إلى فترة تالية ونصل إلى زمن النبي إشعياء، أي سبعمئة عام بعد موسى و ١٣٠٠ عام بعد إبراهيم عليهما السلام. فنراه يعيد ما قاله إبراهيم وموسى وسليمان عليهم السلام ويقول: "لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا،[١] رَئِيسَ السَّلاَمِ * لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ، وَلِلسَّلاَمِ لاَ نِهَايَةَ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الآنَ إِلَى الأَبَدِ. غَيْرَةُ رَبِّ الْجُنُودِ تَصْنَعُ هذَا." (إِشَعْيَاءَ ٩ : ٦-٧)

قيل في هذه العبارة إنه عندما يأتي هذا الرسول "يُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا". فكان الناس يقولون عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (الجن: ٢)، وفي إنجيل متّى سمى المسيحُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ "عجيب" فقد جاء فيه: "مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا." (إِنْجِيلُ مَتَّى ٢١ : ٤٢)

الأمر الثاني المذكور هو أن اسمه سيكون "مشيرا"، لنرى هل هناك أحد سوى رسول الله ﷺ قيل بحقه أن الناس كانوا يستشيرونه؟ يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المجادلة: ١٣). أي أيها المؤمنون إنكم معتادون على استشارة الرسول، فاعلموا أن وقته ثمين جدا، لذا عليكم أن تتصدقوا على المساكين قبل استشارته، هذا خير لكم. وإن كان منكم من لا يستطيع ذلك، فالله سيزيل هذا الضعف. لقد جاء في الأحاديث أن عجوزا كانت تمسك بيده ﷺ لتستشيره وهو يمشي في طريقه، وكان الناس يستشيرونه في المسجد أيضا. وحدث ذات مرة أن شخصا ظل يحاوره ﷺ في المسجد لفترة طويلة حتى قام القادمون للصلاة.

---

[١] وفي الترجمة الإنجليزية: Everlasting Father، منه.

والاسم الثالث المذكور هو: "إلها قديرا". والمعلوم أن اسم "إله" قد استخدم في التوراة بالمعنى المجازي أيضا. فقد ورد: "فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لِفِرْعَوْن". (اَلْخُرُوجُ ٧ : ١)، وقال المسيح ﷺ ضاربا مثلا: "فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟" (إِنْجِيلُ مَتَّى ٢١ : ٤٠)، أي عدّ المسيحُ مجيء رسول الله ﷺ بمنزلة مجيء الله.

عندما نتأمل في القرآن الكريم نجد أنه كما جاء عن موسى ﷺ: "أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لِفِرْعَوْن"، كذلك جاء عن رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (المزمل: ١٦)، والصفة التي أرسلنا بها موسى رسولا إلى فرعون أرسلناك بالصفة نفسها رسولا إلى العالم.

الاسم الرابع المذكور للنبي ﷺ هو: "أَبًا أَبَدِيًّا"، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٧)، أي أن علاقة النبي ﷺ بالمؤمنين أقوى حتى من علاقة الآباء، وأزواجُه أمهات المؤمنين. فلما كانت أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين فكان رسول الله أبوهم. وقد جاء في سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤١)، أي أن محمدا ﷺ ليس أبا أحد من الرجال ظاهريا ولكنه أب روحاني بصفته نبيًّا، بل هو أب إلى الأبد لكونه خاتم النبيين.

الاسم الخامس المذكور هو: "أمير السَّلاَم" لأنهم- بهذه المناسبة- يستخدمون في العبرية عبارة "أمير السلام" بدلا من "رئيس السلام". والإسلام هو السلام. فعليه كان الاسم هو رئيس السلام. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِين﴾ (الحج: ٧٩)، والحق أن النبي ﷺ كان رئيس السلام فعلا، فقد دعا ﷺ أهلَ مكة عند فتحها وقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (يوسف: ٩٣).

رَئِيسَ السَّلاَمِ * لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ، وَلِلسَّلاَمِ لاَ نِهَايَةَ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الآنَ إِلَى الأَبَدِ.

الأمر السادس المذكور بحقه ﷺ هو: لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ، وَلِلسَّلاَمِ لاَ نِهَايَةَ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا ..مِنَ الآنَ إِلَى الأَبَدِ. (إِشَعْيَاءَ ٩ : ٧) هذه أيضا نبوءة عن أمة محمد رسول الله ﷺ، وقيل فيها إن أمته ستسيطر على الشام وفلسطين.

ثم نقرأ في الكتاب نفسه كلاما إلهاميا عن بلاد العرب: "فِي الْوَعْرِ فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ تَبِيتِينَ، يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ * هَاتُوا مَاءً لِمُلاَقَاةِ الْعَطْشَانِ، يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيْمَاءَ. وَافُوا الْهَارِبَ بِخُبْزِهِ. * فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا. مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُولِ، وَمِنْ أَمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ، وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ. * فَإِنَّهُ هكَذَا قَالَ لِيَ السَّيِّدُ: «فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدِ قِيدَارَ * وَبَقِيَّةُ عَدَدِ قِسِيِّ أَبْطَالِ بَنِي قِيدَارَ تَقِلُّ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَكَلَّمَ. (إِشَعْيَاءَ ٢١ : ١٣-١٧)

في هذه العبارة بيّن نبوءة أن ذلك النبي القادم سيُخرَج من وطنه وبعد عام من هجرته سيهاجمه قومه. سيبيتون ليلا في الصحراء وستندلع الحرب صباحا، سيُهزَم فيها العدو ويهلك كبار أبطالهم. فهذه النبوءة أيضا تحققت في شخص رسول الله ﷺ في معركة بدر.

انظروا الآن، كم من أمور ذُكرت في هذه العبارة! فقد قيل: (١) سيُخرِج أهلُ مكة ذلك الرسول من مدينته أولا، ثم (٢) سيغزو أهلُ مكة للحرب. فإذا الذي أنزل كلامَه على إشعياء ما كان متصرفا على العالم ولم يكن العالم تحت سيطرته فلماذا جعل أهل مكةَ يُخرجون رسول الله ﷺ من مكة أولا، ثم مَن أخرجَهم للهجوم عليه بعد عام؟ (٣) وعندما هاجموا شاركهم الزعماء كلهم. يقال إنه لم يكن في مكة بيت إلا واشترك أحد من سكانه في تلك الحرب. (٤) قُتل في هذه الحرب كبار الزعماء. يتبين من كل هذه الأمور أن المتصرِّف على الأفكار والسيوف كان ذلك الذي أدلى بهذه النبوءة بواسطة النبي إشعياء. لقد عمّ مكةَ دمار شامل نتيجة هذه الحرب لدرجة أنْ ساد المأتم كل بيت من بيوتها. ومُنع الناس من الندب والبكاء

خشية أن تحبط هممهم. وكان لشخص ثلاثة أبناء وقُتلوا جميعا في الحرب، فكان يبكي مختفيا في البيت ولكن لم يهدأ قلبه. فحدث ذات يوم أن فُقد بعير أحد الناس وبدأ يبكي. سمع الأول صوت بكاء الأخير وقال لأحد: تفقَّدْ، هل أُذن بالندب؟ ثم خرج من بيته فورا وبدأ يضرب على وجهه ويندب بشدة.

اندلعت معركة بدر بعد الهجرة بعام واحد بالتحديد، وقُتل فيها كبار محاربي قيدار وأبطالهم، وفرّوا مهزومين. وعمّ المأتم في "تيماء"، التي يسميها العرب تهامة.

ثم يقول النبي إشعياء: هُوَذَا قَدْ جَعَلْتُهُ شَارِعًا لِلشُّعُوبِ، رَئِيسًا وَمُوصِيًا لِلشُّعُوب * هَا أُمَّةٌ لاَ تَعْرِفُهَا تَدْعُوهَا، وَأُمَّةٌ لَمْ تَعْرِفْكَ تَرْكُضُ إِلَيْكَ، مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ إِلهِكَ وَقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُ قَدْ مَجَّدَكَ. (إِشَعْيَاءَ ٥٥: ٤-٥)

لقد ذُكرت في هذه العبارة الأمور التالية: (١) سيكون ذلك النبي شاهدا على الناس، (٢) وإماما للناس، (٣) ومقتدى الناس. (٤) سيؤمن به أقوام لم يسمعوا بأسماء بني إسرائيل ولم يسمع بهم بنو إسرائيل.

يقول القرآن الكريم عن كون النبي ﷺ شاهدا على الناس: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٩٨)... لتأخذوا هذه الرسالة إلى يوم القيامة. إذن، الأمر الأول هو أن الكلمات التي وردت في الكتاب المقدس جاءت نفسها في القرآن الكريم.

والأمران الثاني والثالث وردا في القرآن الكريم عن كونه ﷺ إماما للناس ومقتداهم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣٢)، أي اتبعوني في هذا المجال فأنا إمامكم ومقتداكم.

والأمر الرابع المذكور هو أن الأقوام الأخرى ستؤمن بذلك الرسول، فقد جاء بهذا الشأن في القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيْعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩)، انظروا الآن أننا المسلمين ننحدر من أقوام مختلفة، وهذه الأقوام

لم تعرف العربَ ولم يعرفهم العربُ ولكن صاروا جميعا قوما واحدا نتيجة الإيمان برسول الله ﷺ.

ثم ورد في سِفر النبي إشعياء: "فَتَرَى الأُمَمُ بِرَّكِ، وَكُلُّ الْمُلُوكِ مَجْدَكِ، وَتُسَمَّيْنَ بِاسْمٍ جَدِيدٍ يُعَيِّنُهُ فَمُ الرَّبِّ * ... تُدْعَيْنَ: حَفْصِيبَةَ، وَأَرْضُكِ تُدْعَى: بَعُولَةَ. لأَنَّ الرَّبَّ يُسَرُّ بِكِ، وَأَرْضُكِ تَصِيرُ ذَاتِ بَعْلٍ." (إِشَعْيَاءَ ٦٢: ٢-٤) لقد قيل في هذه العبارة إن في زمن ذلك الموعود سيُدعى قوم باسم "حَفْصِيبَةَ" وأرضها ستدُعى بَعُولَةَ. وسيرى الملوك كلهم شوكته، ويُسمّى باسم جديد.

وورد أيضا: وَيُسَمُّونَهُمْ: شَعْبًا مُقَدَّسًا، «مَفْدِيِّي الرَّبِّ». وَأَنْتِ تُسَمَّيْنَ: «الْمَطْلُوبَةَ»، «الْمَدِينَةَ غَيْرَ الْمَهْجُورَةِ». (إِشَعْيَاءَ ٦٢: ١٢) كل هذه الأمور ملحوظة في شخص النبي ﷺ. فمثلا قيل هنا: (١) سيأتي بِاسْمٍ جَدِيدٍ يُعَيِّنُهُ فَمُ الرَّبِّ. فالإسلام اسم جديد اختاره الله تعالى بنفسه على لسان إبراهيم. فقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

الحقيقة أنه ما من دين سوى الإسلام سماه الله تعالى بنفسه، فلم يسمَّ دينُ موسى، ولا دين عيسى- عليهما السلام- بل لم يخطر ببال أتباعهما أيضا اسما لأنفسهم قط. ولكن قيل في العبارة المذكورة إن الله تعالى سيسميه بنفسه، وهذه الميزة لا توجد إلا في الإسلام وحده.

والأمر الثاني هو أن قومه سينال رضا الله تعالى. فقد قيل إن ذلك القوم سيسمى: حَفْصِيبَةَ، وهذه كلمة عبرية وتعني: رضي الله بك. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، فالقرآن الكريم لا يقول فقط إن الله رضي عن المسلمين بل يقول أيضا إنهم أيضا رضوا عنه.

الأمر الثالث المذكور هو أن بيته يُدعى بَعُولة (أي سيُحفَظ)، وأرضه تُسمّى ذات بعل، أي لن تُدمَّر. وقد جاء في القرآن الكريم بهذا الشأن: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ

مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (الطور: ٢-٧)، أي نقدم جبل الطور شهادة كما نقدّم هذا الكتاب المكتوب الذي سيُكتب دائما، ونقسم بالكعبة التي ستكون عامرة دائما، وسيأتيها الناس من مسافات بعيدة، ونقدم شهادةً السقفَ المرفوع؛ أي الذي يبقى احترامُه قائما إلى الأبد. فقال هنا إن هذا البيت لن يبقى معمورا فقط إلى الأبد بل ملايين الناس من الحائزين على درجة عليا سيبقون على علاقة به دائما، ويبقى احترامه قائما إلى يوم القيامة. باختصار، لقد أخبر الله أن بيت الله سيبقى قائما، وسيكون أناس من الدرجة العليا على علاقة به، ولن يجف ينبوع الكتاب ذي العلاقة بمكة.

الأمر الرابع المذكور هو أن ذلك القوم سيسمّى مقدسا دائما. هذا أيضا ما ادعاه القرآن الكريم حيث قال: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ *كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٦-١٧)، أي سيبقى القرآن الكريم بأيدي أناس محترمين وصالحين من الدرجة العليا. قد يقول قائل: يمكن أن يتطرق إليهم الفساد في وقت من الأوقات، فكيف سيبقى هذا الكتاب في أيدي المقدسين دائما؟ فقد ردّ القرآن الكريم على ذلك أيضا وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٣-٤)... وإذا حدث الفساد في المسلمين سيبعث الله تعالى هذا الرسول في قوم آخرين بحسب وعده: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ وسيبقى هذا القوم مقدسا دائما لأن المصلحين سيأتون فيه باستمرار.

الأمر الخامس المذكور هو أنهم سيُسَمَّون: "مَفْدِيِّي الرَّبِّ". وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، أي أن محمدا ﷺ سيقطع السلاسل والأطواق في أرجلهم وأعناقهم ويخلصهم من القيود فيسمَّون: "مَفْدِيِّي الرَّبِّ".

الأمر السادس المذكور هو أن تلك القرية تسمى "مطلوبة"، ويقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، أي قد قُدِّر إلى يوم القيامة أن يقصدها ويحج فيها من استطاع إليها سبيلا، لأنها قرية مطلوبة.

نبوءة النبي حبقوق

ثم نتقدم أكثر ونرى النبي حبقوق يقول: "اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. سِلاَهْ. جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ... قُدَّامَهُ ذَهَبَ الْوَبَأُ، وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الْحُمَّى. وَقَفَ وَقَاسَ الأَرْضَ. نَظَرَ فَرَجَفَ الأُمَمُ وَدُكَّتِ الْجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَفَتْ آكَامُ الْقِدَمِ. مَسَالِكُ الأَزَلِ لَهُ. رَأَيْتُ خِيَامَ كُوشَانَ تَحْتَ بَلِيَّةٍ. رَجَفَتْ شُقَقُ أَرْضِ مِدْيَانَ. هَلْ عَلَى الأَنْهَارِ حَمِيَ يَا رَبُّ؟ ... اَلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَقَفَا فِي بُرُوجِهِمَا لِنُورِ سِهَامِكَ الطَّائِرَةِ، لِلَمَعَانِ بَرْقِ مَجْدِكَ. بِغَضَبٍ خَطَرْتَ فِي الأَرْضِ، بِسَخَطٍ دُسْتَ الأُمَمَ. خَرَجْتَ لِخَلاَصِ شَعْبِكَ، لِخَلاَصِ مَسِيحِكَ. سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّيًا الأَسَاسَ حَتَّى الْعُنُقِ. سِلاَهْ. ثَقَبْتَ بِسِهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ. عَصَفُوا لِتَشْتِيتِي. ابْتِهَاجُهُمْ كَمَا لأَكْلِ الْمِسْكِينِ فِي الْخُفْيَةِ...فَمَعَ أَنَّهُ لاَ يُزْهِرُ التِّينُ، وَلاَ يَكُونُ حَمْلٌ فِي الْكُرُومِ...فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ وَأَفْرَحُ بِإِلهِ خَلاَصِي. (حَبَقُّوق: ٣)

النبوءة الأولى في هذا النص هي أن الله جاء من تيمان. يقول المفسرون إن معنى تيمان بالعبرية أرض الجنوب، وجزيرة العرب تقع في جنوب فلسطين، ولكن العرب يسمون واديا معيّنا وادي تهامة، ويحسبون مكة داخل هذا الوادي. لقد جاء في القاموس: "وتِهامة، بالكسر: مكةُ شرفها الله تعالى وأرضٌ معروفة". وفي تاج العروس: "ومن أسمائه ﷺ التهامي، لكونه وُلد بمكة". يحسب أهلُ الكتاب المقدس تيمانَ أرضَ الجنوب فقط. ويقولون إن تيما هو أحد أبناء إسماعيل عليه السلام وقد سكن بلاد العرب. لو لم يحسبوا مكة تهامةً إلا أنهم لا ينكرون أنها جزء من جزيرة العرب. ومن

الممكن جدا أن يكون قوم قد سكن هناك في وقت من الأوقات ثم انتقلوا إلى مكان آخر على بُعد بسيط منها.

ثم قيل في النص إنه ظهر من فاران، علما أن فاران أيضا اسم أحد أبناء إسماعيل عليه السلام، وكان يسكن جزيرة العرب. ويعترف علماء الجغرافيا الأوروبيون بأن تلك المنطقة كانت في بلاد العرب وكانت قرب فلسطين، غير أن شهادة العرب بهذا الشأن أكثر ثقة من شهادة قوم آخرين. والعرب يسمون الصحراء الكائنة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة "برية فاران". فكما سبق الذكر أنه لو سئل بائعو زهور الخزامى في وادي فاطمة: من أين أتيتم بها؟ لقالوا: أتينا بها من برية فاران. وورد في تاج العروس: "وفي الحديث ذكر جبال فاران، وهو اسم لجبال مكة بالعبراني".

النبوءتان الثانية والثالثة المذكورتان في النص هما: "جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ." هذه النبوءة أيضا تحققت في شخص النبي ﷺ، فيقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٧)، أي كأن السماء ملئت بشوكته، إذ ليس في السماء مكان ولو بقدر شبر إلا وفيه الملائكة. وما دام جميع الملائكة يصلّون على النبي ﷺ لذا غُطِّيت السماء بشوكته ﷺ. ثم قيل: علينا نحن المسلمين أيضا أن نملأ الأرض بحمده. فيا أيها المسلمون يجب عليكم أن تصلّوا على هذا النبي. كانت مهمتنا أن نملأ السماء بالشوكة فأنجزناها، أما ملء الأرض بالحمد فهو مسؤوليتكم، وعليكم أن تصلّوا على محمد (ﷺ) قياما وقعودا بحسب ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

إذًا، فقد تحقق كلا الأمرين؛ إذ إن الملائكة يصلّون على النبي في السماء، والمسلمون في الأرض. ليست في الأرض منطقة ليس فيها المسلمون، وبذلك امتلأت الأرض أيضا بحمده ﷺ.

النبوءة الرابعة المذكورة هي: قُدَّامَهُ ذَهَبَ الْوَبَأُ. معنى ذلك أنه حيثما توجّه ذلك النبي هلك أعداؤه. هذه النبوءة لا يمكن أن تنطبق على عيسى ﷺ، لأن الوباء لم يذهب قدّامه، بل المسيحيون ذهبوا قدام الوباء بحسب قول المسيحيين. نحن نقول إنه ﷺ أُنقذ من أيدي الأعداء ولكن المسيحيين يقولون إن أعداءه قتلوه على الصليب.

النبوءة الخامسة هي: على قدميه يمشي الوباء الناري. يقول مفسرو الكتاب المقدس: معنى ذلك أن الوباء يذهب حيثما ذهب. ولكن هذه ليست علامة عبد الله المقدس. وقد ورد في بعض نُسخ الكتاب المقدس ولا سيما العربية: "وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الْحُمَّى". (حبقوق: الأصحاح ٣، العبارة ٥) أي حيثما تقع قدمه تخرج من هناك الحمى. فالمراد من الوباء الناري هو الحمّى. هذه النبوءة أيضا تحققت في شخص رسول الله ﷺ بكل وضوح، إذ قد جاء في الأحاديث أنه ﷺ حين جاء إلى المدينة كانت الحمى الشديدة متفشية هنالك، حتى كانت المدينة تسمَّى "يثرب" لكثرة تفشي الملاريا فيها. عندما هاجر الصحابة إليها بدأوا يصابون بها كلهم. وهذا الأمر آذى النبيَّ ﷺ كثيرا. وجاء اسم المدينة المنورة "يثرب" في القرآن الكريم أيضا. فقد جاء فيه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ (الأحزاب: ١٤)، من معاني "يثرب" العيب والهلاك أيضا. عندما وصل النبي ﷺ المدينة وأصيب الصحابة بالحمى، قلق رسول الله كما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها، فدعا ﷺ: اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ. ثم قال: وَصَحِّحْهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ. (صحيح البخاري، كتاب الحج)، وورد في الأحاديث أن الحمى زالت من المدينة بعد ذلك، وقال النبي ﷺ ما مفاده: لا تسموها يثرب لأن في هذا الاسم معنى العيب والعقوبة والتوبيخ، بل سموها "طيبة". (صحيح مسلم: كتاب الفتن، باب قصة الجساسة)

باختصار، عندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة خرجت منها الحمّى، ويُعَدّ مناخها جيدا جدا إلى اليوم. فهذا كان ما أُخبر به في النبوءة.

النبوءة السادسة المذكورة هي ما مفاده: إنه قام وأحدث الرجفة في الأرض. المعنى الظاهري لهذه الجملة هو كما جاء في ذكر ملامح النبي ﷺ: إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ. (سنن الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله). والمعنى الثاني للرجفة هو أن رعبه ﷺ كان كبيرا، فقد قال النبي ﷺ بنفسه: نُصِرْتُ بِالرّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. (البخاري) أي كان الناس إلى مسيرة شهر يرتجفون برعبه. وجاء هذا الذكر في القرآن الكريم كما يلي: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٣)... إن رُعب النبي ﷺ أهلكهم إذ جعلوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم وفروا فرارا. فقد رزق الله تعالى النبيَّ ﷺ قوة لدرجة أنه حيثما ذهب لمواجهة العدو كان الناس يرتجفون رعبا منه.

النبوءة السابعة المذكورة هي: نَظَرَ فَرَجَفَ الأُمَمُ. يتبين من ذلك أن الأقوام تغزوه ولكنهم يفرون عندما يتصدى لهم. هذا ما حدث تحديدا عند غزوة الأحزاب، وقد أُخبر بذلك سلفا في قوله تعالى:﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٤)، أي ستهاجمه الأقوام مجتمعة ولكنها ستفرّ فرارا.

النبوءة الثامنة هي: وَدُكَّتِ الْجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَفَتْ آكَامُ الْقِدَمِ. المراد من الجبال هم كبارُ الناس والملوكُ والحُكّام. لقد تصدى قيصر وكسرى للنبي ﷺ ثم انظروا كيف محيت آثارهم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (الطور: ٨-١٢)، أي الأخبار التي نبينها عن تقدم الإسلام سوف تتحقق لا محالة، ولا يمكن لأحد أن يحول دون تحققها... إذن، فالقرآن الكريم يؤيد النبوءة المذكورة آنفا.

يبدو أن نبوءة النبي حبقوق كانت في بال الناس لأن القرآن الكريم يقول في بيان مشهد القيامة: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (طه: ١٠١) أي أعطيناك قرآنا ومن أنكره يواجه عقوبة إنكاره يوم القيامة. ثم يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه: ١٠٦-١٠٩) .. أي لن تسمعوا صوتا سوى صوت مؤدّب.

يقول المفسرون إن هذه الآيات تعني أن الجبال تُنسف يوم القيامة، ولكن القيامة ذُكرت من قبل في هذه الآيات وقيل فيها إن الأرض والسماء لن تبقيا حينذاك. فإذا لم تبق الأرض والسماء فما معنى ذكر الجبال على حدة؟ معنى ذلك أنه عندما أُعلن أن الحكومة الإسلامية ستقوم، سئل: ماذا سيكون مآل هذه الحكومات الكبيرة الموجودة الآن؟ فقال ﷻ في الجواب: ستُدمّر تدميرا. يتضح من ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ أنه ليس المراد هنا هو العالَم الآخر، لأن المؤمنين يتّبعون داعيا مثله في هذا العالم. وجاء عن الكفار أنهم سيودّون الصحبة في الآخرة ولكنهم سوف يُردّون. ثم قال ﷻ: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٣). أقول: كيف سيؤمن الكفار يوم القيامة؟ بل سيبقون ضالين هنالك أيضا؛ فكيف إذًا يتبعون الداعي؟ فالمراد هو أن الحكومات الكبيرة ستُدمَّر، والذين يناصبونه ﷺ العداء الآن سيؤمنون. فحين فُتحت مكة آمن الأعداء كلهم. إذًا، المراد من الجبال هم كبار الناس وزعماء القوم والسلاطين العظام، فكان انتشار الإسلام مقدرا نتيجة هلاكهم وتدمير نظامهم.

النبوءة التاسعة هي: رَأَيْتُ خِيَامَ كُوشَانَ تَحْتَ بَلِيَّةٍ. رَجَفَتْ شُقَقُ أَرْضِ مِدْيَانَ. ورد في التراجم الإنجليزية Did Tremble لبيان معنى: رَجَفَتْ. والآن يجب أن نرى معنى "كُوشَان"؟ يقول أصحاب الكتاب المقدس إن المراد قبيلة ساكنة في "كوش"، وهي اسم منطقة في العراق. كذلك ذُكر في الكتاب المقدس أن كوش كان اسم والد

نمرود. وثابت من التاريخ أن قبيلة كوش حكمت العراق إلى ٦٠٠ عام. وأما "مِدْيَان" فهي مدينة قرب شاطئ البحر في شمال جزيرة العرب وتقع في الطريق من مصر إلى الشام أو إلى جزيرة العرب. وسِمّيت في القرآن الكريم "مَدْيَن". وكانت في عهد النبي ﷺ في حكومة قيصر، وتحت إقليم الشام. وهوجم هذان البلدان في عهد الخليفة الثاني للرسول ﷺ أي في عهد عمر رضي الله عنه ودُمّرت الحكومتان وأقيمت بدلا منهما حكومة إسلامية، علما أن انتصار عمر رضي الله عنه كان انتصار رسول الله ﷺ في الحقيقة، لأنه ﷺ قال بأنه أُعطي مفاتيح كنوز قيصر وكسرى. وقد وردت رواية عن غزوة الأحزاب أن صخرة لم تتكسّر فذكر الصحابة هذا الأمر للنبي ﷺ فجاء فقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر، أعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر، فقال: الله أكبر، أعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة وقال بسم الله فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة. (مسند أحمد بن حنبل، والنسائي، نقلا عن شرح الزرقاني على المواهب اللدنية)

باختصار، قيل في نبوءة النبي حبقوق إن النبي القادم سيفتح الشام والعراق والمدائن. يقول القرآن الكريم في ذكر هذه النبوءات: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح: ١٧).

لقد قيل في هذه الآية الكريمة إن حرب العرب قد انتهت الآن وستغزو الآن أقوام من الخارج وهي أكثر من العرب قدرة على الحرب، وستواجهونهم، والنتيجة النهائية لهذه المواجهات ستكون اضطرار تلك الأقوام للاستسلام. يثبت من ذلك أنه كان ضروريا أن تندلع الحروب خارج الجزيرة العربية أيضا، فقد حاربت جيوش المسلمين قيصرَ وكسرى وجعل الله تعالى الإسلام غالبا.

النبوءة العاشرة هي: اَلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَقَفَا فِي بُرُوجِهِمَا لِنُورِ سِهَامِكَ الطَّائِرَةِ، لِلَمَعَانِ بَرْقِ مَجْدِكَ. بِغَضَبٍ خَطَرْتَ فِي الأَرْضِ، بِسَخَطٍ دُسْتَ الأُمَمَ.

إن توقف الشمس والقمر كناية عن انفكاك نظام الحكومات الروحانية والمادية. الشمس يعَبَّر بها عن حكومة دنيوية، والقمر تعبير عن حكومة روحانية. عندما فُتحت خيبر وتزوّج النبيُّ ﷺ من السيدة صفية التي قالت له: كنتُ قد أخبرتُ سلفا أنني سأتزوج منك. سألها ﷺ: كيف ذلك؟ قالت: كنتُ قد رأيت في المنام أن قمرا سقط في حضني، فذكرت ذلك لأبي فلطمني وقال: أتريدين أن تتزوجي من مَلِك العرب؟ (الإصابة في تمييز الصحابة) إذن، المراد من القمر هو الحكومة الدينية، ومن الشمس الحكومة الدنيوية. وعليه فكان معنى النبوءة المذكورة أن النظامين الروحاني والمادي الموجودين قبل النبي ﷺ سوف يتمزقان، وهذا ما حدث بالفعل إذ تمزق النظامين السابقين بعد بعثة النبي ﷺ، وانقطعت البركات الروحانية السابقة كلها بعد بعثته ﷺ. ومن الناحية المادية أيضا دمّر أتباعه ﷺ الحكومات كلها لأيّ بلد كان وغيّروا نظام العالم كله. والعبارة التالية للكتاب المقدس تفسر ذلك.

النبوءة الحادية عشرة هي: خَرَجْتَ لِخَلاَصِ شَعْبِكَ، لِخَلاَصِ مَسِيحِكَ. سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّيًا الأَسَاسَ حَتَّى الْعُنُقِ. سِلاَهْ. ثَقَبْتَ بِسِهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ. عَصَفُوا لِتَشْتِيتِي. ابْتِهَاجُهُمْ كَمَا لأَكْلِ الْمِسْكِينِ فِي الْخُفْيَةِ.

قيل في هذه العبارة إن ذلك الموعود سيخرج للحرب لينقذ قومه الضعيف من الظالمين. وقيل أيضا إن العدو أيضا سيخرج للحرب لأنه ورد: "عَصَفُوا لِتَشْتِيتِي"، أي سيخرج هذا الموعود من جانب، ومن جانب آخر سيخرج عدوه وستتم المواجهة. ويحاول العدو أن يبيد قوما فقيرا وضعيفا خدعةً، ولكنه سيباد بنفسه وسينتصر الموعود.

انظروا الآن كيف ذُكرت بالتفصيل ظروف النبي ﷺ ووقائع معركة بدر! خرج أهل مكة لمبارزة النبي ﷺ تحت قيادة عتبة، وكان أبو جهل نائب القائد. حين قُتل عتبة أخذ أبو جهل القيادة بيده. باختصار، خرج أهل مكة لإبادة النبي ﷺ والمؤمنين

به. وعندما علم ﷺ نيتهم خرج هو أيضا كيلا يهاجم العدوُ المدينةَ ويدمّرها. يقول الله تعالى في القرآن بهذا الشأن: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٦)، ويقول أيضا: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (النساء: ٨٥)، أي أُخرج أنت يا محمد (ﷺ) سواء خرج غيرك أم لم يخرج، وحرّض المؤمنين أيضا على الخروج، فإن خرجوا استحقوا الثواب وإلا فالعذاب، ولكن أُخرجْ أنت في كل الأحوال.

لقد قيل في النبوءة المذكورة آنفا إن الكفار خرجوا معتزين بنية قتل الضعفاء بالهجوم عليهم خفية. وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٤٧).

أي أيها المسلمون لا تكونوا كالكفار الذين خرجوا بمناسبة بدر مستكبرين... كانوا يُظهرون أنهم خرجوا لإنقاذ قافلة ولكنهم كانوا ينوون تدمير المدينة المنورة.

يقول بعض المؤرخين إن النبي ﷺ كان قد خرج لنهب قافلة، والعياذ بالله. فإذا كان الأمر كذلك وخرج الكفار لإنقاذها فما معنى خروجهم مستكبرين، ولماذا أظهروا شيئا وأبطنوا شيئا آخر. الحق أنهم كانوا يودّون أن يلحقوا بالإسلام ضررا. ولكن كيف يتضرر الإسلام بإنقاذهم القافلة فقط؟ الأمر غريب حقا إذ يقول الكتاب المقدس إن العدو خرج خفية وكان يريد أن يُهلك غيلةً هذا القوم الضعيف. والقرآن أيضا يصدق بيان الكتاب المقدس قائلا: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ولكن المؤرخين يقولون إن الكفار خرجوا لإنقاذ قافلة وخرج رسول الله لنهبها. إن بيان الكتاب المقدس والقرآن الكريم هُوَ هُوَ، أما ما يقوله المؤرخون فباطل تماما. لقد اتخذ الكفار إنقاذ القافلة عذرا فقط بينما كانوا ينوون شن الهجوم على المدينة ليهلكوا المسلمين.

النبوءة عن قتل أبي جهل تتحقق بعظمة خارقة

النبوءة الثانية عشرة: الآن أتناول من تلك النبوءة جملتين تركتهما من قبل وهما: سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّيًا الأَسَاسَ حَتَّى الْعُنُقِ. سِلاَهْ. ثَقَبْتَ بِسِهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ.

لقد استُخدمت في هذه النبوءة استعارات لدرجة يصعب عندها فهم المضمون ظاهريا. ولكن عندما نتأمل فيها يتضح المعنى. من الواضح أنه ليس للأساس عنقٌ كما ليس لبيت الشرير رأس. فلا بد من أن نستنتج هنا معنى آخر. فعندما نقرأ الجزء الثاني نجد فيه شرحه. ويتبين أن المراد من رأس البيت هو زعيمه. وإذا اتضح هذا الأمر سهل فهْم المراد من تعرّي عنق الأساس أيضا. فلو تأملنا في هذه النبوءة من هذا المنطلق لوجدنا أن الجملة الأولى الواردة فيها هي: سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّيًا الأَسَاسَ حَتَّى الْعُنُقِ. والآن يجب أن نرى ما معنى "تعرّي الأساس حتى العنق". يقول أتباع الكتاب المقدس إن معناه التعرّي إلى الأساس. أقول: ما دامت كلمة الأساس مذكورة فما معنى القول "حتى العنق"، إذ ليس هناك تعبير متداول يعبَّر به عن "أساس العنق". فما دام العنق مذكورا فلا بد من الاعتراف بأن الكلام يتعلق بإنسان. والأساس في العرف يُطلق على ما كان في التحت وما يوضع عليه شيء. وفي الإنجليزية يقال للأساس Base، ويُطلق على أساس الرأس أيضا حيث يلتقي الرأس مع العنق. والكلمة Base نفسها مستخدمة في العبرية أيضا. ولما كان الجزء الأسفل من الرأس موضوعا على العنق لذا فهو أساس. والمعنى هو أن الجزء الأسفل سيُعرَّى إلى العنق. والمراد من رأس بيت الشرير هو زعيم البيت لأنه ليس لبيت الشرير رأس. فكان المعنى أن هذا الموعود سيعرّي رأس زعيم قبيلة معادية إلى العنق ثم يقطعه من الأساس. وهذا المعنى تصدّقه الجملة التالية أيضا حيث جاء فيها: ثَقَبْتَ بِسِهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ. يتبين منها أن الجملة السابقة تتحدث عن كيفية قتل

عدوٍّ. فلا شك أن معنى تعرية الأساس إلى العنق هو تعرية الرأس إلى القفا. وقيل هنا إن ذلك النبي عندما خرج من جانب لإنقاذ الضعفاء وخرج العدو من جانب آخر مستكبرا بنية قتل الضعفاء اندلع القتال بينهما. وفي هذا القتال قتَل ذلك النبيُّ أو أحد أتباعه زعيمَ الأعداء بسلاحه هو معرّيا رأسه إلى العنق.

والآن نرى هل حدث في معركة بدر التي سبق ذكرها حادثٌ من هذا القبيل حيث قُطع رأس زعيم من القفا بعد تعرية عنقه؟ فحين نقرأ وقائع معركة بدر نجد فيها هذا الحادث حرفيا. فقد ورد في كتب التاريخ أنه عندما بدأت معركة بدر واصطفّ الصحابة، كان بينهم طفلان صغيران. إن قانون الحرب هو أن الأبطال البواسل يهتمون بأن يكون على يمينهم ويسارهم أبطال بواسل، ليسهموا في الحرب بكل قوة وشدة بغير خوف ووجل. يقول عبد الرحمن بن عوف ﵁ إن قلوبنا كانت زاخرة بما صَبّ علينا الكفار من المصائب فيما مضى وكنا نريد أن ننتقم منهم اليوم جيدا، ولكن عندما رأيتُ عن يميني ويساري هذين الفتيين ثبطت همتي وقلت في نفسي: كيف سأقاتل وجانبيّ ضعيفان. وما لبث أن خطرت ببالي هذه الفكرة إلا وغمزني أحدهما بمرفقه وهمس في أذني حتى لا يسمع صاحبه وقال: يا عمّ سمعت أن أبا جهل شرير جدا ويؤذي المسلمين كثيرا، أين هو؟ أريد أن أقتله. يقول الراوي إن فكرة قتل أبي جهل لم تخطر حتى ببالي مع بسالتي وشجاعتي. بينما كان الطفل الأول يكلمني إذ غمزني صاحبه بمرفقه وهمس في أذني: يا عمّ أين أبو جهل الذي يؤذي المسلمين، أريد أن أقتله. يقول عبد الرحمن بن عوف ﵁ بأني استغربت من كلامهما ما بعده استغراب. بعد بدء الحرب بفترة وجيزة قُتل عتبة وصار أبو جهل قائد الجيش. فأشرت إليه بإصبع، وما إن أشرتُ إليه إلا وشق الفتيان طريقهما من وسط الجيش وانقضا عليه كما ينقض الصقر على فريسته وأسقطاه جريحا. هجم عليهما حراس أبي جهل وقطعوا يد أحدهما فكانت تتدلى بحبل ففصلها الطفل بوضع قدمه عليها حتى لا تمنعه من القتال.

سقط أبو جهل جريحا ولكنه ما كان قد مات إلى وقتها. حين سأل رسول الله ﷺ: لا أرى أثرا لأبي جهل، خرج عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما للاستطلاع، ووجد أبا جهل طريحا جريحا. قال: يا عدو الله هل أصابتك الذلة اليوم أم لا؟ قال: أية ذلة إذا قتل الزعيمَ قومُه؟ فهاجمه عبد الله بن مسعود، ولما كان سيفه صغيرا -وكان لدى أبي جهل أيضا سيف- لم ينجح في قتله بل أصابت سيفُه يدَ أبي جهل وسقط سيفُه من يده. أخذ عبد الله بن مسعود سيف أبي جهل وهمّ بقتله فقال أبو جهل نظرا إلى الموقف: أنا زعيم القوم فأرجو أن تقطع عنقي طويلا حتى يخاف محمد (ﷺ) نظرا إليه. غضب عبد الله بن مسعود على ذلك أكثر وأخذ بعنقه من الوراء وعراه بإزالة الخوذة عنه وقطعه من أقرب ما يكون من الرأس بسيف أبي جهل نفسه، فلم تتحقق أمنيته الأخيرة أيضا. وبذلك تحققت حرفيا نبوءة النبي حبقوق القائلة: سَحَقْتَ رَأْسَ بَيْتِ الشِّرِّيرِ مُعَرِّيًا الأَسَاسَ حَتَّى الْعُنُقِ. سِلاَهْ. ثَقَبْتَ بِسِهَامِهِ رَأْسَ قَبَائِلِهِ.

بقي الآن هناك أمران جديران بالتأمل، أحدهما: جاء في النبوءة أنك قتلت العدو بينما قتله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. الجواب هو أن عمل أتباع النبي يُعَدّ عمل النبي في الحقيقة. والأمر الثاني هو، جاء في النبوءة كلمة السهام بينما قتله عبد الله بن مسعود بالسيف. والجواب عليه أن الكلمة الورادة في الترجمة الأردية للكتاب المقدس هي "الخشب المعوج" وفي الفارسية "عصا"، وفي العربية "سهام". ويبدو من هذا الاختلاف أن الكلمة الأصلية العبرية لا تعني الخشب ولا السهام ولا العصا بل تعني السلاح، وقد اختلف المترجمون في ترجمتها. وهذا ليس قولي فقط بل يقول أحد مفسري الكتاب المقدس في تفسيره:

This were later translated thou didst smite through with his own weapons the head of his chieftains.[1]

[1] The Old Testament with a brief commentry by varios authors Londo, Habakkuk Chapter 3 Verse 14.

أي المعنى الصحيح هو أنه عنقه قُطع بسلاحه هو.

النبوءة الثالثة عشرة هي: فَمَعَ أَنَّهُ لاَ يُزْهِرُ التِّينُ، وَلاَ يَكُونُ حَمْلٌ فِي الْكُرُومِ...فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ. قيل فيها إن ذلك النبي لن يكون من بني إسرائيل. وقد ضُرب مَثل بني إسرائيل في الكتاب المقدس بالتين، فقد جاء في الإنجيل أن المسيح لعن شجرةَ تينٍ كيلا تحمل ثمارا. (متّى ٢١: ١٩ و مرقس ١١: ١٢) ويقول المفسرون المسيحيون في تفسير ذلك إن علاقة اليهود مع الله تعالى ستُقطع. معنى ذلك أن النبي حبقوق يقول: مع أن اليهود -وهو منهم- سيهلكون، فإنه مع ذلك يحب ذيوع اسم الله تعالى بواسطة ذلك النبي مقابل تقدم قومه، وأنه يقبل دمار قومه بكل سرور مقابل جلال يظهر بواسطة محمد (ﷺ).

نبوءة المسيح الناصري عليه السلام

ثم نذهب إلى ما بعد بضعة قرون أخرى، أي إلى زمن المسيح الناصري عليه السلام، فنراه يقول ضاربا مَثل الكَرَم:

فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟ * قَالُوا لَهُ: أُولئِكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلاَكًا رَدِيًّا، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا * قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا! * لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ * وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ! (إِنْجِيلُ مَتَّى ٢١ : ٤٠-٤٤)

يقول عليه السلام في موضوع آخر: لكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ: إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي، وَلكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ: أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي. وَأَمَّا عَلَى بِرّ فَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلاَ تَرَوْنَنِي أَيْضًا. وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ. إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ

تَحْتَمِلُوا الآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. (إِنْجِيلُ يُوحَنَّا ١٦ : ٧-١٤)

في هذه النبوءات ذكر المسيح الناصري عليه السلام الأمور التالية: (١) سيأتي مثيل المسيح لأن مجيء الله يدل على مجيء نبي مشرع مثيل موسى. (٢) ذلك النبي لن يكون من بني إسرائيل. (٣) سيأتي في أمته صُلحاء ويكونون وسيلة لهداية القوم. (٤) ذلك الموعود سيكون حجر الزاوية، أي ستتم عليه الشرائع كلها. (٥) سوف يواجه أقواما آخرين، ولكن سواء أهاجمه قوم أو هاجم هو قوما سيكون هو الغالب والمنتصر في كلتا الحالتين. (٦) يكون معزِّيا. (٧) يعُدّ العالم مقصّرا في ثلاثة أمور؛ بسبب خطيئة، أي سيشجب الناس بسبب عدم إيمانهم بالمسيح. أُخذت الخطيئة هنا بمعنى محدود، والمراد هو أنه سيخطّئ قوما على إنكارهم المسيحَ، وقوما آخرين على برٍّ، أي على خذلانهم المسيح، ويبكّت قوما ثالثا على دينونة، أي يبكّت ذوي العلاقة بالشيطان. باختصار، عُدّ اليهود مجرمين بسبب إنكارهم المسيحَ، والنصارى بسبب غلوهم بحقه، والأقوامُ الأخرى بسبب علاقتهم بالشيطان. فيُعَدّ العالم كله مجرما عند مجيئه. (٨) سيقول ما لم يقله أحد قبله.(٩) سيقول الحق كله ولن تبقى حاجة إلى أي حق بعده. (١٠) سيحتوي كتابه على كلام الله فقط الذي سيفتح طريقا للتقدم الروحاني في المستقبل. (١١) يبرِّئ كتابه ساحة المسيح عليه السلام. (١٢) ويقدم دليلا عمليا على صدقه، أي يحقق كلامَه، وبذلك يُثبت كونه واصلا إلى الله.

فكل هذه الأمور تحققت في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل جلاء. الأول: كان صلى الله عليه وسلم مثيل موسى، وادّعى أن الله تعالى قد تجلى فيه. فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ﴾ (الفتح: ١١).

الأمر الثاني المذكور هو أن ذلك الموعود لن يكون من بني إسرائيل، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم من بني إسرائيل بل كان من بني إسماعيل.

الأمر الثالث المذكور هو: تكون هناك وسائل لهداية قومه دائما. يقول الله تعالى مشيرا إلى هذا الأمر: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٤)، أي سيبعثه الله تعالى في قوم يأتون فيما بعد. وجاء في الأحاديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِيمَا أَعْلَمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا. (سنن أبي داود، كتاب الملاحم)

الأمر الرابع هو أن ذلك الموعود سيكون حجر زاوية رفضه البناؤون. وهذا صحيح من ناحية أخرى أيضا إذ أن بني إسرائيل كانوا يعُدّون بني إسماعيل محرومي الإرث دائما. ولكن رسول الله ﷺ ادّعى بنفسه أنه حجر زاوية فقال: إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ. (صحيح البخاري، كتاب المناقب)

إن معنى حجز الزاوية أنه يجعل الجدارين يلتقيان. المراد من الجدار في القرآن الكريم هو الجماعة الروحانية. فقد ضرب موسى عليه السلام في سورة الكهف مَثل بني إسرائيل بالجدار. ولكن يجب أن نرى ما المراد من الجدارين اللذين ألحقهما النبي ﷺ ببعضهما البعض بصفته حجر الزاوية. الجدار الأول هو جدار الأنبياء السابقين الذين كانوا يتبعون شرائع مختلفة. والجدار الآخر كان للقرآن، والنبي ﷺ سبب للاتصال بينهما، لأن أمته ﷺ تؤمن بالأنبياء السابقين بواسطته. وبواسطته يخلق المبعوثون القادمون أيضا علاقتهم بالأنبياء السابقين. انظروا مثلا أنه ليست بين الأقوام الأخرى علاقة متبادلة، بينما علاقة المسلمين بأقوام العالم كلها قائمة بواسطة رسول الله ﷺ. ليس لأي قوم سوى الهندوس علاقة مع كرشنا عليه السلام، بينما علاقة المسلمين قائمة به أيضا بواسطة رسول الله ﷺ، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥)، لو لم يتبين بواسطة رسول الله أنه قد بُعث الأنبياء في كل قوم لما علِمنا أن كرشنا عليه السلام كان من الله تعالى. ثم انظروا إلى أنه لا

علاقة لليهود مع أتباع زرادشت، الذي هو جدار قائم بحد ذاته، ولكن النبي ﷺ أدى إلى التحاق كل جدار من هذا النوع. إن جدارا أقامه زرادشت مرتبط بجدار الإسلام، كذلك يرتبط الجدار الإسلامي بجدران الأنبياء الآخرين. إذن، إن معنى حجر الزاوية هو أنه ﷺ سوف يقيم الربط بين الأمم السابقة والقادمة. كانت الجدران السابقة قائمة منفصلة بحد ذاتها، فكان جدار موسى منفصلا وجدار عيسى منفصلا وجدار كرشنا منفصلا. ولكن النبي ﷺ صار حجر زاويةِ كلِّ جدار ووصل بينها كلها بالقول إن الأنبياء كلهم من الله تعالى ومرتبطون جميعا بسلسلة واحدة.

الأمر الخامس المذكور هو أنه ستتم المواجهة بينه وبين العالم كله، فيهاجَم ويهاجِم، ولكنه يكون هو المنتصر في كلتَي الحالتين. لم يُذكر في هذه العبارة أنه ينتصر بل قيل إنه إذا هاجم فسينتصر وإذا هاجمه الأعداء بالعدة والعتاد يكون هو المنتصر. فقد غزا العدو في معركة الأحزاب وأُحد وبدر وسُحق. وغزا النبي ﷺ في معركة فتح مكة وخيبر وتبوك وسُحق العدو هذه المرة أيضا.

الأمر السادس المذكور هو أنه سيكون معزِّيا. يجب أن نرى بهذا الشأن هل كان العالم بحاجة إلى التعزية قبل بعثة رسول الله ﷺ أم لا؟ وإذا كان العالم محتاجا إليها فهل كانت أديان تلك الأقوام قادرة على تعزيتهم؟ فيتبين من التأمل في الموضوع أن تلك الأديان لم تكن مدعاة لتعزية أتباعها، وفي زمن النبي ﷺ بالذات كانت الأديان كلها عاجزة عن ذلك ولم يكن أحد من أهلها حائزا على سكينة قلبية. فلم يكن أيّ قوم قبل بعثة النبي ﷺ قائلين بالعفو عن الذنب. كان الهندوس يقولون إن الإله لا يستطيع أن يعفو عن ذنب أحد، بل يعاقب على كل ذنب صغيرا كان أم كبيرا ويضطر الإنسان إلى المرور بدوامة التناسخ. وبعد تحمل العقوبة على كل ذنب أيضا بالمرور بدوامة التناسخ يُبقي الإله ذنبا واحدا على الأقل، ويحرم صاحبه من النجاة مغبة له. فلم يكن للهندوس أن يطمئنّوا بدينهم. كان أتباع الزرادشتية والمسيحية يعتقدون بأبدية الجحيم نتيجة اعتقاد أنه إذا صدر من أحد ذنب مرة سيدخل

جحيما أبدية لا محالة. فما كان لهم أن يطمئنوا. كما لم يعزِّ اليهودُ أحدا بل قالوا إن النجاة مقتصرة على اليهود حصرا والآخرون كلهم معرّضون للهلاك.

باختصار، كان العالم كله قبل بعثة النبي ﷺ فاقد الأمل كليا. ومن الأديان ما كان يلقي بأتباعه في هوّة اليأس من البداية، ودينٌ آخر يُسقط أتباعه في الزوبعة في وسط المسيرة، وغيره يلقي بأتباعه في جحيم أبدية في نهاية المطاف. ولكن النبي ﷺ عزّى الجميع كما يلي: (١) الذين ما كانوا يعتقدون بالعفو عن الذنب قال لهم بأنه لا حاجة إلى المرور بدوامة التناسخ، بل الله تعالى رحيم وكريم ويعفو عن الذنوب. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٤)، أي يا أيها الرسول قل للناس جميعا إن الله تعالى جعلك معزِّيا، لذا فقل للذين صدر منهم الذنب ألا ييأسوا من رحمة الله وتوبوا إلى الله يغفر لكم لأنه غفور رحيم.

(٢) ثم توجه إلى أقوام يقولون: الذين ماتوا مذنبين لهم جهنم أبدية، وأخبرهم بقول الله تعالى: ﴿رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وقوله: ﴿أُمُّه هَاوِيَةٌ﴾ (القارعة: ١٠). أي إن جهنم بمنزلة الأُمّ. لا يبقى الجنين في بطن الأمّ إلى الأبد بل يبقى فيه ما دام ناقصا، وعندما يكمل يُخرَج من البطن. فيقول الله تعالى إن جهنم مثل الأُمّ، وعندما تزول أوساخ الذين أُلقوا فيها ويتطهّرون سندعوهم إلى الجنة، لأن جهنم مكان للتكميل والعلاج، وفي نهاية المطاف يحظى الجميع بمغفرة الله. هكذا عزّى النبي ﷺ أقواما كانت تعتقد أن المذنبين سيبقون في جنهم أبدية بعد مماتهم.

(٣) ثم كانت هناك أقوام تقول: لا نجاة لمن سوانا، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعزّيهم أيضا بأن أفكارهم هذه خاطئة، مثل قول اليهود جهلا منهم إنه لن ينال النجاة أحد سوانا، وأن النجاة في نصيبنا فقط كابرا عن كابر. فقال الله تعالى: من الخطأ الاعتقاد بأن النجاة خاصة بقوم، بل النجاة بيدنا وبابنا مفتوح للجميع. فقال

ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩)، إذن، الهداية ليست حكرا على قوم دون قوم، بل كل قوم يستحقها على قدم المساواة.

قد ينشأ في قلب الإنسان خوف فيقول في نفسه: حسنا، ها قد جاء النبي ﷺ وبواسطته فتح باب النجاة على الجميع، ونحن ممتنّون له على ذلك، ولكننا نحب آباءنا أيضا ونقلق على ماذا ستكون حالتهم؟ تقول المسيحية إنهم سيدخلون جهنم لأنهم لم يؤمنوا بالكفارة. يقول اليهود إنهم سيدخلون جهنم لأنه لا نجاة لأحد سوى اليهود. يقول أتباع الزرادشتية والهندوس أيضا إنهم يدخلون جهنم. ولكن الله تعالى أمر محمدا ﷺ أن يعلن: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥)، أي لا تقلقوا بشأن آبائكم فقد أرسلنا الرسل في زمنهم، فإن آمنوا بهم فسيُدخلهم الله الجنة. وهكذا عزّاهم النبي ﷺ عن آبائهم.

والآن تبقى وسوسة أن الإنسان لا يمكن أن يجتنب الذنب، فكيف ينال النجاة؟ فأمر ﷻ النبي ﷺ أن يزيل هذه الوسوسة أيضا ويعلن لهم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: ٥-٧)، أي طمئِنْهم يا محمد (ﷺ) وأعلنْ أن الذي يقول بأن الفطرة سيئة فهو يكذب لأننا خلقنا الإنسان بفطرة حسنة، ولكن عندما يخطئ الإنسان نرسله إلى درجة دنيا، وإلا نعطيه إنعامات كبيرة. الذنب شيء يأتي من الخارج، والأصل هي الحسنة المودَعة في الإنسان.

باختصار، هكذا عزّى النبي ﷺ الجميعَ. والذين يعتقدون أن باب النجاة موصد دونهم فقد دعاهم ﷺ ليدخلوا ملكوت الله، ومن كانوا يظنون أنهم لا يستطيعون أن يصبحوا صالحين أبدا فقد أعطاهم أمل الحسنة. ومن كان يحسب أنه إذا ارتكب المرء ذنبا مرة فلا خلاص له من مغبته، فقد أعلن ﷺ لهم أن فرصة التوبة مهيأة لهم. ومن كانوا يظنون أنهم إن ماتوا مذنبين فسيدخلون جهنم أبدية، فأخبرهم النبي ﷺ أن جهنم مرحلة عابرة فقط. فكان ﷺ معزّي العالم بالمعنى الحقيقي.

ما ذُكر إلى الآن كان يتعلق بالآخرين، ثم جاءت نوبة أتباعه ﷺ فأعلن اطمئنانا لهم أمر الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣)، أي عندما يُعزّي ذلك الرسول العالَم سيقول أفراد أمته بأننا مطمئنون سلفا فما الذي سنحصل عليه؟ فقال ﷻ: خذ منهم صدقات من أجل المساكين وهكذا تطهِّرهم، وادعُ لرفع مدارج تقدّمهم؛ لأن الذي تدعو له سيحظى بالعزاء والطمأنينة الكاملة. وقد قدّر الله تعالى أن يسمع دعاءك لأنه سميعٌ. وإذا قال قوم يأتون فيما بعد: ماذا لنا؟ فقل لهم إن الله عليم، وإن ذلك الدعاء موجود لكم الآن أيضا، ويمكنكم أن تنالوا نصيبا منه، وبذلك أجرى سلسلة التعزية لهم أيضا.

الأمر السابع المذكور هو أن ذلك الرسول سيبكّت العالم على ثلاثة أوجهٍ: (١) على خطيئة. (٢) على برّ. (٣) على دينونة، أي (أ) سيقول لقوم إنكم أخطأتم بإنكاركم المسيح فصرتم مجرمين. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٩)، وكذلك قال ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي عُدّ منكرو المسيح عليه السلام مغضوب عليهم واستعيذ منهم. (ب) بكّت ﷺ على برٍّ، لأن النصارى اتخذوا المسيح ابن الله بعد وفاته. فقد حكم النبي ﷺ قائلا ما مفاده: صحيح إنكم اخترتم برًّا أي آمنتم بالمسيح عليه السلام، ولكن تركتم السبيل بعد ذلك وتُهْتم في متاهات شاسعة الأبعاد. لذا سمّيتم ضالين كما هو واضح من: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، (ج) وبكّت ﷺ الأقوام الأخرى على دينونة، لأنهم ارتكبوا الشرك، وتركوا طريق العدل أي التوحيد لذلك اعتُبِر الشرك في القرآن ضد العدل. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأنعام: ٩٢)، أي لم يقدروا صفات الله كما يجب. وقال ﷻ في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٣)، وجاء في الأحاديث أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ.

باختصار، بحسب هذه النبوءة عدّ النبي ﷺ كل قوم من أهل الكتاب "المغضوب عليهم" لكونهم مثيل اليهود أو "الضالين" لكونهم مثيل النصارى. أما الأقوام التي لم تكن من أهل الكتاب فقد استخدم الدينونة بحقهم إذ قال بأنهم لم يعدلوا في حق الله بل انحرفوا عن الصراط المستقيم بارتكابهم الشرك. إذن، إن كلمة الذنب المستخدمة في الإنجيل ترادف التفريط، والبِرّ يرادف الإفراط، والدينونة ترادف العدول عن التوحيد. وقد عدّ القرآن الكريم أيضا ثلاث فئات.

الأمر الثامن هو أنه سيقول ما لم يقله أحد قبله. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ (الأنعام: ٩٢)، علما أن موسى عليه السلام أيضا من هؤلاء الآباء.

الأمر التاسع المذكور هو أنه سيقول كل الحق، ولن تكون هناك حاجة إلى أيّ حق بعده. وهذا الإعلان أيضا جاء في القرآن الكريم في: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٤).

الأمر العاشر هو أنه لن يقول شيئا من عنده بل سيقول ما يسمعه، أي سيكون كلامه مبنيا على الإلهام كليا. هذه النبوءة تنطبق على القرآن الكريم فقط، لأنه جاء في الإنجيل والتوراة كلام الحواريين أيضا. يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤-٥)، وجاء فيه أيضا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ (التوبة: ٦)، أي إذا طلب أحد من المشركين الملاذ وقال بأنه يريد أن يسمع كلام الله فنادِه ليسمعه.

الأمر الحادي عشر هو: ذَاكَ يُمَجِّدُنِي. هذا أيضا ملحوظ في شخص النبي ﷺ، فقد جاء في سورة البقرة: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٨)، وجاء أيضا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٥٨-١٥٩).. أي أنهم علّقوه على الصليب بلا شك ولكن

لم يقتلوه عليه، بل رفعه الله إليه؛ أي رفع مكانته عنده وأكرمه (أي أنه ﷺ أظهر عظمة عيسى عليه السلام المذكورة في هذه النبوءة)، فكيف كان ممكنا ألا يفعل الله ذلك وهو عزيز حكيم؟ أي كان ضروريا لأعداء المسيح عليه السلام أن يعلقوه على الصليب، وكان ضروريا أيضا ألا يموت عليه لأن الله تعالى عزيز وحكيم. فكان ضروريا أن يُشعر اليهودَ بأنه عزيز أي غالب: فلا يمكنهم أن يقتلوا عيسى الذي أرسله هو. وهو حكيم، لذا كان ضروريا أن يعلّق اليهودُ عيسى عليه السلام على الصليب لأنه لو قال النصارى فيما بعد إن المسيح إله، لأمكن للمسلمين أن يقولوا: أي نوع من إله هذا الذي علّقه اليهود على الصليب. فقال: أنا عزيز (أي غالب) فكان واجبا عليّ أن أنقذ عيسى من الموت على الصليب. وأنا حكيم؛ فكان ضروريا أن يعلقوه على الصليب.

الأمر الثاني عشر المذكور في النبوءة هو أن ذلك الرسول سيُثبت صدق المسيح عمليا. ومعلوم أن الذي سبق أن مات لا يستطيع النبي ﷺ أن يُريه عيانا، فقد أراه بأسلوب حيث قال إنه سيقوم من أمتي قائد باسم المسيح، وبذلك سيُثبت صدقَ المسيح الناصري عمليا لأن تشبيهه بإنسان كبير يعني أن المسيح كان إنسانا صالحا ومن أصفياء الله. فكأن سيدنا مرزا غلام أحمد عليه السلام الذي هو المسيح الموعود قد رسم صورة المسيح الناصري عليه السلام.

التوافق الغريب بين قانون الشريعة وقانون الطبيعة

انظروا ما أعظم هذه المعجزة! كم تطول هذه السلسلة إذ تبدأ من إبراهيم عليه السلام وتظل التغيرات تحدث فيها إلى زمن المسيح الناصري عليه السلام أي إلى مدة ألفَي عام. ثم حدثت التغيرات في سلسلة المسيح عليه السلام الممتدة إلى ٦٠٠ عام، ثم يظهر في الأخير ذلك الشخص الذي كان مصداقا لها. لو ادّعى رسول الله ﷺ وجاء بالشريعة لقال الناس: لقد اخترع هذا الكلام من عنده. ولكن قانون الشريعة وقانون الطبيعة يمشيان معا يدا بيد منذ عدة قرون، ويثبت بجلاء أن إلهنا ليس مَلك السماوات فقط بل هو مَلك الأرض أيضا.

يقول قانون الشريعة إن نبيا سيُبعث في مكة، وقانون الطبيعة يهيء له أسبابا. تجري عواصف الدمار والهلاك، تُدمَّر أقوام بعد أقوام، تتفشى الأوبئة وتهلك الأمم، تحدث صروف الدهر وتمحو آثارَ الأقوام. يحدث كل هذا ولكن كل هذه الآفات لا تمس قريشا بسوء بل تؤيدهم. يغزو أبرهةُ مكةَ مهددا أنه سيدمّر مكة وأهلها ويهلكهم، ولكن أُبيد جيشه وعاد خائبا خاسرا وهلك في الطريق لأن قانون الطبيعة يقول بأنه لن يسمح بهلاك هذا القوم. تحدث في الأقوام تغيّرات، يولَد الذكور عنّينين أحيانا وبذلك تندرس آثار العائلات ولكن هذا التغير لم يحدث في ذرية إبراهيم ﵇، وذلك كي يزدهر نسله ويزداد. يقول النصارى إن الإنباء بدمار قيصر وكسرى ليس بأمر ذي بال، لأن آثار الدمار كانت قد ظهرت فيهم. ولكني أقول: إن النبي إشعياء والنبي حبقوق أيضا أنبأا بدمارهم قبل آلاف السنين، وذلك حين لم يكن لقيصر وكسرى أدنى أثر، ولكن قانون الطبيعة قدّر دمارهما حين ظهر محمد رسول الله ﷺ.

كذلك عندما بُعث النبي ﷺ كان ممكنا ألا يُخرَجَ من مكةَ، وإذا أُخرِجَ كان ممكنا ألا يهاجمه قومُه، أو لا يُهزموا إن هاجموا. ولكن كل ذلك قد حدث على صعيد الواقع. ففكروا مَن فعل ذلك؟

كذلك كان ممكنا ألا يهاجم أبو جهل، وإذا هاجم هو كان بالإمكان ألا يغضب عبد الله بن مسعود ﵁ فلا يقطع عنقه قصيرا، ولكن نشأت أسباب لذلك. فمن خلق هذه الأسباب؟ يتبين بجلاء أن ملكوت السماء والأرض كانا يمشيان معا منذ ألفَي عام. صدر الحكم من السماء ببقاء ذرية إبراهيم ﵇، وكلما هبّت عواصف الدمار والهلاك أُمرت بألا تمس مكة بسوء.

كذلك ذُكرت ملامح النبي ﷺ قبل مدة طويلة ثم تحقّق ذلك البيان، فكل ذلك كان يحدث تحت قانون الطبيعة. يقول الله تعالى نتيجة كل هذه الأمور: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يا من تنكرون وجود الله، فكِّروا هل يمشي هذا القانون

على هذا النحو من تلقائه؟ أقدِّم الآن تاريخا يعود إلى ألفَي عام وأبين أن الله تعالى موجود، وإن قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يُثبت وجوده ﷻ. قال المسيح عليه السلام عن زمن رسول الله ﷺ إن الله سينزل بنفسه في زمنه، أي بوجوده ﷺ سيثبت وجودُ الله تعالى. وإلى جانب ذلك قال لأتباعه أن يدعوا الله تعالى: "لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ." (إِنْجِيلُ مَتّى ٦: ١٠). أي استمروا في الدعاء ليُبعث محمدٌ رسول الله ﷺ، واستمروا في الدعاء ليعلم العالم في زمن محمد ﷺ أن للسماء والأرض إلها واحدا.

ليس في ذلك دحض للملحدين فقط بل فيه تفنيد لأتباع مذهب الجَينية والآريا أيضا. يقول أتباع الجينية إن الأرواح تظل تتقدم بنفسها فترتقي تلقائيا، ولكن الله تعالى يقول: هذا قول خاطئ، بل نحن نُحدث التغيّرات رويدا رويدا حتى نخلق روحا كاملة. يقول الآريون: ليس لله أيّ تصرُّف في العالم، بل المادة والروح تفعلان كل شيء بأنفسهما، ولكن الله تعالى يقول: إن نظام العالم كله يمشي تحت أوامري وأنا الذي أُحدث كل تغيُّرٍ.

حُكم الله الواحد على قانون الطبيعة

فكّروا قليلا، كيف تماشى قانون الطبيعة مع قانون الشريعة إلى زمن طويل وكيف عمل تحته! لقد وُلد النبي ﷺ بعد إبراهيم عليه السلام بـ ٢٧٥٠ عاما تقريبا. ألا يمثّل سيطرةً على قانون الطبيعة الإنباءُ أن ذرية إسماعيل عليه السلام ستستمر إلى ذلك الحين وسيذيع اسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بحيث تذكر ذريتُهما أنهم أولادهما؟ وستبقى مكة قائمة، وسيولَد فيها شخص بملامح معينة، ويبارزه قومه ويُخرجه من بيته. ويكون ذلك النبي مشرعا مثل موسى عليه السلام، وسيكون ضعيفا في البداية ويُنفى من وطنه ولكن الله ﷻ سيعطيه جماعة. سيتحمل المصائب ويصبر ولكن قومه يزداد ظلما له. وفي نهاية المطاف يكيد العدو خطة سرية ليهلك أصحابه الضعفاء، وسيغزو مستكبرا. وهذا سيحدث بعد عام واحد من هجرته. وعند المواجهة يكون

هو المنتصر وسيُقتل معظم الزعماء المعاندين. ورئيس المكفرين منهم والمنحدر من عائلة عريقة سيُقتل على يد أصحابه بحيث يقطع أحدهم رأسه معرِّيا إياه إلى العنق. لن يكون ذلك الرسول طويلا مُمَّغِطا، ويضرب عند المشي بقدميه الأرض بقوة حتى ترتجف الأرض. يكون لونه أبيض مائلا إلى الحمرة. لن يكون جعدا قططا ولا سبطا بل يكون جعدا رَجِلا. سيكون كلامه عذبا، ولكن الناس سيرونه مُرّا لكونه مجبولا على الصدق. يكون اسمه محمد (ﷺ) وفي نهاية المطاف سيغزو يوما مكةَ قادما من جبال فاران، ويكون معه عشرة آلاف جندي صالحين وورعين جدا. سيفتح مكة وتؤمن به بلاده بعد ذلك.

تكون أعماله عظيمة الشأن، فبالنظر إليها ينادي الناس عفويا "عجيب". يكون على خُلق عظيم، لن يتردد الفقراء والمساكين من استشارته. ويسمَّى مثيل موسى في كلامه. وسيرضى الله بأعمال قومه، ويجعلهم مقدّسين، ويهيء أسبابا لجعلهم مقدسين على الدوام. يكون اسم دينه جديدا، وسيختار الله هذا الاسم بنفسه، يشمل هذا الاسم كلمة "سلام". (إن "أمير السلام" ترجمة حرفية للإسلام) ستُعمَّر مدينته دائما، ويتوافد إليها الناس من أبعاد شاسعة.

حيثما يتوجه هذا الرسول يُرعَب به الناس. تهاجمه الأقوام مجتمعة ولكنها ستنهزم. ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٦)، سيهلك أعداؤه. من ناحية تكون مواجهته مع حكومة الشام، ومن ناحية أخرى مع حكومة الفُرس؛ أي مع قيصر وكسرى، وستُهزمان.

بعد مجيئه ستتلاشى الحكومات السابقة وبركات الأديان السابقة ويتوقف تقدمها. (لقد أحرزت المسيحية التقدمَ ظاهريا ولكنها أرادت في البداية أن تنتشر بقوة السيف فمُنعت بالسيف، أما الآن فتحاول الانتشار عن طريق تبليغ الدعوة، فبُعث المسيح الموعود عليه السلام لمبارزتها). سيأتي المصلحون في قومه دائما، وسيكون بمنزلة همزة وصل بين الأولين والآخرين. تعليمه يكون مبنيا على السلام والأمن ولن

يكون خاصا بقوم دون قوم بل يكون للجميع. يكون سلوكه أسوة للآخرين. وستُحدث الأقوام الأخرى في نفسها تغيّرا حسنا نتيجة تأثيره. وبواسطة تعليمه تُمحى الأحكام التقليدية وعديمة الحكمة ويُعطى تعليم حكيم. يبين تعليمه أمورا ضرورية من كل نوع ويكون كاملا تماما فلن تبقى هناك حاجة إلى تعليم آخر. سيتلخص تعليمه في أنه سيفتح طريق النجاة لكل قوم وأناس أيًّا كانت حالتهم. ينقذ ذلك الرسول الناسَ من الإفراط والتفريط ومن عبودية الشيطان. (المذاهب غير الإلهامية أسيرة في قبضة الشيطان كليا) سيثير الحسنات الكامنة في فطرة الإنسان. يكون كتابه محتويا على الإلهام الخالص، ولن يكون فيه حرف سواه. يبرِّئ ذلك الرسول ساحة الأنبياء السابقين من التهم الموجَّهة إليهم، وخصوصا سيُظهر للناس عمليا طهارة المسيح عليه السلام من خلال الأسوة.

لم يُدلَ بهذه الأخبار في وقت واحد ولم تُهيّأ الأسباب لها في وقت واحد. إن استمرار بقاء الأقوام وعمارة المدن نتيجة تصرفاتٍ طبيعية ممتدة إلى آلاف السنين، وإن ولادة شخص بملامح معينة نتيجةُ علمٍ معين في مجال علم الحيوانات، وإن نشوء الأفكار المذكورة في قلب الأصدقاء والأعداء نتيجة تغيّراتٍ تحدث تحت مبدأ معيّن في علم النفس، وهزيمة الأعداء نتيجةُ تغيّراتٍ سياسية، (يقول المسيحيون إن قيصر وكسرى كانا ضعيفين من قبل، فنقول: هذا يُثبت أن الأسباب لنصرة رسول الله ﷺ كانت تُهيأ حتى منذ فترة ما قبل ولادته) وكذلك إن التعليم الخاص وتفاصيله إنما هي نتيجة تدابير سماوية خاصة.

باختصار، إن هذه السلسلة تدل بكل وضوح على وحدة الملكوت السماوي والأرضي، وتسفر عن نتيجة واحدة وهي: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأن وحدة الملكوت السماوي والأرضي تدل على وجود أعلى وقادر. فسبحان الله الملك القدوس. هذا لا أقوله أنا وحدي بل ما قاله المسيح الناصري عليه السلام أيضا يتفق مع هذا الدليل، لأنه لا يقصد من دعائه القائل: لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا

فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. (إِنْجِيلُ لُوقَا ١١: ٢) إلا أن ادعُوا لبعثة محمد ﷺ، لأن ملكوت السماء في الأرض سيقوم بواسطته.

انظروا كيف تحققت الأنباء الواردة في (إشعياء: ٩) ونبوءة المسيح عليه السلام في (متّى: ٢١). لقد قيل عن محمد ﷺ إنه سيكون إلها قادرا ومالك الأرض والسماء، (أي: "صَاحِبُ الْكَرْمِ") ومعنى ذلك أن الدليل القوي على وجود الله وعلى كون أنظمة سماوية وأرضية بيد وجود أعلى سيلاحَظ في شخصه، وبواسطته يعلم الناس علما قطعيا عن وجود الله تعالى. إذن، إن مجيئه ﷺ سيكون مجيء الله تعالى.

إصلاح القرآن المبدئي الثاني عن صفات الله

الإصلاح الثاني الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفات الله تعالى. فالخطأ المبدئي الثاني عن الله تعالى أيضا نشأ في فئة من المؤمنين بالله الذين يؤمنون بوجوده ولكن ينكرون قيّوميّته سبحانه وتعالى. فيظنون أن الله سبحانه وتعالى خلق العالم ولكنه تنحّى عنه الآن، وجميع التغيّرات الملحوظة الآن تحدث من تلقائها، بمعنى أنه لو تلاشى وجود الله الآن، والعياذ بالله، لظلّ العالم ساريا على حاله دون أن يحدث أيّ خلل في نظامه. القائلون بهذا الكلام هم الذين ينكرون الدعاء ويحسبون كل شيء تابعا لقانون الطبيعة. القائلون بهذا ظلوا موجودين في كل زمان. وفي العصر الراهن كان السيد "سيد أحمد خانْ" من عليغره يعتنق الأفكار نفسها. وكان في كل عصر كثير من الناس من هذا النوع الذين قالوا إن الله لا يتدخل في أمور العالم الآن. فقد أصلح الإسلامُ خطأهم حيث يقول القرآن الكريم: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٢٧-٢٨).

نرى الآن كيف نشأت فكرة أن الله تعالى وضع قانونا ولم يعُد يتدخل فيه الآن قط؟ الحق أنها نشأت من قلة المعرفة، ولكن الفلاسفة يقدّمون بعض الأدلة بشأنها وهي:

الأول: إذا كان تصرُّف الله ينافي قانون الطبيعة فينشأ اعتراض أن هذا يُبطل الغاية من قانون الطبيعة. فمثلا قد وضع الله تعالى قانونا أن النار تحرق. فإذا دعا اللهَ أحدٌ ألا تحرق النارُ وأُجيب دعاؤه لسادت العالمَ فوضى ولما حصل أيّ تقدّم أبدا. يُتَّبَع قانون الطبيعة لأنه يسفر عن نتيجة يقينية. يُشعل الناس النار لأنها تحرق، ويشربون الماء لأنه يخمد العطش، فلو صعد اللهيب نتيجة شرب الماء لما شربه أحد أبدا.

الثاني: التصرُّف ضد القانون ينافي العدل. فمثلا إذا جهّز أحد أسلحة للحرب وكوّن جيشا، ففي هذه الحال يكون قد أطاع قانون الطبيعة للفوز في الحرب. ولو هزمه غيره نتيجة الدعاء فقط لكان منافيا للعدل أن يخسر مَن عمِل بحسب قانون الطبيعة وينجح مَن عمِل خلافه.

الثالث: إذا كان التصرُّف مطابقا لقانون الطبيعة كان بلا معنى، وكيف يمكن إجابة دعاء أحد في هذه الحالة؟ إن مَثل ادعاء قبول الدعاء في هذه الحالة كمثل الذي يقول: لقد أكلتُ طعاما، ولكني دعوت وأُجيب دعائي وشبعتُ. ما هو تأثير الدعاء في هذه الحالة؟ بل الطعام أبدى تأثيره.

والاعتراض الثاني هو أننا نرى لكل شيء سببا، بل ما يسمّونه نتيجة الدعاء يمكننا أن نثبت سببا له أيضا. فمثلا يقولون: لقد دعونا ورُزقنا ولدا ذكرا، بينما الحقيقة أن الولد يولَد نتيجة اجتماع الزوجين. وهكذا يولَد الأولاد على جاري العادة. فأرونا شيئا بعيدا عن الأسباب، أنبِؤوا بعيدين عن الأسباب. فمثلا إذا قلتم: لقد أُخبِرنا سلفا بأنه سيولد ولدٌ ذَكر وها قد وُلد، فهذا إظهار لواقع الحال، إذ كان مقدّرا أن يولَد ولدٌ ذَكر وعُلم به وأُخبرتم بذلك سلفا، فما علاقة هذا الأمر بالدعاء؟

الرد على الاعتراض الأول هو أن هذا لا يُبطل الغاية من قانون الطبيعة، لأن الله أيضا يخلق الأسباب عادة وبواسطتها ينال الإنسان هدفه، ولا يتصرف الله تعالى بغير الأسباب بل يخلق لتحقيق مشيئته أسبابا جديدة تكون خافية عن أعين الناس.

الجواب الثاني هو أن كل سبب في العالم ليس يقينيا، ومع ذلك يختار الناس أسبابا، فمثلا يبذلون جهودهم لعلاج الأمراض، ولكن هل هناك علاج يقيني وقطعي؟ لا يُشفى كل مريض، مع ذلك ينفق الناس آلافا مؤلفة على العلاج. فهذا يعني أن هناك استثناء في كل مجال. والاستثناء لا يُضعف القاعدة بل يقوّيها. كذلك: (١) إذا نفّذ الله قدره الخاص فهذا لا يؤدي إلى أيّ خلل في قانون الطبيعة بل تُنال به فائدة إضافية أن الناس يرون جلال الله تعالى، ويزدادون إيمانا بربهم. (٢) التصرُّف لا ينافي العدل أيضا لأنه ليس ضروريا أن يتماشى العدل دائما مع قانون الطبيعة. فمثلا يقطع قاتل عنق طفل صغير بالسيف. هنا يقتضي قانون الطبيعة أنه إذا وقع السيف على العنق يجب أن يُقطع العنق، ولكن هل هذا هو العدل؟ تتراءى في العالم ملايين المناسبات حين يستخدم الناس قانون الطبيعة استخداما خاطئا تماما، فكان ضروريا أن يُري الله معجزات تحول دون استخدام قانون الطبيعة استخداما خاطئا. فعندما يمنع الله تعالى بتصرُّفه استخدام قانون الطبيعة بصورة خاطئة فلا يفعل ذلك بصفته قاضيا بل بصفته مالكا. والدعاء لا يجاب إلا إذا كان الداعي على الحق، وإلا يُرَدّ عليه. فبذلك قد منع الله تعالى سوء استخدام قانون الطبيعة فقط، وهذا ليس ظلما بل هو عدلٌ بعينه. (٣) يقال: إذا كان تصرُّف الله مطابقا لقانون الطبيعة فما معنى هذا التصرُّف؟ هذا الكلام أيضا ليس صحيحا لأنه لو مشى التصرُّف مع قانون الطبيعة فقط لكان بلا فائدة دون شك، ولكن إذا ظهر التصرُّف بواسطة جعْل القانون تابعا له فكيف يكون دون فائدة؟ لأنه لو لم يكن هناك تصرُّفٌ في هذه الحالة لظهر القانون بشكلٍ مخالفٍ ولتسبب في خسارة.

الرد على الاعتراض الثاني هو أنه لا شك أن لكل شيء سببا ولكن القائلين بتصرُّف الله لا يقولون إنه يتصرّف بغير الأسباب، بل يقولون إنه تعالى يخلق الأسباب في حق الذي يدعوه. والحق أن خلق الأسباب رحمة للعالم وإلا فالتصرّف بغير الأسباب الظاهرية يُنتج الفساد أحيانا. فنرى أنه حيثما جعل الله تعالى الأسباب خافية تعثّر الناس في ذلك المقام. انظروا مثلا أن ولادة المسيح عليه السلام كانت مدعاة لعثار اليهود، فاتهموا مريم عليها السلام بالزنا، ولكن ولادة يحيى لم تكن حجر عثرة لهم.

كذلك ولادة الابن عند السيدة سارة أيضا لم تكن سببا لعثار أحد. والسبب هو أن الأسباب الظاهرية وراء ولادة إسحاق ويحيى عليهما السلام كانت ملحوظة، ولكنها لم توجَد في ولادة المسيح عليه السلام، لذا تعثر اليهود؛ مع أن خلق صفة الإنجاب في مريم أو في زكريا أو سارة كان شيئا واحدا تماما. إذن، إن إخفاء الأسباب يؤدي أحيانا إلى الفساد بدلا من فضل الله تعالى. لذا إن خلق الأسباب رحمةٌ للناس ولإنقاذهم من الفتنة. لا نقول قط إن الله تعالى لا يقدر على فعل شيء بغير الأسباب أو لا يتصرّف حيثما كانت الأسباب موجودة. بل نقول إنه تعالى يخلق نتيجة الدعاء أسبابا تؤدي إلى أن تتم الأمور نتيجتها. في البداية لا يرى أحد تلك الأسباب، ولكنها تنشأ نتيجة الدعاء. فمثلا قد خلق الله تعالى عدة أسباب ليتقدم الإنسان في التجارة، ولكنها لا تتيسر كاملة لكل شخص، أما إذا دعا أحد تتيسر له الأسباب ويُكتب له التقدم. ولكن لو أسقط الله في بيت أحد عشرة آلاف روبية بصورة ظاهرية لقبضت عليه الشرطة على أنه سرقها. إذن، إن خلق الأسباب يكون في معظم الأحيان مفيدا لمن يتصرف الله من أجله.

يقال: نقبل أن الله يخلق الأسباب، ولكن كيف تُقنعون منكِرًا أن الله خلق الأسباب وهكذا ظهر تصرُّفه، أو جرى قانون عام بمناسبة كذا وظهر التصرف بمناسبة كذا؟ لهذا السؤال جوابان، الأول: مَن يصبح لله يخضع كل فعل من أفعاله تحت تصرُّف الله قليلا كان أم كثيرا. ولكن في بعض الأحيان يخلق الله بحسب تصرُّفه

الخاص أسبابا لا يمكن أن يقع بسببها على العبد أيّ اعتراض وتظهر قوته كما حدث في معركة بدر، إذ أطلق الله ريحا عاتية في الوقت نفسه الذي رمى به رسول الله ﷺ الحجارة. فلم يقدر الكفار على الرؤية بسبب الريح العاتية لأنها كانت متجهة إليهم، بينما استطاع المسلمون أن يشنوا الهجوم بشدة. فمن هذه الأمثال يضطر العدو أيضا إلى الاعتراف بأنه كان تصرُّفا خاصا، ولا يقع أيّ اعتراض على الذي ظهرت هذه الآية لتأييده. ولكن الأمثلة من هذا النوع تحدث نادرا وتُقدَّم دليلا إلى زمن طويل. ثم يرسل الله تعالى إنسانا آخر وتظهَر معجزات مثلها تأييدا له.

أما السؤال: لماذا لا نقول إن النبوءات تفيد إظهارَ الحقيقة فقط ولا يكون فيها أيّ تصرُّف لله؟ فجوابه أن إظهار الحقيقة أيضا يكون لهدف معين. عندما يخبر الله أحدا أنه سيُرزق ابنا فلماذا يخبره قبل الأوان؟ لا بد أن يكون وراءه سبب معين. أو إذا أخبر أحدا أنك ستموت فلا بد أن تكون وراء هذا الإخبار حكمة. وتلك الحكمة هي أن الله يبشر أحدا ببشارةٍ حتى يسعى لإحقاقها. وينذر ﷻ غيره ليحاول اجتناب مصيبة موشكة، وإلا إذا كانت النبوءة بلا هدف فهي لغو. فلو لم تكن هناك وسيلة للحصول على الخير واجتناب الشر فما معنى الإخبار أصلا؟ وإذا قلتم إن الهدف من الإخبار قبل الأوان هو التنبيه لَقلتُ: هذا أيضا تصرُّفٌ. إن إخبار أحد أن أسبابا كذا وكذا ناشئة فاستعد لها، فهذا أيضا تصرُّف وإن كان غير مباشر. هذا كان سؤال الفلاسفة وقد رددت عليه. أما السؤال الثاني فهو من الناس العمليين إذ يقولون إننا ندعو ولا يجاب دعاؤنا. فمثلا دعونا أن نُرزق ولَدا ولم نُرزق به. ودعونا لنربح قضية ما ولكن لم نربحها. لقد ردّ القرآن الكريم على كل هذه الأمور وقدّم دليلين على ادعائه؛ أحدهما من منطلق الفلسفة والآخر من منطلق المشاهدة.

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ *

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٩١-١٩٨).

في هذه الآيات بيّن الله تعالى عدة أدلة على تصرُّفه. (١) لا يعمل في خلق العالم القانون الطبيعي فقط، بل يعمل القانون الروحاني والأخلاقي أيضا. تقولون إن التدخل لا يليق بالله ولكننا نقدم نكتة أخرى وهي أن تتأملوا لماذا خُلق هذا العالم؟ هل السبب وراءه هو أن يأكل الإنسان ويشرب ويموت؟ هذه ليست الغاية المنشودة، أو هل ليوصَل الإنسانُ إلى مدارج عليا ومراتب سامية من التقدم؟ إذا كان الأمر كذلك فتبين أن الهدف من وراء خلق العالم ليس إجراء القانون الطبيعي بل هو إجراء القانون الأخلاقي. والهدف من خلق العالم هو أن يولَد فيه الإنسان ويصبح إنسانا ربّانيا، فيقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

انظروا الآن إن قانون الطبيعة يراه الجميع، فما حاجة التأمل والتدبر فيه إذن؟ ولكن الله تعالى يقول إن أولي الألباب يفكرون فيه ويتوصلون إلى نتيجة أن العالم لم يُخلق بلا هدف، ثم يقولون: وفِّقنا يا ربّ لنعيش بحسب هذا الهدف. وما هو ذلك الهدف يا تُرى؟ هو: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، أي هب لنا مدارج عليا من التقدم الروحاني والأخلاقي التي بسببها يصبح الإنسان إنسانا ربانيا، وأنقذنا مما يُبعدنا عن الله تعالى. لقد بدأنا السعي لهذا الغرض فوفّقنا أن ننجح في مسعانا.

(٢) الدليل الثاني هو: من الممكن بل على الأغلب أن يندرس القانون الروحاني والأخلاقي إن لم يتصرف الله فيه، لأن النبي يأتي لإظهار جلال الله تعالى في الدنيا، ومع كونه ضعيفا يُري العالم كمال تصرُّف الله. في ذلك الوقت يكون العالم كله ساريا تحت قانون الطبيعة، لذا تكون المفاسد كلها على أوجها. فعندما تحدث المفاسد بسبب قانون الطبيعة يقيم الله تعالى بواسطة النبي قانون الأخلاق والروحانية. كما أنه عندما يتصارع المصارعان يدعم المرء من كان أقرب إليه ليجعله غالبا. كذلك عندما يجري قانون الطبيعة ضد القانون الأخلاقي ويحدث الفساد يبعث الله تعالى من عنده نبيا ويؤسس القانون الأخلاقي.

فلو أُريدَ تحقيق الهدف من خلق العالم لكان تصرُّف الله ضروريا ليغيّر مسار الأحداث كلما استعان فرد قوي أو فئة بقانون الطبيعة للقضاء على القانون الأخلاقي والروحاني. لذلك قال الله تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٦)، أي خلقتُ العالم بُغية التقدم الروحاني، فلا أدُعُ هذا الهدف يضيع.

والآن نعود إلى المشاهدة، يقال إن الدعاء لا يُقبَل. فيقول الله تعالى بأنه لا يجيب كل دعاء ولكن ليس صحيحا القول إنه لا يجيب أيّ دعاء. فإذا أردتم مشاهدة نموذج تصرُّف الله تعالى فشاهدوه من خلال تعامله مع الكفار. يقول تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٩٧-١٩٨)، فإذا نظرتم إلى الوسائل فكان أعداء محمد ﷺ يملكون الوسائل كلها، وكان قانون الطبيعة أيضا يعضدهم تماما. ولكن ما دام قانوننا

الأخلاقي مقدَّما عليه فنحن نخبر أن الذين يجعلون جيوشهم ووسائلهم وسيلة للترهيب، قدّر الله تعالى أن يبيد وسائلهم ويُفلح محمدا رسول الله ﷺ. صحيح أنه ﷻ يقول إنه ما دام قانون الطبيعة أيضا مما وضعه ﷻ، لذا يجب أن تبقى شوكته قائمة، ويجب ألا يُنبذ وراء الظهور بالاعتماد على قانون شرعي وأخلاقي، لأن في ذلك إساءة لله تعالى، فيقول ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠١).

يا أيها الذين آمنوا قد رددنا على اعتراض الأعداء القائل إن الله لا يجيب الدعاء، فقد أخبرناهم أننا نجيب الأدعية وسنتصرف بحيث لن تنجحوا مع امتلاككم عُدّة وعتادا بل سيفوز مقابلكم العُزّلُ. ولكن يجب ألا ترتكبوا الخطأ فتقولوا بأنكم لستم بحاجة إلى الالتزام بقانون الطبيعة، لأن ذلك القانون أيضا وضعتُه أنا. فيا أيها المؤمنون اصبروا ورابطوا وأعِدُّوا عُدتكم حتى تفلحوا.

في بعض الأحيان تقتضي مشيئة الله أن يترك المرء استخدام قانون الطبيعة تماما. وذلك كما حدث ذات مرة حين أصيب المسيح الموعود عليه السلام بالسعال، وكان شديدا لدرجة أنه عندما نُشر خبره في الجرائد تنبأ الدكتور عبد الحكيم أن المرزا أصيب بالسل وسيموت بهذا الداء. عندما نُشرت هذه النبوءة كنتُ أنا المكلَّف بالاعتناء بحضرته عليه السلام وإعطائه الدواء وما إلى ذلك. وكنتُ أرى أنه يجب على المسيح الموعود عليه السلام أن يلتزم بتعليماتي بهذا الشأن بصفتي مكلَّفا بالاعتناء به. في تلك الأيام جاء أحد الإخوة زائرا وجاء ببعض الفواكه هدية. عندها كان المسيح الموعود عليه السلام مستلقيا، وقبل هنيهة كان قد أصيب بنوبة سعال شديدة. ثم سأل عليه السلام ما هي الفواكه؟ قلتُ: الموز والبرتقال. وقلت: يجب ألا تأكلوا لأنكم مصابون بسعال شديد. فوضع عليه السلام الفواكه بجانبه وبدأ يأكل وهو يبتسم. شعرتُ بالانزعاج على ذلك وفكّرتُ في نفسي: ماذا عساي أن أردّ إذا سألني المولوي نور الدين (الذي صار الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام فيما بعد)؟ توسّم المسيح الموعود

عليه السلام حالتي وقال مبتسما: أنت تستاء من أكلي الفواكه، ولكنني تلقيت إلهاما أن السعال قد زال.

باختصار، في بعض الأحيان يخلق الله تعالى أسبابا بحيث لا يحتاج الإنسان إلى الالتزام بقانون الطبيعة. توجد أحداث من هذا القبيل في حياة النبي ﷺ أيضا؛ فعندما فرّت مطايا الصحابة رضي الله عنهم في غزوة حُنين، ولم يبق حوله ﷺ إلا ١٢ شخصا، قالوا له: يمكنك أن تتأخر قليلا لأن هجوم العدو شديد الوطأة. فقال ﷺ للصحابي الذي كان يمسك زمام مطيته: اترُكْها وشأنها، ثم ركل المطية وتقدّم وهو يقول:

أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب.

مع أن السهام كان تنزل مثل المطر ولكنها لم تُصبه ﷺ. إذن، يحدث أحيانا أن الأسباب التي تنشأ تحت تصرُّف الله تعالى لا تُرى.

هذا الجواب يشمل جواب الاعتراض على الدعاء أيضا، أي أن قوانين الله الطبيعية والأخلاقية تمشي جنبا إلى جنب. لذا الدعاء يجاب بحسب مبادئ كلا القانونين، ومن أراد خلاف ذلك فهو سفيه. باختصار، ليس هناك فوضى في القانون الأخلاقي والروحاني.

الإصلاح المبدئي الثالث عن التوحيد

الإصلاح الثالث الذي قام به القرآن الكريم هو عن التوحيد. إن أول فساد نشأ في هذا الموضوع كان أن اتُّخذت آلهة أخرى مقابل الله تعالى. سواء أكان هذا الفساد بصورة الشرك في الذات -كما هو ملاحظ في المسيحيين والهندوس والزرادشتيين- أو بصورة الشرك في الصفات كما في اليهود حيث يقولون إن عزيرا ابن الله، ويحسبون "مَلْكي صادِق" والي شاليم، أزليا وأبديا وبدون أبوين، ويعتقدون أن إلياسا (إيليا) وغيره الكثيرين أحياء في السماء. ولكن الإسلام قضى على كل هذه الأنواع من الشرك وأقام توحيدا خالصا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الزمر: ٦٣-٦٤).

في هاتين الآيتين قدّمت أربعة أدلة لتفنيد الشرك، (١) يتبين بكل جلاء بالنظر إلى جميع الأشياء أنها لم يخلقها وجودان بل خلقها وجود واحد، وخُلقت كلها بحسب قانون واحد. لم يخلق الطفلَ كيانٌ وخلق الغذاءَ كيانٌ آخر بل الطفل أيضا يولَد من غذاء تأكلونه. والمأكولات خلقها الله تعالى، فقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي كون الله خالق كل شيء دليل على أنه ليس هناك إله آخر.

(٢) الدليل الثاني هو: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، أي أن الله تعالى محافظ على كل شيء، بمعنى أن حفظه الأشياء كلها يعمل تحت قانون معين. فمثلا يُشفى ابنٌ مريضٌ لأحدٍ، فلو شُفي دونما سبب لقيل إن الذي شفاه غير الذي خلق الشمس والقمر. وما دام للشمس والقمر أيضا دخلٌ في شفائه لذا لا بد من الاعتراف بأن الذي خلق الشمس والقمر هو الذي شفاه.

(٣) هو القادر الوحيد على سدّ جميع الحاجات الروحانية والمادية، كما يقول: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فما دام الله هو الذي يقضي حاجات الناس كافة، مادية كانت أم روحانية فلم يعُد هناك حاجة إلى عزير ويسوع ومَلْكي صادق وغيرهم. فأين الحاجة إلى إله آخر ليُتخَذَ معبودا؟

(٤) الدليل الرابع هو: إن مؤيدي التوحيد يفلحون دائما، وأعداء التوحيد يفشلون دائما. فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين ينكرون التوحيد يفشلون دائما مقابل المؤمنين به، وهذا دليل عملي على وحدانية الله تعالى.

إذن، إن فكرة الشرك في الذات والشرك في الصفات كلتيهما خاطئة. فمن ناحية جعل بعض الناس خللا في التوحيد بأفكارهم الشركية، ومن ناحية ثانية اعتنق بعضهم عقيدة وحدة الوجود نتيجة إفراطهم في التوحيد، واتخذوا كل ذرة إلـهًا. وقد فنّد القرآن الكريم هذا السلوك أيضا. لقد أيد هؤلاء الناسُ التوحيدَ

بحسب زعمهم وقالوا: إذا اعتقدنا بوجود آخر سوى الله فهذا يستلزم الشرك. ولكنهم لم يفكروا أنهم اتخذوا كل شيء إلـها. ففنّد الله تعالى ذلك أيضا قائلا: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٩)، أي تقولون إن كل شيء إله ولكن لا ترون أن كل ما يولَد يهلك يوما، فإذا كان كل شيء إلها فلا يمكن أن يحدث فيه تغيُّر. وحدوث التغيُّر فيه دليل على أنه ليس جزءا من الإله، لأنه لو أمكن حدوث التغير في جزء لأمكن حدوثه في الكل أيضا.

لقد لعن القرآن الكريم كثيرًا من الناس، وهذا أيضا يفنّد المعتنقين بعقيدة وحدة الوجود. معنى اللعنة هو الإبعاد، فإذا كان كل شيء جزءا من الله، فلماذا أُبعد هؤلاء الناس؟ يقول بعض الناس إنها قسوة، ولكن الحق أن عقيدة وحدة الوجود قد استؤصلت بهذه الطريقة. فإذا قبِلنا أن كل شيء جزء من الله فلا بد من القبول أن أجزاءه وسخة ونجسة جدا، والعياذ بالله، وهذا لا يليق بالله تعالى. لو قلنا للقائلين بوحدة الوجود بأنكم جيدون ولكن قلبكم نجس لاختصموا. ولكن الأشياء التي يعُدونها جزءا من الله يقولون بأنها نجسة.

لقد تبنى بعض الناس نظرية تناقض العقيدة المذكورة آنفا وفصلوا العالَم عن الله كليا، وقالوا إن الإله موجود على العرش وبعيد عن الخلق تماما وجالس في السماء ويحكم العالم من هنالك. هذا الاعتقاد يعتنقه اليهود الموحدون والزرادشتيون، ويعتنقه أهل الحديث أيضا لسوء الحظ. لقد دحض الإسلام هذا الاعتقاد أيضا وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٤)، ولكن الجالس على العرش بعيدا لا يمكن أن يكون الأول والآخر والظاهر والباطن، ولا يمكن أن يكون بكل شيء عليما.

ثم يقول ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٧). كيف يمكن له أن يكون أقرب من حبل الوريد ما لم يكن قادرا على التصرّف في الجسم كله.

باختصار، إن تعليم الإسلام هو أن ليس كل شيء إلها، كما أن الله ليس محصورا في مكان معين. ولما لم يكن كل إنسان قادرا على إدراك مسألةِ أن الله تعالى موجود في كل مكان ومع ذلك هو بعيد أيضا، لذا فقد ردّ الله تعالى على ذلك في سلسلة الردود على اعتراضات أخرى، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٢)، أي هذا الاعتراض ناتج عن الجهل. يمكن الظن بالمخلوقات أنها ليست مما لا مثيل له ولكن ليس لله أيّ مثيل مطلقا، لذا فإن قياسكم أنفسكم على الله ﷻ ليس إلا غباوة وحمقا، فلا تقيسوه على أنفسكم. ما كان يفوق قدرتكم كان السعي نحو إدراكه عبثا. تقولون إن الله سميع، فهل تقولون أيضا إن له آذانا مثلكم؟ فعندما تقولون إنه تعالى يسمع بغير الأذنين ويرى بغير العينين، وإن القانون الذي ينطبق علينا بشأن الرؤية والسماع لا ينطبق على الله ﷻ، فلماذا تطبّقون بشأن المكان قانونا ينطبق عليكم. فمن كان أعلى منكم كان السعي لفهمه عبثا. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧). يقول الناس إن العين والأذن وحدهما أداتان للتجسس، بينما يقول الله تعالى بأنه إذا تجسس القلب أيضا عُلِم به. ليس ضروريا لفهم شيء أن يُفهَم كنهه أيضا، فالإنسان يقدر على الفهم بقدر ما هو في قدرته. إن علم الإنسان نوعان، فهو لا يعلم عن بعض الأشياء إلا وجودها فقط ولا يعلم كيفيتها. ولكنه يعلم عن كيفية بعض الأشياء الأخرى وحقيقتها، ويعلم منبع بعضها. باختصار، الإنسان يتقدم بقدر ما يتقدم إدراكه. فيقول الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ولو تقدمتم على ذلك أكثر لتعثرتم.

الإصلاح المبدئي الرابع عن العلاقة بين الله وعبده

الإصلاح المبدئي الرابع الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بالعلاقة بين الله والعبد. تثار بهذا الشأن وسوسة أن الله تعالى لم ينزل كلاما لهداية العبد، بل الإنسان يختار لنفسه سبيلا بناء على تجربته. يعتقد الفلاسفة ومن على شاكلتهم بوجود الله ولكنهم

يعتنقون العقيدة المذكورة آنفا عن الإلهام والشريعة، ولكن القرآن الكريم يدحضها ويقول: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ (الأنعام: ٧٢) أي اعلموا أنه لا يمكن للإنسان أن يشق طريقه بنفسه في أمور روحانية، بل الله وحده قادر على إرشاده إلى هذا الطريق. ثم ذكر الله سببا لذلك وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ٧٤).

في هذه الآية قدم ﷻ الأدلة التالية:

الأول: إن كلام الله يكون مبرًّأ من الخطأ. والبراءة من الخطأ ضرورية للهداية، غير أنه من الممكن أن يُقبل في أمور دنيوية خطأ لا يسفر عن خسارة. فمثلا ظلَ آباؤنا يعتقدون أنّ الماء عنصر واحد وهذا لم يُسفر عن أية خسارة، ولكن لو صدر الخطأ بحق الله فلم نؤمن به واحدا، ستكون النتيجة جهنم. لذا من الضروري أن يعطي اللهُ وحده هدايةً روحانية لتكون نزيهة عن الخطأ، ويجب ألا نبحث عنها بتجربتنا.

الثاني: هو الهدف الذي من أجله نحتاج إلى كلام الله أي التقدم الروحاني بعد الموت، ولا يعلم أسراره إلا الله تعالى. فالغاية التي لا يعلمها الإنسان أنّى له أن يضع قوانينها لنفسه؟ الأعمال التي تكسبونها في هذا العالم يكون الهدف منها الحصول في الحياة الأبدية على قوة تستطيعون العمل بسببها في الآخرة. وما دمتم لا تعلمون كيفية العالم الآخر فأنّى لكم أن تهيئوا له أسبابا؟ والله تعالى وحده متصرف على ذلك العالم، فهو وحده يستطيع أن يعطيكم قوة على الاستعداد له.

الثالث: هو أنه ﷻ عالم الغيب والشهادة، أي يعلم الأمور الظاهرية والخافية. اتركوا العالم الآخر جانبا وخذوا هذا العالم، فإن فطرتكم مودَعة قوى كبيرة ولكن الإنسان لا يعلمها بنفسه بل الله وحده يعلم كل هذه الأمور، لذا هو وحده قادر على توفير أسباب التقدم، وليس لأحد سواه أن يوفرها.

الرابع: هو أنه ﷻ عليم وخبير، فهو مطّلع على قدرات الإنسان وكذلك على نقاط ضعفه. فيقول: ما دمتُ أعلم ما هي السبل التي يجب إخباركم بها لذا أنا

الذي أُهيّء الأسباب لأن الحكيم والخبير هو الذي يقدر على وضع القواعد. لذلك كان الخليفة الأول ﷺ يقول إنه ضروري للزعيم الروحاني أن يكون طبيبا أيضا، وإلا يمكن أن يخبر الناسَ بما يضر بصحة الإنسان.

الوسوسة الثانية المثارة عن كلام الله تعالى هي قولهم إن الله تعالى يُنزل الكلام ولكن ليس بصورة الألفاظ بل يخلق الأفكار في القلوب. هذا الخطأ يرتكبه أتباع برهمو سماج والمسيحيون واليهود والهندوس أيضا في هذه الأيام، ويقولون: هل لله فمٌ ولسانٌ حتى يتفوه بالألفاظ؟ جوابه الأول هو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فكما يسمع ﷻ بغير أُذن ويرى بغير العين كذلك هو قادر على الكلام بغير اللسان. ما دام هؤلاء المعترضون يعترفون بقدرة الله على الرؤية والسماع، فما معنى هذا الاعتراض. هذا جواب إلزامي، أما الجواب الحقيقي الذي قدّمه الله تعالى فهو: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩٢)، هنا تمّ تفنيد حجج الذين ينكرون الكلام، وضُرب مَثلُ موسى ؑ. والسبب في ذلك أن اليهود كانوا يعتقدون أن الله كلّم الأنبياء الآخرين بصورة الرؤى أو بواسطة الوحي الخفي القلبي أو ما شابهه، ولكنه كلّم موسى بالكلمات. فقد ورد في سِفر العدد: "تَكَلَّمَتْ مَرْيَمُ وَهَارُونُ عَلَى مُوسَى بِسَبَبِ الْمَرْأَةِ الْكُوشِيَّةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا، لأَنَّهُ كَانَ قَدِ اتَّخَذَ امْرَأَةً كُوشِيَّةً. فَقَالاَ: هَلْ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَحْدَهُ؟ أَلَمْ يُكَلِّمْنَا نَحْنُ أَيْضًا؟ فَسَمِعَ الرَّبُّ." (اَلْعَدَد ١٢ : ١-٢)

فسخط الرب على ذلك فناداهما مع موسى وقال: اسْمَعَا كَلاَمِي. إِنْ كَانَ مِنْكُمْ نَبِيٌّ لِلرَّبِّ، فَبِالرُّؤْيَا أَسْتَعْلِنُ لَهُ. فِي الْحُلْمِ أُكَلِّمُهُ. وَأَمَّا عَبْدِي مُوسَى فَلَيْسَ هكَذَا، بَلْ هُوَ أَمِينٌ فِي كُلِّ بَيْتِي. فَمًا إِلَى فَمٍ وَعَيَانًا أَتَكَلَّمُ مَعَهُ، لاَ بِالأَلْغَازِ. (اَلْعَدَد ١٢ : ٦-٨)

يقول بنو إسرائيل إن الله لم يكلّم على النحو المذكور الأنبياءَ قبل موسى عليه السلام فحسب بل بقي هذا الفرق قائما مع الذين جاؤوا بعده أيضا. فقد جاء في سِفر التثنية بعد ذكر وفاة موسى عليه السلام: "لَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ،" (اَلتَّثْنِيَة ٣٤ : ١٠) يقرُّ القرآن الكريم ببعض الصفات الفريدة لموسى عليه السلام إذ قد جاء فيه عن الأنبياء: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥). التكليم هو الكلام وجها لوجه. لقد ذُكرت في الكتاب المقدس رؤى الأنبياء بوجه عام، وهذا الأمر أدّى رويدا رويدا إلى إنشاء الفكرة في اليهود أيضا -كما في بعض المسلمين- أن الإلهام هو ما يُلقى في القلب ولا يكون لفظا. وبناء على هذه الفكرة لا يزال النصارى يعترضون على القرآن إلى اليوم، مع أنه قد ورد في كتبهم أن موسى تلقى إلهاما لفظيا. فقال الله تعالى لهم: اتركوا الأنبياء الآخرين جانبا، هل يوجد ادعاء الوحي الحرفي بحق موسى أم لا؟ والذين لا يؤمنون بموسى عليه السلام مثل الهندوس وأتباع برهمو سماج يقول الله بحقهم: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ (الأنعام: ٩٢)، تتحدثون عن الوحي القلبي، فهذا النوع من الوحي ما زال جاريا منذ البداية، ولكن هل من وحيٍ يذكر علمًا جاء في القرآن الكريم؟ فإذا بقيتم محرومين من علوم القرآن على الرغم من الإلقاء في قلوبكم، وعلَّمنا محمدا (صلى الله عليه وسلم) علما لم يَعلَمْه آباؤكم، فكيف يمكنكم إنكار أفضلية الإلهام الحقيقي وضرورته؟

الإصلاح المبدئي الخامس عن صفة الله "الخالق"

الإصلاح المبدئي الخامس الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفة الله "الخالق". بعض الناس يؤمنون بوجود الله ولكن لا يؤمنون به خالقا، بل يقولون إن كلًّا من الروح والمادة جاء إلى حيّز الوجود من تلقائه. هذا ما يعتقد به بعض الفلاسفة والهندوس أيضا. ولكن القرآن الكريم دحض هذه الفكرة بالأدلة وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٥٠)، أي الاعتقاد بأن كلًّا من الروح والمادة لا زال موجودًا من تلقائه خاطئ تماما، إذ لم نخلق أيّ شيء فردا بل

خلقنا كل شيء زوجا. فأمعنوا النظر في كل شيء في العالم لن تجدوا أي شيء فردا، بل كل ما ترونه إنما هو مركّبات. ولكل شيء جهة ولون وقوام. فلما لم يخلق الله أيّ شيء فردا بل خلقه مركّبات فكيف يصح القول إن المادة موجودة منذ الأزل؟ العلوم أيضا تؤيد فكرة أن الله تعالى خلق كل شيء زوجا.

(٢) ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٩)، بيّن الله ﷻ في هذه الآية أن كل شيء هالك لا محالة، أروني شيئا لا يندرس؟ الأشياء التي ظُنّ عنها من قبل أنها لا تباد تبيَّن الآن أنها أيضا هالكة. والأشياء التي يُظن اليوم أنها لا تندرس سيعلمون عنها غدا أنها أيضا هالكة. فهلاك الأشياء يُثبت أنه ما من شيء قائم في حد ذاته. ثم قال الله تعالى بأنه حاكم على كل شيء، ولكن السؤال هو: ما دام لم يخلق المادة والروح فكيف يكون حاكما على أشياء تُصنع أو صُنعت بواسطتهما؟ هل تقبلون أم لا أن الله تعالى يتحكم في الروح والمادة؟ إن كنتم تعترفون بتحكمه سبحانه وتعالى فيهما فكيف يمكن القبول أن الذي ليس ظالما يحكمهما بغير سبب، مع أنه ليس له دخل في خلقهما؟ باختصار، إن وجود شيء زوجا يدل على نقص فيه وهلاكه وكونه مخلوقا. كذلك إن حكومة الله والرجوع إليه دليل على كونه خالقا.

الإصلاح المبدئي السادس عن مالكية الله

الإصلاح المبدئي السادس الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفة الله "المالك". لقد نشأ بهذا الشأن خطأان؛ أولهما عقيدة التناسخ التي أُمسك بها بكل شدة. وقيل إن بعض الناس في هذه الدنيا في حالة دنيّة وحقيرة، وبعضهم يحظون بحالة أفضل. وهذا الفرق هو بسبب أعمالهم السابقة. كذلك بعض الناس يواجهون مصائب وبعضهم يتمتعون بالراحة والبحبوحة، وهذه أيضا مغبة أعمالهم السابقة. ولكن القرآن الكريم يعلن أن زعمهم هذا باطل فيقول: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٠-١٠١)، أي يقول الكفار عند موتهم: أعِدنا يا ربنا إلى الدنيا لننفق في سبيلك ما تركناه وراءنا ونعمل صالحا... يقول الله تعالى بأن هذا كلام محض، لأن المجرم عندما يدخل الجحيم يقول قلقا: أعِدْني إلى الدنيا. وبناء على هذا الاعتقاد اتُّخذت عقيدة التناسخ. يقال: الحاجة أُمّ الاختراع، وإن عقيدة التناسخ نتاج الذُعر المذكور آنفا، بمعنى أننا لو متنا كاسبين أعمالا سيئة فما الذي يمكن أن يحدث معنا؟ الحق أن هذا اختراع ذهنيةٍ جاهلة ومجرمة. يقول الله تعالى بأن هذا قول تقوله روح مجرمة في بيئتها، وهذه أمنيتها الطبيعية، ولكنها لن تتحقق. لماذا لن تتحقق؟ يقول الله تعالى ردّا على ذلك: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٣)، أي لقد قدّر عَجَّلَ أنه لن يُدخل الأرواحَ في دوامة التناسخ، بل سيظل يجمعكم إلى يوم القيامة. والذين ألقوا أنفسهم في التهلكة لا يؤمنون بالقيامة بسبب سوء أعمالهم. يتبين من ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أن فيها تفنيد التناسخ، لأنه تعالى لم يقل إنه يُبقيكم إلى يوم القيامة ولن يعيدكم.

هنا قدّم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دليلا أن الله مالك، وللمالك خيار أن يحفظ شيئا في المقام الذي يريده. هل لأحد أن يقول لمالك مثلا: لماذا صنعتَ من هذا الجلد حذاء ولماذا لم تصنع حزاما؟ أو هل لأحد أن يعترض قائلا: لماذا قررتَ خياطة سروال من هذا القماش ولماذا صنعتَ من الآخر قميصا؟ يقول الله تعالى: تقولون إنه لظلم عظيم إذ جُعل أحد غنيا والآخر فقيرا، ولكن قولوا: هل أنا مالك كل شيء أم لا؟ فإذا كنتُ مالكا فما كلَّفتُ به أحدا هو الصحيح.

هنا ينشأ سؤال: هذا يعني أنه يمكن لله أن يُدخل من يشاء في الجنة ويُدخل من يشاء في الجحيم. يقول الله تعالى بأن هذا من حقي، ولكنني فرضتُ على نفسي ألا أفعل ذلك. فقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٣)، فلا يوقع عَجَّلَ

أحدا في مشكلة مع كونه مالكا. ولهذا السبب لا يعيد الأموات إلى هذا العالم، بل قدّر أن يكون يوم القيامة هو يوم الفصل، وقد حدّد طريقا آخر للحُكم. وعندما نتأمل نجد التناسخ يناقض الرحمة في الحقيقة، أما القيامة فتطابق الرحمة تماما.

والآن نرى كيف يحدث الخلل في رحمة الله بسبب التناسخ. يقال إن الهدف الحقيقي من التناسخ هو الإصلاح ويقال إن الروح تحظى بالإصلاح نتيجة المرور بدوامة التناسخ. ولكن الحق أن إصلاح البشرية يتم نتيجة العلم بالحقيقة وليس نتيجة الجهل. فكّروا الآن هل جعْل الإنسان حيوانا أو طيرا أو سبُعًا بواسطة التناسخ يصعِّب إصلاحه أم يسهِّله؟ لقد وهب الله تعالى الإنسانَ عقلا، وثروة ومعرفة الحسنة والسيئة، وأعطاه قوة لاجتناب السيئات، ولكنه أذنب فحرمه الله العقل وجعله حيوانا غبيا لا عقل له، وبذلك جُعل كسب الحسنة أصعب عليه من ذي قبل. إذن، إن إخراج الإنسان من حال أفضل ودفعه إلى حال أسوأ ينافي رحمة الله ويُبعده عن الإصلاح. أما إذا جُعل إنسانا ثم أُعيد إلى هذا العالم فستكون هناك حالتان: إما تكون لديه معرفة بالحياة السابقة أو سيكون جاهلا بها. إذا كان يعرفها فلم يبق الإخفاء، فما معنى النجاة في حال انكشاف الحقيقة عليه وعلمه أنه عُوقب بسبب كذا وكذا. أما إذا كان جاهلا بها فكيف يمكنه أن يصلح نفسه؟ بل سيبقى دائرا في هذه الحلقة الفارغة على مدى الحياة، ومن الممكن أن يزداد سوءًا بدلا من كسب الحسنات.

إذن، إن طريق الرحمة هو الذي بيّنه الإسلام، وهو أنه من كسب الأعمال الصالحة في هذه الدنيا يُعطى فرصة للتقدم فيها في العالم الآخر. أما من اكتسب الذنوب فسيُزال صدأه في جهنم حتى تكون له فرصة للنجاة في المستقبل على الأقل، وألا يدور في دوامة الولادات المتجددة دائما.

الأمر الثاني المتعلق بالمالكية الذي تعثّر الناس بشأنه هو الكفارة. وهذا الخطأ أيضا نتج عن عدم معرفة صفة الله "الرحيم". يقول النصارى: لو غفر اللهُ للمذنبين لكان ذلك ظلما، وما دام الله لا يستطيع أن يغفر لأحد ذنبه فلذا أرسل ابنه ليُصلَب

تكفيرًا عن ذنوب الناس. هذا الاعتراض أيضا ناتج عن عدم معرفة صفة مالكية الله تعالى، لأن المالك يستطيع أن يغفر لمن يشاء، ومن ليس مالكا فهو الذي لا يستطيع أن يغفر. غير أنه يمكن أن يثار اعتراضٌ أن الإسلام يقبل أن الله لن يغفر بعض الذنوب. ولكن معالجة هذا الاعتراض هي أيضا تحت صفة المالكية. فيقول الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (آل عمران: ١٩٦)، أي لأمحونّ آثار سيئاتهم ولأسددنّ من عندي ما عليهم من ديون. فأيّ اعتراض يقع إن أدّينا الكفارة عنهم؟ أقول: هناك فرقٌ بين هذه الكفارة والكفارة التي يؤمن بها المسيحيون؛ إذ يرى النصارى أنه ما دام الله لا يستطيع أن يغفر فقد ضحّى بابنه، بينما يقول الإسلام إنه ﷻ مالك ويستطيع أن يغفر، ولكنه لا يضيع حق أحد بل يؤتي الأجر من عنده.

الإصلاح المبدئي السابع عن صفة الله "رب العالمين"

الإصلاح المبدئي السابع الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفة الله "رب العالمين". كان كل قوم ينكر صفة الله "رب العالمين" وحصروا الهداية في بلدهم وقومهم فقط لدرجة أن المسيحية التي هي ديانة تبشيرية، كانت قد فتحت الباب للمستقبل، أما فيما يتعلق بالزمن الماضي فكانت تحسب الهداية منوطة باليهودية حصرا. ولكن القرآن الكريم أعلن عن المستقبل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩) وقال عن الزمن الماضي: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥).

(٢) كانت بعض الأقوام تُفضَّل على أقوام أخرى، فكان قومٌ يُحسَبون محترمين وغيرهم أذلاء مهانين. كان الهندوس قد محوا المساواة بواسطة التفريق بين الفئتين العرقيتين "برهمن" و"شودر"، وفعل اليهود الشيء نفسه بحصْر الكهنوت في بني لاوي. كذلك عدّ بعض الأقوام أنفسهم أحق بالأفضلية بسبب الحكومة. ولكن الإسلام

عدّ هذا الأمر أيضا منافيا لصفة الله "رب العالمين" وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٤)، أي أن تقسيمنا إياكم إلى فئات وقبائل لا يعني أن بعضكم كبار وبعضكم صغار، بل التقسيم يفيد التعارف فقط، وإلا فإن أكرمكم هو أتقاكم، والله أعلم من يعمل بالتقوى ومن يختار طريق الاستكبار والتفاخر. وقد منع الله تعالى في هذه الآية من احتقار الآخرين بناء على التفوق الاجتماعي، وقال ﷻ إن الأفضلية تكمن في التقوى لا في الفئات العرقية والأقوام.

كذلك فنّد الله تعالى التفوق السياسي أيضا وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٥)، أي كان يعُدّ بعضا حاكمين ويقول عن غيرهم إنهم من قوم محكومين، ولكننا لم نضع أيّ قانون مفاده أن يكون قوم معين حاكمين إلى الأبد وقوم آخرون محكومين دائما. الناس الآخرون أيضا مثل الإنجليز تماما، ولا يحق لهم أن يقولوا إننا سنحكم إلى الأبد، وغيرهم سيكونون محكومين دائما.

الإصلاح المبدئي الثامن عن صفة الله "الحكيم"

الإصلاح الثامن الذي قام به القرآن الكريم يتعلق بصفة الله "الحكيم". كان في الأديان كلها قبل القرآن الكريم شعور أنه لا هدف من خلق هذا العالم. لا شك أن الهندوس والبوذيين كانوا يعتقدون بالنجاة وكان اليهود ينتظرون تلقي الحكومة والسلطنة، وكان النصارى يعتقدون بالنجاة من الموت والحصول على الأمن، وكان الزرادشتيون ينتظرون الجنة، ولكن لم يكن منها شيء يمكن عدُّه هدفا لخلق العالم بل هي أهداف محدودة كلها لا توضح حقيقة الخلق. بينما حلّ القرآن الكريم هذا السؤال أيضا وقال إن الهدف من خلق العالم هو أن ينال الإنسان -الذي هو عالَم صغير- معرفة الله، التي تُسمى اللقاء أيضا بتعبير آخر، لأن الإنسان يعرف ما كان موجودا بداخله. فمثلا إذا كان زيدٌ يعرف بكرًا فهذا يعني أن صورة بكرٍ موجودة

في تكوين زيدٍ، وإلا لا يمكن أن يعرفه. فالمعرفة تعني أن الله تعالى قد حلّ بالإنسان. يقول هندوسي إن الله دخل الإنسانَ، ولكن لو حصل ذلك لما بقيت لدى الإنسان أية حاسة ولن يستمتع بشيء أبدا. فمثلا إذا أكل أحد جزرا فهل يستمتع الجزر بشيء؟ يقول الإسلام إن الله تعالى يحلّ بالإنسان ومع ذلك يُبقي حواس الإنسان قائمة على حالها. ويقول الإسلام إن هذا الأمر ليس خاصا بإنسان معين بل كل إنسان سيوصَل إلى هذا المقام. فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧)، أي قد خُلقت الجنّ والإنس لعبادتي والتذلل لي لينصبغوا بصبغتي ويتّصفوا بصفاتي. ولكن يكون هناك أناس لا ينالون هذه المرتبة، أي مرتبة لقاء الله تعالى. فيقول ﷻ عنهم: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، أي أعذب من أشاء، ولكن هذا لا يعني أني سأبقيه في العذاب إلى الأبد بل ﴿رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي قد خلقتُ رحمتي له أيضا، وقد فرضتها للمؤمنين الذين يتقون ويؤدون الزكاة ويؤمنون بآياتنا.

باختصار، إن الهدف من خلق البشر -أيا كانوا؛ سواء يهودا أو نصارى أو هندوسا ومسلمين- أن ينالوا معرفة الله تعالى عاجلا أو آجلا، ويخلقوا صفاته ﷻ في أنفسهم. وهذا هدف لا يشارك الإسلامَ فيه أيُّ قوم في العالم. لقد خلق اللهُ تعالى الإنسان لهدف وحيد وهو أن يكون مظهرا لجلال الله تعالى، ولهذا الغرض كما خلق الله محمدا ﷺ كذلك خلق أبا جهل، ولكن الفرق الوحيد هو أن محمدا ﷺ نال هذه الهدف باختياره صراطا مستقيما، بينما سيُقادُ أبو جهل إلى الهدف نفسه بعد مروره بأنواع العقوبات.

باختصار، من كان سباقا في نيل هذا الهدف سيبقى في الأمام، ومن مشي في الخلف يبقى في الخلف دائما.

فضائل القرآن (٦)

ترتيب القرآن وحقيقة الاستعارات

طريق إزالة سوء الفهم الناتج عن الاستعارات والتشبيهات

(خطاب أُلقي في ٢٨/١٢/١٩٣٦م
بمناسبة الجلسة السنوية بقاديان)

بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة قرأ ﷺ الآيات التالية من الذكر الحكيم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى

الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل: ١٦-٢٩)

إن موضوع محاضرتي اليوم حلقة من سلسلة المحاضرات التي كنت ألقيها ما قبل ثلاثة سنين، أي "فضائل القرآن". ثم انقطعت هذه السلسلة لثلاثة أعوام لأن إلقاء محاضرة طويلة لم يكن ممكنا بسبب شهر رمضان. وهذه المرة أيضا لا أستطيع أن أخطب طويلا بسبب اعتلال صحتي. ولكن لما كنت قد عزمت على بيان هذا الموضوع سلفا لذا رأيت من المناسب أن أبين جزءا منه بايجاز.

لم يدّعِ كتاب سوى القرآن الكريم كونه أفضل الكتب

إن جميع الأديان الموجودة في العالم يدّعي أهلها أفضليتها وتقول عن كتبها الدينية أيضا إنها أفضل الكتب، ولكن كتبهم لا تدّعي ذلك. لم أر إلى يومنا هذا كتابا سوى القرآن الكريم ورد فيه أنه أفضل من كتب دينية أخرى. غير أن القرآن يدّعي دون أدنى شك أنه أفضل من جميع الكتب الإلهامية. ولكن ما هو وجه أفضليته؟ يجب على المسلمين أن يردّوا على هذا السؤال. أصحاب الأديان الأخرى إما لا يقرأون القرآن الكريم أو يقرأونه بنظرة العناد ولا يقرأونه بقلب نزيه، أو لأنهم لا يملكون قلوبا مطهَّرة - ويقول القرآن الكريم عن نفسه: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ - فلا تنكشف عليهم مفاهيم القرآن الكريم. فمن واجبنا نحن أن نوصل إليهم

معارف القرآن الكريم، ونُثبت لهم أن القرآن الكريم ليس كتابا أعلى فقط بل هو أفضل من جميع الكتب الإلهامية. لقد ألقيتُ خمس محاضرات من قبل حول هذا الموضوع، إذ قد ألقيت محاضرة تمهيدية في عام ١٩٢٨م، ولكن صحتي كانت معتلة جدا حينذاك لذا بيّنتُ بعض الأشياء في غضون ساعة أو ساعة ونصف فقط. ثم ألقيت محاضرات مفصلة حول فضائل القرآن الكريم في الأعوام ١٩٢٩م، ١٩٣٠، ١٩٣١، ١٩٣٢ وقد اضطررت عندئذ أيضا أن أترك بعض الأشياء.

لقد ألّف المسيح الموعود عليه السلام كتابا بعنوان "البراهين الأحمدية" وأبدى فيه نيته أنه سيبين فيه ٣٠٠ دليل لإثبات صدق الإسلام وأفضليته. ولكن عندما تأملتُ في الموضوع قيد البحث رأيتُ أن ٣٠٠ دليل - وإن لم أعدِّدها- على أفضلية الإسلام وتفوّقه موجودة في رؤوس الأقلام التي أعددتها لهذا الموضوع. وإذا قرأ أحد رؤوس أقلامي لاتضحت له بحسب رأيي أمور كثيرة. أقول ذلك لأن الإنسان لا يعرف متى تنقطع سلسلة أنفاسه وتنتهي حياته، فلا أدري هل سأقدر على بيان هذا الموضوع كاملا أم لا، لذا ذكرتُ هذا الأمر. لقد جمعتُ هذه المادة كلها باختصار شديد، بل كنت في بعض الأحيان- في العامين ١٩٢٨، ١٩٢٩م- أجمعها في إشارات فقط، وبيّنتها أيضا بمناسبة الجلسة السنوية. لا أذكر عدد الأدلة التي بيّنتُها لذا لا أستطيع أن أذكر العدد بل سأتناول اليوم ضمنيا فقط جانبا خاصا من أفضلية القرآن الكريم دون وضع العدد له. وإذا وفّقني الله تعالى لإكماله سيكون مقدمة جميلة لتفسير القرآن الكريم، وثانيا سيكتمل كتاب "البراهين الأحمدية" أيضا، وذلك بالأسلوب الذي ذكره المسيح الموعود عليه السلام في بداية الكتاب، وإن أُكمل فيما بعد بأسلوب آخر، أي بالأسلوب الذي أثبت به الوحي والإلهام. وإنّ ما أثبتته بعثته وعظمة نبوءته مِن غلبة الإسلام على الأديان كلها هو أكثر بكثير من تأثير ثلاث مئة دليل. وكتب المسيح الموعود عليه السلام بنفسه أيضا أن سلسلة التأليف هذه قد

اتخذت الآن أسلوبا آخر بسبب الإلهامات من الله تعالى، ولم يَعُد من قِبلنا أي شرط بل سيتمّم اللهُ تعالى هذا الأمر كما يشاء بغير الاهتمام بالشرط السابق، لأن الله تعالى بنفسه هو الكفيل لهذا الكتاب الآن، وإن مشيئته تريد إكماله بطريقة أخرى. ولكن لو تحققت أمنية المسيح الموعود الأولى أيضا لتلاشى اعتراض المعترضين أنه لم يُكمل "البراهين الأحمدية" ولم يقدم ثلاث مئة دليل على أفضلية القرآن الكريم على الرغم من وعده بذلك.

"البراهين الأحمدية" والشيخ جراغ علي الحيدر آبادي

تكتب في هذه الأيام جرائد معادية لنا مثل "زميندار" و"إحسان" وغيرهما أن شيخا باسم جراغ علي الحيدر آبادي كان يكتب هذه المقالات ويرسلها إلى المسيح الموعود ، وما دامت سلسلة المقالات جارية من قِبل الشيخ المذكور استمر المسيح الموعود في تأليف الكتاب، وعندما امتنع الشيخ عن إرسال المقالات له انقطع تأليف الكتاب. مع أنه من غير المعقول تماما ما كان يحدث للشيخ جراغ علي إذ كلما خطرت بباله نكتة جميلة كان يرسلها إلى المسيح الموعود مكتوبة، أما الكلام العادي من قبيل القيل والقال فكان يحتفظ به عنده. من المعلوم أن الشيخ جراغ علي صاحب تأليفات، فليُقارَن بين كتبه وبين البراهين الأحمدية ليُعلم هل هناك أدنى مماثلة بينها. فما السبب في أنه يقدر على كتابة مقالات جميلة إلى هذا الحد لغيره ولكن عندما يريد أن ينشر مقالا باسمه لا يصل إلى ذلك المستوى؟ السؤال الأول هو: ما الذي أجبره على أن يكتب المقالات للمسيح الموعود ؟ وثانيا: إذا كان يكتب له في كل الأحوال كان من المفروض أن يحتفظ بالمادة الجميلة عنده ويعطي غيرَه شيئا عاديا. كما يعرف الجميع عن الشاعر "ذوق" أنه كان ينظم الأبيات للشاعر "ظفر"، و"مجموعة أشعار ذوق" و"مجموعة أبيات ظفر" متوفرتان اليوم وقراءتهما تبيّن بكل جلاء أن الفصاحة والبلاغة الموجودة في كلام

"ذوق" لا توجد في كلام "ظفر". وهذا يوحي بكل وضوح أن "ذوق" إذا أعطى "ظفر" شيئا كان يعطيه من لفاظاته ولم يعطه شيئا ذا مستوى عالٍ مع أن "ظفر" كان ملكا.

باختصار، كل إنسان حتى ذي العقل البسيط أيضا يستطيع أن يفهم أنه إذا كان المولوي جراغ دين يرسل المقالات إلى المسيح الموعود ، فقد كان عليه أن يحتفظ بنكات المعرفة الدقيقة عنده، ويكتب للمسيح الموعود أمورا بسيطة. ولكن كتب المولوي جراغ دين موجودة وكتب المسيح الموعود أيضا موجودة، فلينظر المرء بقراءتهما معا هل هناك مجال للمقارنة بينهما. لقد جمع المولوي جراغ دين في كتبه مقتبسات من الكتاب المقدس فقط، بينما قدم المسيح الموعود معارف القرآن الكريم التي لم تخطر ببال أيّ مسلم في ١٣٠٠ عام، ولا يوجد واحد بالمئة أو جزء من الألف منها أيضا في كتب غيره.

المشكلة في فهم الكتاب الإلهامي

إن موضوع خطابي اليوم هو أن المواضيع الصعبة توجد في كل كتاب إلهامي، فتنشأ الشبهات حولها في قلوب الناس ولا تنحل بسهولة أو يبدأ النقاش بينهم حولها. فيقول أحدهم إنها تعني كذا ويقول آخر إنها تعني كذا ولا يكون الأمر واضحا مثل أمر ﴿أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ أما الذي يعرف اللغة العربية وهو ملِمٌّ بالإسلام فيدرك معنى هذا التعبير فورا. ولا ينشأ نزاع أن المراد

﴿أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ هو الصوم وليس الصلاة، أو ليس المراد هو الصوم بل الحجُّ. ولكن يمكن أن يكون هناك اختلاف في كيفية الصلاة وفي مستوى الخشوع والخضوع بين الناس، كما يمكن أن يكون هناك فرق في المعرفة. ولكن لا يمكن الاختلاف في المعنى أن المراد منه هو الالتزام بالصلاة، بل كلما تفوه أحد بتعبير: ﴿أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ أو قرأه أحد في القرآن الكريم سيدرك فورا أن معناه هو الالتزام بالصلاة. أما المسائل

الصعبة فيفهمها البعض ولا يفهمها البعض الآخر. وهناك حاجة إلى أن يشرحها لهم العارفون، لأن عامة الناس إما أنهم لا يتأملون فيها بأنفسهم أو أن قلوبهم لا تكون مهيأة لجذب فضل الله تعالى نتيجة إثم من الآثام. هذه المضامين الصعبة تكون على نوعين بوجه عام. الأول: المضامين العلمية المبنية على فلسفة دقيقة. خذوا مثلا التوحيد، فكل واحد يستطيع أن يفهم من هذه المسألة أن الله واحد، أما دقائقها الأخرى مثل: كيف يؤثر التوحيد على كل فعل من أفعال الإنسان، فهي بحاجة إلى عارف وإلى عالم لشرحها للآخرين إذ لا يقدر كل واحد على أن يستخرج هذه الدقائق، إلا أنه سيفهم حتما أن القرآن الكريم لا يقول بإله آخر. والنوع الثاني هو أن هذه المشاكل تنشأ عن مفاهيم لا تكون علمية ولكنها تكون قد ذُكرت بلغة التشبيه والاستعارة.

نتيجة اعتبار الاستعارات حقيقة

كلما يكون الكلام بالاستعارات، وإن لم يكن دقيقا، فإن عامة الناس يستنتجون لعدم فهمهم لغة الاستعارات معانٍ غير حقيقية. فمثلا حدث في زمن رسول الله ﷺ أنه أمّر زيد بن حارثة قائدا على الجيش للحرب في الشام، وقال: إذا قُتل زيد فليتولّ جعفر بن أبي طالب القيادة، وإذا قُتل جعفر فليتولّها عبد الله بن رواحة، فحدث كما قال النبي ﷺ بالضبط وقُتل زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة ﷺ، فتولّى خالد بن الوليد قيادة الجيش وعاد به بسلام وأمان. عندما وصل هذا الخبر إلى المدينة بدأت النساء اللاتي قُتل أزواجهن، والآباءُ الذين قُتل أولادهم بالبكاء بقدر ما تسمح به الشريعة. فقال رسول الله ﷺ -على سبيل العزاء وليس لتجتمع النساء ويبدأن بالبكاء: لا بواكي لجعفر. أرى أنه لم يكن المطلوب بهذا القول قط أن يبكي أحد على جعفر، بل كان المراد منه أن أخانا أيضا قُتل في الحرب ولا نبكي عليه، فلتصبروا أنتم أيضا، لأن من أقارب جعفر

كان رسول الله ﷺ وأيضًا عليّ رضي الله عنه، وما كان لهما أن يبكيا بسبب علوّ مكانتهما. فلعل رسول الله قال ما مفاده: لا بواكي لجعفر، من منطلق أن أخي جعفر أيضا قُتل وما بكيتُ عليه. فلما سمع الأنصار قوله ﷺ هذا، قالوا لنسائهم - لأنهم كانوا حريصين دائما على أن يعملوا بكل ما يقوله النبي ﷺ- اترُكنَ البكاء والعويل هنا واذهبن إلى بيت جعفر رضي الله عنه وابكين هنالك. فاجتمعت النساء في بيت جعفر رضي الله عنه وبكين بشدة. ولما سمع رسول الله أصوات البكاء سأل عما يجري. قال الأنصار: لقد قلتَ يا رسول الله أنه لا بواكي لجعفر فأرسلنا نساءنا إلى بيته ليبكين، فهذا هو صوت بكائهن. قال ﷺ: لم أقصد ذلك، فاذهبوا وامنعوهن. فذهب أحدهم ومنعهن، فقلن: من أنت لتمنعنا؟ لقد قال رسول الله ﷺ متأسفا: لا بواكي لجعفر، فكيف تمنعنا؟ عاد الأنصاري مع هذا الجواب إلى رسول الله ﷺ لأن بعض الناس يحبون أن يذكروا كل صغيرة وكبيرة عن الآخرين، فقال: إنهن لا يطعِنَ. قَالَ: "فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ". كان النبي ﷺ يقصد من ذلك أن اترُكهن وشأنهن وسيسكُتن تلقائيا بعد شيء من البكاء. ولكن الرجل أخذ التراب في قماش وبدأ يحثوه على رؤوسهن. فقلن: ماذا تفعل يا جاهل؟ قال: لقد أمرني رسول الله: "فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ"، فلا بد لي مِن فعل ذلك. ولما علمت السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك، زجرته وقالت: لم تفهم قصد النبي ﷺ، إذ كان يريد من قوله هذا أن اترُكهن وشأنهن وسيسكُتن بأنفسهم بعد شيء من البكاء، ولم يقصد ﷺ أن تهيل التراب على رؤوسهن وفي أفواههن. إذن، كان كلام النبي ﷺ المذكور كان من باب الاستعارة، ولكن الرجل بدأ بإلقاء التراب عليهن عمليا. إذن، بعض الناس لا يحاولون أن يفهموا الاستعارة، ويأخذون منها أحيانا معنى حرفيا ينافي الحقيقة، وهكذا ينقلب الموضوع رأسا على عقب.

الاستدلال الخاطئ من الخيط الأبيض والخيط الأسود

ضربت لكم مثالا من كلام المجتمع العربي، والآن أضرب مثالا من المجتمع البنجابي. لقد جاء في القرآن الكريم عن وقت السحور في شهر رمضان: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذه استعارة والمراد منها هو أن استمروا في الأكل والشرب ما لم ينبلج الفجر. ولكن كثيرا من الفلاحين كانوا يحتفظون فعلا بخيط أبيض وخيط أسود عندهم، وما دام الخيط لا يُرى جيدا إلا بعد فترة من انبلاج الصبح لذا يستمرون في الأكل والشرب إلى طلوع النهار. فهذه نتيجة عدم فهم الاستعارة. ولما يكون بصر بعض الناس ضعيفا نسبيا، لذا يمكن أن يثبتوا من هذه الآية جواز الأكل والشرب إلى ما بعد طلوع النهار أيضا لأنهم لن يعرفوا الفَرق المذكور إلا في ضوء الشمس. كان أخونا الدكتور مير محمد إسماعيل يدرس في لاهور وكان يسكن في بيت أحد الأحمديين. وذات يوم لم يوقظه أهل البيت زاعمين أنه لا يزال صغيرا، ولكن السيد محمد إسماعيل كان مولعا بالصيام، كما هي عادة الأطفال الصغار، فاستيقظ عند نهاية وقت السحور وكان الضوء منتشرا، ومن جانب آخر خطر ببال صاحب البيت أن يُطعمه لئلا ينزعج. فلما أراد محمد إسماعيل أن يفتح الباب قال له صاحب البيت: لا تفتح وإلا سيتراءى الضوء، وسأناولك الطعام دون فتح الباب.

الاستعارات في نبوءات الأنبياء

باختصار، يستنبط الناس من الاستعارات معاني بحيث يحملونها محمل الحقيقة فيتغير المعنى إلى حد كبير. هذه المشكلة يواجهها الناس بشأن الكتب الإلهامية بوجه خاص، إذ يقول الناس بأنه كتاب الله ولن نسمح باستنباط معنى آخر من أية آية من آياته. توجد الاستعارات في نبوءات الأنبياء أيضا، بل الحق أن كل شخص يستخدم الاستعارات كل يوم. ولكن عندما يجدون الاستعارة في كلام الأنبياء

يقولون: لن نسمح باستنباط معنى آخر منه وإلا سيثبت أن الأنبياء أيضا يكذبون، والعياذ بالله. بل دعك من كلام الله وكلام الأنبياء، يختار الناس موقفا قاسيا جدا بشأن كلام الصلحاء أيضا ويحملون الاستعارات في كلامهم محمل الحقيقة بدلا من حملها محمل الاستعارة.

طُرفة

لقد ألّف أخونا شيخ يعقوب علي عرفاني حكاية بعنوان: "سلك مرواريد" وأورد فيها قصة امرأة كانت تجادل كثيرا وتفحم المشايخ. قرأ أحد أفراد الجماعة في مدينة "كاتهغره" هذا التأليف، وذات مرة سأله الإخوة- في أيام الجلسة في عهد المسيح الموعود عليه السلام أو في عهد الخليفة الأول رضي الله عنه: هل ستذهب للاشتراك في الجلسة؟ قال: هذه المرة أريد السفر إلى جهة أخرى. سألوه: إلى أين ذهابك؟ لم يكشف الأمر في بداية الأمر، ثم قال بعد إصرار السائلين: أريد السفر إلى مدينة "سهارنبور" لأن امرأة صالحة وخبيرة تسكن هنالك وهي مذكورة في كتاب "سلك مرواريد" (كان شيخ يعقوب علي عرفاني قد قال في كتابه أنها تسكن في سهارنبور) أو أنا مشتاق إلى لقائها. قالوا: يا صاحبنا، تلك حكاية محضة كتبها شيخ يعقوب علي وذكر فيها امرأة افتراضية فقط ولا نعلم هل هناك امرأة بهذه الصفات تسكن في سهارنبور في الحقيقة أم لا. قال: هل تحسبون شيخ يعقوب علي كاذبا، وهو أحد أصحاب المسيح الموعود عليه السلام؟ قالوا: الأمر لا يمت لكونه كاذبا بأدنى صلة بل تلك حكاية وتُذكر الأمور في الحكايات على هذا النحو. قال هؤلاء الإخوة إن ذلك الرجل لم يصدق كلامنا بداية، ولما أكدنا له مرارا وتكرارا قال: هل الأمر هكذا؟ دعوني أصِل إلى قاديان، سأقول للمسيح الموعود عليه السلام أن يطرد شخصا كاذبا مثله من الجماعة فورا ولا يُبقيه في الجماعة ولا دقيقة واحدة. لقد أعياني جمع النقود للسفر إلى سهارنبور وعلمتُ الآن أن القصة كلها كذب وزور. فقد

تعذر على هذا المسكين الفهمَ أنه ليست هناك امرأة من النوع المذكور بل هذه حكاية افتراضية أُلِّفت لتشويق الناس لقراءة الحكايات ليطّلعوا على معتقدات الأحمدية بهذه الطريقة.

عقلية الذين لا يفهمون الاستعارات

باختصار، المشكلة بشأن الكتب الدينية هي أنه كلما وردت فيها استعارة هبَّت فئة من الناس وقالوا: لن نسمح لكم بخطو خطوة واحدة إلى الأمام ما لم تقبلوا الأمر حرفيا بالكلمات التي وردت في القرآن الكريم. فمثلا إذا ورد ذكر أنهار من لبنٍ في الجنة لا يوقنون بوجودها ما لم يقولوا بأن لدى الله جواميس كما لدى الناس في محافظات باكستانية مثل مونتغمري، ولاهور وشيخوبوره. وإذا جاء ذكر الموز لا يقتنعون ما لم يقولوا بوجود الموز كما في مومباي. وإذا ذُكرت الخمر فقد يقبلون أن الخمر في الجنة أكثر نقاء ولكن لن يقبلوا أنه يمكن أن يكون المراد من الخمر شيء آخر. وإذا ذُكرت الحورُ والغِلمانُ ثارت شهوتهم ثورة لا مثيل لها.

في عهد الخليفة الأول رضي الله عنه سافرتُ ذات مرة إلى لكهناؤ لزيارة مدينة "مدراس"، وصادف ذلك انعقاد جلسة ندوة العلماء. فذهبتُ لمشاهدة وقائعها. كان هناك أستاذ هو المولوي عبد الكريم، وكان خطابه عن محاسن الصلاة. كان عدد الحضور قليلا ولكن معظمهم كانوا مسلمين من طراز المشايخ. كان ضمن الحضور محام مسلم جالس بجانبي. بدأ المولوي المذكور بإلقاء المحاضرة وقال: يجب على الناس أن يلتزموا بالصلاة. وأكبر فائدة منها هي أن الإنسان يدخل الجنة بسببها. وما هي الجنة يا تُرى؟ ثم بدأ يصف كيفية الجنة بكلمات لا يمكنني بيانها، وسأكتفي ببيان جزء وجيز جدا منها. قال: ستكون فيها صور جميلة جدا، وإذا شغف المرء بالنظر حبا في صورة معينة سوف تتحول إلى امرأة جميلة فورا، ومن ثَمّ تبدأ العلاقات بين الرجل والمرأة ولن تنتهي هذه العلاقات كعدم زوال الجنة.

إذن، هذا العيب في فهم المحاضر كان عائدا إلى أنه قرأ من القرآن الكريم بضع كلمات تتحدث عن الحور واستنتج منها أن ما يحدث في هذه الدنيا سيحدث تماما في الجنة أيضا. المحامي الذي كان جالسا بجانبي قال: من حسن الصدفة أن موعد محاضرته كان ليلا، فإن كانت محاضرته في النهار وحضرها عدد أكبر من المستمعين لواجهنا خزيا كبيرا. باختصار، يواجه الناس في معاملتهم مع الكتب الإلهامية مشكلة بوجه خاص، وهي أن الناس يقولون بأنه كتاب الله فيجب حمل التشبيه والاستعارة المستخدمة فيه محمل الحقيقة ولا يمكن أن يكون لها معنى آخر بأي حال.

صعوبة فهم المضامين العلمية لدى عامة الناس

كذلك يصعب كثيرا على عامة الناس فهمُ المضامين السامية الواردة في الكتب الإلهامية، ولهذا الأمر عدة أسباب. الأول: إن ترتيب الكتب الإلهامية يكون مختلفا عن الكتب العادية. ففي الكتب العادية تُبيَّن أولا مسائل الوضوء مثلا ثم تُذكر مسائل العبادات، ثم تُذكر في باب مسائل النكاح، وفي باب آخر يأتي ذكر الطلاق والخلع، وفي باب آخر تُذكر أشياء أخرى. وحيثما تُذكر المسائل من هذا النوع تُذكر معا. ولكن الأمر لا يكون كذلك في الكتب الإلهامية، بل يكون ترتيبها غريبا ومختلفا تماما عن الكتب الدنيوية لدرجة أنْ يقول الجهلاء إنه لا ترتيب فيها أصلا.

حكمة اختلاف الترتيب في الكتب الإلهامية

السؤال الذي ينشأ هنا هو: لماذا جُعل ترتيب الكتب الإلهامية مختلفا عن الكتب الدنيوية العادية؟ وجوابه أن في ذلك حِكما كثيرة.

(ا) هذا الترتيب يهدف إلى إنشاء الرغبة والمتعة في الكلام كله. ولكن لو كان ترتيب الكتاب الإلهامي كترتيب كتاب "القدوري" مثلا حيث ذُكرت مسائل الوضوء والنكاح، لبدأ الناس العمل بتلك المسائل بالذات بحسب أذواقهم، ولما قرأوا بقية

القرآن الكريم. ولكن الله تعالى قد نثر المسائل كلها بأسلوب لا يستطيع المرء أن ينال علمها الكامل ما لم يقرأ القرآن كله.

(ب) لقد اختار الله تعالى هذا الترتيب لخلق عادة التأمل والتدبر أيضا في الناس. فلو ذُكرت في القرآنِ المسائلُ مثل الكتب العادية لما انتقل ذهن الناس إلى مفاهيم دقيقة أيضا لتلك المسائل ولَقرأه الناس بنظرة سطحية وحُرموا من التأمل والتدبر، ولكن الله تعالى قد نثرها في القرآن كله وجعلها متداخلة فيما بينها كي يضطر الإنسان للتأمل والتدبر لاستخراجها، فيتبين له أن القرآن بحر.

(ج) لقد وُضع هذا الترتيب لسبب آخر أيضا وهو خلق خشية الله تعالى، لأنه كان ضروريا لخلق خشية الله. فمثلا لو ذُكرت المسائل ببساطة أن توضأوا هكذا، وتمضمضوا هكذا واعبدوا هكذا وصلّوا ركعات كذا وكذا، لما نشأت خشية الله. كما أن كافة مسائل العبادة وما شابهها مذكورة في "القدوري" و"الهداية" وغيرهما أيضا ولكن لا تنشأ خشية الله بقراءتهما. ولكن حين يقرأ المرء المسائل نفسها في القرآن الكريم يزخر قلبه بخشية الله، لأن القرآن الكريم يبينها خاضعة لخشية الله وليس منفصلا عنها. والحق أن الهدف الحقيقي من مسائل الصلاة والصوم والحج والزكاة هو الحصول على التقوى. فالقرآن الكريم يقدّم التقوى ليكون الإنسان جاهزا للوضوء سلفا إذا طُلب منه أن يتوضأ، ويكون مستعدا للصلاة سلفا إذا قيل له أن يصلّي. لو كان في القرآن باب منفصل لبيان الصلاة لما نشأت بقراءته خشية الله. إذن، ما دامت الكتب الإلهامية تقدِّم الإصلاح لذا فهي تهمل الترتيب السطحي وترتّب ترتيبا جديدا يحرك العواطف، أي يذكر الكتاب الإلهامي تغيرات تنشأ في القلب. فلا يذكر الصلاةَ بعد الوضوء بل يوجه الإنسان نتيجة الوضوء إلى الروحانية والطهارة وقرب الله تعالى، لأنه بسبب الوضوء تنشأ عواطف الروحانية. ثم عندما يأتي الأمر إلى بيان مسألة الصلاة لن يشرع الله تعالى في بيان مسائل الصلاة بل سيوجه

الإنسان إلى نفسه مستغلا العواطف التي تنشأ في القلب نتيجة ذكر السجود والركوع وغيرهما، ليأخذ الإنسان من العواطف التي تنشأ في نفسه تأثيرا يقرّبه من الله تعالى.

مثالان للحالات القلبية

باختصار، إن ترتيب القرآن الكريم ليس مبنيا على الظاهر، بل على موجات العواطف القلبية، وهذه الموجات تكون مختلفة. أضرب على ذلك مثالين اثنين، أحدهما حسن والآخر سيء. يُروى أن إمام مسجد همّ ذات يوم إلى إمامة الصلاة، ورأى أن المقتدين ميسورو الحال، فذهب وهله في الصلاة إلى أنهم لو أعطوني بعض الهدايا لتكدست عندي أموال كثيرة. وإذا اجتمعت عندي أموال سأشتري بها سلعة تجارية وسأقوم بتجارة واسعة النطاق، وسأذهب بأشيائي إلى دلهي تارة وإلى كالكوتا تارة أخرى. باختصار، ظل يفكر على هذا النحو، ثم رسم خطة تجارية بين الهند وبخارى. فكان في الظاهر يركع ويسجد، ولكنه كان في واد ظاهريا وأفكاره في واد آخر تماما. كان ضمن مقتديه رجل صالح فطرأت عليه حالة الكشف وأُخبر بكل ما كان يدور في خلد الإمام من الأفكار، فقطع الرجل الصالح صلاته وتنحى عن المصلّى. عندما أنهى الشيخ الصلاةَ سخط من الرجل الصالح وقال: ألا تعلم مسألة أنه يجب أداءِ الصلاة خلف الإمام؟ قال: أنا أعرف المسألة ولكن صحتي ضعيفة، وقد ذهبتُ معك إلى دلهي، ومن دلهي إلى بخارى، وتعبتُ بذلك كثيرا، ولأني ما كنت قادرا على احتمال عناء السفر الطويل لذا انفصلت عنك. فلزم الإمام الصمت نادما.

إذن، هذه كانت أفكار سخيفة نشأت في قلبه ولكن ترتيبها كان بحسب عواطفه القلبية. والمبدأ نفسه ينطبق على الأفكار الحسنة، أي التي تنشأ بالأسلوب نفسه. لعلكم جربتم أكثر من مرة أنكم تسجدون وتقرأون: "سبحان ربي الأعلى" ويكون قلبكم أيضا حاضرا حينذاك، يتراءى أمام

عينيكم مشهد سبوحية الله تعالى. ففي هذا الوقت يخرج من لسانكم "سبحان ربي الأعلى" للمرة الثانية والثالثة ولكن قلبكم يبقى معلّقا بـ "سبحان ربي الأعلى" الذي تفوّهتم به أول مرة. أو تقولون "الحمد لله" ويكون قلبكم حاضرا، عندها تمر منن الله تعالى أمام أعينكم واحدة بعد أخرى تحت حمده ﷻ، وتغرقون في ذكر تلك المنن. وفي هذه الحال إذا صلّيتم وراء أحد ستسجدون وراءه تارة وتركعون تارة أخرى وتقولون بلسانكم "سبحان ربي العظيم" وما شابه، ويكون الحمد مستوليا على قلوبكم. إذن، ترد على القلوب بعض الكيفيات الروحانية، وهي الصلاة الحقيقية. صحيح أن الإنسان في ذلك الوقت يتفوه ببعض الكلمات ولكن عواطفه تكون سائرة على طريق روحاني معين. إذن، إن ترتيب القرآن الكريم مبني على الكيفيات التي ترد على المؤمن. لا يذكر القرآن الكريم الصوم بعد الصلاة لأنه يعلم ما هي الأفكار التي ستنشأ في الإنسان بعد قراءته تعليمه هذا. فيبين القرآن الكريم الأفكار التي يمكن أن تنشأ في قلب الإنسان. إذن، إن ترتيب الكتب الدينية ولا سيما ترتيب القرآن الكريم ليس مبنيا على العلاقة الظاهرية بل هو مبني على العواطف التي تنشأ عند قراءته. ما دام الله العالم بالغيب ويعلم نوعية العواطف التي يمكن أن تنتج عن آية كذا أو حُكم كذا، لذا أسس الترتيب على العواطف التي تنشأ في قلب المؤمن بدلا من التوجّه إلى الترتيب الظاهري. ولكن هذا يسفر حتما عن نتيجة أن الذين لا يقرأون القرآن بعواطف الحب والوُدّ يبدو لهم هذا الكتاب غير ممتع، فيقولون: ما هذا؟ كان ذكر موسى جاريا آنفا فلماذا بدأ بذكر نوح فجأة ثم ذُكرت وقائع شعيب- عليهم السلام. أو كان الحديث جاريا عن الربا ثم ذُكرت إلى جانبه الصلاة فجأة. فتبدو لهم هذه الأمور بلا ترابط داخلي تماما فلا يقدرون على استيعاب العلاقة بينها. ولكن الموضوع نفسه عندما يبلغ عالِما يستمتع بسماعه أيما استمتاع.

مبدأ الاستفادة من علوم القرآن

وإذا قلتم: ما الحلّ إذن؟ مع أنه ليس لهذا السؤال علاقة مع الموضوع ولكن لما قلتُ إن الإنسان ينجرف أحيانا مع تيار العواطف لذا سأبين أنا أيضا حلَّين أو ثلاثة حلول تحت تأثير العواطف.

الحل الأول: يجب على الإنسان أن يقرأ الكلام كله مرارا وتكرارا، دون أن يختار منه جزءا معينا للقراءة.

الحل الثاني: ويجب أن يقرأه حين يكون قلبه زاخرا بعواطف الحب والإخلاص. والذين تكون عاطفة الحب عندهم كاملة كل حين، يكفيهم أن يحددوا وقتا في الصباح أو المساء للتلاوة. أما الذين لا تكون عاطفة الحب عندهم كاملة على هذا النحو فليتلونه حين تكون عواطف الحب في قلوبهم ثائرة، سواء أثارتْ ظُهرا أو في وقت آخر.

الحل الثالث: يجب أن يُقرأ القرآن الكريم بيقين أن فيه كنزا غير محدود. والذي يقرؤه واضعا في الحسبان أن معارفه ومفاهيمه مقتصرة على ما يخبره به الشيخ، أو ما هو مكتوب في الكتب السابقة، يبقى هذا الكتاب مغلقا عليه. أما الذي يوقن أن فيه كنوزا فينجح في الحصول على معارفه وعلومه.

قبل عام ونصف تقريبا جاءني شخص وقال: أريد أن أسأل شيئا. كنت مستعجلا فقلت: هل السؤال وجيز أم يقتضي التفصيل؟ قال: أريد دليلا على صدق المرزا المحترم. قلتُ: الأدلة على صدق المرزا المحترم موجودة في القرآن كله. قال: أخبرني عن آية بهذا الشأن. قلتُ: إذا قرأتُ عليك آية فقد تقول بأنها لا تعنى كذا بل تعني كذا وكذا. لذا اقرأ أنت أية آية من القرآن الكريم وسأثبت منها صدقه. فقرأ فورا آية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فبيّنتُ معناها بإيجاز وقلت له إن صدق المسيح الموعود عليه السلام ثابت من هذه الآية

أيضا. فقلتُ: أخبرني كم من أناس يذهبون إلى المساجد في هذه الآيام. قال: قليل جدا. ثم قلت: كم عدد المصلين الذين يعرفون حقيقة الصلاة؟ قال: إن عددهم قليل جدا. قلت: كم عدد الملتزمين بالصلوات الخمس؟ قال: أقل من الفئة السابقة أيضا. قلتُ: إن الله تعالى يقول في هذه الآية إن بعض الناس يقولون بأنهم مؤمنون مع أنهم ليسوا بمؤمنين. أنت تعترف بنفسك أن هذه الآية التي نزلت في زمن محمد رسول الله ﷺ تُظهر صدق مضمونها اليوم أيضا. فإذا ظهرت للعيان اليوم أيضا مساوئ كانت موجودة في زمن محمد رسول الله ﷺ أفليس ضروريا أن يأتي مصلح لإزالتها؟ وردت هذه الآية في القرآن الكريم لتؤكد على أنه ما دام الأشرار موجودين في العالم فأرسلنا محمدا (ﷺ) رسولا. وإذا كانت هناك حاجة إلى القرآن الكريم لإصلاحهم، وكانت هناك حاجة إلى محمد رسول الله ﷺ، ثم ما دام الناس مثلهم موجودين في العصر الراهن، وأنت تعترف بنفسك أن مضمون هذه الآية ملاحظ بوضوح من أعمال الناس، فكان ضروريا أن توجد في العصر الراهن أيضا أسباب للإصلاح كما وُجدت في زمن محمد رسول الله ﷺ، فلزم الصمت.

باختصار، لقد ذُكرت في القرآن الكريم مفاهيم لو تأمل فيها الإنسان لوجد أن كنوزها لا تنفد. أما الذين يحسبونه كتابا مغلَقا، ويزعمون أنه لا يمكن استخراج المعارف الجديدة منه فلا ينكشف عليهم الأمر فعلا. كما لو مررتم بغابة ورأيتم آلاف الأشجار فقد لا تتأملون في أي منها، أما إذا جاء المسؤول عن قسم الغابات لمعاينتها فسيستخرج عشرات الأمور الجديدة، كذلك الذي يقرأ القرآن الكريم واضعا في الحسبان أنه كنز لا ينفد فسيستفيد منه، والذي لا يقرؤه بهذه النية يُحرم.

استخدام التشبيه والاستعارة في كل لغة

المشكلة الثانية بشأن مفاهيم الكتب الإلهامية، كما قلت من قبل، هي التشبيه والاستعارة. إنهما يُستخدمان في كل لغة في العالم. كذلك في كل كتاب علمي راق

تُستخدم التشبيهات والأمثال، كما تُستخدم الاستعارات في كل بلد. ففي بلادنا مثلا تعبير معناه الحرفي هو: جلستِ العين. ولكن لا يتساءل أحد: هل للعين رِجلان؟ أو هل جلست على العرش أو على الكرسي، لأن كل شخص يعرف جيدا أن المراد من "جلوس العين" هو أنها ضاعت أو فقئت. كذلك هناك عشرات بل مئات من التعبيرات المستخدمة في الأردية، وتدل على كمال اللغة.

إذن، التشبيه والاستعارة شيء ضروري لا مندوحة منه. ولأن المواضيع تتحسّن بها لذلك تستخدمها الكتب الإلهامية أيضا، وبذلك تشهد أن استخدام التشبيه والاستعارة ضروري جدا.

مشاكل الناس بشأن الكتب الإلهامية

ولكن كما قلتُ إنه ما دامت الكتب الإلهامية مهمة جدا فقد يصر الناس على كل كلمة منها فيرتكب الواقعون في الخطأ بسبب التشبيه والاستعارةِ الإفراطَ والتفريطَ. فمن الناس من يهمل التشبيه والاستعارة كليا ويحملها محمل الحقيقة. فإذا ورد ذكر يد الله قالوا: إن يد الله من الجلد مثل يدنا تماما، ولها أصابع أيضا. وإذا قيل لهم إن المراد من يد الله هو قوته وقدرته قالوا: إنكم تأتون بالتأويلات، فما دام الله تعالى قد استخدم كلمة اليد فلا يحق لكم أن تؤولوها. وإذا جاء ذكر عين الله قالوا: إن له مقلة أيضا. وإذا أُخذ من ذلك معنى آخر قالوا: هذا تأويل، وإن استنتاج معان على هذا النحو إساءة إلى الله تعالى. وإذا وردت عن الله كلمات: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٥)

قالوا: لن يتحقق صدق القرآن الكريم ما لم نعتقد بجلوس الله على عرش من الرخام، وإذا جاءت في الأحاديث بعض الكلمات مثل أن الله تعالى سيضع قدمه في جهنم، أو وجدوا في القرآن: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾[1] لا يهدأون ما لم يقولوا

---

[1] القلم: ٤٣.

بأن الله سيكون لابسا سروالا، ويرفعه عن ساقه، والعياذ بالله. فقد تعثّروا لعدم فهمهم التشبيه والاستعارة وقالوا بتجسّد الله تعالى، ولم يفكروا في الحكمة وراء استخدام هذه الكلمات.

في ثورة العشق .. يزول الحرج

لا شك أن الإنسان يتفوه أحيانا منجرفا مع تيار العواطف بكلمات يبدو منها ظاهريا أن لله تعالى أيضا جسدا، ولكن هذه الحالة تكون مؤقتة تطرأ على الإنسان عند اندفاع العواطف. يقول الرومي صاحب المثنوي ما معناه: كان موسى عليه السلام ذات مرة مارّا بفلاة فرأى راعي أغنام كان يقول متلذذا: يا إلهي لو وجدتك لسقيتُك حليب الشاة الطازجَ، واستخرجت من رأسك القمّلَ، وغسلتُك جيدا، وإذا وخزت قدمَك شوكةٌ أخرجتُها. فلما سمع موسى هذا الكلام منه ضربه بعصاه وقال: يا أيها الغبي أنت تسيء إلى الله تعالى! فتلقى موسى عليه السلام إلهاما فورا قال الله له فيه ما معناه: يا موسى إن هذا الشخص لا يعرف عن أي كتاب لي ولا عن الإلهام، ولا يدري عن عظمتي شيئا، فكان يتحدث إلي مشغوفا بعاطفة الحب، وهل كان يضرك بشيء إن استمر في الحديث معي على هذا النحو؟ ففي الدنيا أناس يقيسون الله تعالى على عامة الناس، وعندما يثور حبهم يقولون: لو وجدنا الله تعالى لخدمناه، مع أن الله تعالى أرفع وأسمى من الخدمة. باختصار، هذه الحالة تنم عن جيشان العواطف ولا يمكن الاستدلال منها أن قائلها يقول إن لله تعالى جسما. ولكن هناك بعض المثقفين أيضا الذين يتمسكون بالكلمات ويقولون بأن المراد من يد الله هو اليد المادية، والمراد من عينه هو العين المادية.

تجاوزُ الحدود مِن قِبل أناس ذوي طبائع فلسفية

هذا، وهناك أناس آخرون لا يوجد فيهم حماس الحب، بل تكون الفلسفة ثائرة فيهم. فحين يسمعون شخصا يقول إن لله عينا، ويقول غيره: ليس له عين بل المراد

منها كذا وكذا، كما ليس المراد من يد الله هو اليد المادية بل المراد هو قوته وقدرته، فيفهمون من ذلك أن القرآن الكريم كله استعارات. وحين يقال لهم إن القرآن يأمر بأداء الصلاة يقولون: ليس المراد من ذلك أداء الصلاة بل المراد هو إنشاء الحب لله. يأمر القرآن الكريم بالصيام، فيقولون: هذا لا يعني أن نجوع بل المراد هو ألا تأكلوا الحرام. وعندما يُذكر لهم الحج يقولون: ليس المراد منه الذهاب إلى مكة دونما سبب بل الهدف من هذا الأمر هو أن يذهب الإنسان حيثما اقتضت الحوائج القومية اجتماعا، سواء أذهب المرء إلى مدينة عليغره أو إلى مكان آخر. قد توسع بعض الناس في الاستعارات لدرجة أني قرأت تفسيرا وُصف فيه القرآن كله استعارات ومجازات. فمثلا إذا ورد في آية اسم موسى أُخذ منه معنى آخر وإذا جاء اسم آدم أُخذ منه معنى آخر تماما. الإنسان من هذا القبيل يصبح سوفسطائيا كليا، ويكون مَثله كمثل الذي ذهب إلى مَلك وقال له: أيها الملك الكريم، كل شيء هنا وهمٌ، فأوقفه الملك في الباحة وأطلق عليه فيلا هائجا ووضع سُلّما أيضا على سبيل الحذر ليتسلقه لإنقاذ نفسه إذا هجم عليه الفيلُ. فلما هاجمه الفيل هرع الرجل ليتسلق السلّم. فقال له الملك: أين تذهب يا رجل، إذ ليس هناك فيل بل هذا وهمٌ كله؟ كان الرجل شاطرا جدا فقال: من الذي يهرب أيها الملك الكريم؟ ليس هذا إلا وهمك فحسب. إذن، إن بعض الناس يتمادون في الاستعارة بحيث لا يتركون كلاما إلا ويحملونه محمل الاستعارة. إنهم يرون أن المراد من اسم الله هو القوة، ومن الملائكة الأخلاق، ومن الجنة والجحيم التقدم أو الزوال القومي. ويرون العبادات كلها لغوا، والعياذ بالله وُضعت لتعليل الناس.

حالة المسيحيين الدينية

في بعض الأقوام يلاحَظ كلا الأمرين في آن معا، أي يقول أفرادها عن بعض الأمور إنها استعارة ويقولون عن بعضها الآخر إنها ليست استعارة. وهناك بعض

الأقوام التي إذا كانت مصلحتهم تكمن في الاستعارة اعتبرت الكلام استعارة وإذا كانت مصلحتهم في حمل الكلام على الحقيقة حملوه على الحقيقة. المسيحيون يتصرفون على هذا النحو، أي يختارون ما يرون فيه مصلحتهم. فمثلا قال المسيح عليه السلام إنه ابن الله، ولكن قوله هذا كان مبنيا على الاستعارة، ولكن المسيحيون حملوه محمل الحقيقة وقالوا إن عيسى ابن الله حقيقة. ولكن عندما أمر المسيح بالصيام وعبادة الله قالوا إنها استعارة. أي حملوا كلامه ما رأوا فيه مصلحتهم. يُروى أنه مات زوج سيدة، فأخذت تبكي وتنوح وقالت إظهارا لمسكنتها وعدم حيلتها أن زوجي كان قد أقرض فلانا مبلغا كذا وكذا، فمن سيستلمه منه الآن؟ كان هناك شخص جالسا قريبا منها، فقال: أنا سأتولى هذا الأمر. ثم قالت: له أرض وأملاك كذا وكذا في مكان كيت وكيت، من سيتولى أمرها الآن؟ قال الرجل مرة أخرى: أنا سأتولى أمرها. ثم قالت: كان على زوجي دَينا مئة روبية لفلان، فمن سيدفعه الآن؟ قال الرجل الذي تكلم سابقا: هل علي أنا وحدي أن أتكفل مسؤولية كل شيء؟ فليتكلم أحد من الأقارب غيري أيضا. فهكذا جعل المسيحيون دينهم؛ فحين يقول عن عيسى عليه السلام إنه ابن الله يأخذون الكلام على حرفيته، وحين يقول إنه لا سبيل لإخراج الجنّ إلا الصوم قالوا هذه استعارة.

ضرورة الاستعارات

السؤال الذي ينشأ هنا هو: ما دامت هناك أخطار إلى هذا الحد في الاستعارات فلماذا استخدمتها الكتب الإلهامية؟ طالما المشاكل تنشأ إما بتحديد الاستعارات أو بتوسيع نطاقها، فأي ضير كان إن لم تُستخدم الاستعارات؟

والجواب هو أن هناك أكثر من حاجة إلى استخدام الاستعارة.

الأولى: إنها تفيد الإيجاز. الإيجاز الذي يفيده التشبيه والاستعارة لا يمكن بأي طريقة أخرى. فبالتشبيه والاستعارة تُحصَر المضامين الطويلة جدا في جملة واحدة.

فمثلا ورد في القرآن الكريم: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ لقد استخدمت كلمة "الإصباح" بصيغة الجمع، واستخدم معها "فالق"، ويبدو في الظاهر أنهما كلمتان منفصلتان، ولكن لو تأملنا في المضمون المذكور هنا لوجدنا أنه طويل جدا. فقد قيل هنا إن هناك عديدا من الظلمات، ولإزالتها هناك وسائل. والعروة الأخيرة لهذه السلسلة هي ذات الله تعالى. عندما تتهيأ هذه العروة تزول الظلمة وينفلق الصبح. نرى في الدنيا أن الناس يمرضون ويعالجهم الأطباء. ولكن هل يُشفى جميع المرضى على أيدهم؟ بل الحق أنه على الرغم من كل نوع من العلاج يأتي على بعض المرضى وقت حين يقول الطبيب إنه لا يمكن فعل شيء له. والمبدأ نفسه ينطبق على كل مهنة. خذوا المحامين أو المهندسين مثلا، إنهم يصلون أحيانا إلى مكان يجدون فيه الطريق مسدودا أمامهم ولا يبقى أمامهم مجال إلا أن ينصرهم الله من الغيب. ففي هذه الحالة لا يمكن أن يكشف الغمة إلا الله. هذا ما ذُكر في الآية المذكورة ﴿فَالِقِ الْإِصْبَاحِ﴾. أما لو تم الاكتفاء بالقول إن الله تعالى يزيل المشاكل، لما شمل مضمونا يشمله التعبير: "فالق الإصباح" كما ينشأ بكيفية الليل والصبح. فهذه الاستعارة بيّنت مضمونا طويلا في كلمات وجيزة جدا.

الثانية: الاستعارة تؤدي إلى سعة الآفاق. يقول الله تعالى في القرآن عن اليهود إننا جعلناهم قردة وخنازير. لو قال القرآن إننا جعلناهم عديمي الحياء لما شملت هذه الكلمات الجزء الواحد من الألف أيضا مقارنة مع ما تشمله الكلمات "قردة وخنازير" لأن للقردة والخنازير عشرات الصفات وليست صفة واحدة. فمثلا قلة الحياء حالةٌ، والقذارة حالةٌ، والخنزير يكون وسخا جدا، كما يكون اليهود أيضا وسخين. ذات مرة سافرت في باخرة وركبها بعض اليهود أيضا وكانوا وسخين لدرجةٍ كأنهم كنّاسون. ولكن عندما وصلت السفينة إلى مومباي، رأيت بعض الناس لابسين لباسا فاخرا. فقلت في نفسي مستغربا: من أين جاء هؤلاء الناس؟ ثم تبين لاحقا أنهم اليهود أنفسهم الذين كانوا معنا في السفر كله.

لقد استخدم الله تعالى كلمة "قردة وخنازير" للبيان أن فيهم كافة الصفات التي توجد في القرد والخنزير. لو اكتفى الله بالقول إن اليهود وسخون وفساق لما أدّت هذه الكلمات مضمونا تؤديها الكلمات: "قردة وخنازير". باختصار، قد وُسّع نطاق المضمون كثيرا باستخدام كلمات "قردة وخنازير"، لدرجة أنّ هناك بعض الصفات للقرد والخنزير التي اكتُشفت اليوم، هي موجودة في اليهود أيضًا. فمثلا في القرد عادة التقليد، وهذه العادة بالغة ذروتها في اليهود أيضا. فقال ﷺ عن اليهود إنهم ليسوا فساقا فقط بل هم مقلدون جدا أيضا. كذلك القرد يخاف الماء، واليهود أيضا يعيشون في البر دائما ولا يسافرون في البحر عموما. هذا، وهناك أكثر من عشر صفات توجد في اليهود وقد ذكرها الله تعالى كلها في كلمة قردة وخنازير. لو لم يستخدم الله كلمة قردة وخنازير وذكر صفاتهم منفصلة لكانت هناك حاجة إلى سورة كاملة لهذا الغرض. أما الخنازير ففيها أيضا عيوب كثيرة؛ منها مثلا أن الخنزير يمشى على خط مستقيم دائما ولا يغير الطريق، لدرجة أنه يهاجم أيضا على خط مستقيم. وهذا العيب يوجد في اليهود أيضا فلا يغيّرون شُعب حياتهم. يكون الخنزير وسخا، كذلك هو حال اليهود. هذا، وتوجد في الخنزير بعض الأمراض وهي توجد في اليهود بكثرة، ولكن لا أريد ذكرها.

الثالثة: هناك حاجة إلى التشبيه والاستعارة من أجل التبعيد؛ أي إن الهدف من التشبيه والاستعارة هو إعلاء شأن المضمون وتوسيع الآفاق. فمثلا إن رؤية يوسف عليه السلام أبويه وإخوته في المنام بصورة الشمس والقمر والكواكب كانت استعارة. لو تم الاكتفاء بقول الأبوين والإخوة فقط لما أدّت هذه الكلمات مفهوما يكمن في الشمس والقمر والكواكب، لأن الشمس والقمر والكواكب تشمل مفهوما واسعا جدا. فمثلا قد أخبر الله تعالى يوسفَ أنه مع أن إخوتك يعادونك حاليا وحالتهم العملية ليست جيدة، ولكن الله تعالى سيهدي العالم بواسطة أولادهم كما تهدي النجومُ. هذا كان مضمونا واسعا وما كان أداؤه بكلمة الإخوة ممكنا، إلا أنه تم أداؤه بكلمة الكواكب.

الرابعة: الاستعارة ضرورية لتقريب المضمون أيضا، أي يكون المضمون أحيانا واسعا لدرجة أنّ الإنسان لا يقدر على فهمه ما لم يقرَّب إلى الأذهان بطريقة معينة. فمثلا عندما نقول إن الله تعالى يحب كثيرا، يسأل الطفل: كم يحب الله؟ فلو قلنا له: هو يحب أكثر من الأمّ، لفهم فورا، مع أنه لا مجال للمقارنة بين حب الأمّ وحب الله تعالى. لذلك قالت بعض الأديان إن الله أمٌّ وأبٌ لأن الإنسان لا يستطيع أن يدرك حب الله ما لم يُذكر على سبيل الاستعارة. إذن، الاستعارة والتشبيه شيء مهم جدا، وهما يشكلان جزءا من الكلام ككلمات أخرى تماما ولا يمكن إهمالهما بأي حال. حيثما كان المضمون واسعا واستحال أداؤه بكلمات وجيزة فسوف تُستخدم الاستعارة لا محالة، بل الأحرف أيضا نوع من الاستعارة. فمثلا عندما نقول: الفرس، فهذه أيضا استعارة بحد ذاتها وإلا ما علاقة الحروف: ف، ر، س مع الفرس؟ فهذا تشبيه واستعارة اقتُرح في كلام الإنسان، وإلا لو تم شرح كلمة الفرس لكانت مشكلة كبيرة. يُروى أنه كان هناك شخص ضرير لم يسبق له أكل الأرز المطبوخ بالحليب. وذات يوم دعاه شخص للطعام، وأخبره تلميذه أن صاحب البيت طبخ الأرز بالحليب. سأله الضرير، ما نوعية هذا الطعام؟ قال له تلميذه: إنه طعام حلو وأبيض اللون. ولما لم يكن الرجل الضرير يعرف الألوان أيضا فسأل التلميذَ: كيف هو اللون الأبيض؟ لوّى التلميذ يده مثل عنق "مالك الحزين"، ولما تلمّسها الضرير بيده قال غاضبا: لن ألبي هذه الدعوة، لأن هذا الطعام المطبوخ بالحليب سيعلق بحلقي ويقتلني لأنه معوج. هذه طرفة ولكن الحق أنه لو لم يكن المراد من "مالك الحزين" طائرا معينا ومن الفرس دابة معينة، والمراد من الحمار دابة كذا وكذا، فقد يزعم الناس الفرس حمارا والبقرة فرسا. إذن، الاستعارة جزء مهم في كلام الإنسان، ولا يمكن إهمالها بأي حال.

استحالة أداء بعض المفاهيم بغير الاستعارة

الحق أنه من المستحيل بيان المضمون بغير استخدام الاستعارة على ما يرام. فمثلا لو صدر من أحد حمقٌ لوُصف بأنه "حمار". وإذا كان هناك شخص شجاع لوصفناه بـ "الأسد". ولو لم نستخدم كلمة الأسد، وببساطةٍ سمّيناه شجاعا، فإن الذي لا يقدر على فهم الاستعارة لن يُدرك من كلمة الشجاع مفهوما سيدركه من كلمة الأسد. أما إذا استخدم المرء الاستعارةَ بصورة خاطئة فهذا أمر آخر. فمثلا تُطلق كلمة"حمار" على من يقوم بعمل في غير محله دائما. فمثلا لو أردنا إزاحة الدواب الأخرى من الطريق في أثناء مشيها عليه، سوف تنزاح جانبا، أما إذا حاولنا إزاحة الحمار لاعترض الطريق وسدّه. إذن، لو أطلقنا على أحد كلمة "الأحمق" فلن يُستنتَج منها أنه يقوم بأعمال في غير محلها، أما إذا أطلقنا عليه كلمة "الحمار" فسيفهم السامع فورا أنه يقوم بأعمال في غير محلها. كذلك يُستخدم الحمار لحمل الأثقال أيضا. فقد ضرب الله تعالى في القرآن الكريم في ذم علماء اليهود مَثل الحمار الذي يحمل كتبا. فالذين يدركون أن من أهداف إطلاق كلمة الحمار على أحد الإشارة إلى أنه سيئ الأعمال، سيفهمون فورا أن الذي أُطلقت عليه هذه الكلمة ليس سيء الأعمال فقط بل يقوم بها في غير محلها. ولكن إطلاق كلمة الأحمق أو الغبي فقط لا يؤدي هذا المفهوم. كذلك المفهوم الذي يترشح من إطلاق الاسم "الأسد" على أحد، لا يترشح منه أنه شجاع فقط، لأن من مزايا الأسد أنه لا يهاجم دون سبب، ويغض الطرف عن الضعيف. لو استلقى المرء أمام الأسد لما هاجمه إلا إذا كان معتادا على الاصطياد. لقد لوحظت هذه الميزة في الأسد لدرجة أن بعض الأطفال الصغار كانوا مستلقين فجاء أسدٌ إلى هناك صدفة، فبدأ يلعقهم بدلا من الهجوم عليهم. كذلك الأسد لا يخاف قط. فهذه مزايا توجد في الأسد. فلو أطلقنا على أحد كلمة "الشجاع" فقط، فهي توحي بالشجاعة والبسالة فيه، ولكن لن يتبين منها أن صاحبها لا يهاجم

دون سبب ويغض الطرف عن الضعيف، ولا يوجد فيه الخوف والذعر. ثالثا: توجد في الأسد هيبةٌ. وهذه الصفة أيضا خاصة بالأسد، إذ قد خلق الله فيه هيبة؛ فلا يخاف المرء هجومه فقط بل يخاف منظره أيضا.

باختصار، الاستعارة توسّع الموضوع، والدليل على ذلك أن الأحلام تكون مبنية على الاستعارات في تسعين بالمئة من الحالات. فمثلا يرى المرء في المنام أنه يأكل الباذنجان ويكون المراد أنه سيواجه حزنا. ويرى أحيانا أن قريبه الفلاني مات، ويكون المراد من ذلك أن صاحب المنام سينال عمرا طويلا. ويرى أنه يذبح ابنه ويكون المراد من ذلك أنه ينذره لخدمة الدين. ويرى أنه يذبح ماعزا ويكون المراد منه موت أحد أولاده. لا أريد الخوض الآن في نقاش فيما إذا كانت الرؤيا من الله تعالى أو نتيجة حالة ذهنية. وإذا كانت نتيجة حالة ذهنية، هذا يعني أن الأذهان كلها قررت أنه لا مندوحة من الاستعارة. إذن، إن شهادة البشر وشهادة الله تعالى متفقة على أنه لا مناص من الاستعارة. أما الأخطار فأقرُّ بها. أقرُّ أن المسيحيين ضلّوا نتيجة عدم فهمهم الاستعارات فقط؛ فتارة اتخذوا عيسى عليه السلام إلها وتارة أخرى حسبوا الشريعة لعنة. أما إذا كانت هناك وسيلة لإزالة تلك الأخطار فلا شك أن الكلام الذي يزيلها سيُعدّ أفضل كلام. (لا أتحدث هنا عن كلام الإنسان بل أتحدث عن الكتب الإلهامية)

وسائل إزالة سوء الفهم

لقد استُخدمت الاستعارات في الكتب الإلهامية حتما، ولكن ظل الأنبياء يأتون فيما بعد لإزالة الأخطار الناتجة عن سوء فهمها. وكلما أخطأ الناس في فهمها أزيل سوء فهمهم بواسطة الأنبياء، لكن لم تكن الشهادة الداخلية موجودة لفهمها. فمثلا في الإنجيل أُطلق ابنُ الله على المسيح عليه السلام، ولكن لا توجد فيه شهادة داخلية لفهم هذه الاستعارة، لأن الله تعالى كان يعلم أن هذا التعليم مؤقت، وإذا أخطأ الناس فهمه ستُنزَل شريعة كاملة. كما أن الحكومات عندما تصنع جسورا مؤقتة تصنعها

بمواد تفيد لفترة وجيزة ولا تستخدم في بنائها موادا قوية ومتينة. كذلك لما كانت التعاليم السابقة مؤقتة وكان الله تعالى قد قرر نسخها وإنزالَ تعليم كامل فلم يضع في تلك الكتب شهادة داخلية بل ظل يزيل الأخطار بالشهادة الخارجية. لذا لما انقطعت الشهادة الخارجية نُسخت الكتب الإلهامية السابقة. ولكن ما دام القرآن الكريم هداية أبدية لذا قدّر الله تعالى لإزالة هذا النوع من الأخطار أمرين: أولهما إرسال المبعوثين. والثاني: شهادة داخلية، لكيلا تنشأ في المسلمين أخطاء تُضلهم جميعا. ولما لم تكن مع الكتب السابقة هذه الأسباب لحمايتها لذا تعثر الناس من بعض مضامينها ولم يقدروا على فهم بعضها. فمثلا هناك عدة آيات في الكتاب المقدس تقول ماذا يجب عليكم فعله إذا كانت في الثوب ضربة برص.[١]

ولكن إصابة الثوب البرص أمر يفوق فهم الإنسان، ولا يعلمه الأطباء أيضا، ولكن في سِفر اللاويين في الكتاب المقدس ذُكرت أنواع برص الأقمشة وعلاجها أيضا. فلا بد أن تكون هذه استعارة. فمثلا يمكن أن يكون المراد من القماش هو القلب ومن البرص قذارته، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.[٢] وما دامت الشهادة الداخلية غير موجودة في الكتاب المقدس، وانقطعت سلسلة الأنبياء أيضا، لذا يقرأ الإنسان هذه الأشياء فيه ويضحك.

لقد كلّفتُ مؤخرا أستاذة ألمانية لتعليم بناتي، وكان إلمامها بالإنجليزية قليلا، فخطر ببالي أنه إذا كانت لا تعرف الإنجليزية فلنتعلم منها الألمانية. فظلت تعلّم إلى فترة وجيزة، وذات يوم جاءني شخص وبلّغته الدعوة فقالت الأستاذة: في كل كتاب توجد أمور الهداية، وتوجد أمور قيّمة في التوراة أيضا فما الحاجة إلى الإيمان بالقرآن؟ قلت: لا اعتراض على وجود الهداية بل الاعتراض هو على وجود

[١] اللاويين ١٣: ٤٧.

[٢] المدثر: ٥.

بعض الأمور اللاغية فيها. فقلتُ: هل يمكن أن يصاب القماش بالبرص. قالت: لا. قلتُ: هذا مذكور في الكتاب المقدس. فطلبتُ الكتاب المقدس وفتحت الفصل الذي فيه هذا الكلام ووضعته أمامها. فظلت الأستاذة تقرأه مرة بعد أخرى ناكسة رأسها إلى فترة طويلة وتفكر في الموضوع ثم قالت لي: هذا الأمر يفوق عقلي، سأكتب إلى قسيس عن هذا الأمر وسأخبرك حين يأتي الجواب. قلت: لا يقدر القسيس أيضا على شرحه، ولكنها كتبت إلى قسيس فجاء الجواب منه بعد شهرين، ولم يكتبه القسيس بنفسه بل أملاه على إحدى صديقات الأستاذة المذكورة. وقال في الجواب: إذا أُعجبتِ بالإسلام حقا فاقبليه وإلا فإن الديانية القومية هي الأفضل دائما، وأن الأمور من هذا النوع التي وردت في الكتاب المقدس ليست لإفهام الجميع.

إذن، الحق أن هذه كانت استعارة، ولكن ما دامت الشهادة الداخلية ليست موجودة وانقطعت أيضًا سلسلة الأنبياء الذين كانوا يأتون لشرحها، فتعذر على الناس استيعاب هذه الأمور. ولكن القرآن الكريم يقدّم لفهم الاستعارات الواردة فيه كلتا الشهادتين؛ أي الداخلية والخارجية. والفرق بين الكتب السابقة والقرآن الكريم - وإن كان التشبيه والاستعارات موجودًا فيها كلها- هو أنه إذا أساء أحد الفهم لشيء في الكتب السابقة فإن تصحيحه لم يكن ممكنا من خلال تلك الكتب، أما لو أساء أحد فهم شيء ورد في القرآن الكريم لأمكن تصحيحه من القرآن نفسه. لذلك لا يمكن لأحد أن يحمل الاستعارات الواردة في القرآن الكريم محمل الحقيقة ولا أن يحمل الحقيقة محمل الاستعارة. أعترف أنه من الممكن أن يضلّ في وقت من الأوقات بضع مئة ألف من المسلمين نتيجة سوء الفهم، ولكن لا يمكن أن يضلّ جميعهم، مع أن المسيحيين ضلّوا جميعا.

القرآن الكريم بنفسه يشرح الاستعارات الواردة فيه

الادعاء الذي قدمتُه أن القرآن الكريم يشرح بنفسه الاستعارات الواردة فيه قدمه القرآن بنفسه فيقول:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٨) أي أن بعض المضامين المذكورة في القرآن مُحكمة، أي لم تُستخدم فيها الاستعارة، وهناك بعض الآيات التي استُخدمت فيها الاستعارات؛ بمعنى أنه توجد أيضا كلمات متشابهة، فقد أُطلق على الإنسان مثلا: "قرد" أو "خنزير". فالذين يريدون الاعوجاج يتمسكون بآيات فيها استعارات ويحملونها محمل الحقيقة. فإن قيل عن اليهود إن الله جعلهم قردة، قالوا: إنهم جُعلوا قردة حقيقية بمسخ شكلهم البشري. وإذا ورد أنهم جُعلوا خنازير، قالوا: إنهم صاروا خنازير في الواقع. وإذا ذُكر استواء الله على العرش، قالوا: إن له ركبتين في الحقيقة، وهو جالس على عرش مادي، ويفعلون ذلك ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، ويفعلون ذلك لصرف المعنى عن الحقيقة. من معاني التأويل صرف الكلام سواء لإبعاد المعنى عن الحقيقة أو صرفه إلى الحقيقة. أما ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ فتعني هنا صرفه عن الحقيقة. أي يُبعدون الناس عن المعنى الحقيقي بحمل الاستعارة على الحقيقة، مع أن الكلام يكون مبنيا على الاستعارة. ولكونه استعارة فإن الله وحده قادر على بيان مفهومه، لكونه عالم الغيب، وأنى لكم أن تفهموه بأنفسكم.

وإذا قلتم: كيف نعرف مفهوم الاستعارات؟ فقال الله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي قد بيّنّا مفهومها في القرآن الكريم، وعندما يطّلع العالمون على كلا النوعين من الآيات، أي التي فيها الاستعارات وكذلك المبنية على الحقيقة، يقولون: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي أن الآية المحتوية على الاستعارة من الله وكذلك التي تُحلُّها،

لا يمكن أن يكون بينهما اختلاف؛ فمثلا إذا قلنا زيدٌ حمارٌ، ثم قلنا إن زيدا نسخ كتابا، فإن سأل أحد حاملا هذه الاستعارة محمل الحقيقة: هل زيد دآبةٌ؟ فلا بد له أن يكذّب الجملة الثانية التي تنسب إليه نسخ الكتاب. ولكن لو قلنا إن كلتا الجملتين صحيحة فلا بد من اعتبار الاستعارة استعارةً والحقيقةِ حقيقةً. يقول الله تعالى: ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي يا من تحملون الاستعارة محمل الحقيقة ألا تعلمون أنه إذا حسبتم الاستعارة حقيقة فسوف تبطل بعض الآيات القرآنية ولن تثبت صحتها ما لم تُحصر الاستعارة في حدود الاستعارة، مع أن كلا الأمرين من الله وصادق. وإذا كان كلا الأمرين صحيحا فلا بد من الاعتراف أن أحدهما حقيقة والآخر استعارة. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. أي لا يستفيد إلا العقلاء.

معجزة عيسى عليه السلام لإحياء الموتى

يمكن تقديم عدة أمثلة بهذا الشأن وأوضحها إحياء الموتى. في القرآن الكريم[١] أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى، ومن ناحية ثانية ورد فيه أن روح الميت لا تعود إلى هذه الدنيا[٢]. وإذا استنبطنا من إحياء الموتى أنه عليه السلام كان يحيي الموتى الحقيقيين، فلا بد من تكذيب إحدى هاتين الآتين، والعياذ بالله. أما لو استنبطنا أن المراد من الموتى هم الموتى الروحانيون لثبت صدق كلتا الآيتين. لذلك ففي آيةٍ قال الله تعالى لعيسى عليه السلام أن أحيِ الموتى، وقال في آية أخرى إن الموتى لا يعودون. وهكذا تمت الاستفادة من الاستعارة وزال الخطر أيضا. كان الهدف من استخدام التعبير "إحياء الموتى" هو التوسع في المضمون، فقد تحقق هذا الهدف أيضا، حيث أزال الخطر المحتمل أيضا أن يتخذ المسلمون البسطاء عيسى عليه السلام إلها.

---

١ انظر الآية (٥٠) من سورة آل عمران. (المترجم)

٢ انظر الآية ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء ٩٥) والآية ١٠١ من سورة "المؤمنون". (المترجم)

قول رسول الله ﷺ عن المجاز والاستعارة

الأحاديث أيضا تؤيد هذا المعنى. فقد ورد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ سمع بعض الناس يتنازعون عن المحكمات والمتشابهات ويقولون كلاما غير لائق بسبب عدم فهمهم الفرق بين الاستعارة والحقيقة، فقال: لقد هلك من كان قبلكم نتيجة هذا الاختلاف. ولقد نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا.[١] فإذا وُجدت آية لا يُصدق ظاهرُها آيةً آخرى فيجب تغييرُ تفسيرها والتوفيقُ بين مضمون الآيتين. فلا تأخذوا أبدا من آية معنى يكذّب آية أخرى. وإن لم تفهموا معناها فاسألوا عالما من علماء القرآن ليُخبركم بمعناها. لقد بيّن رسول الله ﷺ أنه لا خلاف بين آيات القرآن الكريم، فإذا فهمتم الاستعارة فاجعلوها تابعة للآيات المحكمات وإلا فاذهبوا إلى أحد من أهل العلم واسألوه ليحل مشكلة تواجهونها.

فبحسب هذا المبدأ الذي بيّنه القرآن والحديث، ترى أن بعض الأمور المنافية للعقل والسنة توجد في الكتب الأخرى، ولكن القرآن الكريم منزه عنها، لأن حل الاستعارات المستخدمة موجود فيه.

مثال الاستعارات المستخدمة في القرآن

يمكن أن تُقدَّم عشرات الأمور من القرآن الكريم بهذا الشأن، ولكني ما دمت لست بمعرض تفسير القرآن لذا سأذكر أمرا واحدا على سبيل المثال، وهو ما ذُكر ضمن الآيات التي استهللتُ بها خطابي اليوم. يقول الله تعالى في هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا (أي عُلمتُ أنا وأبي) مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ

[١] أقرب نص وجدناه بهذا المعنى هو: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَءُونَ فَقَالَ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا: ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا. مسند أحمد. (المترجم)

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾

وقد ورد مضمون مماثل في سورة سبأ أيضا حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١]

ويقول ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

وفي سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٢]

---

[١] سبأ: ١١-١٢.

[٢] ص: ١٧-٢٠.

يتبين من هذه الآيات أن الجِنّ والطير والجبال أيضا كانوا تحت سيطرة داود وسليمان عليهما السلام، وكانا يعلمان لغة النمل، وكان عندهما هدهد يعمل لهم أعمالا عظيمة.

أقوال المفسرين الغريبة

إن الذين لم يحاولوا قراءة المتشابهات في ضوء المحكمات يقولون إن داود وسليمان عليهما السلام كانا يسيطران على الجبال والطيور والحيوانات الأخرى، وكانت كل هذه الأشياء تشتغل في ذكر الله مع داود عليه السلام. فكلما قال "سبحان الله" قالت الجبال والطيور والجِنّ والحيوانات "سبحان الله، سبحان الله" تلقائيا. كما من عادة الوعاظ الكشميريين أنهم كلما أرادوا قليلا من الاستراحة أثناء إلقائهم المحاضرة، قالوا للحضور: صلّوا على محمد ﷺ. كذلك كان دواد عليه السلام يفعل؛ أي كلما تعب في أثناء ذكر الله قال لجبل هملايا: صلّ صلاة إبراهيمية، فكان يبدأ بها. وإذا استراح داود قال للجبل: اُسكُت الآن وسأصلّي صلاة إبراهيمية بنفسي. يقول البعض إن قول الجبال: "سبحان الله" ليس بأمر عظيم، بل هي تركع وتسجد أيضا. فكلما سجد داود عليه السلام خرت الجبال والطيور والدواب كلها سُجَّدا وإذا ركع ركعت معه. والبعض لم يطمئنوا بهذا التأويل أيضا فقالوا: الحق أنه حيثما ذهب داود عليه السلام ذهبت معه الجبال. كان داود عليه السلام في الشام ومع ذلك كانت جبالٌ مثل "شوالك" وجبال الألب تتجول معه حثما ذهب. كذلك كانت الطيور أيضا تسبّح معه. في تلك الأيام ما كانت العصافير تغرد، ولا تطلق الشياه أصواتها المعتادة، بل كانت تقول: "سبحان الله، سبحان الله". ولا تسألوا كيف تحولت الشاة إلى طير، لأن هذا ما كُتب في التفاسير. فكان ذلك الزمن زمنا غريبا. كذلك كانت لله تعالى منة أخرى على سليمان عليه السلام إذ سلّم إليه الجنّ، فكانت تعمل بحسبما يأمرها. كلما مشى سليمان كانت الطيور تظله بأجنحتها. يقول المفسرون أيضا إن داود كان بطبعه ميالا إلى الشك كثيرا. فكان إذا خرج من البيت قفل أبوابه على أزواجه. ذات مرة

عاد إلى بيته ورأى شابا قويا يتجول في بيته فانزعج منه كثيرا وقال: ألا تستحيي. ثم سأله: كيف دخلت البيت وكانت أبوابه كلها مغلقة؟ قال: أنا لست بحاجة إلى أي باب. فسأله داود: هل أنت ملك الموت؟ قال: نعم. فيقول المفسرون إنه أزهق روحه. وعندما حان دفنه اجتمعت الطيور كلها وأظلّته بأجنحتها.

يقولون أيضا: إن سليمان عليه السلام كان يعرف منطق الطير. سأل أحد: هل كان يعرف منطق الدواب أيضا أم لا؟ يقول المفسرون في الرد: كان يعلم منطق الدواب أيضا ولكن لم تُذكر بهذا الشأن إلا الطيور على سبيل الإيجاز. ويقولون أيضا: شحّت الأمطار ذات عام فذهب الناس إلى سليمان عليه السلام وقالوا: تعالَ نصلّي صلاة الاستسقاء. قال سليمان: لا تقلقوا سوف ينزل المطر، وذلك لأن نملة كانت واقفة خارج مسكنها وتدعو الله: يا ربّ أنزِل المطر وإلا سنموت. وذات مرة مرّ بوادي النمل فأمرتْ نملةٌ صاحباتها بدخول مساكنها. لم يكتف المفسرون في بحوثهم بهذا الحد بل بحثوا عن قبائل النمل أيضا، وقالوا إن للنمل أيضا أقواما وقبائل كما في الناس فئات عرقية مثل المغول والراجبوت والبشتون وغيرها. لعله ينفعكم العلم أن اسم إحدى قبائل النمل هو "بنو الشيصان" كما يقول المفسرون. ويقولون أيضا إن رئيسة قبيلة النمل تلك كانت عرجاء وقامتها بقدر الخروف. لقد اضطر المفسرون إلى تلفيق هذين الحادثين نتيجة عدم فهمهم الاستعارة والتشبيه مع أن القصة كانت واضحة تمام الوضوح. وسأتناول تلك الأحداث واحدة بعد الأخرى، وأذكر أولا قصة داود عليه السلام.

المراد من تسخير الجبال

يقول الله تعالى إننا سخرنا لداود الجبال التي كانت تسبّح. فلننظر؛ هل من حاجة إلى قصص مثلها؟ إذا كان الله تعالى قد قال عن داود عليه السلام أنه سخر الجبال له، فيقول الله تعالى عنا أيضا: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٣-١٤) أي يا أيها المؤمنون بمحمد (ﷺ)، ويا أيها الكفار والمنافقون؛ قد سخّرنا لكل واحد منكم البحار لتجري فيها السفن ولتبتغوا فضل الله. ولم نسخر البحار فقط بل قد سخرنا لكم كل ما في السماوات والأرض، وفي ذلك آيات للمتفكرين. هذه الآية تشرح جيدا آية جاءت عن سيدنا داود عليه السلام، لأن الله تعالى بيّن في هذه الآية أن كلَّ ما يوجد في السماوات والأرض سواء أكان جبالا أو بحارًا كله مسخر للإنسان. فمن الغريب حقا أن تكون الجبال مسخرة لي أيضا ومع ذلك لا يتحرك معي ولا حجر واحد من الهملايا بينما مشى مع داود عليه السلام الجبل كله. وإذا حدثت كل هذه الأحداث مع داود عليه السلام فينبغي أن تحدث معنا أيضا. وإن لم تحدث معنا فتبين بكل جلاء أنها لم تحدث مع داود عليه السلام أيضا.

معنى تسبيح الجبال والطيور

أما التسبيح، فقد يقول قائل إنه قد ورد في القرآن أن الجبال والطيور كانت تسبّح مع داود عليه السلام، فهل تسبّح هذه الأشياء الآن أيضا؟ فقد ردّ الله على ذلك في سورة الجمعة حيث قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي تسبّح الشمس والقمر والنجوم أيضا، بل يسبح كل شيء موجود في السموات والأرض. وهذا السراج الموجود هنا ومكبر الصوت والأشجار وأوراقها أيضا تسبّح الله تعالى، بل إن الموز وقشره الذي نرميه أيضا يسبح. كما يسبح الخبز والصحن، وعندما تشربون الشاي فتسبح شفتاكم والشاي، والسكر والفنجان، وكذلك المنازل وسقوفها وجدرانها وأبوابها والفُرُش التي تستلقون عليها، والرداء على الفراش والوسادةُ واللحاف أيضا يسبّحون. فما دام كل شيء يسبح، فلماذا يؤخذ معنى آخر إذا جاءت الكلمات نفسها بحق داود عليه السلام؟ فكلا الأمرين المذكورَين بحق داود عليه السلام مذكوران بحقنا أيضا إذ يقول الله تعالى بأنه سخّر لنا كل شيء، ويقول أيضا إن كل شيء يسبّح. لقد قيل بحق داود عليه السلام أن الجبال والطيور فقط تسبح، أما بحقنا فقد قيل إن كل ما في السماوات

والأرضين يُسبّح. والسبب في ذلك أن المراد من التسبيح هو أن كل شيء يُثبت أن الله تعالى منزه عن كل عيب ونقيصة. ولما كان مقدرا أن يزيل الإسلام عيوب العالم كله لذا أُخبر المسلمون أن كل ما في السماوات والأرض يسبّح. أما داود عليه السلام فكان مقدرا له أن يزيل عيوب الجبال والطيور فقط ولم يكن مبعوثا إلى العالم كله بل كان مبعوثا إلى مكان محدد لذا سبّحت الجبال والطيور فقط في زمنه. أما محمد رسول الله ﷺ فكان مبعوثا للعالم كله، لذا قال ﷺ أيضا: "جُعلت لي الأرض مسجدا وطَهورا". (صحيح البخاري، كتاب الصلاة) فليست هناك أية قطعة من الأرض إلا وتسبّح. لذا حيثما نذهب ستكون الأرض كلها مسجدا لنا. إن مضمون "يسبّح لله" قد جُعل بحق داود عليه السلام مقتصرا على الجبال فقط، لأن النبي ﷺ كان مبعوثا إلى كل ما في السماوات والأرض، بينما كان داود عليه السلام مبعوثا إلى الجبال فقط.

أما الاستدلال من ﴿أَوِّبِي مَعَه﴾ أن الجبال كانت تشترك مع داود عليه السلام في تسبيحه، فجوابه أن ببركة محمد رسول الله ﷺ تشترك كل ذرة من العالم في التسبيح. قد يقول قائل: أين أفضلية داود عليه السلام إذن؟ فليكن معلوما أنه لا ميزة له في تسخير الجبال له، لأني أثبتُّ من القرآن الكريم أن الله قد سخّر للإنسان كلّ ما في السماوات والأرض، غير أن الذي يجعله الله تعالى مَلِكا في بلد، فإنه يعطيه فيه عظمة أكبر من عامة الناس. صحيح أن كل ما في السماوات والأرض كان مسخرا لداود عليه السلام كما هو مسخر لعامة الناس. لكن كان داود عليه السلام حائزا على ميزة إضافية وهي أن الله تعالى جعله ملكا أيضا. مع أن ما سخّره له كان نفسه الذي جُعل لنا وإن كان هناك فرقٌ في عظمة هذا التسخير.

يُراد بالجبال زعماء القوم أيضا

والآن أبين من خلال اللغة أن للجبال معنى آخر أيضا، فقد ورد معنى الجبل: "سيد القوم".[1]

---

[1] انظر لسان العرب.

إذن، إن معنى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ هو أن داود ﷺ كان الأول من ملوك اليهود الذي فتح القبائل المجاورة وخضعت له تلك القبائل. ولم يسبق داود ﷺ ملكٌ حكَم أقواما أخرى أيضا بالإضافة إلى قومه. وكان داود ﷺ أول مِلك أطاعه الملوك المجاورون له. وإن قال قائل إنه قد وردت في القرآن بهذا الشأن كلمة: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ فكيف تستنج منها معنى الطاعة؟ فجوابه: ما دامت الجبال مذكَّرة لذا جاءت كلمة ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، وإلا ليس لها معنى- نظرا إلى زعماء القوم- إلا أن تلك الأقوام صارت مطيعة له.

لم يُذكر في القرآن تسبيح الطيور

أما "الطيرُ" فلم يُذكر تسبيحها في القرآن الكريم ولم يُذكر أيضا أنها كانت تسبِّح مع داود ﷺ. الحق أن الناس أخطأوا بهذا الشأن لعدم فهمهم قاعدة بسيطة من قواعد اللغة العربية وظنوا أن الطير أيضا كانت تسبّح مع الجبال، بينما يقول القرآن الكريم: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾، فقد جاءت كلمة "الطير" هنا منصوبة، والفعل الذي نصبَه هو: "سَخَّرْنَا"، والمعنى هو أننا سخّرنا لداود ﷺ الجبالَ التي كانت تسبّح، كذلك سخّرنا الطيرَ، ولكن لم يُذكر التسبيح هنا. ولا يمكن الاستنتاج هنا إلا أنه كان يعلِّم استخدام الطير كما يُستخدم الحمام الزاجل لإيصال الرسائل. إذن، ما ورد في القرآن الكريم هو: "سخّرنا الطيرَ" ولم يرد: ويسبّح الطيرُ.

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾. وفي هذه الآية أيضا إن الفعل الذي نصب الطيرَ هو "سخّر" فأستغربُ من أين استنتج المفسرون معنى تسبيح الطير.

وجاء في آية ثالثة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾؛ أي قلنا للجبال أن تردّ على تسبيح داود بالتسبيح، وآتيناه الطيرَ أيضا. إذن، فقد قيل هنا "آتينا الطيرَ" وما قيل إن الطير كانت تسبّح. إذن، الفعل الذي نصب الطيرَ إما هو "سخّر" أو "آتى". ومعنى العبارة أننا أعطينا داود الطيرَ أيضا. ولكنني أقول: ولو

استنتجتم هنا معنى التسبيح أيضا فأيُّ غرابة في تسبيح الطيور ما دام كل ما في الأرض والسماء يسبّح. إنني أستغرب دائما من العلماء المعاصرين أنه إذا وردت آية بحق داود أو سليمان أو عيسى عليهم السلام يستنتجون منها معنىً وإذا جاءت آية مثلها بحق محمد رسول الله ﷺ يستنتجون منها معنى آخر. فلما قال الله تعالى عن داود عليه السلام بأن الجبال كانت تسبّح معه، قالوا: كانت الجبال تقول سبحان الله، سبحان الله فعلا، وإذا قال الله تعالى بحق محمد رسول الله بأننا سخرنا له الأرض والسماء قالوا: المراد هنا هو التشبيه. كذلك إذا قيل بحق محمد رسول الله ﷺ إنه أحيي الأموات قال المشايخ: المراد هنا هم الأموات الروحانيون، ولكن إذا وردت الكلمات نفسها بحق عيسى عليه السلام فلا يهدأون ما لم يجعلوا الناس يقبلون أن عيسى أحيي الناس بالنفخ في مناخيرهم.

ذكر الجِنَّة

والآن أتناول الجِنّة بالذكر. ومن حسُن الصدف أنه يجلس أمامي الآن شخص يُعرف بقابض الجِنّة، ويجلس في يساري شخص يحاول باستمرار السيطرة على الجنّ. وأرجو أن يعفوا عني إن قلت شيئا يخالف طبعهما.

يتبين من القرآن الكريم أن هناك خَلقا يُسمّى جِنًّا، سواءً أكان خَلقا جيدا أو سيئا، ولا يسع أحد إنكاره. ليس السؤال هنا: هل يوجد مخلوق يسمّى جِنًّا أم لا. بل السؤال قيد البحث هو عن الجِنّ الذين كانوا مع سليمان، فالذي ذُكر في قصة سليمان عليه السلام أنه كان هناك جيشا متكونا من الجن وكانوا يأتون له بالأخبار وكانوا يشتركون معه في الحروب حتى ديست النمل أيضا تحت أقدام الجنّ. إذن، النقاش هنا هو عن الجنّ الذين كانوا حاضرين دائما والجيوش المتكونة منهم كانت تتحرك يمينا ويسارا دائما.

مجيء الجِنّ إلى رسول الله ﷺ

يجب أن نرى أولا وقبل كل شيء هل ورد ذكر الجنّ في القرآن الكريم بشأن سليمان عليه السلام فقط أو ورد عن نبي آخر أيضا أنه جاءه الجنُّ؟ فحين نقرأ القرآن

الكريم من هذا المنطلق نجد في سورة الأحقاف الآيات: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ* يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٣٠-٣٢)

أي إذا حضر الجنّ مجلسك قالوا لبعضهم، اسكتوا لنسمع القرآن الكريم جيدا. وعندما انتهت التلاوة عادوا إلى قومهم وشرعوا في نشر الإسلام وقالوا: يا قومنا سمعنا... يتبين من ذلك أن موسى كان نبيا صادقا وكل ما قاله كان من عند الله؛ فهذا الكتاب يدعو إلى الحق ويهدي إلى الصراط المستقيم...

يتبين من ذلك أن هؤلاء الجنّ كانوا قد آمنوا بالتوراة والقرآن ورسول الله ﷺ. إذن، لم يكن سليمان عليه السلام وحده رسولا آمن به الجنُّ، بل يثبت من القرآن الكريم أنهم آمنوا بموسى عليه السلام وبرسول الله ﷺ أيضا. ولكن الأسف كل الأسف على الذين يسردون عن جِنّة سليمان قصصا غريبة ويقولون إن سليمان كان يجلس على سجادة وكان يطلب من أربع من الجِنّة أن يمسكوها من جوانبها الأربعة وكانوا يطيرون به ليتنزه في السماوات. ولكن الجنّ الذين آمنوا في زمن رسول الله ﷺ لا يخبر المشايخ عنهم مطلقا بأنهم نصروه ﷺ على هذا النحو مع أنه ﷺ كان يسافر متكبدا صعوبات كبيرة. وفي كثير من الأحيان ما كان أصحابه رضي الله عنهم يجدون المطايا فكانوا يأتون النبي ﷺ باكين طالبين أن يدبّر لهم المطايا وهم جاهزون للخروج معه. وقد سافر الصحابة عدة مرات أسفارا طويلة حفاةً، ولكن ما لانت قلوب هؤلاء الجِنّة، قساة القلوب، ولم يساعدوه ﷺ قط على الرغم من مشاهدة معاناة وآلام تكبّدوها، أما في وقت سليمان عليه السلام فكان الجنّ يحملون الجيش كله ويوصلونه إلى مكان آخر، وأما في زمن النبي ﷺ فلم يفعلوا شيئا حتى ليحملوا بضعة من المهاجرين ليوصلوهم إلى ميدان الحرب.

دليل الذين لا يحملون هذه الكلمات محمل الاستعارة

يقول بعض الناس إن الجِنّ الذين آمنوا برسول الله ﷺ وموسى عليه السلام كيان غير الإنسان، ولكن بقي أن نرى هل يقبل القرآن الكريم هذا المعنى؟ فإذا كانت هذه الكلمة استعارة فلا بد أن يكون القرآن الكريم قد حلّها في آية من آياته الأخرى. وفي حال عدم قبولها استعارة ستصطدم آيتان وسيحدث الخلاف في القرآن الكريم. لذا يجب أن نرى هل يحدث الخلاف في القرآن الكريم في حال عدم قبولها استعارة أم في حال قبولها استعارة. إن الذين لا يحملونها محمل الاستعارة يقولون: إن شأن هذه الكلمة شأن كلمة "الشيطان" الواردة في القرآن. فكما أن المراد من الشيطان كيان يختلف عن الناس، كذلك الجِنّ كيان يختلف عن الناس، بينما يقول المفسرون بالإجماع عن: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ إن المراد من الشيطان هنا هم اليهود وزعماؤهم الكبار. إذن، إذا أمكن أن يكون الإنسان شيطانا فلماذا لا يمكن له أن يكون جِنًّا؟

كذلك يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٣) في هذه الآية بيّن الله تعالى بصراحة أن هناك شياطين الإنس. فإذا أمكن وجود شياطين الإنس فلماذا لا يمكن وجود شياطين الجنّ؟ أي كما يمكن أن يكون من الناس من يُسمَّون شياطين، كذلك يمكن أن يكون فيهم من يسمَّون جِنَّة. فتبين من القرآن الكريم نفسه أن الجنَّ ما كانوا تحت سيطرة سليمان عليه السلام فقط بل آمن الجنّ بموسى عليه السلام وبالنبي ﷺ أيضا.

لقد بُعث النبي ﷺ إلى الناس لا إلى الجِنّ

والآن نرى إلى من بُعث النبي ﷺ؟ يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ (النساء: ٨٠) وقد بيّن ﷻ في هذه الآية بكل صراحة أننا أرسلنا

محمدا رسول الله ﷺ إلى الإنس، ولو كان هناك خَلق غريب آخر غير الإنس يسمَّى جِنًّا وآمنوا به ﷺ لوجب أن يقال: "وأرسلناك للناس والجِنّ". ولكن الله تعالى لم يقل ذلك بل قال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ فلما كان النبي ﷺ قد بُعث إلى الناس فتبين بجلاء أنه كلما قيل بأن الجِنّ آمنوا به كان المراد هم جِنّ الإنس حصرا.

لقد ورد في القرآن الكريم عن موسى عليه السلام أيضا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ (البقرة: ٥٥) والحقيقة الثابتة هي أن الذين عبدوا العِجل كانوا بني إسرائيل لا الجِنُّ، مع أنه ثابت من القرآن أن الجِنّ آمنوا به. فثبت بكل وضوح أن المراد من هؤلاء الجِنّ كانوا جِنّ الإنس، وليس الجِنّ المزعومون بحسب أفكار عامة الناس. كذلك جاء في حديث عنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً. (سنن النسائي) هنا يقول النبي ﷺ على وجه القطعية إنه لم يكن من الأنبياء السابقين نبي إلا وقد بُعث إلى قومه فقط ولكن المسلمين يقولون بأن سليمان عليه السلام كان مبعوثا إلى الجِنّ والطيور. إذا كان سليمان عليه السلام قد بُعث إلى الجِنّ والطيور فعلا فهذا يعني أنه كان أعلى من رسول الله ﷺ درجةً، والعياذ بالله لأنه ﷺ كان مبعوثا إلى الناس فقط.

بعض الأدلة على كون الجِنّ أناسا

ثم إذا كان الجِنّ غير الإنس فكيف صاروا مخاطَبين؟ يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ (الأنعام: ١٢٩) أي عندما يُجمع الناس كلهم يوم القيامة سنقول مخاطِبين الجِنّ: يا حزب الجنّ، إنكم سيطرتم على معظم الناس.

لقد تعبنا في البحث عن الجِنّ بينما يقول القرآن الكريم بأن الجنّ مسيطرون على معظم الناس، مع أننا عندما نبحث عن الجن لا نجدهم. يردد الناسُ أورادًا ويقومون

بالمجاهدات وعندما يختلّ ذهنهم وحواسهم يقولون: ها قد جاء الجِنُّ، مع أن أذهانهم تكون قد اختلّت، ولا يأتي الجِنُّ إلى أي إنسان مطلقا حين تكون أذهانهم بخير وعلى ما يرام.

يقول الله تعالى في الآية المذكورة آنفا: "قد استكثرتم من الإنس"، أي أن لهم علاقات مع معظم الناس، وسيقول الناس أيضا إننا استفدنا منهم كثيرا. والآن تجوّلوا في حارتكم وقريتكم واسألوا الناس: هل يستفيد من الجنّ خمسون بالمئة أو واحد وخمسون بالمئة منهم؟ لن تجدوا شخصا واحدًا من المئة يقول إنه يستفيد من الجنّ وإن له علاقات مع الجِنّ. فتبين بجلاء أنه ليس المراد من الجِنّ هنا خَلقٌ سوى الإنسان، بل المراد هم جِنُّ الإنس، وعلاقات الصداقة بين جِنّ الإنس تلاحَظ بكثرة.

الدليل من القرآن على أن الجِنّ حزب من الناس

ثم هناك دليل أقوى من ذلك أيضا وهو أن الله تعالى سيقول يوم القيامة لأهل النار: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ (الأنعام: ١٣١)، قولوا الآن بالله عليكم! ما دام الله تعالى يقول إن بعض الجِنّ أيضا آمنوا بمحمد رسول الله، ويقول من ناحية أخرى إن رسولنا أيضا كان منهم، أفلا يثبت من ذلك بصراحة أن هؤلاء الجنّ كانوا أناسا وما كانوا كيانا غير مرئي؟ ثم لا ينتهي الأمر هنا بل- بعد القول السابق- يقول الله تعالى: ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الأنعام: ١٣١) أي أن موسى وسليمان عليهما السلام ورسول الله ﷺ كانوا يُنذرون الجِنّ أيضا، ويخوِّفونهم اللهَ ويومَ الآخرة، فثبت من ذلك بجلاء أن هؤلاء الجنّ كانوا جِنّ الإنس، كما هناك شياطين الإنس، وهم ليسوا خَلقا من نوع آخر.

لماذا لم ينصر الجنُّ المؤمنون رسولَ الله ﷺ؟

والآن اسمعوا أيضا: إنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ (الفتح: ٩-١٠) أي قد أرسلناك يا رسولنا

شاهدا على صفاتنا، ومبشرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين... فما دام الجِنّ أيضا آمنوا برسول الله ﷺ فهل لأحد أن يُثبت أنهم نصروا رسول الله ﷺ مرة؟ يأتي الجِنّ -كما يُشاعُ بين الناس- بالأعناب لشيخ بسيط وعادي، ولكنهم لا يأتون لرسول الله ﷺ حتى بكِسرة خبز، وكان ﷺ كثيرا ما يضطر لتحمل الفاقة عدة وجبات. ذات مرة شاهد الصحابة آثار الضعف على وجهه الكريم وظنوا أنه ﷺ جائع، فذبح صحابي شاة وأطعمه ﷺ وبعضَ الصحابة. ولكن الجنّ لم يسعفوه بأية مناسبة كهذه. أرى أن هؤلاء الجِنّ كانوا قساة القلوب جدا إذ لم يطعموا النبي ﷺ الذي آمنوا به خبزا أيضا، ولكنهم يطعمون المشايخ المعاصرين تفاحا وأعنابا! فكيف صاروا مؤمنين إذن؟ بل كانوا كفارا شديدي الكفر! الحق أن الفكرة القائلة بأن الجِن خَلقٌ مغاير للناس فكرة خاطئة تماما.

الجنّ الذين آمنوا برسول الله ﷺ كانوا أناسا، وظلوا ينصرونه كما نصره الناس الآخرون. ولو اعترفنا بكونهم خَلقا غريبا لكان من واجب القائلين بذلك أن يردّوا على سؤال: لماذا لم ينصروا رسول الله ﷺ قط مع أنهم كانوا قد آمنوا به، وأن القرآن الكريم أمرهم أن ينصروا رسول الله ﷺ؟

الإنسان هو المخلوق الوحيد المكلَّف بالإيمان بالشريعة

ثم هناك دليل أقوى مما سبق أيضا. يقول الله تعالى في سورة الأحزاب كقانون ثابت: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٣) أي عرضنا الشريعة والكلام على الخلق في السماوات والأرض وقلنا: هل من أحد يؤمن به ويعمل به؟ فقال الخلقُ السماوي كلهم بصوت واحد: لسنا قادرين على حَمِل عبء هذه الأمانة مطلقا. ثم عرضنا الأمر على الأرضين وقلنا لأهلها: هل تحملون هذا العبء؟ قالوا: كلا. ثم عرضناه على

الجبال، فرفضوا أيضا، مع أن الناس يقولون عادة إن الجِنّ يسكنون الجبال. ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي خاف الجميع ولم يتشجع أحد لحمل هذه المسؤولية، فتقدم الإنسان وحده وقال: كلِّفْني بالشريعة وسأعمل بها، وكان الإنسان ظلوما لنفسه وجهولا لأنه كان مشغوفا بحبنا وغير مبال بالعواقب. ولم يبال بكِبر العبء بل تقدم لحمله بكل شوق. انظروا الآن؛ يقول الله تعالى هنا بكل وضوح إن حامل الشريعة هو الإنسان وحده، وما من أحد مكلَّف بالشريعة سواه. فما دام الله كلّف الإنسان وحده بالشريعة فالسؤال هو: إذا كان الجنّ غير الإنس فمن أين جاؤوا ولماذا آمنوا برسول الله ﷺ وبالقرآن الكريم؟ ولو قُبل أنهم كيان غير الإنس لبطُل كلام الله تعالى لأنه يقول إن المخلوقات كلها سوى الإنسان رفضت العمل بهذه الشريعة. فما دام ثابتا من القرآن الكريم أن الجِنّ آمنوا برسول الله ﷺ فتبين بجلاء أن المراد من الجِنّ هنا هم جِنّ الإنس فقط، وليس المراد خَلق غير الإنسان، ولا أعترف بالجِنّ الذين يتلبّسون الناس.

يجلس أمامي الآن شخص كتب إلى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أن الجِن يأتون إلى أخته وهم جاهزون للإيمان بكم. فردّ المسيح الموعود عليه السلام عليه أن بلِّغ هؤلاء الجنّ لماذا تؤذون امرأة، بل اذهبوا بالحري إلى الشيخ محمد حسين البطالوي أو الشيخ ثناء الله وآذوهما إن كنتم فاعلين. ماذا تجنون من إيذاء امرأة مسكينة؟ لا شك أنه سيكون أناس كثيرون يعتقدون سلفا، نتيجة تأثير الثقافة الإنجليزية، أنه لا وجود لمثل هؤلاء الجِنّ، ولكن لا ينشأ أمام المؤمن سؤال: ماذا يقول عقله؟ بل السؤال أمامه هو: ماذا يقول القرآن؟ فإذا كان القرآن يقول إن الجِن من النوع المذكور آنفا موجودون فسنقول: آمنَّا وصدّقنا. أما إذا ثبت من القرآن أنه ما من مخلوق اسمه الجِنّ سوى الإنسان فلا بد لنا من قبول ذلك.

يُطلق الجنّ على الأقوام المتكبرة والزعماء أيضا

الحق أن بعض الأقوام تكون متكبرة جدا، ويظنون أنفسهم أعلى درجة من غيرهم. ولكن الله يأتي بصناديدهم أيضا على باب أنبيائه، لذا يسمّى هؤلاء الناس جِنًّا. لقد رُوي أن شخصا جاهلا اسمه "بِيرا" كان يسكن هنا في زمن المسيح الموعود عليه السلام. فلو أعطاه أحد بضع مليمات صبّ على طبيخه نصف زجاجة من زيت الكيروسين وأكله. وكان يجهل حتى أبسط الأمور الدينية، فسأله الخليفة الأول ذات مرة: ما دينُك؟ لزم الرجلُ الصمتَ ولكنه جاء بعد يوم أو يومين ببطاقة وطلب من حضرته أن يكتب إلى عمدة القرية. سأله حضرتُه: ماذا تريدني أن أكتب؟ قال: لقد سألتني عن ديني، وأريد أن أعرف من عمدة القرية خطيا ما هو ديني. كان الخليفة الأول رضي الله عنه يلح عليه دائما أن يصلّي الصلاة، ولكنه كان يقول: لا أعرف الصلاة، ولا أعلم شيئا سوى القول: سبحان الله، سبحان الله. وذات يوم قال الخليفة الأول رضي الله عنه لهذا الشخص "بِيرا": إذا صليتَ خمس صلوات جماعة في يوم سأعطيك روبيتين جائزة، فبدأ بالصلاة من صلاة العشاء في اليوم ذاته وكان عدد الصلوات الخمس سيكتمل عند صلاة المغرب في اليوم التالي. ولما كان عدد الضيوف القادمين قليلا نسبيا فكان طعامه أيضا يُجهَّز في بيتنا. عندما أُعدّ الطعام عند المغرب، نادته الخادمة من داخل البيت: يا "بيرا" تعال وخذ الطعام. وكان الرجل حينذاك في الصلاة وكانت صلاته الخامسة. ولكن الخادمة التي نادته لم تعرف أنه في الصلاة فظلت تناديه، فقال الرجل بصوت عال أثناء الصلاة: انتظري، سآتي بعد أن أكمل التحيات.

ذات مرة أرسله المسيح الموعود عليه السلام إلى مدينة بطالة لأمر ما، ولقيه هنالك الشيخ محمد حسين البطالوي الذي كان يسعى جاهدا ليمنع الناس من الذهاب إلى قاديان. ولكنه لم يجد أحدا في ذلك اليوم فأمسك بالسيد "بيرا" وقال له: يا

"بيرا" لماذا أنت جالس في قاديان؟ قال بيرا: يا شيخ، لست إنسانا مثقفا، غير أنني أعرف شيئا واحدا وهو أن حضرة المرزا جالس في قاديان والناس يأتونه من أماكن بعيدة متجشمين عناء السفر في عربات تجرها الأحصنة. أما أنت فتسكن في بطالة حيث يستطيع الناس الوصول إليك بسهولة ولكن لا يأتيك أحد، بل تأتي إلى محطة القطار كل يوم لتمنع الناس من الذهاب إلى قاديان، ولعل أحذيتك قد تمزقت في هذا السبيل، ولكن الناس لا ينصتون لك. فلا بد أن هناك أمرا ما حتى ينجذب الناس تلقائيا إلى حضرة المرزا وعلى أقدام الشوق، بينما لا يتوجه إليك أحد.

إذن، الجِن هم أناس لا يكادون يذعنون لأحد ولا يطيعون أحدا، ولكن عندما يقابلون الأنبياء تتغير حالتهم فجأة. خذوا مثلا سيدنا عمر ﵁ الذي ما كان مستعدا في البداية لسماع أي شيء عن الإسلام، لدرجة أنه تحمّس ذات مرة وسلّ سيفه وخرج من بيته بنية قتل النبي ﷺ، ولكنه عندما جاء إلى النبي ﷺ سقط على قدميه. إذن، بعض الناس يملكون طبائع نارية ولكنهم عندما يقابلون الأنبياء تبرد طبائعهم فورا. فأصحاب الطبائع من هذا القبيل يسمَّون جِنًا في اللغة العربية. كذلك يسمَّى كبار الناس جِنًّا لأنهم يبقون خافين عن أعين الناس بوجه عام، ويسكنون في بيوت كبيرة وفارهة ولا يقدر الناس الوصولَ إلى بابهم بسهولة.

ما المراد من النملة؟

والآن أتناول ذكر النملة وماهيتها. ليكن معلوما أنه قد جاء في القرآن الكريم: ﴿حتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٩).

والآن نرى ما المراد من النملة؟

أول ما يُثبت أن المراد من النملة ليس النملة (الحشرة المعروفة عندنا) هو أن سياق الكلام بأن الله تعالى علّم سليمان ؈ منطق الطير، ولكن الدليل الذي

قُدِّم على ذلك هو أنه عندما تكلّمت النملة فهِم سليمان كلامها. بينما لما كان الادعاء أن سليمان كان يعرف منطق الطير فكان من المفروض أن يقدَّم دليل أن بُلبُلا تكلم بمناسبة كذا وقال سليمان إن البلبل يقول كذا وكذا، ولكن الناس يقولون: عندما تكلمت النملة فهم سليمان كلامها مع أن النملة ليست طيرا. فإذا قلنا إن المراد من النملة هي الحشرة المعروفة يصبح هذا الدليل غير معقول، لأن ما يقوله القرآن الكريم هو إن سليمان كان يعرف منطق الطير وكان يفهمه، ولكن النملة هي التي تكلّمت وفهِم سليمان كلامها. إذن، أول ما يجدر بالتدبر هو: ما هي النملة؟

والأمر الآخر الجدير بالتأمل هو أن الفعل الوارد هنا هو: "حَطَم" ومعناه الكسرُ والهجوم بغضب. ولكن الناس يترجمونه بوجه عام: لئلا يدوسكم سليمان وجيشه. وهذا ليس بالمعنى الصحيح لكلمة "حطم". الحطم في العربية يعني الكسرُ، والهجوم بغضب وتوقُّد. (انظر لسان العرب)

وقد ورد أيضًا في القرآن الكريم أحد أسماء نار جهنم: ﴿الحُطَمَة﴾، لأنها تحرق. ولا يعني ذلك أن للنار أقداما وستدوس أهل الجحيم تحت أقدامها. إذن، معنى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ هو: لئلا يكسركم سليمان وجيشه أو يهاجمكم بغضب ويدمركم. السؤال الآن هو: هل يليق بسليمان عليه السلام -الذي كان نبيا عظيم الشأن ويملك جيوشا من الجِنّ والإنس والطير- أن يصب جام غضبه فقط على النملة، الحشرة الضعيفة؟ هل يُتوقع منه أن يعكف على الهجوم على النمل؟ لقد قلت آنفا إن ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يعني الدَّوس تحت الأقدام بل معناه هو كسرُ الشوكة والقوة، والهجومُ، لذلك-في العربية- تُسمى السنة الشديدة (أي القحط) حاطوما. (انظر لسان العرب) لأنها تكسر قوة الدولة. لو أخذنا هذا المعنى فيكون المراد أن النملة قالت لأخواتها أن ادخلن جحوركن لئلا يأتي سليمان وجيشه بالمعاول ويحفروا جحورنا ويُخرجوا منها الغلال، وهكذا يكسروا قوتنا. هل لعاقل أن يقبل هذا المعنى؟

الدليل الثالث الواضح والبيّن جدا هو أن جميع الصِيغ التي استخدمها الله تعالى هنا تُستخدَم للعاقل؛ فمثلا وردت كلمة" ادخُلوا"، بينما لخطاب النملة كان من المفروض أن تأتي "ادخُلي". كذلك ورد في "لا يحطمنّكم" الضمير "كُم"، بينما للنملة كان من المفروض أن يأتي الضمير "كِ". إذن، إن كلمات القرآن الكريم توحي بجلاء أن المذكورين هنا كانوا أناسا، فاستُخدم بحقهم الضمير "كُم"، و"ادخُلوا" وما شابه. أما ما قيل: "ادخُلوا مساكنكم" فهذا الأسلوب ثابت في الأحاديث أيضا. من القانون الثابت أنه إذا مرّ جيشٌ من مكان ودخل أهل المنطقة بيوتهم وأغلقوا أبوابها فيكون معناه أنهم قبلوا هزيمتهم. فقد أعلن رسول الله ﷺ عند فتح مكة أنه لا تثريب على الذين دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم. وهذا ما قالت النملة أنِ ادخلوا بيوتكم وأغلقوا أبوابها، وسيفهم سليمان عليه السلام أن هؤلاء لا يريدون مبارزته، أما لو بقينا في الخارج لأمكن أن يهاجمنا. فلما رأى سليمان عليه السلام هذا المشهد، ضحك وشكر الله على وصول خبر بِرّه وتقواه إلى أبعاد شاسعة، وهذا القوم الساكن بعيدا إلى هذا الحد يعرف أن سليمان لا يغزو ظلما وطغيانا. وقالوا: لو أغلقنا أبوابنا لما هاجمنا ولن يتضرر شيء نملكه.

البحث حول وادي النمل

أما العبارة "وادي النمل" فليكن معروفا إنه قد ورد في "تاج العروس" وهو قاموس عربي معروف: "وادي النمل بين جبرين وعسقلان". وقد ورد في "تقويم البلدان، ص٢٣٨" عن عسقلان ما معناه: كانت عسقلان من أكبر المدن على شاطئ البحر، وهي ميناء في فلسطين ملحقة بسيناء، وتقع على مسافة ١٢ ميلا جانب الشمال. ويبدو أن جبرين مدينة تقع إلى الشمال في ولاية دمشق. إذن، وادي النمل يقع على شاطئ البحر مقابل أورشليم أو قريب منها في الطريق من دمشق إلى الحجاز، ولعله يبعد عن دمشق بمئة ميل تقريبا. في تلك المناطق كانت تسكن قبائل كثيرة من العرب ومدين إلى عهد سليمان عليه السلام. (لتحديد المكان انظروا "خارطة فلسطين والشام"

بالعهد القديم والجديد، موسوعة نيلسن. أما "النملة" فقد ورد عنها في القاموس تحت "البرق": "والأبرقة من مياه نملة". أي أبرقة اسم واد، حيث توجد ينابيع قوم النملة. إذن، فقد وجدنا قوم النملة ووادي النمل أيضا، وتبين أن هذه المنطقة تقع في الشام قرب منطقة سليمان عليه السلام. والغريب في الأمر أن الأسماء من هذا النوع كانت معروفة جدا في غابر الأزمان. فمثلا في أمريكا الجنوبية كانت هناك أقوام بأسماء مثل: الذئب، الثعبان، العقرب وما شابهها. بل في بلادنا أيضا قوم اسمه "كاڈها" أي دُودة. كان في لاهور شخص معروف باسم نور الدين كاڈها. وكذلك هناك قوم اسمه يعني "الحشرات" أو "الديدان". وفي كشمير يسكن قوم اسمه في اللغة المحلية "هابت" ومعناه: الدُبّ. كذلك كان في منطقة يسكنها سليمان عليه السلام قوم اسمه "النملة".

مسألة خلق الطير

والآن سأناقش مسألة "الطير". الأمر الأهم من بين الأمور الجديرة بالذكر هو مسألة "خلق الطير". وقد ألقيت عليها الضوء في خطابي في الجلسة السنوية قبل العام الماضي. ولكنني سأعيده بإيجاز لإكمال الموضوع. يقول الله تعالى في القرآن الكريم في ذكر المسيح الناصري عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩-٥٠) ويقول في آية: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ (المائدة: ١١١) ... أي أذكر حين كنتَ تقترح بإذني خلقا - مثلما يخلق الطير- من أفراد ذوي خصلة طينية، ثم تنفخ فيه ويصبح قابلا للطيران بإذني.

إذن، فقد جاء في كلتا الآيتين ذكر "الطير"، ويجب أن نرى هل هذه استعارة أو حقيقة؟ لو أخذنا هذا التعبير على حقيقته وأدّى ذلك إلى بطلان آية أخرى لتبيّن أنه استعارة. فحين نقرأ آيات أخرى من القرآن الكريم من هذا المنطلق نجد آية جاء

فيها: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد: ١٧)

انظروا الآن، يقول الله تعالى في هذه الآية بكل وضوح أن الذين يُجعَلون شركاء لله- والذين يزعم الناس عنهم أنهم أيضا يملكون صفة الخَلق- فإن هذا الاعتقاد بحقهم تهمة بحتة، وأن الخلق الذي يقدر عليه اللهُ تعالى لا يسع أحدا أن يخلق خَلقا مثله. ولو قبِلنا أن المسيح عليه السلام كان يخلق الطير فعلا لبطلت آية سورة الرعد المذكورة آنفا. أما إذا كانت هذه الآية صادقة فلا بد من الاعتراف بالضرورة أن معنى خلق الطير الذي يفهمه الناس خاطئ تماما، ولا بد من القبول أن هذا التعبير استعارة، وإلا تبدو هذه الآيات متعارضة فيما بينها. والآن بقي سؤال: ما هو تفسيره؟

معنى "كهيئة الطير"

يجب أن يكون معلومًا بشأن شرح ذلك أن الكلمات الواردة في القرآن الكريم هي: ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، أي أنا أيضا أفعل كما تخلق الطير أفراخها. ولكن الناس استنتجوا منه معنى خاطئا وزعموا أن المسيح كان يخلق الطير. كل إنسان يعلم أن الطير يجلس على البيض ويفقسه بحرارة جسمه وتخرج من البيض أفراخ. فيقول عيسى عليه السلام بأني أيضا أجعل تحت جناح صحبتي أناسا يكون ماء الإلهام موجودا في طينتهم، فأجعلهم تحت أجنحتي، وأخلق فيهم روحانية، فيبدأون بالطيران إلى الله في غضون أيام قلائل.

انظروا الآن كم أصبح مضمون القرآن الكريم ساميا وكيف صار معناه رفيع المستوى! أين منه المعنى القائل بأنه عليه السلام كان يخلق الخفافيش وما شابهها! علما أن المسيح عليه السلام لم يقل في أي مكان في القرآن الكريم: إني أخلق الطير، بل قال: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، أي كما يفقس الطير البيض كذلك أربّي الناس، والذين توجد فيهم قدرة على التقدم يبدأون بالطيران. من المعلوم أن الطير يفقس بيضه إلى أربعين يوما على أكثر تقدير، بل تخرج الأفراخ منها أحيانا في مدة أقل من ذلك. ولعل

المسيح الموعود عليه السلام أعلن بناء على ذلك أن الذي ينكر معجزاتي فليمكث عندي إلى أربعين يوما، وسيريه الله تعالى معجزة حتما. فمن كان ذو فطرة سليمة يتصبّغ بصبغة النبي سريعا، ولكن كما أن البيضة ذات القشر القاسي تأخذ أربعين يوما لتفقس، كذلك لو مكث شخص ذو قلب قاس أيضا في صحبة نبي إلى أربعين يوما لرأى معجزة ما. لذلك نصح القرآن الكريم قائلا: ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩) أي يا أيها الذين فيكم ميل إلى الحسنة، ما زلتم مثل البيض ولم تصبحوا طيرا، فأتوا تحت أجنحة صادق ستصبحون طيورا في غضون أيام قلائل.

طُرفة

تحضرني طُرفة عن التعبير: ﴿تَشَابَهَ الْخَلْقُ﴾. يُروى أن المسيح الموعود عليه السلام قال لشيخ ناصحا إياه في ضوء هذه الآية: أين الطيور التي خلقها عيسى عليه السلام؟ كان حضرته عليه السلام يقصد من ذلك أنه قد يخطر ببال الشيخ أنه إذا خلق عيسى عليه السلام أيضا طيورا وخلق الله أيضا طيورا، فهذا يعني التشابه في الخلق، وهذا الأمر يخالف القرآن الكريم. فقال الشيخ: لقد اختلط كلا النوعين من الطيور مع بعضها.

التأمل من منطلق ترتيب المضمون

والآن أبيّن أن الآية نفسها تدحض المعنى الذي يستنتجه عامة الناس. يقول المسيح عليه السلام بحسب الآية: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٥٠) أمعنوا النظر في ترتيب الآية، ثم فكّروا هل ينطبق هنا معنى خلق الطير بأي حال؟ من الواضح تماما أنه ما من كلمة من كلمات القرآن الكريم تخلو من الترتيب. فلو افترضنا جدلا أن المراد هنا هو خلق الطير حصرا، فلا بد من التأمل هل يوجد في الآية أي ترتيب بعد قبول هذا المعنى؟ يقول بعض الناس إنه لا ترتيب في هذه الآية، ولكني سأثبت أن الترتيب موجود. والدليل على ذلك

أن هذه الآية وردت في مكانين، في سورة آل عمران وفي سورة المائدة. والترتيب في كلا المكانين هُوَ هُوَ. إذن، إن الاحتفاظ بالترتيب نفسه في كلا المكانين يدل على هدف معين. إننا نعتقد بالترتيب في كل آية من آيات القرآن الكريم. أما الذين لا يقولون بالترتيب فلا بد لهم أيضا أن يقبلوا الترتيب في هذه الآية في كل الأحوال وإن لم يقبلوه في آيات أخرى، لأنه قد ورد ذكر "خلق الطير" أولا، ثم ذُكر "الأكمه" ثم "الأبرص" ثم "إحياء الموتى". لم ترد الكلمات المذكورة بهذا الترتيب في آية واحدة بل في كلتيهما. ونلاحظ أنه يُهتَمّ في الترتيب بأمرين اثنين عادة، فتارة يُذكر الأمر الأصغر أولا ثم يُذكر أكبر منه ثم أكبر منه ثم الأكبر. وتارة أخرى يُذكر الأمر الأكبر ثم الذي دونه ثم الذي دونه ثم الأدنى. وفي كلا الترتيبين يُهتَمّ بفائدة المخاطَب، أي يُذكر الموضوع بأسلوب يسهل عليه فهمه.

والآن نلاحظ أنه إذا قبلنا معنى يستنتجه معارضونا فلا يتراءى أي ترتيب فيه، لأنه إذا قيل إن الأمر الأكبر ذُكر في الآية أولا ثم الأدنى فالأدنى، سيكون المعنى أن الأمر الأكبر هو خلق الطير، وإعطاء العميان عيونا أدنى منه، وشفاء المجذومين أدنى من إعطاء العميان عيونا، وإحياء الموتى هو الأدنى، مع أن كل شخص يعرف أن إحياء الموتى هو الأكبر. إذن، هذا الترتيب ليس صحيحا. أما إذا قبلنا أنه قد ذُكر الأمر الأدنى أولا ثم الأكبر فالأكبر، فهذا يعني أن الأسهل في العالم هو خلق الطير، وإعطاء العميان عيونا أصعب منه، وشفاء المجذوم أكثر صعوبة منه، والأصعب هو إحياء الموتى. ففي هذه الحالة يكون الأسهل هو خلق الطير. وإذا كان ذلك صحيحا فليخلق لنا المشايخ بضعة من الطير فحسب.

والمشكلة الثانية التي تظهر للعيان في حال أخذ هذا المعنى هي أن الله تعالى عدّ إحياء الموتى أدنى، وعدّ الخلق أكبر في آية أخرى، فيقول: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٩-٨٠) أي من عادة الإنسان أن يخوض في القيل والقال

بشأني وينسى خَلقَه ويقول: من يحيي العظام وهي رميم؟ يقول الله تعالى: إنكم تنكرون إحياء الموتى لأنكم لا تفهمون كيف تعود العظام الرميم إلى حالتها الأصلية، مع أن الذي خلقكم أول مرة لا يصعب عليه الخلق مرة ثانية. فقال ﷻ: قل لهؤلاء الناس إنه سيحيي العظام وهي رميم مَن خلقها أول مرة، وهو بكل خلق عليم. يتبين من هاتين الآيتين أن الله تعالى عدّ إحياء الموتى أدنى وعدّ الخلقَ أكبر. ولكن في حال قبول الترتيب المذكور يضطر المرء إلى القبول بأن الخلق أدنى وإحياء الموتى أكبر.

بالإضافة إلى ذلك، في حال قبول الترتيب المذكور يُعدّ شفاء المجذومين أصعب من خلق الطير، مع أن بعض المجذومين يُشفون بحقن الأطباء زيت نبتة شولموغرا (Chaulmoogra) في أجسام المرضى وطلي أجسادهم بزيتها. فكان من المفروض أن يبدأ خلقُ العصافير والحمام قبل شفاء هؤلاء المجذومين، مع أنه ما من أحد يقدر على خلقها. قد يقال إن هذا الترتيب يفيد المخاطَب، ولكن هذا أيضا ليس صحيحا؛ لأنه إذا كان المسيح عليه السلام يخلق عصفورا أمام يهودي فهل سيتأثر اليهودي بذلك أكثر أم بشفائه المجذوم والأعمى؟ فكان من المفروض أن يقدَّم ذِكرُ ما كان أكثر تأثيرا، ولكنه مذكور فيما بعد.

معنى خلق الطير وإحياء الموتى بحسب الترتيب القرآني

باختصار، المعنى الذي يأخذه المشايخ المعارضون لنا يتبين خطؤه أيا كان ترتيب الآية. ولكن لا يقع أي اعتراض على الترتيب بأخذ المعنى الذي نذهب إليه. نحن نستنتج من خلق الطير معنى خلقَ الناس الروحانيين. والحق أنه إذا سأل سائل: ماذا فعل المسيح الموعود عليه السلام؟ ورُدَّ عليه أنه خلق في العالم جماعة نشيطة، يقول الناس عادة: هذا ليس بأمر ذي بال، لأن خلقَ أناس روحانيين هو الأقل درجة في رأي عامة الناس، لذلك قُدِّم ذكره. ثم ذُكر شفاء الأكمه. لما كان ذلك شيء مادي ويراه كل واحد لذلك ذُكر فيما بعد. وما دام شفاء الأبرص أكبر من شفاء الأكمه لذا ذُكر الأبرص بعد الأكمه. ومعنى إحياء الموتى هو أن يُشرف أحد على الموت

تماما ثم يُحيي نتيجة الدعاء. صحيح أن مرض المجذوم والأبرص يكون شديد الوطأة ولكن تكون القوة قائمة، ولكن الذي انقطع نبضه ثم عاد إلى الحياة بدعاء نبي أو صالح فيكون ذلك معجزة عظيمة. ففي حال قبول المعنى الذي ذهبنا إليه يثبت الترتيب الحالي صحيحا تماما ولا يقع عليه أيّ اعتراض أبدا.

الهدهد لم يكن طيرا بل كان إنسانا

كذلك ذُكر الطير للمرة الثانية في سوانح سيدنا سليمان عليه السلام، حيث نقل الله تعالى قول سليمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ وليس المراد من الطير في هذه الآية الطيورُ من كل الأنواع، لأن:

١- لمّا غاب الهدهد عن مكانه غضب سليمان عليه السلام بشدة وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي ما دام الهدهد غائبا فسأعاقبه بعقوبة شديدة أو لأذبحنه وإلا فليقدّم دليلا على غيابه. قولوا الآن بالله عليكم: هل يتبين من القرآن الكريم أن الطيور عاقلة بحيث لو صدر منها خطأ لوجب على الإنسان أن يسل سيفه في وجهها ويقول لها: قدّمي عذرك وإلا قطعتُ عنقك؟ أو هل رأيتم يوما جاركم يمسك هُدهدا ويضربه بالعصا، ويقول له: لماذا أكلتَ حبوبي؟ وإذا رأيتم أحدا يفعل ذلك، ألا تحسبونه مجنونا؟ والذين ينسبون هذا الأمر إلى سليمان عليه السلام، أي أنه قال عن الهدهد كذا وكذا، فإنهم يصدرون الفتوى نفسها بحقه عليه السلام. بل يقول سليمان عليه السلام: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، أي فليقدم دليلا واضحا ومنطقيا. وهذا يعني أن الهدهد كان مطلعا على الأدلة أيضا مثل سقراط وأبقراط وأفلاطون، فكان سليمان عليه السلام يتوقع أن يقدم الهدهد أدلته.

٢- يقول القرآن الكريم: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾، ولكن ذهب وهله إلى الهدهد فقط، فقال: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾. من المعلوم أن الذي تكون قامته أقصر من خمسة أقدام لا يصلح للتجنيد في الجيش، ولكن سليمان

عليه السلام بدأ بتجنيدٍ غريب إذ كان الهدهد أيضا في جيشه. ثم إذا كان جيش من الهداهد موجودا عند سليمان عليه السلام لكان الكلام بهذا الشأن في محله. ولكن ما يقال هو إنه كان عنده هدهد واحد فقط. والسؤال هو: أية مهمة كان يمكن أن ينجزها هدهد واحد؟ وماذا كان الهدف من اصطحاب طير واحد؟

٣- يقول القرآن الكريم إن الهدهد أخبر بأمور كذا وكذا بعد عودته، والمعجزة التي ذُكرت إنما هي أن سليمان كان يعلم منطق الطير. الحق أنه كان من المفروض أن تُذكر هنا معجزة سليمان عليه السلام ولكن ما ذُكر هو معجزة الهدهد وهي أكبر من معجزة سليمان! وأضف إلى ذلك أن معرفة منطق الطير ليس خاصا بسليمان عليه السلام، بل الحق أن جميع الصيادين يفهمون منطق الطير.

٤- الأمر الآخر هو أن الهدهد ليس من فئة الطيور سريعة الطيران والتي تقوم بأسفار طويلة إلى هذا الحد. بل الهدهد يموت حيث يولَد. ولكن القرآن الكريم يقول -كما يُفهم- بأن الهدهد طار من الشام وظل يطير إلى ثمان مئة ميل إلى أن وصل إلى مُلك ملكة سبأ وجاء بالخبر من هنالك. هذا يعني أن الهدهد كان أسرع طيرانا من الطائرات الموجودة حاليا. وصاحب المعجزة كان الهدهد وليس سليمان، بينما كان المطلوب هو البيان أن سليمان عليه السلام أظهر معجزة.

٥-كذلك تُذكر معجزة ثانية للهدهد أنه كان مطّلعا على أسرار دقيقة للشرك والتوحيد، وكان عارفا بالمسائل التي لا يعرفها حتى المشايخ المعاصرون. فما أجمل فكرة التوحيد التي بيّنها الهدهد إذ قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ثم انظروا إلى غيرته الدينية! المشايخ المعاصرون لا يتصدون للوثنية وإن كانت تمارَس في جوارهم، ولكن الهدهد يسعى في كل حدب وصوب ويخبر سليمان عليه السلام أن الشرك يمارَس في مكان كذا، والوثنيةُ تمارَس في مكان كذا.

٦- ثم كان الهدهد عارفا بأمور السياسة أيضا إذ يقول: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أن ملكة سبأ تتحلى بكافة صفات إدارة المُلك وعندها لوازم الحكومة كلها. وكأنه عاد بعد أن فحص كنوزها وفروع الدولة كلها وقدم تقريرا أنها تملك كل ما تكون الحكومة بحاجة إليه.

٧- كان الهدهد مطلعا جيدا على الشيطان ونشاطاته أيضا لأنه قال ما مفاده: أعرف أنه إذا نشأت العلاقة بين الإنسان والشيطان تتطرق الأفكار السيئة إلى الأذهان. بل كان مطلعا على نتائج تلك الأفكار أيضا إذ يقول: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي إن هذه الأفكار تؤدي إلى الصدأ على قلب الإنسان فيبتعد عن سبيل قرب الله تعالى. إذن، كان هذا الهدهد عالما كبيرا! لو عُثر على هدهد مثله اليوم فينبغي تعيينه مفتيا.

٨- بقي الآن أمر واحد وهو أنه كان عارفا بحقيقة عرش الحكومة أيضا معرفة جيدة، إذ يقول لسليمان إن ملكة سبأ تملك عرشا لا تملكه أنت، فكأنه يطمِّعه ويحرضه على الهجوم عليها.

لم يكلَّف بالشريعة إلا الإنسان

إذن، كل الأمور المذكورة آنفا توحي بأن الهدهد لم يكن طيرا، لأنه قد ورد في القرآن الكريم بكل جلاء أن الأمانة- التي لم يستطيع الملائكة تحمّلها ولم يستعد لتحمّلها أي شيء في السماوات والأرض- قد حملها الإنسان الذي كان عارفا بأسرار شريعتنا. الملاك يفهم شيئا واحدا فقط وهو الحسنة، ولكن الإنسان يعلم السيئة والحسنة كلتيهما ويستوعب الظروف كلها جيدا. يقول المفسرون إن الهدهد كان حيوانا مع أن الآية التي ورد فيها: ﴿حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ موجودة، ويتبين منها بوضوح تام أنه ما من مخلوق يحمل أسرار الشريعة إلا الإنسان. فلما كان الهدهد عارفا بأسرار الشريعة فلا بد أنه كان إنسانا لا طيرا.

أنواع الطير المختلفة

والآن نرى هل توجد في القرآن الكريم إشارة إلى الطير أم لا؟ فحين نقرأ القرآن نجد أن الطيور عدة أنواع. يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ لَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣٩) هنا نرى أن الله تعالى قد وضع للطيور شرطا: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي الطيور التي تطير بجناحين، فيتبين من ذلك أن هناك طير لا يطير بأجنحة.

ثم نجد آية أوضح منها أيضا ويتبين منها بجلاء أن الطير اسم لشيء آخر في الحقيقة. يقول الله تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (النور:٤٢) أي ألا تعلم أن كل من في السماوات والأرضين من ذوي العقول يسبحون الله تعالى. والطيور من هؤلاء ذوي العقول يعبدون الله صافين. وكل واحد من هذه الأحزاب يعرف طريق صلاته وتسبيحه، والله تعالى أعلم بكافة أعمال ذوي العقول هؤلاء. فهنا توجد ثلاث أدلة على أنه ليس المراد من الطير هنا هم الطيور المعروفة.

الأول: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لماذا أخرج الله "الطير" من هذه الجملة وذكره على حدة؟ وليكن معلوما أن كلمة "مَن" تُستخدم لذوي العقول دائما ولا تُستخدم لغير ذوي العقول. فلماذا أخرج الله "الطير" فقط من الجملة؟ ولماذا لم يذكر الجنّ والمخلوقات الأخرى على حدة؟ ألا يثبت من ذلك بجلاء أن الطير المذكور في الآية كيان منفصل؟

ثم يقول ﷻ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، مع أنه لم يُذكر في القرآن الكريم كله أن الطيور أيضا تصلّي الصلاة ولكن الله يقول إنها لا تسبّح فقط بل تعرف الصلاة أيضا وتصلّي صافّاتٍ. وقال ﷻ في الأخير: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ والمعلوم

أن صيغة "يفعلون" تُستخدم لذوي العقول. هل رأيتم مرة طيور تصلّي صافات؟ الطيور من هذا النوع في العالم كله هم المسلمون دون غيرهم. إن استخدام كلمة: "مَن" وإيراد ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، وذِكر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يوحي بجلاء أن المذكورين هنا هم أناس، ولا سيما المؤمنون الذين يصلّون جماعة.

لماذا أُطلق "الطير" على المؤمنين

السؤال الآن هو: إذا كان المراد من الطير هنا هم المؤمنون فلماذا أُطلق عليهم "الطير"؟ الجواب هو أن نتيجة أعمال الإنسان تُسمَّى في العربية "طيرا"، وهذا مذكور في آية أخرى في القرآن الكريم، فيقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٢) أي عندما تصيبهم فرحة وتحل بهم فترة مِن السعادة يقولون: هذا حقّنا. وإذا أصابهم إيذاء قالوا: هذه نتيجة نحوسة موسى وأصحابه. ولكن الله تعالى يقول: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ أي إن طائرهم (أي عملهم الذي يكسبونه) مسجلٌ عند الله. يقولون إن العذاب حلّ بنا بسبب موسى وأصحابه، ولكن الله تعالى يقول إن طائركم موجود عندنا. لا تبدو في هذين الأمرين علاقة ظاهريا، لذا يقول أصحاب المعاجم أن معنى الطير هو أعمال الإنسان أيضا. فيقول الإمام الراغب: "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" أي عمله الذي طار عنه من خير وشر". (المفردات في غريب القرآن) وجاء في أقرب الموارد: "عمله الذي قُلّده وطار عنه من خير أو شر".

ثم يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (النمل: ٤٨) أي عندما جاء صالح إلى قوم ثمود قالوا إننا قد دُمِّرنا بسبب نحوسة أعمالك السيئة وأعمال أصحابك. كما يقول الناس اليوم بأن الطاعون والأوبئة الأخرى أتت بسبب نحوسة حضرة المرزا. يقول الله تعالى إن نبيّهم رد عليهم قائلا: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

ثم يقول الله تعالى في سورة يس بعد ذكر ثلاثة رسل: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ (يس: ١٩-٢٠)، أي حين جاءهم الرسلُ المصلحون قالوا إننا نتحمل مصائب جمّة بسببكم أنتم، ونحسب مجيئكم نحوسة... فقال الرسل: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي حيثما كنتم ستهلككم مغبةُ سوء أعمالكم، ولا يمكن أن نضركم شيئا. وهل تقولون ذلك لأننا نذكّركم بأعمال حسنة؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ لذا ستواجهون مغبة أعمالكم حتما. انظروا الآن، فقد استُخدمت كلمة "طائر" في هذه الآية أيضا وجاءت بمعنى القوة العملية ونتيجة الأعمال. والآن لنرى ما هي حقيقة استخدام هذه الكلمة، وما نسبتها مع الإنسان؟ فحين نتأمل في هذا السؤال، نجد في سورة الإسراء آية تقربنا إلى الموضوع قيد البحث حيث يقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٤-١٦)

لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية معنى جميلا لكلمة "طائر"، وقال إن طائر كل شخص مربوط بعنقه. ولنر ما معنى ذلك. فلما أخبرنا الله تعالى أن هذا الطير مُلزَم بعنق كل إنسان مع أنه من المعروف أنه لا يوجد طائر مادي مربوط بعنق أحد. فتبين بجلاء أن المراد من الطائر هنا هو شيء آخر غير الطير العادي المعروف، وهو ليس إلا أن الله تعالى أطلق "الطائر" على قوة الإنسان العملية ونتيجة عمله. أي الأعمال التي يكسبها الإنسان تأخذ صورة الطائر رويدا رويدا. فإذا كسب الإنسان أعمالا صالحة تطير بصاحبها إلى سماء الروحانية، كما تطير الطائرة بالمسافرين في جو السماء. ولو كانت أعماله سيئة لكان الطائر ضعيفا، وبالنتيجة سيهبط الإنسان إلى الأسفل بدلا من الطيران إلى الأعلى. إذن، يبين القرآن الكريم مضمونا أننا ألزمنا

كلَّ شخص طائره، فإذا كسب أعمالا صالحة طار به طائره إلى الأعلى، وإلا فسيُهبطُه إلى الدرك الأسفل. كذلك بيّن سيدنا رسول الله ﷺ الموضوع نفسه كما يلي: "ما من مولود إلا يولَد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه. معنى ذلك أن الإنسان يملك قوة على الطيران، وقد أُعطي أجنحة لهذا الغرض. وقد بُيِّنَ الموضوع نفسه في: ﴿كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ بمعنى أنه عندما يولد مولود يُخلق معه طائره أيضا. ولكن بعض الوالدين يخنقونه، أما الذين يجتنبون هذا الوضع يجدون فرصة الطيران. وبسبب الأعمال الصالحة يظل طائرهم (أي سعادتهم الفطرية) في تقدُّم. فيقول الله تعالى في سورة فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (فاطر: ٢) ثم يذكر ﷻ الناس ويقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (فاطر: ١١) أي قد علمتم أننا خلقنا عدة أجنحة لتقدم الملائكة، ولكن أيها الناس اعلموا أن فرص التقدم متاحة لكم أيضا، بل تستطيعون أن تسبقوا الملائكة أيضا إذا شئتم. فمن أراد منكم أن ينال العزة فليعلم أن العزة كلها بيد الله، وإليه تصعد الأرواح الصادقة والطيبة، و﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، أي مَن تيسر له كلام الله نال التقدم. ولكن لا يقتصر الأمر على الكلام وحده بل: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي هو بحاجة إلى سند الأعمال الصالحة. إذن: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ طائر، ولكنه لا يستطيع أن يطير وحده بل يصعد بمساعدة الأعمال الصالحة. كذلك يصبح له جناحان، وبمساعدتهما يغدو قادرا على الطيران إلى سماء الروحانية.

والآن نرى أن في الطائر مزيتين، إحداهما أنه يطير عاليا في الجو، وثانيتهما أن عشه يكون عاليا دائما. والطيور التي تعيش في الأعشاش تبنيها على أغصان الأشجار، أما التي تعيش بغير عش فهي أيضا تحط على الأشجار ولا تجثم على الأرض. وقد قيل في القرآن الكريم إن المؤمنين يتحلون بهاتين المزيتين نفسهما. يقول

الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١٢) أي اسعوا أيها المؤمنون لتلبية نداء النبي أو خليفته إذ ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، إذن فقد ورد ذكرُ ميزة الطيران في المؤمنين أيضا.

ومزية الطير الثانية هي أنه يصنع عشه عاليا دائما. ووجود هذه المزية نفسها مذكور في القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (النور: ٣٧-٣٨). أي هذا النور ملحوظ في بيوت...، ولكن لا نقصد هنا البيوت بل المراد هو رفع الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة.

باختصار، فقد ذُكر أن مزيتَي الطيور موجودتان في المؤمنين أيضا، وقيل إن العمل الصالح يطير بالمؤمن إلى الله تعالى. وقد جاء في الأحاديث أيضا أنه عندما يموت مؤمن يرفع الملائكة روحه إلى السماء ويقولون: افتحوا الأبواب، فها قد جاءت روح مؤمنٍ. وعندما يموت كافر لا تُرفع روحه بل تُرمى في الحضيض.

باختصار، إن المراد من الطير هي الأرواح ذات المراتب العليا والمستعدة دائما للصعود على قمم عالية من أجل الدين ولا تبالي بالمشاكل ولا تهاب المصائب والمصاعب بل تكون دائمة الاستعداد لتقديم كل نوع من التضحيات. ذات مرة قال صحابي للنبي ﷺ في غزوة بدر: مُرنا يا رسول الله، فنحن مستعدون لأنْ نخوض البحر بخيولنا ولن نتردد في ذلك أدنى تردد وسنعمل بأمرك دون أن نفكر لماذا تأمرنا بذلك. فبإطلاق كلمة الطير على المؤمنين ذكر الله تعالى المواهب التي توجد في المؤمنين وقال بأنهم يختارون حياة عليا ولا يختارون حياة أدنى، ويطيرون إلى الأعلى بدلا من الجثوم في الأسفل.

البحث عن الهدهد من منطلق التاريخ

والآن بقي سؤال: لماذا ورد في القرآن الكريم اسم "الهدهد"؟ لقد أجبت عليه من الناحية العقلية ولكني أبين الآن ما المراد من الهدهد؟

عندما نقرأ كتب بني إسرائيل للبحث عن الهدهد ونتأمل هل ذُكر فيها أيّ هدهدٍ أم لا؟ نجد أن اسم "هُدَد" كان شائعا بكثرة في اليهود في زمن سيدنا سليمان عليه السلام، ثم تحول من العبرية إلى العربية وصار "هُدهد". كما يقال في العبرية: "إبراهام" ولكن عندما تحول هذا الاسم إلى العربية صار "إبراهيم". كذلك يقال في العبرية "يسوع" وفي العربية "عيسى". يقال في العبرية "موشي" وفي العربية يُلفَظ الاسم نفسه "موسى". فمثلا إذا طُلب من عربي أن يلفظ "لكهنؤ" لن يقدر على لفظها بشكل صحيح بل سيلفظ "لكهناؤ". فقد قيل في العبرية "هُدَد" ولكن ما دام القرآن الكريم بالعربية فتحول الاسم نفسه إلى "هُدهد".

الحق أنه يتبين من إمعان النظر في التاريخ أن "هُدَد" كان اسما لكثير من الملوك الأدوميين، ومعناه: "الضجة الكبيرة". ومعنى "الهدُّ، والهَدَد" في العربية هو "الصوت الغليظ". (لسان العرب)

يبدو أن الناس كانوا يسمون الولد ذا الصوت الغليظ هُدَد أو هُدهد. كان هذا الاسم للملك الأدومي الثالث الذي هزم مَدْيَن. كذلك كان الاسم نفسه للملك الأخير. كما كان اسم أحد أبناء إسماعيل عليه السلام هدد.[1] ورد في (الكتاب المقدس، سِفر الملوك الأول، الأصحاح ١١، العبارة ١٤) أن اسم أمير في عائلة أدوم كان "هَدَد" هكذا ورد الاسم في أشهر الترجمات العربية الذي هرب إلى مصر خشية مجزرة يوآب. وورد في الموسوعة اليهودية أنه – في العهد القديم- إذا ورد هذا الاسم

---

[1] انظر أخبار الأيام الأول ١: ٣٠، وورد فيه هذا الاسم بالحاء (حدد) وليس بالهاء. (المترجم)

وحده دون أن يكون معه فعْل أو لفظ كصفة، فمعناه: شخص من عائلة أدومية. إذن، إن هُدَد هو اسم عبري وقد تحول في العربية إلى هُدهد. وحين يكون المفسرون مولَعين بجعْل تفاسيرهم شيّقة فإنهم يوردون في تفاسيرهم أحيانا قصصا سخيفة أيضا. ومثال ذلك أن كلمة "ضبّ" اسم سحلية معينة في العربية، وكان "ضبّ" اسم رئيس قبيلة عربية أيضا -كما هناك اسم معروف في الهندوس هو "طوطا رام" (أي السيد ببغاء)- جاء هذا الرئيس إلى النبي ﷺ ذات مرة وأنشد قصيدة في مدحه ﷺ. ولكن في كتب الوعظ نُقل هذا الحادث كقصة أن رسول الله ﷺ كان ذاهبا في طريقه فأنشد الضبُّ- الحيوان- قصيدة في مدحه. إذن، إن الذين اخترعوا قصة أن حيوان الضب أنشد قصيدة في مدح النبي ﷺ هل يصعب عليهم تحويل الإنسان المسمى "هدهد" إلى طير؟

باختصار، لقد استُخدمت الاستعارة والمجاز في عدة آيات في القرآن الكريم. ولكن ما دام القرآن شريعة دائمة، لذا وضع إلى جانب ذلك آيات محكمة أيضا لا تسمح بأن يُستنبَط منها معان أخرى. وإذا حُصرت الاستعارة في حدود الاستعارة استقام معناها، ولكن إذا أُلبست الاستعارة معنى الحقيقة سيحدث تعارضٌ بين آيتين.

باختصار، إنها لمعجزة عظيمة للقرآن الكريم بحيث لا يمكن لكتب إلهامية أخرى أن تبارزه فيها أبدا. من المؤسف حقا أن المسلمين تعثروا على الرغم من حيازتهم كتابا عظيما مثل القرآن الكريم، واخترعوا قصصا عجيبة وغريبة. فالذين يقصون قصة النملة يقولون بشأنها إن سليمان عليه السلام سأل النملة التي لقيته: هل رأيتِ شخصا أكبر مني؟ قالت: لا، يبدو جيدا أن تجلس أنت على العرش وأجلس أنا على الأرض، فأولا يجب أن تُجلسني بجانبك ثم سأرد على سؤالك. فأجلسها سليمان على العرش، فقالت: لا زلتُ في مكان منخفض، فارفعني أكثر. فرفعها سليمان على يديه. ثم قالت: لستَ أنت بأكبر، بل أنا أكبر لكوني جالسة على يد سليمان. باختصار، كتب هؤلاء طرائف عجيبة تثير ضحك السامع.

لا شك في أن الاستعارات استُخدمت في الكتب السابقة أيضا، ولكن حل تلك الاستعارات لم يكن موجودا في تلك الكتب نفسها. ومقابل ذلك توجد في القرآن الكريم أيضا استعارات، ولكنه قدّم معها حلّها أيضا بحيث إذا تعثّر أحد فيقدر العالم بالقرآن الكريم على شرح الموضوع له.

باختصار، إن القرآن الكريم حائز على عظمة لم تحصل لأي كتاب في العالم. وإذا كان أحد يدّعي أن كتابه الديني أيضا حائز على هذه الأفضلية فأنا أتحداه أن يبارزني. فليبارزني أحد من أتباع الفيدات إن استطاع، وإذا كان أحد يتّبع التوراة فليبارزني، وإذا كان أحد من أتباع الإنجيل فليبارزني، وليعرض عليّ استعارة وردت في القرآن الكريم أحسبها أنا أيضا استعارة، وإن لم أستطع أن أقدّم حلها من القرآن الكريم نفسه فله أن يكذّبني في إعلاني هذا، وأما إذا قدّمت حلّها فلا بد له من الاعتراف بأنه ليس في العالم كتاب سوى القرآن الكريم يتحلى بهذه المزية الفريدة.

لقد بيّنت إلى الآن ثمانية أو عشرة أمور فقط عن أفضلية القرآن الكريم، ولكنني أرى أنه يمكن تقديم ثلاث مئة دليل أو أكثر تُثبت أفضلية القرآن الكريم، ولا يمكن أن تقاومها حتى الكتب الإلهامية ودونها مؤلفات البشر، ولكن بيانها ليس بوسعي... لقد كثرت الأشغال إلى درجة كبيرة، وإن صحتي أيضا معتلة، وبالنظر إلى هذا الوضع يبدو إتمام هذا الأمر مستحيل في بادئ الرأي.

والآن أنهي خطابي وأوجه أنظاركم أيها الإخوة إلى أنكم حضرتم الجلسةَ وسمعتم الخطابات وانتهت الجلسة. ويجب أن تكون هناك فائدة من المجيء إلى هنا وسماع الخطابات، وإلا فالعودة إلى البيوت صفر اليدين ليست إلا إضاعة الأوقات والأموال. فاستفيدوا من الجلسة السنوية. وبالنظر إلى الموضوع الذي بيّنته هذه المرة حاولوا أن تكونوا طيورا وتنشأ فيكم كمالات الهدهد. إذا كان شخص من أمة سليمان اسمه هُدهد يستطيع أن يُنشئ في نفسه كمالات إلى درجة أنه يطّلع على أسرار التوحيد الدقيقة، ويطلع على أمور السياسة بحيث يكون سليمان عليه السلام في الشام ولكن الهدهد يأتي إليه

بأخبار اليمن ويقول: يجب القضاء على الشرك المنتشر هنالك، مع أن سليمان كان مبعوثا إلى قوم معين فقط، فكم سيكون مخجلا للقوم الذين أمرهم الله تعالى أن ينشروا دعوته في العالم كله، إن لم يكن في قلوبهم مواساة لدينهم! لعل الله تعالى سرد هذه القصة ليخجل المسلمون بقراءتها، وأخبر أن مَثل أمة سليمان ﷺ مقابل أمة سيدنا محمد رسول الله ﷺ هو كمَثل الهدهد مقابل الصقر. فما دام الهدهد قادرا إلى إراءة الكمالات فلا يخفى على أحد كمالات يجب أن يخلقها الصقور في أنفسهم.

فيا صقور محمد رسول الله ﷺ، أنشئوا في أنفسكم القوةَ وحماس الإخلاص. طِيروا إلى السماء لأن إلهكم موجود في الأعلى. لا تنظروا إلى الأسفل ولا تتوجهوا إلى سفاسف الأمور لأن الله تعالى يريد أن يجعلكم طيورا. كم من أمور بسيطة تجعلكم عرضة للابتلاء! فيحدث نزاع على شيء بسيط مثل: لماذا لم أُعطَ هذا المنصب أو ذلك، ويتعثر أحد على عدم تعيينه سكرتيرا للجنة معينة. هذا يعني أن نظرة مثل هؤلاء الناس متجهة إلى الأسفل دائما مع أن الله تعالى يريد أن يجعلكم "طيورا". يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾. والآن قولوا بالله عليكم، إذا كان شيء مربوطا في عنق المرء فهل يمكن أن يتجه عنقه إلى الأسفل؟ بل سينظر هذا الشخص إلى الأعلى دائما. إذن، فقد أشار الله تعالى في هذا الآية إلى أن تجعلوا نظركم متجها إلى الأعلى لأنكم مسلمون، والمسلم لا يضاهيه أحد في العالم.

فاستفيدوا من وعظي هذا ونصيحتي، وعندما تعودون إلى بيوتكم عودُوا إليها بنية وعزيمة أنكم لن تصبحوا فئرانا وسحالي بل ستكونون "طيورا" تطير في الأجواء وستحاولون سماع صوت ربكم.

التضرع في حضرة الله

والآن أدعو الله تعالى، وادعوا أنتم أيضا لأنفسكم ولأقاربكم، لأن الدعاء من هذا النوع يكون جامعا. وادعوا لعامة الأحمديين ليتقدموا روحانيا، ولغير الأحمديين ليهتدوا،

ولأهل مدنكم ولأقاربكم ولجيرانكم، ولأهل وطنكم. وادعوا خاصة للجماعة أن يخلق الله في أفرادها التقوى الحقيقية والورع والتقدُّس إذ لا معنى لحياتنا إن لم نكن نموذجا عمليا للإسلام. فادعوا الله تعالى أن يخلق في قلوبنا حبا يفتر مقابله كل حب آخر، ولا يتراءى لنا إلا ذلك الحب في كل مكان. وإذا أحببنا أزواجنا فليكن لوجه الله، وإذا أحببنا أبوينا فلوجه الله، وإذا أحببنا أنفسنا وأموالنا فابتغاءً لوجه الله. فليكن مَثلنا كمَثل سيدنا عليّ رضي الله عنه الذي عندما سأله ابنه الإمام الحسن ذات مرة: هل تحبني؟ قال رضي الله عنه: نعم. ثم سأله: هل تحب اللهَ عز وجل أيضا؟ قال: نعم. فردّ الإمام الحسن رضي الله عنه على ذلك: أليس هذا شركا إذ تشركني في حب الله؟ فقال عليّ رضي الله عنه: يا بُنيَّ! هذا ليس شركا، لأنه إذا جاء حبُّك مقابل حب الله فسأضرب بحبك عُرض الحائط.

فادعوا الله تعالى أن يرزقنا حبَّه، وإذا كان في قلوبنا حبّ أحد سواه فليكن ابتغاء لوجه الله وليس مستقلا عنه. وفقنا الله لكسب الأعمال الصالحة، وجنّبنا الدناءة والخسَّة وهبوط العزيمة، ووسع أفكارنا وبارك في مساعينا وتضحياتنا، ووفقنا لنستمر في العمل ليل نهار لنشر الإسلام دون أن نفكّر أننا فعلنا شيئا. ووفقنا بفضله لِنَذر زينة الحياة، وأخرج من قلوبنا الطمع ونَزْعة الظلم وسوء الظن بإخواننا والبحث عن عيوبهم والقدح فيهم. جنَّبَنا الله كل عيب وفساد، وخلق فينا الرحمة ورزقنا علم القرآن، ووفقنا لتلاوته وفهمه والعمل به، وأنشأ في قلوبنا حب كلامه ليصبح كلامه غذاء روحنا. أُدعوا الله تعالى أن يخلق في قلوبنا نورا وفي أعيننا نورا وفي آذاننا نورا وفي أذهاننا نورا وفي أيدينا نورا وفي أقدامنا نورا، وليكن بين أيدينا نور وخلفنا نور، وعن يميننا نور وعن يسارنا نور، وفي داخلنا نور وفي خارجنا نور حتى نصبح نورا كاملا. جنّبنا الله الظلام والظلمة، وبوّأنا في ملاذه، وأنقذنا من هجمات جميع الأعداء، وفتح علينا أبواب فضله، وزكّى قلوبنا ليقع عليها ظلّ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصبح عباده عز وجل الذين يقول عنهم: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٣٠-٣١).

ثم ادعوا للدعاة العاملين في خارج البلاد أن يبارك الله ﷻ في مساعيهم التي يبذلونها لحماية الجماعة وتقدمها، ويبارك في أعمالهم القليلة، ويضع في لسانهم تأثيرا وفي قلوبهم عزيمةً، وأن تموج في قلوبهم كيفيات حب الله تعالى، وأن تكون حياتهم مقبولة عند الله.

ثم ادعوا الله تعالى أن يطهّر أجيالنا القادمة وألا تنتقل إليهم عيوب توجد فينا، بل يرثوا ما فينا من المزايا والحسنات. آمين، ثم آمين.

بعد الخطاب أمَّ حضرته دعاء جماعيا طويلا وانتهت هذه الجلسة المباركة.